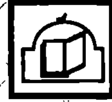
تذكرة الأعيان



يحتوي على ترجمة
لفيف من أعيان المتكلمين والفقهاء
وعلى مباحث هامة

تأليف
العلامة المحقق
جعفر السبحاني

مؤسسة
الإمام الصادق (ع)
إيران - قم



تذكرة الأعيان

يحتوي على ترجمة

لفيف من أعيان المتكلمين والفقهاء

وعلى مباحث هامة

تأليف

العلاّمة المحقّق

جعفر السبحاني

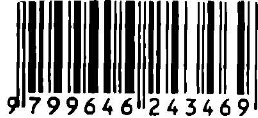
٠ ـ ٤٦ ـ ٦٢٤٣ ـ ٩٦٤ : شابك
ISBN: 964 - 6243 - 46 - 0

تذكرة الأعيان

العلاّمة المحقّق جعفر السبحاني



المطبعة: اعتماد . قم
الطبعة: الأُولىٰ
التاريخ: ١٤١٩هـ
الكمية: ٢٠٠٠
صف واخراج ونشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام



توزيع
مكتبة التوحيد
قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ٧٤٣١٥١ و ٩٢٥١٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي فضل مداد العلماء على دماء الشهداء، وجعلهم ورثة الأنبياء، ومصابيح الهدى في اللجج الظلماء. والصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمّد وآله الأتقياء.

أمّا بعد:

فقد بعث النبي ﷺ بشريعة بيضاء متكاملة الجوانب أُنيطت بها سعادة البشر في آجله وعاجله، فبقاؤها واستمرارها كظهورها رهن عوامل ساهمت مساهمة فعالة، أبرزها الدور الذي قام به أئمّة أهل البيت عليهم السلام من خلال تربية طليعة واعية أخذوا الشريعة من منهلها العذب ومعينها الصافي ونشروها في الأُمّة بغية صيانتها عن الزوال والاندثار، وقد تلتهم طبقات أُخرى من العلماء ورثوا هذه المهمة الصعبة منهم، فأخذوا على عاتقهم نشر الشريعة وبيان العقيدة عبر القرون، فتجلّت جهودهم الفكرية والعلمية في كتبهم وآثارهم الخالدة.

فالواجب المحتّم على الأُمّة الإسلامية هو تقدير جهودهم، وتثمين أعمالهم، وإحياء مآثرهم للحيلولة دون أن يغمر ذكرهم وتنطمس معالمهم.

وانطلاقاً من هذا المبدأ فقد عطرت كتب المعاجم والسير بأسمائهم، وأُلّفت في سيرهم عشرات الكتب يقف عليها كلّ من سبر رفوف المكتبات ومخازن الكتب.

وقد كنت منذ ريعان شبابي وحداثة سني ذا ولع خاص بالاطّلاع على تراجم علمائنا الأبرار والوقوف على آثارهم، وأوّل من فتح عيني على هذا العلم هو شيخي وأُستاذي الكبير الشيخ محمد علي المدرس الخياباني التبريزي (١٢٩٦ ـ ١٣٧٣) مؤلّف «ريحانة الأدب في ترجمة من اشتهر بالكنىٰ واللقب» فإنّه ﵀ أخذ بيدي وأجالني في رياض ذلك العلم وبساتينه، وعلى ما أُلّف في ذلك المضمار من قديمه وجديده.

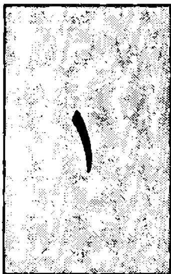
هذا ممّا دعاني إلىٰ أن أقوم ببعض هذا الواجب وأتحمل أعباءه من خلال ترجمة طائفة من فقهائنا الأبرار وعلمائنا الكرام الذين كانت لهم منزلة كبيرة في سماء العلم، ولم أقتصر على ذلك فحسب، بل أوعزت إلى نكات علمية وتاريخية لا غنى للباحثين عنها، ولما كانت تلك البحوث مبعثرة في مقدمات الكتب المنشورة بين الحين والآخر ألحَّ عليّ بعض روّاد العلم بجمع شملها في كتاب واحد كي يسهل تناولها، فنزلت عند رغبتهم وقمت بجمع شواردها مرتباً إيّاها على حسب وفيات المترجمين، عسى أن ينتفع بها رواد العلم وطلاب الفضيلة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم المقدسة ، مؤسسة الإمام الصادق ؈

في ١٦ ذي القعدة الحرام من شهور عام ١٤١٨هـ



محمد بن مسلم بن رباح

الثقفي الطائفي (٨٠ ـ ١٥٠هـ)

خريج جامعة الإمام الصادق عليه السلام

كان المسلمون في عصر الرسول صلى الله عليه وآله أُمّة متراصّة الصفوف ذات أهداف واحدة، وكان النبي الكريم صلى الله عليه وآله هو القطب الذي تدور عليه رحى الإسلام وتلتف حوله الأُمّة، كلّما نجم شقاق بين المسلمين أو فصائلهم، عالجه بحكمته السديدة وقيادته الرشيدة.

ولقد كان الحفاظ على العقيدة والشريعة، يتطلب وجود قيادة رشيدة، ومرجعيّة حكيمة، تنطق بالكتاب والسنّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله حتى تلتفّ حولها الأُمّة، وتقوم بدورها في معالجة كل مشكلة تحدث، ورأب كل صَدع يطرأ على حياتهم في ضوء الكتاب والسنّة.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد عالَجَ بالفعل هذه الناحية الهامّة في حياة المسلمين المستقبلية، برسم خط القيادة من بعده، وذلك من خلال التعريف بأهل بيته المطهَّرين، وإلفات نظر الأُمّة إليهم في مواضع عديدة، وبأساليب متنوّعة، واضحة وقاطعة.

غير أنّ الأُمّة تجاهلت ــ ولشديد الأسف ـ هذا الأمر وأقصَتْ أهلَ البيت

عن الحكم، وعزلتهم عن الدور المهمّ المرسوم لهم في قيادة وهداية الأُمّة بعد النبي ﷺ ولمّ شعثهم، وقيادة سفينتهم في خضمٍّ الأمواج العاتية، على غرار ما كان يفعله رسول الله ﷺ في عهده المبارك.

ولأجل هذا الانحراف في خطّ القيادة، نجم الخلاف الحاد بين المسلمين، في شتى النواحي السياسية والعقائدية والتشريعية.

فالشقاق المستمر بين الأُمّة وعمّال الخُلَفاء، والحروب الدامية بين صفوف الأُمّة كان من نتائج الابتعاد عن قيادة أهل البيت الرشيدة التي رسمها النبي ﷺ في حياته الشريفة وعهده المبارك، إلى أن آل أمر الخلافة إلى مُلك عضوض يرث فيه المُلك واحدٌ بعد واحد، وفاسد تلو فاسد، ويتلقّفه ولد بعد والد!!

إنّ السنّة النبويّة هي الحجّة الثانية بعد الكتاب العزيز، وكان المسلمون في أمس الحاجة إليها، ولكن صارت كتابتُها والتحدّث بها أمراً ممنوعاً قرابة قرن ونصف القرن، بينما كان التحدّث بالأساطير من قِبَل مُسلِمة أهل الكتاب (من أحبار اليهود وقساوسة النصارى) أمراً مسموحاً به!!

لقد أنتج هذا الإبعاد للقيادة الإسلامية الحقة، والابتعاد عنها وما تلاهما من أُمور، ظهور شقاق، واختلاف بين المسلمين في شتى المجالات.

أمّا في السياسة فقدعرفت.

وأمّا في مجال العقيدة، فقد ظهرت فيهم آراء وأفكار خطيرة مستلهمة ـ أغلبها ـ من اليهود والنصارى.

فمن محدّثٍ يُثبت لله سبحانه الجسم والصورة، والأعضاء والجوارح، والزمان والمكان، والحركة والانتقال، والجهة والرؤية غير مكترث بقداسة الذات الإلهيّة، وتنزّهها عن مشابهة المخلوقين، ويرى أنّ هذه هي العقيدة الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم وصدع بها الرسول العظيم ﷺ.

إلى جَهميّ يرفع عقيرته بالجبر، وسلب الاختيار عن الإنسان، وينكر ـ في المآل ـ ضرورة بعث الأنبياء، كما يصرّح بفناء النار في الآخرة مُأوِّلاً خلود الكفّار فيها، والذي صرّح به القرآن الكريم.

إلى قدَريّ يفسّر القَدَر ـ في مجال أفعال البشر ـ كعامل قهري يرسم حياة الإنسان، ويفرض عليه أفعاله، بحيث لا يكون الإنسان قادراً على أن يحيد عن ذلك قيد شعرة، بل لهذا القَدَر الذي هو فعلُ الله، من السيادة على الله تعالى، بحيث لا يقدر هو سبحانه على تغييره.

إلى متفقّه يرى الكتاب والسُّنّة، غير وافيين بالتشريع، وبيان الحلال والحرام، فعاد يلتجئ إلى مقاييس ظنيّة ومعايير استحسانية ما أنزل الله بها من سلطان، فصار التشريع حلبة الاختلاف، ومضمار الشقاق، حتى أنّك لا ترى فرعاً عملياً من الفروع اتّفقت عليه أئمّة المذاهب الفقهيّة إلّا الشاذّ النادر.

إلى داعٍ إلى الثنوية بشكل غير مباشر حيث يرى للإنسان إرادة مطلقة، واختياراً مستقلاً، كأنّه في غنى ـ في أفعاله ـ عن الله سبحانه، وهو بهذا يشبه إله الأرض.

إلى متفلسفٍ يخضع لتيّارات وآراء فلسفية مستورَدَة، من دون أن يقيّم مفاهيمها في ضوء الكتاب والسنّة والعقل السليم .

إلى ملاحدة ظهروا بين المسلمين، وأُعطيَت لهم حرية واسعة في العمل والدعوة، فراحوا يضلّلون الناس، ويسفّهون أقوال الإلهيين وينكرون الشرائع والأديان من الأساس.

إلى غير ذلك من الفرق والطوائف والاتجاهات والتيارات المعكّرة لصفو العقيدة الإسلامية والمكدّرة لنقاء النظام الإسلامي.

كان هـذا هو وضـع الأُمّة الإسـلامية، وحـالهم في القرون التي أعقبـت وفاة رسول الله ﷺ.

وفي تلك الظروف ـ بالذات ـ كـان في الجانب الآخر شيعة أئمّة أهل البيت عليهم السلام وكانوا على موقفين:

موقف يرى الثورة على الحكومات التي كانت وراء هذا الشقاق والاختلاف، وتدهور الوضع السياسي والفكري والاجتماعي وربما كان هذا الموقف صحيحاً في بعض الحالات بل ومثمراً.

وموقف يرى أنّ الثورة المسلّحة لا تأتي ــ في ظرف خاص طبعاً ـ إلاّ بالضرر والخسـارة الكبرى، وأنّـه لابـدّ من العمـل الفكـري وبث العقيـدة الصحيحـة، ومكافحة التيـارات المنحرفة والفاسدة، عبر تـربية الدعاة الصـالحين، وحمَلَة الفقه والحديث الـواعين، وإرشاد الناس إلى مـا هو الصحيح في مجالات الفكـر والفقه، والعقيدة والشريعة.

فهـو ـ بالتـالي ـ الأُسلوب الناجـح، والـدواء الناجع، للأُمّـة في حاضرها، ومستقبلهـا، وذلك نظَـراً لتعـاظم قـوة الحكـومـات آنـذاك، وقـدرتها على الفتك بمعارضيها، ومحوهم محواً كاملاً لا يُبقي ولا يذر.

وهنا تكمـن أهمية الدور الحضـاري لجامعة الإمام جعفـر الصادق الكبرى التي عالجت مشاكل مستعصية وأحيت الحضارة الإسلامية ، وذلك :

١ . ببيان العقيدة الإسلامية المأخوذة من الكتاب والسنّة وخطب الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام والعقل الحصيف، وردّ السهام المرشوقة إلى توحيد الله سبحانه وصفاته، وقداسة الأنبياء، وسائر قضايا العقيدة.

وكفى لمعرفة هذا ما دوّنه المحدّث الكبير الشيخ الصدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ)

في كتابه القيم «التوحيد»، حيث يرى المتتبع في أحاديثه بياناً مشرقاً في مجال توحيد الأفعال، وتنزيهاً رائعاً لأفعالـه سبحانه عن الحيف والظلم، والجبر و إرادة القبيح، ووصفـاً لائقاً لمقـام النبوّة والأنبيـاء في مجال تلقّي الـوحي والتبليغ ، وعلىٰ صعيـد السلوك والمعاشرة.

٢. كان تدوين الحديث ونشره، والتحـدّث بكلام رسول الله ﷺ أمراً محظوراً وقـد أُضفي على تدوينهـا ثوبُ البـدعة، وصـار لترك التحدّث بـالسُّنة الشريفـة قداسة بين الأُمّة، غفلةً عمّا يترتب على هذا الموقف من خسائر جمّة.

ولكن الإمام الصادق عليه السلام قام ـ غير مكترث بقرار الحظر الذي كان سائداً منذ زمن الخلفاء إلى عصره ـ بنشر أحاديث الرسول ﷺ آخذاً إياها من عين صافية لم تعكر صفوها الأهواء والأوهام، إذ رواهـا عن طريق آبائه المطهرين عن عليّ عن رسول الله ﷺ عن جبرئيل عن الله سبحانه.

وبذلك أعـاد الحديث النبوي الشريف إلى حياة الأُمّة الإسـلامية مجرّداً عن الأساطير منزهاً عن بدع اليهود والنصارى.

٣. تربية جيـل عظيم، وثلّة جليلة تربيـة أخلاقية ومعنويـة وعلمية لتحمل هـذه الـرسـالـة مـن بعـده، ونشر الأحـاديـث والـروايـات الشريفـة في الأجيـال اللاحقة.

ولقد تخرّج من مدرسة الإمام الصادق عليه السلام ثلّة كريمة واعية من المتكلّمين الـذابين عن حيـاض العقيـدة، والفقهاء والمحـدّثين البـارعين في حقل الشريعـة والمفسرين وغيرهم ممن اعترفـت الأُمّة بفضلهم، واستمرت ــ بواسطتهم ــ الهداية الإلهية إلى القرون المستقبلة، والأجيال اللاحقة.

وكان من تلك الثلّة المباركة: محمد بن مسلم وهو الفقيـه أبو جعفر الكوفي

المعروف بـالأوقص، أحد أئمّـة العلم في الإسلام، وأحـد وجوه الشيعـة بالكـوفة، اختص بالإمامين أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام، وروى الشيء الكثير من علومهما، وقد وقع في أسناد كثير من الروايات تبلغ ألفين ومائتين وستة وسبعين مورداً.

روى عنه: يونس بن عبد الرحمان، والعلاء بن رزين، وعمر بن أذينة، وجميل ابـن درّاج، ومحمـد بـن حمران، ويعقـوب الأحمر، وحماد بن عثمان، وعبـد الحميـد الطائي، وخلق كثير.

وكـان فقيهـاً محدّثـاً ومـن الأعـلام المأخـوذ عنهـم الحلال والحرام والفتيا والأحكام، له كتاب يسمّى: الأربعمائة مسـألة في أبواب الحلال والحرام، ولقد ورد في روايات صحيحة عن أهل البيت لا سيما الباقرين صلوات الله عليهم أجمعين.

وإليك فيما يأتي طائفة من الروايات والأخبار المادحة الصادرة من الإمامين الهمامين الإمام الباقر والإمام الصادق سلام الله عليهما.

مكانة محمد بن مسلم عند الصادقين عليهما السلام

لقد أثنى الإمامان الجليلان الباقر والصادق عليهما السلام على حافظنا الكبير وأقرانه على وجـه لا نـرى مثلـه في حقّ غيره مـن تـلاميـذهما وخـريجي منهجهما، وإليك البيان:

١. قال الصادق عليه السلام: أحبُّ النـاس إليّ أحيـاء وأمـواتاً أربعـة: بـريـد بن معاوية العجلي، وزرارة، ومحمد بن مسلم، والأحـول، وهـم أحبُّ النّاسِ إليّ أحياءً وأمواتاً.[١]

٢. روى أبو عبيدة الحذّاء قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «زرارة، وأبو

١. الكشي: اختيار معرفة الرجال، برقم: ٢١٥.

بصير، ومحمد بن مسلم، وبريد من الذين قال الله تعالى: ﴿وَالسّابِقُونَ السّابِقُون * أُولئكَ المُقَرَّبُون﴾ ». [(١)]

٣. روى سليمان بن خالد الأقطع، قال: سمعت أبا عبد الله يقول: «ما أحد أحيى ذكرنا وأحاديث أبي عليه السلام إلاّ زرارة، وأبو بصير ليث المراديّ، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية العجلي، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هذا، هؤلاء حفّاظ الدين وأُمناء أبي، علىٰ حلالِ الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا، والسابقون إلينا في الآخرة». [(٢)]

٤. قال الصادق ـ وهو يصف لفيفاً من أصحاب أبيه ـ: «هم مستودع سرّي، أصحاب أبي حقّاً إذا أراد الله بأهل الأرض سوءاً صرف بهم عنهم السوءَ، هم نجوم شيعتي أحياء وأمواتاً ،يحيون ذكر أبي عليه السلام ، بهم يكشف الله كلّ بدعة، ينفون عن هذا الدين انتحال المبطلين،وتأوّل الغالين» ثم بكى فقلت: مَنْ هم؟ فقال: «مَنْ عليهم صلوات الله ورحمته أحياءً وأمواتاً: بريد العجلي، وزرارة، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم». [(٣)]

٥. سأل عبد الله بن أبي يعفور أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام وقال: إنّه ليس كلّ ساعة ألقاك، ولا يمكن القدوم ويجيئ الرجل من أصحابنا فيسألني، وليس عندي كلّما يسألني عنه، قال: «فما يمنعك من محمد بن مسلم الثقفي، فانّه قد سمع من أبي وكان عنده وجيهاً». [(٤)]

٦. روى زرارة قال: شهد أبو كريبة الأزديّ ومحمد بن مسلم الثقفي عند شريك بشهادة وهو قاض، فنظر في وجوهها مليّاً، ثم قال: جعفريان فاطميّان! فبكيا، فقال لهما: ما يُبكيكما؟ قالا له: نسبتنا إلى أقوام لا يرضَون بأمثالنا أن يكونوا من اخوانهم، لما يرون من سخف ورعنا، ونَسَبْتنا إلى رجل لا يرضى بأمثالنا أن

١، ٢، ٣، ٤. الكشي: اختيار معرفة الرجال، برقم: ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٧٣.

يكونـوا من شيعته فان تفضّل وقبلنـا فله المنّ علينا والفضـل، فتبسم«شريك» ثمّ قال : إذا كانت الرجال فلتكن أمثالكم، يا وليد أجزهما هذه المرّة! قال: فحججنا فخبّرنا أبا عبد الله عليه السلام بالقصة فقال: «ما لشريـك، شركه الله يوم القيامة بشراكين من نار». [١]

٧. روى أبـو كهمس قـال: دخلت على أبي عبـد الله عليه السلام فقال لي :«شهـد محمد بـن مسلم الثقفي القصير عند ابن أبي ليلىٰ بشهـادة فردّ شهادتـه؟» فقلت : نعم. فقال: «إذا صرت إلى الكوفة فأتيت ابن أبي ليلىٰ ـ إلىٰ أن قال: ـ فقل له: يقول لك جعفر بن محمد ما حملك على أن رددت شهـادة رجل أعرف منك بأحكام الله وأعلم بسيرة رسـول الله منك؟»... فقـال لي: ومن هـو؟ فقلـت: محمد بـن مسلم الطائفي القصير، قال: فقال: والله انّ جعفر بن محمد قال لك هذا؟ قال: فقلت: والله إنّه قال لي جعفـر هذا، فأرسل إلى محمد بن مسلم فدعـاه، فشهد عنده بتلك الشهادة فأجازه. [٢]

٨. قال الإمام الصادق عليه السلام : «بشّر المخبتين بالجنة ...، ومحمـد بن مسلم، أربعـة نجبـاء أُمنـاء الله على حلالـه وحـرامـه، لـولا هـؤلاء انقطعت آثـار النبـوة واندرست». [٣]

٩. وقال عليه السلام : «إنّ أصحاب أبي كـانوا زينـاً أحياءً وأمواتـاً، أعني: زرارة، ومحمد بن مسلم، ومنهـم ليث المرادي، وبريد العجلي، هؤلاء القوّامـون بالقسط، هؤلاء القوّامون بالقسط، وهؤلاء السابقون، السابقون أُولئك المقربون». [٤]

١٠ .روى عبد الله بن محمد بـن خالد الطيالسي، عن أبيه، قـال: كان محمد ابن مسلـم من أهل الكـوفة يـدخل على أبي جعفـر عليه السلام فقـال أبو جعفـر: «بشر المخبتين»....

١، ٢، ٣، ٤ . اختيار معرفة الرجال، برقم ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٨٧.

وقال أيضاً: كان محمد بن مسلم رجلاً شريفاً موسِراً، فقال له أبو جعفر عليه السلام: «تواضع يا محمد!» فلمّا انصرف إلى الكوفة أخذ قوصرة من تمر مع الميزان وجلس على باب مسجد الجامع وجعل ينادي عليه، فأتاه قومه فقالوا له: فضحتنا، فقال: إنّ مولاي أمرني بأمر فلن أُخالفه ولن أبرح حتى من بيع باقي هذه القوصرة.[1]

هذا هو محمد بن مسلم في لسان الصادقين عليهما السلام، ونصوصهما يكفينا عن توثيق أي موثّق، ومع ذلك لابن مسلم مع المتسنمين لمنصّة الإفتاء والقضاء في عصره قضايا جميلة تعرب عن خضوعهم له في القضاء والإفتاء.

١. روى الكليني في الكافي أنّ رجلاً قدّم إلى ابن أبي ليلىٰ خصماً له، فقال: إنّ هذا باعني هذه الجارية، فلم أجد على ركبها حين كشفتها شعراً، وزعمت انّه لم يكن لها قط، فقال ابن أبي ليلىٰ: إنّ الناس يحتالون لهذا بالحيل حتّى يذهبوا به، فما الذي كرهت؟ قال: أيّها القاضي إن كان عيباً فاقض لي به، قال: اصبر حتى أخرج إليك فإنّي أجد أذى في بطني، ثمّ دخل وخرج من باب آخر، فأتى محمد بن مسلم الثقفي، فقال له: أي شيء تروون عن أبي جعفر عليه السلام في المرأة لا يكون على ركبها شعر، أيكون ذلك عيباً؟ فقال محمد بن مسلم: أمّا هذا نصاً فلا أعرفه، ولكن حدّثني أبو جعفر عن أبيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: كلّ ما كان في أصل الخلقة فزاد أو نقص فهو عيب، فقال له ابن أبي ليلى: حسبك، ثمّ رجع إلى القوم فقضىٰ لهم بالعيب.[2]

٢. قال محمد بن مسلم: انّي لنائم ذات ليلة على السطح إذ طرق الباب

---

١. اختيار معرفة الرجال، برقم: ٢٧٨.

٢. الكافي: ٥/ ٢١٥، التهذيب: ٧/ ٦٥ برقم ٢٨٢.

طارق، فقلت: من هذا؟ فقال: شريك يرحمك الله، فأشرفت فإذا امرأة فقالت : لي بنت عروس ضربها الطَّلق، فما زالت تطلق حتى ماتت والولد يتحرّك في بطنها ويذهب ويجيىء، فما أصنع؟ فقلت: يا أمة الله سئل محمد بن علي بن الحسين الباقر عليه السلام عن مثل ذلك، فقال: «يشق بطن الميت ويستخرج الولد»، يا أمة الله افعلي مثل ذلك! أنا يا أمة الله رجل في ستر، من وجّهك إليّ؟ قال: قالت لي: رحمك الله جئت إلى أبي حنيفة صاحب الرأي، فقال: ما عندي فيها شيء، ولكن عليك بمحمد بن مسلم الثقفي فانّه يخبر، فمهما أفتاك به من شيء فعودي إليّ فاعلمينيه ! فقلت لها: امضِ بسلام. فلما كان الغد خرجت إلى المسجد وأبو حنيفة يسأل عنها أصحابه، فتنحنحت فقال: اللهمّ غفراً دعنا نعيش. [١]

هذان النموذجان يدلان على مكانة الرجل في الإحاطة بالنصوص ومصادر القضاء.

وقد لزم الرجل الإمام الباقر قرابة أربع سنين وسأل الإمام الصادق عن ستة عشر ألف حديث. روي أنّ ابن أبي عمير قال: سمعت عبد الرحمن بن الحجاج وحماد بن عثمان يقولان: ما كان أحد من الشيعة أفقه من محمد بن مسلم قال، فقال محمد بن مسلم: سمعتُ من أبي جعفر ثلاثين ألف حديث، ثمّ لقيتُ جعفراً ابنه فسمعت منه أو قال سألته عن ستة عشر ألف حديث أو قال مسألة. [٢]

وعلى أيّة حال فهو من الذين أجمعت العصابة على تصديقهم وفقههم، ولهم دويّ في كتب الرجال والحديث. [٣]

---

١. اختيار معرفة الرجال: ١٦٢ برقم ٢٧٥.

٢، ٣. اختيار معرفة الرجال برقم ٢٨٠، ٤٣١.

محمد بن مسلم في الكتب الرجالية

قال النجاشي: محمد بن مسلم بن رباح، أبو جعفر الأوقص الطحان، مولى ثقيف، الأعور، وجه أصحابنا بالكوفة، فقيه ورع، صحب أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام وروى عنهما، وكان من أوثق الناس، له كتاب يسمّى الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام. [١]

وقال الشيخ الطوسي: محمد بن مسلم بن رباح الثقفي، أبو جعفر الطحان، الأعور أسند عنه، قصير حداج، روى عنهما عليهما السلام ، وروى عنه العلاء بن رزين القلّاء، مات سنة ١٥٠ وله نحو من سبعين سنة. [٢]

وعدّه الشيخ المفيد في الرسالة العددية من الفقهاء والأعلام الرؤساء المأخوذ عنهم الحلال والحرام والفتيا والأحكام، الذين لا يُطعن عليهم ولا طريق إلى ذم واحد منهم. [٣]

وقال إسماعيل باشا البغدادي: محمد بن مسلم بن رباح الأوقص المعروف بالطحان، مولى ثقيف، من علماء الشيعة الإمامية بالكوفة، توفّي سنة ١٥٠ هـ، له كتاب الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام. [٤]

وقال أيضاً: كتاب الأربعمائة مسألة من أبواب الحلال والحرام لمحمد بن مسلم بن رباح الكوفي الشيعي المتوفى سنة ١٥٠ هـ . [٥]

---

١. رجال النجاشي، برقم ٨٨٣.

٢. رجال الطوسي: أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ، الرقم ٣١٧؛ وترجمه أيضاً في أصحاب الإمام الباقر عليه السلام برقم ١ باب الميم.

٣. الرسالة العددية :٢٥، طبعة المؤتمر العالمي بمناسبة ذكرى ألفية الشيخ المفيد.

٤. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين: ٦/ ٧.

٥. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين المطبوع في ذيل كشف الظنون: ٤/ ٢٦٥.

وقال عمر رضا كحالة: محمـد بن مسلم بن رباح الكوفي الطحان، الشيعي (أبو جعفر) فقيه، من آثاره كتاب الأربعمائة مسألة في أبواب الحلال والحرام. [١]

الأُصول الأربعمائة للشيعة

إذا كانت الأحاديث مدونة على أسماء الصحابة يطلق عليها المسند مقابل تدوينها على الأبواب حيث يرتب المحدِّث كتابه على الموضوعات، وقد يتوسع في إطلاقه فيطلق على تدوين روايات راو في كتاب خاص سواء كان صحابياً أم لا، روى عن المعصوم أم لا، وقد دوّن من أحاديث الإمام الصادق وابنه الكاظم، أربعمائة مسندٍ اشتهر باسم الأصل قد جمع كلّ محدّث رواياته عن الإمام عليه السلام من غير ترتيب الأبواب.

قال الإمام الطبرسي(٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) في «اعلام الورى»: روى عن الإمام الصادق عليه السلام من مشهوري أهل العلم، أربعة آلاف إنسان، وصنّف من جواباته في المسائل أربعمائة كتاب تسمّى الأُصول رواها أصحابه وأصحاب ابنه موسى الكاظم عليه السلام. [٢]

وقال المحقّق الحلي (٦٠٢ـ ٦٧٦هـ) في «المعتبر»: كتبت من أجوبة مسائل جعفر بن محمد أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنف سمّوها أُصولاً. [٣]

وقال الشهيد (٧٣٤ـ ٧٨٦هـ) في «الذكرى»: كتب من أجوبة الإمام الصادق عليه السلام أربعمائة مصنَّف لأربعمائة مصنِّف، ودوِّن من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل. [٤]

---

١. عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين:١٢/ ٢١.
٢. الطبرسي: اعلام الورى: ٢٨٤.
٣. المحقّق الحلي: المعتبر: ١/ ٢٦.
٤. محمد بن مكي العاملي: الذكرى:٦.

هـذه هي مسـانيد الشيعـة في القـرن الثاني، المعـروفـة بالأُصـول الأربعمائة وطـوارق الـزمـان وإن مسّت وضعهـا، لكـن لم تمس مـوادّهـا ومضـامينهـا، فموادّ الأُصـول وأحاديثها انتقلت إلى الجوامع الحديثيـة الأوّلية، كجامـع البزنطي وجامع محمد بـن أحمد بن يحيى بن عمران الأشعري باسـم نوادر الحكمة وغيرهما، أو الثانويـة كالكافي للكليني (ت ٣٢٩هـ) أو الفقيه للصـدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) أو التهذيب والاستبصـار للطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) إلى غير ذلـك من الجوامـع الحديثية.

وقد قام الفاضل الجليل والحجّـة الثقة الشيخ بشير المحمدي المازندراني ـ دامت إفاضاتـه ـ بإعادة مسند الحافظ الكبير محمد بن مسلـم الطائفي إلى أوساط الحديث، بسعـي متـواصل وهمّة قعسـاء، وبيّن مكـانـة محدّثنـا الكبير في الحديث والأحكام والعقائد، وقد دوّن مسندين آخرين لإمامين كبيرين في الحديث، وهما:

١ . مسند محمد بن قيس البجلي، راوية أقضية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

٢ . مسند زرارة بن أعين الشيباني الكوفي.

وكان للكتابين صـدىً واسع في الأوساط العلمية، ونال التقـدير والتبجيل من الأكـابر الملمّين بالحديـث، وها هو الآن يقـدم مسنداً ثـالثاً للقـرّاء، ألا وهو مسند ابن مسلم الطائفي، الذي كتب مـن أحاديث أبي جعفر الباقر عليه السلام ثلاثين ألف حـديث. كما كتب من أحـاديث ابنه الإمـام الصادق عليه السلام ستـة عشر ألف حديث.

ولكنّه رعاه الله بعد الفحص الدؤوب في زوايـا المكتبات وغضون المعاجم لم يعثر إلاّ على ألفـي حديث، وهـذا ان دلّ على شيء إنّما يدلّ على ضيـاع قسم كبير من أحاديث حافظنا الكبير.

٢

زرارة بن أعين الكوفي

الشيباني (٨٠ ـ ١٥٠هـ)

مسند زرارة والمسانيد في الجوامع الحديثية

إنّ للحديث مكانة رفيعة بين المسلمين، وهو المصدر الرئيسيّ الثاني لديهم في مجالي العقيدة والشريعة.

فالفقيه يرجع إليه في استنباط الأحكام الشرعية المطهّرة، والمفسِّر يَركن إليه في تفسير آيات الذكر الحكيم،والمتكلِّم يتّخذه سناداً لعقائد الإسلام، والخطيب يستمدُّ منه في مجال الدعوة والإرشاد، والعارف يُميِّز به المحاسن عن المساوئ، فهو القسطاس المستقيم والمعيار القويم.

والحديث نور العقل ودليله، يتفكَّه به أُولوالنُهىٰ، ويأنس به اللبيبُ، وفيه غرر الحكم، ودرر الحكم، وينابيع العلم، فجَّرها الله سبحانه على لسانِ مَنْ لا ينطق عن الهوى، نبيِّه وأفضل رسله محمّد ﷺ، ووعاه عنه أوصياؤه وعترته، وحفظه عنه أصحابه والتابعون لهم بإحسان، بجدّ وحماس، وولع شديد، إلى حدٍّ عضُّوا عليه النواجذ، وصرفوا فيه أعمارهم. وضربوا في طريق تحصيله آباط الإبل.

ومن المؤسِف جداً أنّ الحظر السياسي ـ بعد رحيل النبي ﷺ ـ حالَ بين المسلمين وكتابة الحديث وتدوينه ونشره في الأقطار والأمصار، حتى صار التحدُّث

بحديث الرسول وكتابته وإفشائه إلى قرن، عملاً محظوراً يُلام على فعله، ويُحْرق كتابه بالنار، ويذهب جهده سدىً. (١)

وقد سار الخلفاء على هذا النهي، وقامت حياتهم السياسية على هذا الأساس، فكانت الصحابة والتابعون ممنوعين عن نشر ثاني أدلّة الأحكام، وعدل القرآن، إلى أن رُفِعَ الحظرُ في خلافة عمر بن عبد العزيز، حيث أحسّ بضرورة تدوين الحديث، فكتب رسالة إلى عالم المدينة أبي بكر بن حزم وأمره بكتابة حديث النبي ﷺ لأنّه يخافُ من دروس العلم وذهاب العلماء. (٢)

رُفِعَ الحظر، وعادت فكرة إحياء ما دثر من الآثار إلى المجتمع الإسلامي، لكن بعد ما اختلط الحابل بالنابل، وتسرَّبتْ موضوعات كثيرة عن طريق الأحبار والرهبان إلى الأوساط الإسلامية، وتفاقم الأمر إلى حدٍّ أخرج محمد بن إسماعيل البخاري صحيحه، الذي يحتوي بلا تكرار على ٢٧٦١حديثاً من زهاء ستمائة ألف حديث. (٣)

ومع أنّ عمر بن عبد العزيز كان مؤكِّداً على تدوين الحديث ولكنَّ رواسبَ الحظر السابق حالت دون القيام بها أمر، فلم تكتب بعد صدور الأمر إلاّ صحائف غير مرتَّبة ولا منظَّمة، وإنّما قام المحدّثون بهذه الوظيفة الخطيرة بعدما زالت دولة الأُمويين وأخذ أبو جعفر المنصور بمقاليد الحكم، فأخذوا بالكتابة والتدوين والتنظيم والترتيب. (٤)

ولئن خضعت رقاب ثلّة من الصحابة والتابعين لهذا النهي رغباً أو رهباً

---

١. تقييد العلم للخطيب البغدادي: ٥٢.

٢. الصحيح للبخاري: ١/ ٢٧.

٣. إرشاد الساري لشهاب الدين القسطلاني: ١/ ٢٨.

٤. تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٢٦١.

لكن كان هناك لفيف منهم لم يروا لهذا النهي وزناً ولا قيمة، ولم يعبأوا به، وقاموا بضبط الحديث وتدوينه، وعلى رأسهم إمام المسلمين علي بن أبي طالب عليه السلام ، وتبعته شيعته وأصحابه، نذكر منهم السبّاقين إلى التدوين:

١. أبو ذر الغفاري: ضبط ما أوصاه به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد شرحه العلاّمة المجلسي وأسماه «عين الحياة».

٢. أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخازن بيت المال في عصر الإمام علي عليه السلام : له كتاب «السنن والأحكام والقضايا».

٣. ابنه علي بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين عليه السلام : صنَّف كتاباً في فنون من الفقه: الوضوء والصلاة ونحوهما.

٤. ربيعة بن سميع، تلميذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: له كتاب «زكاة النعم».

إلى غير ذلك من صحابيّ وتابعيّ، دفعوا عادية الحظر بالقيام بالوظيفة وتدوين ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد استأثر الحديث باهتمام متزايد في عصر الإمام الباقر عليه السلام (٥٧ـ١١٤هـ)، والصادق عليه السلام (٨٣ ـ ١٤٨هـ). وهذا هو أحمد بن محمد بن عيسى ـ رئيس القمّيين في عصره ـ يقول: خرجت إلى الكوفة في طلب الحديث، فلقيت بها الحسن بن علي الوشّاء، فسألته أن يُخرج لي كتاب العلاء بن رزين وأبان بن عثمان الأحمر فأخرجهما إليّ، فقلت له احبُّ أن تجيزهما لي، فقال لي : يا رحمك الله وما عجلتك؟! اذهب فاكتبهما واسمع من بعد، فقلت: لا آمن الحدثان، فقال: لو علمت أنّ هذا الحديث يكون له هذا الطلب لاستكثرت منه، فإنّي أدركت في هذا المسجد تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدّثني جعفر بن محمد.[1]

١. رجال النجاشي: ٤٠ برقم ٨٠.

الشيعة هم أهل السنّة حقيقة

إنّ الشيعة ـ في الواقع ـ هم أهل السنّة، فإنّه إذا كانت اللفظة لا تعني سوى الاهتمام بالسنّة وشؤونها فأئمّة الشيعة وتلاميذ مدرستهم هم الذين أحيوا السنّة وأماتوا البدعة، خصوصاً في ظروف اندلعت فيها نيران الحرب بين الأمويين ومناوئيهم من العباسيين، وقد استغلّ الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام الفرصة فنشروا من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله ما سارت به الركبان.

يقول الشيخ المفيد: لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين عليهما السلام من علم الدين والآثار والسنّة وعلم القرآن والسيرة وفنون الآداب ما ظهر عن أبي جعفر عليه السلام، روى عنه معالم الدين بقايا الصحابة ووجوه التابعين ورؤساء فقهاء المسلمين[1]، وسارت بذكر كلامه الأخبار، وأُنشدت في مدائحه الأشعار.

تربّى على يدي الإمام الصادق عليه السلام آلاف من المحدّثين والفقهاء، وجمع أصحابُ الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات فكانوا أربعة آلاف رجل[2] وهذه سمة امتاز بها الإمام الصادق على غيره من الأئمّة.

وقد وجد الإمام الصادق عليه السلام أنّ السنّة النبويّة قد بدأ يعتريها اتجاهات خطيرة وانحرافات واضحة ففنّد الآراء الدخيلة والأحاديث المتسربة.

وقد أنجبت مدرسته الرفيعة شخصيات بارزة وفقهاء كبار يُعَدُّون من أعلام الدين واساتذة العلم وأئمّة الحديث ورواد الفضيلة، وأخصّ بالذكر منهم الطبقة الممتازة من تلاميذ الإمامين عليهما السلام الذين كرّسوا أعمارهم في ضبط ما وعوه عنهما حتى صاروا مصابيح الدجى ومشاكي الظلام.

---

١. الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٦١.

٢. المناقب لابن شهر آشوب: ٤/٢٤٧؛ الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٧١.

قال الكشي ـ عند تسمية الفقهاء من أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ـ : اجتمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأوّلين من أصحاب أبي جعفر عليه السلام، وأصحاب أبي عبد الله عليه السلام وانقادوا لهم بالفقه فقالوا: أفقهُ الأوّلين ستة: زرارة، ومعروف بن خرّبوذ، وبُريد، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي. فقالوا: وأفقه الستة: زرارة. (١)

كيف لا يكون أفقه الستة، بل أفقه أهل عصره وخريجي مدرسة الإمامين، وقد وصفه الإمام الصادق عليه السلام بعقود درّية نقتطف منها ما يلي:

إنّ زرارة من أُمناء الله على حلاله وحرامه، ومن الذين ينفون عن هذا الدين انتحالَ المبطلين، وتأويل الغالين،ومن القوّامين بالقسط، والسابقين إلينا في الدنيا، والسابقين إلينا في الآخرة، وهو أحبُّ الناس إليّ أحياءً وأمواتاً، ولولاه لكانت أحاديث أبي ستذهب. (٢)

وتوالت كلمات الثناء والإطراء في حقّه من مؤرخي الإسلام وعلماء الرجال.

قال ابن النديم: وزرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام والتشيّع. (٣)

وقال النجاشي: زرارة بن أعين بن سُنْسُنْ، أبو الحسن، شيخ أصحابنا في زمانه ومتقدّمهم، وكان قارئاً فقيهاً متكلّماً شاعراً أديباً، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادقاً فيما يرويه.

وأطراه صدوق المحدّثين وقال: رأيت له كتاباً في الاستطاعة والجبر، وأنّه

---

١. رجال الكشي: ٢٠٦، ثمّ سمّى طبقة أُخرى من فقهاء أصحاب الإمام الصادق.

٢. اقتطفنا هذه العقود الدرّية من مواضع مختلفة من كلام الإمام الصادق عليه السلام في حقّ زرارة، تقرأها في مواضعها في مقدمة مسند زرارة، فلاحظ.

٣. الفهرست لابن النديم: ٣٢٣.

مات سنة خمسين ومائة. [1]

وهو كوفيّ التربة والولادة، شيبانيُّ الولاء لا النسب، كما صرح به أكثر من ترجمه. [2]

مشايخه في الرواية

إنّ شيخنا المترجم كان من حواري الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ومن المختصّين بهما، روى عنهما في العقيدة والشريعة ما سيظهر لك مداه، إذا سبرت هذا المسند، ومع ذلك لم تَفِتْه الرواية عن سائر مشايخ الشيعة، أمثال:

١. أبي الخطاب ٢. بكر ٣. الحسن البزاز ٤. الحسن بن السري ٥. حمران بن أعين ٦. سالم بن أبي حفصة ٧. عبد الكريم بن عتبة الهاشمي ٨. عبد الله بن عجلان ٩. عبد الملك ١٠. عبد الواحد بن المختار الأنصاري ١١. عمر بن حنظلة ١٢. الفضيل ١٣. محمد بن مسلم ١٤. اليسع. [3]

وقد جاء في هذا المسند من أحاديثه المبثوثة في كتب الحديث قرابة ١٨٠٠ حديث.

هذا زرارة، ومكانته في الحديث، ومنزلته عند الأئمّة ،ولا يشكّ في وثاقته وصدقه وأمانته أيّ ذي مسكة. ولئن صدر عن الإمام الصادق عليه السلام في بعض الظروف كلام لا يناسب شأن الرجل فإنّما صدر عنه عليه السلام لحفظ دمه وعرضه، لأنّ الرجل كان وليدَ بيت كبير ضربَ بجرانه الكوفة وأطرافها، وكان معاشراً مع أكابر السنّة وحكّامهم وقضاتهم، وكان في بيته من لم يتشيّع بعدُ وكان أعداء أهل البيت يكنُّون العداء لرافع ولائهم ولوائهم، فأراد الإمام عليه السلام بكلامه هذا صيانة دمه. وقد

١. رجال النجاشي: ١٧٥ برقم ٤٦٣.

٢. الفهرست لابن النديم: الفن الخامس من المقالة السادسة تحت عنوان آل زرارة ص ٣٢٢.

٣. معجم رجال الحديث للسيد الخوئي :٧/ ٢٤٧ برقم ٤٦٦٢.

صرّح الإمام بـذلك في كلامه مـع ولده الحسين بن زرارة، فقال:« أقـرئ منّي على والـدك السـلام، وقـل لـه إنّي إنّما أُعيبُـك دفـاعـاً منّـي عنـك، فـإنّ النـاس والعـدوّ يسارعـون إلى كلِّ من قـرّبناه وحُمدنـا مكانـه، لإدخال الأذى فيمن نحبُّـه ونقرِّبـه، ويرمـونه لمحبّتنا لـه وقربـه ودنوّه منّا، ويـرون إدخال الأذى عليـه وقتله، ويَحمدون كل من عبنـاه نحن، وأن يُحْمَد أمره، فإنّما اعيبك لأنّك قـد اشتهرت بنا ولميلك إلينـا وأنت في ذلـك مـذموم عنـد النـاس غير محمود الأثـر بمـودتك لنـا وبميلك إلينا، فأحببت أن أُعيبك ليَحْمِدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك وتكون بذلك منّا دافع شرهم عنك. ثمّ تمثل بآية السفينة التي كانت لمساكين...وقال: لا والله ما عـابها إلاّ لكي تَسْلَمَ من الملك ولا تُعْطَبَ على يـديه، ولقد كـانت صالحة ليس للعيب منها مساغ». [1]

إنّ هناك بـوناً شاسعاً بين أبي بصير خِصِّيص الإمـام الصادق عليه السلام و زرارة ابن أعين، إذ لم تكن لأبي بصير أيّة صلة بالشخصيات البارزة في العراق خصوصاً الحكّام والقضاة، وما كان معروفاً في أوساط العراق، وهذا بخلاف زرارة، فقد كان من رجال العـراق ورئيس القبيلة، وكفى في ذلك ما قـاله الجاحظ: زرارة بن أعين مولى بني أسعد بـن همام، وكان رئيس النميمية [2] ويصفه أبو غـالـب من مشايخ الشيعة ومـن أبناء ذلك البيت الـرفيع بقوله: إنّ زرارة كـان وسيماً، جسيماً، أبيض، وكان يخرج إلى الجمعة وعلى رأسه برنس أسود، وبين عينيه سجادة، وفي يده عصا، فيقوم له النـاس سماطين، ينظرون إليه لحسن هيئته، وربما رجع عن طـريقه، وكان خصماً، جدلاً، لا يقوم أحد لحجته، إلاّ أنّ العبادة أشغلته عن الكلام، والمتكلّمون من الشيعة تلاميذه. [3]

---

١. رجال الكشي: ١٣٨ برقم ٢٢١، وقد أفاض الكلام في ذلك العلاّمة المامقاني، لاحظ تنقيح المقال.
٢ و ٣. رسالة أبي غالب الزراري: ١٣٤ و ١٣٦.

بيت آل أعين

هذا غيض من فيض وقليل من كثير ممّا يمكن أن يقال أو قيل في حقّ فقيه عصره ومحدّث زمانه، وكفى في الإشادة بفضله وفقهه سبر هذا المسند، فإنّ في نفس الأسئلة التي طرحها لدى الإمامين عليهما السلام لدليلاً واضحاً على أنّ الرجل كان ملمّاً بالفقه، عارفاً بأُصوله وقواعده، مناقشاً أبناء عصره، وكان يستمدّ من منهل علوم أئمته، وربما كان لا يقتنع بسماع الحكم من إمامه، ويطلب منه الحجّة من الكتاب والسنّة ، ويناقشه حتى يتجلّى له الحقّ، تلمس كلّ ذلك بالسبر في أحاديث هذا المسند.

وقد قام الشيخ المتضلّع أبو غالب الزراري (٢٨٥ـ ٣٥٦هـ) بتأليف رسالة ضافية للتعرف على آل أعين ـ والد زرارة ـ فالناظر في هذا الكتاب ينظر إلى روضة غنّاء يشاهد فيها شجرة طيّبة لها أغصان، ودوحة لها أفنان، وقد نبغ في هذا البيت حَمَلَةُ الحديث وحفّاظه، فصاروا قدوة للأُمّة ونوراً على جبين الدهر.

يقول شيخنا الزراري في صدر رسالته: أما بعد، فإنّا أهل بيت أكرمنا الله عزّ وجلّ بمنّه علينا بدينه واختصّنا بصحبة أوليائه وحججه على خلقه من أوّل نشأتنا إلى وقت الفتنة التي امتحنت فيها الشيعة.[1] فلقي حمران[2] سيّدنا وسيد العابدين علي بن الحسين صلوات الله عليهما ، وكان حمرانُ من أكبر مشايخ الشيعة المفضَّلين، الذين لا يشكّ فيهم، فكان أحدَ حملة القرآن، ومن يُعَدّ ويُذْكَرُ اسمه في كَتْبِ القرّاء، وروي أنّه قرأ على أبي جعفر محمد بن علي عليهما السلام ، وكان ـ مع ذلك ـ عالماً بالنحو واللغة. ولقي حمران وجدّانا زرارة وبكير: أبا جعفر محمد بن

---

١. أرّخ تاريخ الفتنة في رسالته عام ٣١٤، حيث هجمت القرامطة على الكوفة معقل الشيعة.

٢. حمران بن أعين أخو زرارة.

علي، وأبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام. ولقي بعض إخوتهم وجماعة من أولادهم مثل حمزة بن حمران وعبيد بن زرارة و محمد بن حمران وغيرهم أبا عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام ورووا عنه ـ إلى أن قال: ـ وآل أعين أكثر أهل بيت في الشيعة وأكثرهم حديثاً وفقهاً، وذلك موجود في كتب الحديث ومعروف عند رواته.... [١]

ثمّ ذكر في الرسالة رجال بيته الشامخ من عصر أعين إلى تاريخ تأليف الرسالة التي ألّفها لحفيده عام ٣٥٦، ومن أراد الاطّلاع فعليه الرجوع إليها وقد شرحها العلاّمة المعاصر السيد محمد علي الموسوي الأبطحي (دام ظلّه). [٢]

وقال بحر العلوم: آل أعين أكبر بيت في الكوفة، من شيعة أهل البيت عليهم السلام، وأعظمهم شأناً، وأكثرهم رجالاً وأعياناً، وأطولهم مدة وزماناً، أدرك أوائلهم السجاد والباقر والصادق عليهم السلام وبقى أواخرهم إلى أوائل الغيبة الكبرى، وكان فيهم العلماء والفقهاء والقرّاء والأُدباء ورواة الحديث. [٣]

المدوّنات في الحديث وأقسامها

كثرت المدوّنات في الحديث، ومن أنواعها المسند والمعجم والجامع والسنن [٤] فإذا كانت الأحاديث مدوّنة مرتبة على أسماء الصحابة فيُتَرجَم بالمسند مقابل تدوينه على الأبواب، حيث يرتب المحدِّث كتابه على الموضوعات، والموضوع الواحد يتناول موضوعاتٍ جزئية، وتحت كل موضوع جزئي أحاديث توضح الموضوع.

---

١. رسالة أبي غالب الزراري:١١٤.

٢. طبعت الرسالة عام ١٣٩٩ هـ.

٣. الفوائد الرجالية لبحر العلوم : ١/ ٢٢٢.

٤. راجع في الوقوف على خصوصيات هذه الأنواع، التقريب والتفسير مع شرح السيوطي، والوجيز في علوم الحديث، ولاحظ كتاب أُصول الحديث وأحكامه: ٢٠٢ـ ٢٠٤.

ففي المسند يجمع المؤلّف أحاديث الصحابي ـ في موضوعات مختلفة ويَضُمّ بعضها إلى بعضٍ تحت عنوان، كمسند عبد الله بن عباس، أو عبد الله بن مسعود، أو أُبيّ بن كعب، وربما يتوسع فترتب المسانيد على أسماء القبائل، أو على حسب السابقة إلى الإسلام أو الشرافة في البيت وقد يقتصر على أحاديث صحابي واحد كمسند الإمام علي عليه السلام أو جماعة منهم كأحاديث الخلفاء، أو العشرة، أو طائفة خاصة جمعها وصف واحد، كمسند الصحابة الذين نزلوا مصر أو الكوفة.

وقد قام لفيف من المحدثين القدامىٰ بتدوين الحديث على هذا النوع، فمن الشيعة نذكر ما يلي:

١. مسند الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لأبي أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي شيخ جعفر بن قولويه الذي توفّي عام ٣٦٧ هـ. [١]

٢. مسند ابن عباس له أيضاً. [٢]

٣. مسند زيد بن علي بن الحسين (الشهيد عام ١٢٢هـ) جمعها عبد العزيز ابن إسحاق البقّال (المتوفّى عام ٣١٣هـ)، ورواه عن زيد أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي. [٣] وقد ذكر النجاشي سنده إلى عمرو بن خالد الواسطي الذي كان زيدياً. [٤]

٤. مسند عبد الله بن بكير بن أعين جمعه أبو العباس أحمد بن عقدة الهمداني اليماني (المتوفّىٰ عام ٣٣٣هـ). [٥]

إلى غير ذلك ممّا ذكره البحاثة الكبير شيخنا المجيز الطهراني في الذريعة. [٦]

١، ٢. رجال النجاشي: ٢٤٠ برقم ٦٤٠.

٣. الذريعة للطهراني: ٢١/ ٢٦.

٤. رجال النجاشي: ٢٨٨ برقم ٧٧١.

٥. رجال النجاشي: ٩٤ برقم ٢٣٣.

٦. الذريعة للطهراني: ٢١/ ٢٧.

٥. مسند زرارة بن أعين (٨٠ـ١٥٠هـ) جمعها الشيخ بشير المحمدي بعد جهد متواصل وسعي حثيث، فأعاد بذلك تأليف مسند شيخ الشيعة في القرن الثاني.

وألّف أهل السنّة مسانيد كثيرة نذكر المشهور منها:

١. مسند أبي داود سليمان بن داود بن الجارود البصري الطيالسي (المتوفّى عام ٢٠٦هـ). وقيل هو أوّل من ألّف في المسانيد بين أهل السنّة [١]، و هو أحد عشر جزءاً طبع في مجلّد واحد.

٢. مسند الحافظ عبد الله بن الزبير الحميدي (المتوفّى عام ٢١٩هـ)، بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي في جزءين، يبلغ عدد أحاديثه إلى ١٣٠٠ حديث والغالب عليه المرفوعة، وفيه عدد قليل من الآثار الموقوفة على الصحابة والتابعين.

٣. مسند الإمام أحمد (المتوفّى عام٢٤١هـ) وهو المتبادر عند الإطلاق، وقد أفردنا رسالة في تحقيق حال هذا المسند، طبعت في سالف الزمان ضمن كتاب حول مسند الإمام أحمد.

٤. مسند الحافظ أبي يعلى الموصلي (٢١٠ــ٣٠٧هـ) طبع في ثلاثة عشر جزءاً، بتحقيق حسين سليم أسد، وهناك مسانيد أُخرى يقف عليها من له إلمام بالحديث وعلومه.

---

١. تدريب الراوي للسيوطي: ١/ ١٤٠ نقلاً عن العراقي.

٣

السيد علي بن الحسين الموسوي

الشريف المرتضى (٣٥٥ـ٤٣٦هـ)

أكاذيب مزيفة في حياة المرتضىٰ

لقد كان للسيدين الرضي والمرتضى مقام شامخ في دنيا الكلام و الذبّ عن المذهب بما أُوتيا من وقادة الفكر، ورصانة البيان، ناهيك أنّ السيّد المرتضى له تصنيفات كثيرة في حقل الكلام تتجلّىٰ فيها أفكاره و قوّة برهانه، ككتاب «الشافي» الذي نقض به كتاب المغني للقاضي عبد الجبار، و«الذّخيرة » وهي دورة كلامية مسهبة طبعت في جزءين.

إضافة إلىٰ ما أورده من البحوث الكلامية في غرره ودرره المعروف بـ«الأمالي» وفي «الفصول المختارة» و «تنزيه الأنبياء» ورسائله وجواباته القيّمة.

وهذه المؤلّفات تدلّ علىٰ سموّ مقامه و أنّه أُستاذ لا ينازعه أحد في عصره.

وأمّا شقيقه الرضي فقد غلب أدبه وشعره على علمه، إلاّ أنّ كتابه «حقائق التنزيل في تفسير القرآن الكريم» الذي عبث به الزمان ولم يصل إلينا سوى الجزء الخامس منه، خير شاهد على نبوغه في فهم وتفسير ما يرجع إلى الآيات حول العقائد والمعارف، مضافاً إلى أنّ ما في كتابيه «مجازات القرآن» و«المجازات النبوية» غنىً وكفاية على ذلك أيضاً.

ولمّا نسبت بعض الأيدي الأثيمة إليهما ما لا يليق بمقامهما الشامخ، آليت على نفسي أن أُدافع عنهما بمتابعة المعاجم والمصادر لتوخّي الحقيقة.

إنّ الرضي والمرتضى في دوح السيادة ثمران، وفي فلك الرياسة قمران، وأدب الرضي إذا قُرن بعلم المرتضى كان كالفِرِنْد في متن الصارم المنتضىٰ.[١]

وقد وصف أبو العلاء المعرّي الشريفين في قصيدة يرثي بها والدهما بقوله:

أبقيتَ فينا كوكبين سناهما   في الصبح والظلماء ليس بخاف

إلى أن قال:

ساوى الرضي والمرتضى وتقاسما   خطط العلى بتناصف وتصاف[٢]

روى أهل السير والتواريخ أنّ المفيد أبا عبد الله محمد بن محمد بن النعمان نابغة العراق، ومفخرة الآفاق، رأى في منامه أنّ فاطمة عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله دخلت إليه وهو في مسجده بالكرخ ومعها ولداها: الحسن والحسين عليهما السلام صغيرين، فسلّمتهما إليه، وقالت له: علِّمهما الفقه. فانتبه متعجّباً من ذلك، فلمّا تعالى النهار في صبيحة تلك الليلة التي رأى فيها الرؤيا دخلت إليه المسجد فاطمة بنت الناصر، وحولها جواريها وبين يديها ابناها: محمد الرضي وعليّ المرتضى صغيرين، فقام إليها وسلّم عليها فقالت له: أيّها الشيخ: هذان ولداي قد أحضرتهما لتعلّمهما الفقه، فبكى أبو عبدالله، وقصّ عليها المنام وتولّى تعليمهما الفقه، وأنعم الله عليهما وفتح لهما من أبواب العلوم والفضائل ما اشتهر عنهما في آفاق الدنيا، وهو باق ما بقي الدهر.[٣]

---

١. دميّة القصر: ١/ ٢٩٩، القسم الثالث في فضلاء العراق. الفِرِنْد: السيف، يقال: «سيفٌ فِرِند» أي لا مثيل له.

٢. ديوان سقط الزند لشاعر المعرّة: ١٣٠١، ط القاهرة.

٣. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة: ١/ ٤١؛ رياض العلماء: ٤/ ٢٢؛ الروضات: ٤/ ٢٩٥.

هكذا بـدأ العلمان حياتهما الفكـرية و العلمية، ونشئـا و ترعـرعا في مـدرسة أُستـاذ واحد غير أنّ كـلّ منهما انطلق حسب ذوقـه ومـواهبه الطبيعيـة، و في مجال خـاصّ. فصبّ الـرضي اهتمامه على العلـوم الأدبيـة والشعـر، والحديث والتفسير، وتولّـي نقابة الطالبيّين إلى غير ذلك من مهامّ الأُمور.

بينما صبّ المرتضى جهـوده على الفقه و الكلام ثمّ التفسير، فنبـغ كلّ واحد منهما في مجال خاصّ مع اشتراكهما في سائر المجالات العلمية و الفكرية.

و لأجل ذلـك نجد أنّ الـرضي يـراجع أخـاه المرتضى في المسـائل الفقهيـة ويطلب منه حلّها.

قـال الشهيد الأوّل في «الـذكرى» والشهيـد الثـاني في «الروض» في مسألـة الجاهل بـالقصر في السفـر: حيث إنّ الإمـامية تـذهب إلى صحّـة صـلاة الجاهل بالحكم إذا أتمّ مكان القصر.

سأل الرضي أخاه المرتضى وقال: إنّ الإجماع واقع على أنّ من صلّى صلاة لا يعلم أحكـامها فهي غير مجزيـة، والجهل بأعداد الـركعات جهـل بأحكامهـا فلا تكـون مجزية، (فكيف تكـون صـلاة الجاهل بـوجوب القصر إذا أتمّ صحيحـة؟) فأجابـه المرتضى بجواز تغيّر الحكم الشرعي بسبب الجهـل، و إن كان الجاهل غير معذور.[1]

كما أنّ هناك ما ينبـئ عن أنّ المرتضى يرجع إلى أخيه الـرضي في الفنون التي بـرع فيهـا أخـوه. روى السيـد نعمـة الله الجزائري قـال: دخل أبـو الحسـن على السيّد المرتضى طـاب ثراه يوماً وكان المرتضى قـد نظم أبياتاً من الشعر فـوقف به بحر الشعـر فقال: يا أبـا الحسن خذ هذه الأبيـات إلى أخي الرضي وقل لـه يتمّها

١. بحر الفوائد للعلاّمة الشيخ محمد حسن الاشتياني،ص ٤٥ وغيرها.

وهي هذه:

سرى طيف سلمى طارقاً فاستفزّني سحيراً وصحبي في الفلاة رقود
فلمّا انتبهنا للخيال الذي سرى إذ الأرض قفراً وا لمزار بعيد
فقلت لعيني عاودي النوم واهجعي لعلّ خيالاً طارقاً سيعود

قال أبو الحسن: فأخذت الأبيات، ومضيت إلى السيّد الرضي، فلمّا رآها قال: عليّ با لمحبرة فكتب:

فردّت جواباً والدموع بوادر وقد آن للشمل المشتت ورود
فهيهات عن ذكرىٰ حبيب تعرّضت لنا دون لقياه مهامه بيد

فأتيت بها إلى المرتضى، فلمّا قرأها ضرب بعمامته الأرض وقال: يعزّ عليّ أخي، يقتله الفهم بعد أُسبوع، فما دار الأُسبوع إلاّ وقد مضى الرضيّ إلى رحمة الله سبحانه.[1]

وممّا يكشف عن شدّة التلاحم والارتباط والودّ بين هذين الأخوين العلمين، أنّه لمّا توفّي السيّد الرضي وحضر الوزير فخر الملك وجميع الأعيان والأشراف والقضاة جنازته، والصلاة عليه، مضى أخوه المرتضى من جزعه عليه إلى مشهد موسى بن جعفر عليه السلام لأنّه لم يستطع أن ينظر إلى تابوته ودفنه.

وصلّى عليه فخر الملك أبو غالب؛ ومضى بنفسه آخر النهار إلى أخيه المرتضى بالمشهد الشريف الكاظمي، فألزمه بالعَوْد إلى داره.

نرى أنّ المرتضى يصبّ عواطفه الرفيعة وحنانه في الأبيات التالية:

---

١. رياض العلماء: ٤/ ٦٤؛ الروضات: ٦/ ١٩٩.

يا للرجال لفجعةٍ جَذَمَتْ يدي ... ووددت لو ذهبَت عليّ برأسي
ما زلت آبَى وِردَها حتى أتت ... فَحسوتُها في بعض ما أنا حاسي
ومَطلتُها زمناً فلمّا صمّمت ... لم يَثنِها مَطْلِي وطولُ مِكاسي
لله عمرك من قصير طاهرٍ ... ولربّ عمرٍ طال بالأدناس [1]

هذا بعض ما حفظ التاريخ من تفاني كلّ من الأخوين بالنسبة إلى الآخر.

غير أنّ ثمة شرذمة من أهل السير والتراجم لم يتحمّلوا ما وجدوه بين هذين الأخوين من العطف والمودّة، والأدب والأخلاق والفضائل والمناقب، فعادوا ينسبون إليهما ما لا تصحّ نسبته إلى من هو أدون منهما بدرجات، وإليك بعض هذه التهم التي تكذّبها سيرة العلمين وحياتهما المشرقة.

المرتضى خائض في دماء...

يحكى أنّه اقتدى الرضي يوماً بأخيه المرتضى في بعض صلاته، فلمّا فرغ قال: لا أقتدي بك بعد هذا اليوم أبداً؛ قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّي وجدتك خائضاً في صلاتك في دماء النساء فصدّقه المرتضى وأنصف، والتفت إلى أنّه أرسل ذهنه في أثناء تلك الصلاة إلى التفكّر في مسألة من مسائل الحيض.

وربّما يحكى أنّ الرضي بمجرّد أن انكشفت له الحالة المزبورة، انصرف من صلاته وأخذ في الويل والعويل، وأظهر الفزع الطويل في تمام السبيل إلى أن بلغ المنزل بهذه الحالة؛ فلمّا فرغ المرتضى، أتى المنزل من فوره، وشكا ما صنعه به إلى أُمّه، فعاتبته على ذلك، فاعتذر عندها بما ذكر وأنّه كان يتفكّر إذ ذاك في مسألة من الحيض، سألته عنها بعض النسوة في أثناء مجيئه إلى الصلاة. [2]

---

١. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة:١/ ٤١. راجع ديوانه:٢/ ١٤٢.

٢. روضات الجنات:٦/ ٢٠٢ـ٢٠٣، نقلاً عن صاحب حدائق المقرّبين.

تساؤلات حول القصة؟

وهذه القصة تحيط بها إبهامات عديدة وتساؤلات نشير إليها:

الأوّل: هل الفكرة الشرعية الصحيحة إذا راودت ذهن الإنسان في أوقات ـ الصلاة أو غيرها ـ توجب تمثّلَ الإنسان بنفس تلك الفكرة عند أرباب البصائر وذوي العيون البرزخية، الذين يستطيعون مشاهدة ماوراء الحجب والستور ببصائرهم؟

فلو خاض الإنسان في أحكام السرقة أو حدّ الزنا والقذف، فهل يوجب ذلك أن يتمثّل المفكّر فيها، عند من يعاين الأشياء بأنظار ثاقبة، سارقاً وزانياً وقاذفاً ؟ لا أظن أن يتفوّه بهذا أيّ حكيم نابه أو عارف بصير، بل لازم تلك البصيرة أن يعاين صاحب الفكرة على الحالة التي هو عليها، فيرى الرضي صاحب تلك البصيرة أخاه الفقيه على الحالة التي هو عليها، أي مفكّراً ومتعمّقاً في مسألة فقهية شاغلاً بها لا خائضاً في الدماء.

الثاني: أنّ القصة تكذّب نفسها، فإنّ لازم رجوع النساء إلى المرتضى ــ في المسائل المختصة بالنساء ـ هو كون المسؤول من ذوي الشخصيات الضاربة في الأربعين أو ما يقاربه، ولازم إرجاع الشكاية إلى الأُم كون المصلّي والمقتدي في سنين الصبا، ومن المعلوم أنّ الأخوين كانا متقاربي السن ولا يكبر المرتضى عن أخيه الرضي إلاّ بأربعة أعوام.

الثالث: أنّ القصة على بعض الروايات تصرّح بانصراف الرضي عن الصلاة بقطعها وإبطالها، وهو أمر محرّم ولا يسوغ لمثل الرضي ارتكابه.

٢. المرتضى شحيح والرضيّ سخي!

إنّ هذه التهمة ليست التهمة الوحيدة التي أُلصقت بالمرتضى، بل نسجت الألسنـة الحاقدة فـريـة أُخـرى أرادوا بها الانتقاص مـن ذينك العلمين الجليلين، وإليك واحدة أُخرى من هذه التهم:

قال صاحب كتاب «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب»: إنّ المرتضى كان يبخل ولمّا مات خلف مالاً كثيراً وخزانته اشتملت على ثمانين ألف مجلّد، ولم أسمع بمثل ذلك، وقد أناف القاضي عبد الرحمان الشيباني على جميع من جمع كتباً فاشتملت خـزانته على مائة ألف وأربعين ألف، وكـان المستنصر أودع خزانته في المستنصرية ثمانين ألف مجلداً.[١]

ثمّ إنّ القصّـاصين لم يكتفوا بهذه التهمـة، بل ذكروا شـاهداً ونقلـوا عن أبي حامـد أحمد بن محمد الاسفرائيني الفقيـه الشافعي انّه قـال: كنت يوماً عنـد فخر الملك أبي غالـب محمد بن خلف وزيـر بهاء الدولة وابنـه سلطان الدولـة، فدخل عليه الرضي أبو الحسن، فأعظمه وأجلّه ورفع من منزلته، وخلّى ما بيده من الرقاع والقصـص، وأقبل عليـه يحادثـه إلى أن انصرف، ثـمّ دخل عليـه المرتضـى أبـو القاسم ﵁ فلم يعظّمه ذلك التعظيم، ولا أكرمه ذلك الإكـرام. وتشاغل عنه برقاع يقرأها، وتوقيعات يوقّع بها، فجلس قليلاً،وسأله أمراً، فقضاه، ثمّ انصرف.

قال أبـو حامد: فتقـدّمتُ إليه، وقلت لـه: أصلح الله الوزير هـذا المرتضى هوالفقيـه المتكلّم صـاحب الفنون، وهـو الأمثل والأفضل منهما وإنّما أبـو الحسن شاعر، قال: فقال لي: إذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة.

قـال: وكنـت مُجمِعـاً على الانصراف، فجـاءني أمـرٌ لم يكـن في الحسـاب،

---

١. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: ٢٣٥؛ و لاحظ أيضاً الرياض: ٤/ ٢١.

فدعتِ الضرورة إلى مـلازمة المجلس إلى أن تقـوّض الناس واحداً فـواحداً. فلمّا لم يبق إلاّ غلمانه وحُجّـابه، دعا بالطعـام، فلمّا أكلنا وغسل يديه وانصرف عنـه أكثرُ غلمانه، ولم يبق عنـده غيري قال لخادم: هات الكتابين اللّـذين دفعتهما إليك منذ أيّام وأمرتُـك أن تجعلهما في السفَط الفلاني فأحضرَهما، فقال: هـذا كتاب الرضيّ، اتّصل بي أنّـه قد وُلدَ لـه ولد، فـأنفذتُ إليه ألـف دينار وقلت لـه: هذه للقـابلة، فقد جرت العادة أن يحمِل الأصدقـاء إلى أخِلاّئهم وذوي مودّتهم مثلَ هذا في مثل هذه الحال، فـردّها وكتب إليّ: هذا الكتـاب فاقرأه، قـال: فقرأته وهـو اعتذار عن الرد، وفي جملته: إنّنـا أهل بيت لا يطّلع على أحوالنـا قابلة غريبـة، وإنّما عجائزنا يتولّين هذا الأمـر من نسائنا ولَسنَ ممّـن يأخذ أُجرة، ولا يقبلن صلـة. قال: فهذا هذا.

وأمّا المرتضـى فإنّنا كنّـا قد وزّعنـا وقسّطنا على الأمـلاك ببادرويـا تقسيطاً نصرفه في حَفر فوّهة النهر المعـروف بنهرِ عيسى، فأصاب مِلكاً للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهماً ثَمَنها دينار واحد، قد كتب إليّ منذ أيام في هـذا المعنى هذا الكتاب، فاقـرأه، فقرأته وهو أكثر مـن مائة سطر، يتضمّن من الخضـوع والخشوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال في إسقـاط هذه الدراهم المذكورة عن أملاكه المشار إليها ما يطول شرحه.

قال فخـر الملك: فأيّهما تـرى أولى بالتعظيـم والتبجيل؟ هذا العـالم المتكلّم الفقيـه الأوحد ونفسـه هذه النفس، أم ذلـك الذي لم يُشهـر إلاّ بالشعـر خاصّـة، ونفسُه تلـك النفس! فقلت: وفّق الله تعـالى سيدنـا الوزيـر فمازال موفّقـاً؛ والله ما وضـع سيـدنـا الـوزيـر الأمـرَ إلاّ في مـوضعـه، ولا أحلّـه إلاّ في محلّـه! وقمـت فانصرفت.[1]

---

١. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة:١/ ٣٩ـ٤٠؛ روضات الجنات:٦/ ١٩٥.

قرائن تكذّب هذه القصة

إنّ ثمة قرائن وشواهد قويّة دلّت على أنّ القصة، حديث كاذب، وتهمة مختلقة، و إليك تلك القرائن المفيدة للعلم بخلاف هذه الحكاية:

١. إنّ السيد المرتضى وهو ذلك الرجل الصدوق ينصّ بنفسه على أنّه لم يكن يرى لثروته الطائلة قيمة تجاه مكارمه وكراماته وكان يقول:

وما حزّني الإملاق والثروة التي ... يذلُّ بها أهل اليسار ضلالُ
أليس يُبقّي المال إلاّ ضنانة ... وأفقر أقواماً ندى ونوالُ
إذا لم أنل بالمال حاجة مُعسر ... حصورٍ عن الشكوى فمالي مال [1]

أفترى أنّ صاحب هذه الروحية العالية يكتب لإعطاء عشرين درهماً مائة سطر يتضمّن من الخضوع والخشوع ما لايرتكبه أدنى الناس فكيف بمثله؟!

٢. إنّ الشريف المرتضى تقلّد بعد أخيه الرضي نقابة الشرفاء شرقاً وغرباً وإمارة الحاج والحرمين، والنظر في المظالم، وقضاء القضاء ثلاثين سنة وذلك من عام ٤٠٦ (وهو العام الذي توفيّ فيه أخوه الرضي) إلى عام ٤٣٦ الذي توفّي فيه نفس الشريف.

أ فهل يمكن أن يقوم بأعباء مثل هذه المسؤولية الاجتماعية من يبخل بدينار واحد يصرفه فخر الملك في حفر نهر تعود فائدته إلى الجميع، ويكتب في إسقاطه أكثر من مائة سطر؟! حاشاه.

هذا والحجيج بين شاكر لكلاءته، وذاكر لمقدرته، ومُطْرٍ لأخلاقه، ومتبرّك بفضائله، ومثنٍ على أياديه، وهذا يفيد أنّ الشريف المرتضى كان كأخيه الرضي

---

١. الغدير:٤/ ٢٧٥، ولم يذكر مصدره.

سخياً معطياً، ولم ير للمال قيمة.

٣. إنّ ابن خلّكان بعدما عرّفه بقوله: كان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر، أتى بقصة حكاها الخطيب التبريزي، وهي بنفسها أقوى شاهد على أنّ السيد كان ذا سماحة كبيرة.

قال الخطيب: إنّ أبا الحسن عليّ بن أحمد بن عليّ بن سلَّك الفالي الأديب كانت له نسخة لكتاب «الجمهرة» لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها واشتراها الشريف المرتضى بستّين ديناراً، فتصفّحها فوجد فيها أبياتاً بخطّ بائعها، وهي:

أَنِسْتُ بها عشرين حولاً وبعتها ... فقد طال وَجْدي بعدها وحنيني
و ما كان ظنّي أنّني سأبيعها ... ولوخلَّدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقار وصبيةٍ ... صغارٍ عليهم تستهلُّ شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عَبرةٍ ... مقالة مكويّ الفؤاد حزينِ
«وقد تُخرج الحاجات يا أُم مالك ... كرائم من ربّ بهنّ ضَنين»

وقال الخطيب: فأرجع السيد النسخة إليه وترك له الدنانير.[1]

أ فهل في وسع البخيل الشحيح المقدم على التنقيص من كرامته لأجل إسقاط دينار ضرُب عليه لحضرته، أن تسخو نفسه وتجود بمثل هذه الدنانير؟!

٤. روى أصحاب التراجم أنّ السيد المرتضى كان يجري الرزق على جميع تلامذته حتى انّه قرّر للشيخ الطوسي كلّ شهر أيّام قراءته عليه اثني عشر ديناراً وعلى ابن البرّاج كلّ شهر ثمانية دنانير، ليتفرّغوا بكلّ جهدهم إلى الدراسة من غير

---

١. وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٦، ط بيروت، دار الثقافة.

تفكّر في أزمات المعيشة.[١]

أ في وسع القارئ أن يتّهم من يدرّ من ماله الطاهر أو ممّا يصل إليه من الناس من الحقوق الشرعية على تلامذته الكثيرين البالغ عددهم المئات هذه الرواتب الطائلة، أن يشحّ ويبخل بدينار، ويكتب في إسقاطه مائة سطر؟!!

٥. إنّ الشريف المرتضى كان قد وقف قرية على كاغذ[٢] الفقهاء، حتى لا يواجه الفقهاء أية أزمة في لوازم الكتابة والتحرير.

٦. وقد روي أنّ السيد المرتضى كان يملك قرى كثيرة واقعة بين بغداد وكربلاء، وكانت معمورة في الغاية، وقد نُقِل في وصف عمارتها أنّه كان بين بغداد وكربلاء نهر كبير، وعلى حافتي النهر كانت القرى إلى الفرات، وكان يعمل في ذلك السفائن، فإذا كان في موسم الثمار كانت السفائن المارة في ذلك النهر تمتلى من سقطات تلك الأشجار الواقعة على حافتي النهر، وكان الناس يأكلون منها من دون مانع.[٣]

٧. قد نقل أصحاب السير أنّ الناس أصابهم في بعض السنين قحط شديد، فاحتال رجل يهودي على تحصيل قوته، فحضر يوماً مجلس الشريف المرتضى وسأله أن يأذن له في أن يقرأ عليه شيئاً من علم النجوم، وأمر له بجزاية تجرى عليه كلّ يوم، فقرأ عليه برهة، ثمّ أسلم على يديه.[٤]

٨. إنّ ياقوت الحموي نصّ في معجم الأُدباء (ج٣، ص ١٥٤) على

---

١. الرياض: ٤/ ٢٠، لاحظ مقالنا حول ترجمة عبد العزيز بن البرّاج المنشور في الجزء الأوّل من كتاب «المهذّب» فقد ذكرنا مصادر هذا الموضوع.

٢. كذا في المصدر. والمراد القرطاس. لاحظ الروضات: ٤/ ٢٩٦.

٣. الرياض: ٤/ ٢٠.

٤. الرياض: ٤/ ٢٣؛ الروضات: ٤/ ٢٩٦.

أنّ المرتضى كان يدخل عليه من أملاكه كلّ سنة أربعة وعشرون ألف دينار.

٩. إنّ الشريف المرتضى هو أوّل من جعل داره دار العلم وقدرها للمناظرة ويقال: إنّه أُمّر ولم يبلغ العشرين، وكان قد حصل على رئاسة الدنيا بالعلم والعمل الكثير، والمواظبة على تلاوة القرآن وقيام الليل، وإفادة العلم، وكان لا يؤثر على العلم شيئاً مع البلاغة وفصاحة اللهجة.

وحكي عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي أنّه قال: كان الشريف المرتضى ثابت الجأش، ينطق بلسان المعرفة ويردّد الكلمة المسدّدة، فتمرق مروق السهم من الرمية ما أصاب وما أخطأ أشوى. (١)

والقارئ الكريم إذا لاحظ ما ذكرناه في هذه الفقرات الخمس الأخيرة يقف على تفاهة ما نُسب إلى هذا العَلَم من تلك القصّة المنحوتة المختلَقَة.

١٠. إنّ القصّة تتضمّن أنّ فخر الملك لم يُعظِّم المرتضى بما يليق بشأنه وتشاغل عنه برقاع يقرأها وتوقيعات يوقع بها، ولكن الفخر هذا قد عظم المرتضى بأفضل ما يمكن يوم مات الشريف الرضي حيث إنّ المرتضى لم يشهد جنازة أخيه، ولم يستطع أن ينظر إلى تابوته وذهب إلى مشهد موسى بن جعفر عليه السلام، ومضى فخر الملك بنفسه آخر النهار إلى المشهد الكاظمي، واستدعى من السيد العود إلى داره ببغداد.

فبأي هذين الموقفين نذعن؟!

هذه القرائن والشواهد تشهد بوضوح على بطلان هذه القصة الخرافية، وتدلّ على أنّ ناسجها نسجها في غير موضعها.

١١. قد اشتهر على ألسن العلماء أنّه لمّا اتّفقت فقهاء العامة على حصر

---

١. لسان الميزان: ٤/ ٢٢٣ نقلاً عن تاريخ ابن أبي طيّ.

المذاهب الفقهية الإسلامية التي تعدّدت وتشعّبت من زمان الصحابة والتابعين ومن تبعهم إلى عصر السيد المرتضى في مذاهب معيّنة، التقى السيد المرتضى بالخليفة وتعهّد له أن يأخذ من الشيعة مائة ألف دينار حتى ترفع التقيّة والمؤاخذة على الانتساب إليهم، فتقبّل الخليفة؛ ثمّ إنّه بذل لذلك من عين ماله ثمانين ألفاً، وطلب من الشيعة بقية المال، ومن الأسف إنّهم لم يقدروا عليه (١)

وهذه القصة سواء أصحّت أم لا، تكشف على أنّ السيد كان من السخاء بمكان بحيث أمكن نسبة هذه القصّة إليه.

١٢. هذا هو الدفاع الصحيح عن كرامة السيد الجليل ودحض القصة بهذه القرائن المفيدة للعلم، والعجب أنّ صاحب الروضات بعدما نقل تلك القصة المختلقة انبرى للدفاع عن السيد بما نقله عن السيد الجزائري بقوله: كأنّ الوزير فخر الملك لم يتحقّق معنى علو الهمّة، فلذا عاب الأمر على الشريف المرتضى، وإنّما كان على غضاضة في ذلك الكتاب لو كان سائلاً لها من أموال الوزير، وما فعله الشريف عند التحقيق من جملة علو الهمّة، وذلك أنّه دفع عن ملكه بدعة لو لم يتداركها بقيت على ملكه، وربما وضعت من قدره لو بقيت عند أهل الأملاك وغيرهم، وكما أنّه ورد الحديث: المؤمن ينبغي له الحرص على حيازة ماله الحلال، كي ينفقه في سبيل الطاعات. كما كانت عادة جدّه أبي طالب بن عبد المطلب، فإنّه كان يباشر جبر ما انكسر من مواشيه وأنعامه، فإذا جاء الوافد إليه وهبها مع رعاتها له. (٢)

---

١. الروضات:٤/ ٣٠٧.و لاحظ الرياض:٤/ ٣٢ـ٣٤، وقال في الأخير ص ٥٣: إنّه خلف بعد وفاته ثمانين ألف مجلدمن مقرواته ومصنّفاته ومحفوظاته ومن الأموال والأملاك ما يتجاوز عن الوصف. إلى آخر ما أفاد.

٢. روضات الجنات:٦/ ٢٠٣ـ٢٠٤.

غير أنّه كان من الواجب على السيد الجزائري وصاحب الروضات أن يفنّدا هذه القصة من أساسها للقرائن والشواهد التي ألمحنا إلى بعضها، كما كان عليهما أن يتمسكا في المقام بما روي عن عليّ عليه السلام: « من أنّ أفضل المال ما وقي به العرض، و قضيت به الحقوق». [١]

الشريف الرضي

قد عرفت ما في كنانة القصّاصين من التّهم الباطلة الموجّهة إلى الشريف المرتضى، فهلمّ الآن إلى ما اختلقه الآخرون ممّن يحملون الحقد والبغض الدفين لأبناء البيت العلوي حول الشريف الرضي وإن نقله أصحاب التراجم من غير دقّة وتحقيق.

فقالوا: كان الرضي ينسب إلى الإفراط في عقاب الجاني، وله في ذلك حكايات، منها: انّ امرأة علويّة شكت إليه زوجها، وأنّه لا يقوم بمؤونتها، وشهد لها من حضر بالصدق في ما ذكرت، فاستحضره الشريف وأمر به، فبُطِح وأمر بضربه فضرب، والمرأة تنظر أن يكف والأمر يزيد حتى جاوز ضربه مائة خشبة؛ فصاحت المرأة:«وايتم أولادي كيف يكون حالنا إذا مات هذا؟» فكلّمها الشريف بكلام فظّ، وقال: ظننت أنّك تشكينه إلى المعلّم؟ [٢]

لا شكّ أنّه كان من وظيفة الشريف الرضي نصح الزوج، ودعوته إلى الرفق بالمرأة، والقيام بلوازم حياتها لا الأمر ببطحه وضربه ضرباً كاد يقضي على حياته.

وعلى فرض أنّ الشريف كان آيساً من تأثير النصح في ذلك الرجل، كان يجب عليه القيام بما جاء به الشرع من مورد التعزيرات، إذ لا شكّ أنّ ذلك المورد ليس من موارد الحدود بل من موارد التعزيرات، فإنّ الحدود ما جاء به الشرع

١. بحار الأنوار:٧٨/ ٧.

٢. الروضات:٦/ ١٩٦.

بمقرّر وحدّ خاص، وأسبابه كما في «الشرائع» على ما قرّر في الفقه ستّة: الزنا وما يتبعه، والقذف، وشرب الخمر، والسرقة، وقطع الطريق.

والمورد ليس من تلك الموارد، ففيه التعزير، وقد قرّر في محلّه أنّه يجب أن يكون التعزير أقلّ من الحدّ.

روى حمّاد بن عثمان عن الصادق عليه السلام قال قلت له: التعزير؟ فقال: دون الحدّ، قال قلت: دون ثمانين؟قال: لا، ولكن دون أربعين فإنّها حدّ المملوك، قلت: وكم ذاك؟ قال: على قدر ما يراه الوالي من ذنب الرجل وقوّة بدنه. (١)

وبما أنّ حدّ القاذف في الحر هو ثمانون جلدة، فلو قلنا بأنّ حدّ المملوك فيه نصف ما على الحر، يصير الحدّ المقرر هو أربعون جلدة، قال تعالى:﴿**فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما على المُحْصناتِ مِنَ الْعَذابِ**﴾ (٢) فيجب أن يكون التعزير على هذا، دون الأربعين.

وفي خبر القاسم بن سليمان: سئل الصادق عليه السلام عن العبد إذا افترى على الحرّ كم يُجلد؟ قال:« أربعين». (٣)

ولو قلنا بأنّه لا يشترط في الثمانين الحرية وأنّ حدّ القاذف في الحر والعبد سواء كما هو المشهور وأنّ الفاحشة (في الآية) التي تصرّح باختلاف حدّ الحر مع العبد ظاهرة في الزنا فقط، وحدّها حسب تصريح الذكر الحكيم هو مائة جلدة، يكون أقلّ الحدّ هو خمسين. (٤)

وإن قلنا: إنّ قوله: «دون الحد» منصرف عن حدود العبد، والأمة لأنّ الأحكام المتعلّقة بهما في الإسلام، أحكام مؤقتة ثابتة مادامت الرقية موجودة، فإذا

---

١. الوسائل: ١٨/ ٥٨٤ أبواب بقية الحدود، الباب ١٠، الحديث ٢.

٢. النساء:٢٥.

٣. المنتظم: ٧/ ٢٧٩.

٤. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٢.

ارتفع الموضوع ولم يوجد في أديم الأرض أية رقية، ترتفع أحكامها بارتفاع موضوعها. والناظر في التشريع الإسلامي يقف على أنّ الشارع اهتمّ بتحرير العبيد والإماء بطرق كثيرة كانت تقضي على حديث الرقية وأنّ الحكومات القائمة باسم الإسلام ما قامت بوظيفتها في ذاك المجال.

فلو قلنا بذلك الانصراف، وقلنا بأنّ ما ورد في حدّ القيادة من أنّه يضرب ثلاثة أرباع الزاني خمسة وسبعين سوطاً[1] حدّ لا تعزير ولا توضيح لأحد مصاديقه، يكون «أقل الحدّ» هو أربعة وسبعون سوطاً ممّا دونه، وعلى كلّ تقدير ليس في الفقه الإمامي تعزير يتجاوز عن المائة، وكان الرضي يعمل بالفقه الإمامي ويعتنقه وليس ممّن يخفى عليه ذاك الحكم الذي كان يمارسه طيلة نقابته للطالبيين.

وعلى كلّ هذه التقادير كيف أمر الشريف بجلد ذلك الرجل حتى جاوز مائة خشبة مع أنّه ﵀ ذلك الورع التقي الذي اتّفق الجميع على طهارته، ونزاهته وتقواه؟

وما نرى ذلك إلاّ فرية أراد الجاعل الحطّ بها من مكانة السيد الشريف قدس الله روحه.

وقد روي عن أبي جعفر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أمر قنبراً أن يضرب رجلاً حدّاً، فغلط قنبر، فزاده ثلاثة أسواط، فأقاده عليّ عليه السلام من قنبر بثلاثة أسواط.[2]

إنّ الشريف الرضي هو الذي يعرّفه ابن الجوزي في المنتظم: كان الرضي نقيب الطالبيين ببغداد، حفظ القرآن في مدّة يسيرة بعد أن جاوز ثلاثين سنة، وعرف من الفقه والفرائض طرفاً قويّاً، وكان عالماً، فاضلاً، وشاعراً مترسّلاً، عفيفاً، عالي الهمّة، متديّناً، اشترى في بعض الأيام جزازاً من امرأة بخمسة دراهم فوجد

---

١. صحاح الأخبار: ٦١.

٢. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة:١/ ٣٣. ولاحظ الغدير:١/ ٢٥٠.

جزءاً بخط أبي عبد الله بن مقلة، فقال للدلّال: أحضر المرأة، فأحضرها فقال: قد وجدت في الجزاز جزءاً بخط ابن مقلة، فإن أردت الجزء فخذيه وإن اخترت ثمنه فهذه خمسة دراهم، فأخذتها، ودعت له، وانصرفت. [1]

فمن كان هذا مبلغ تقواه وورعه، لا يقدم على معاقبة الزوج أمام زوجته بتلك المعاقبة الخشنة الخارجة عن حدود الشرع.

هذا ابن أبي الحديد يعرّفه في كتابه بقوله: كان عفيفاً، شريف النفس، عالي الهمّة، ملتزماً بالدين وقوانينه، ولم يقبل من أحد صلة ولاجائزة. [2]

وهذا الرفاعي يعرّفه في صحاح الأخبار بقوله: كان أشعر قريش، وذلك لأنّ الشاعر المجيد من قريش ليس بمكثر، والمكثر ليس بمجيد، والرضي جمع بين فضلي الإكثار والإجادة، وكان صاحب ورع وعفّة، وعدل في الأقضية، وهيبة في النفوس. [3]

فمن كان عفيفاً شريف النفس ملتزماً بالدين وقوانينه، وكان صاحب ورع وعفّة، وعدل في الأقضية أترى يتجاوز عن حدود الشريعة ويرتكب ما لا يرتكبه من له أدنى ورع؟ ما هكذا تورد يا سعد الإبل!!

لقد تولّى الشريف نقابة الطالبيّين وأمارة الحجّ والنظر في المظالم سنة ٣٨٠هـ وهو ابن واحد وعشرين سنة على عهد الطائع، وصدرت الأوامر بذلك من بهاء الدولة وهو بالبصرة عام ٣٩٧هـ ثمّ عهد إليه في ١٦ محرم عام ٤٠٣هـ بولاية أُمور الطالبيّين في جميع البلاد فدُعي نقيب النقباء، ولم يبلغ أحد من أهل البيت تلك المنزلة إلّاالإمام عليّ بن موسى الرضا سلام الله عليه الذي كانت له ولاية عهد

١. المنتظم:١٥/ ١١٥ برقم ٣٠٦٥.و الجُزاز: قطعة من الصوف الذي يُجزّ من الغنم.
٢. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة:١/ ٣٣.
٣. صحاح الأخبار: ٦١.

المأمون. وأُتيحت للشريف الخلافة على الحرمين على عهد القادر. [١]

و النقابة موضوعة لصيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب، ولا يساويهم في الشرف ليكون عليهم أحبى، وأمره فيهم أمضى، وهي على ضربين: خاصّة وعامة، أمّا الخاصة فهو أن يختصر بنظره على مجرّد النقابة من غير تجاوز لها إلى حكم و إقامة حدّ، فلا يكون العلم معتبراً في شروطها ويلزمه في النقابة على أهله من حقوق النظر اثنا عشر حقّاً، وقد ذكرها الماوردي في الأحكام السلطانية.

وأمّا النقابة العامّة فعمومها أن يردَ إلى النقيب في النقابة عليهم، مع ما قدمناه من حقوق النظر، خمسة أشياء:

١. الحكم بينهم في ما تنازعوا فيه.

٢. الولاية على أيتامهم في ما ملكوه.

٣. إقامة الحدود عليهم في ما ارتكبوه.

٤. تزويج الأيامى اللاّتي لا يتعيّن أولياؤهنّ أو قد تعيّنوا فعضلوهن.

٥. إيقاع الحَجر على من عته منهم أو سفه وفكه إذا أفاق ورشد.

فيصير بهذه الخمسة عامَّ النقابة، فيعتبر في صحّة نقابته وعد ولايته أن يكون عا لماً من أهل الاجتهاد ليصحّ حكمه، وينفذ قضاؤه. [٢]

فمن تصدّى لهذه المناصب الخطيرة أعواماً وسنين عديدة مضافاً إلى ولاية المظالم والولاية على الحج، والكلّ يتطلّب خصوصيات وصفات نفسانيّة عالية، وسجايا أخلاقية رفيعة جدّاً حتى انّه يجب أن يكون ظاهر العفّة، قليل الطمع، كثير الورع، لايعقل أن يقوم بما جاء ذكره في القصة السابقة التي لاتوجد إلاّ في

---

١. ابن أبي الحديد المعتزلي: شرح نهج البلاغة: ١/ ٣٨. و لاحظ الغدير: ٤/ ٢٠٥.

٢. الأحكام السلطانية، ص ٨٢ـ٨٦.

علبة القصّاصين وجعبة الوضّاعين.

كلّ ما مرّ عليك من الأكاذيب والتهـم قد أُلصقت إمّا بالشريف الرضي أو بـأخيـه المرتضـى، وكـان الهدف مـن وراء وضعهـا تكبير هـذا بتصغير ذلـك أو بالعكس، هذا يرشد إلى أنّ كليهما كانا موضع حقد البعض وبغضهم وحسدهم.

و يـؤيّد ذلك مـا اتُّهما به على وجـه الاشتراك، وأوّل مـا رُميا بـه ما ذكـره ابن خلّكان في تاريخه إذ قال: اختلف الناس في كتاب«نهج البلاغة» المجموع من كلام الإمام عليّ بن أبي طالب هل هو جَمْعـه ـ الشريف الرضي ـ أم جمع أخيه المرتضى؟ وقد قيل: إنّه ليس من كلام عليّ، و إنّما الذي جمعه ونَسَبه إليه، هو الذي وضعه. (١)

وتبعه اليافعي من دون تحقيق وردّد نفس ما قاله ابن خلّكان في تاريخه. (٢)

فما تورّط فيه هذان الكاتبان من نسبة الكتاب إلى علم الهدى واتّهامه بوضعه أو أخيه سيدنا الشريف الرضي، ممّا لا يقام له في سوق الحقائق وزن وليس له مناخ إلاّ حيث تربض فيـه العصبية العمياء، ويكشف عن جهل أُولئك، وقـد قام عدّة من المحقّقين بتفنيد هذه النسبة عن طريق ذكر مصادر نهج البلاغة المؤلّفة قبل أن يـولد الـرضي أو الشريف المرتضى، فنحـن نضرب عن ذلك صفحـاً ونمرّ عليهـا كراماً.

وفي كتـاب مصـادر نهج البلاغـة للعـلاّمـة الخطيب السيـدعبد الـزهـراء الحسني، وما كتبه الأُستاذ عبد الله نعمة، وما أفرد العلاّمة الشيخ هادي آل كاشف الغطاء في ذلـك المضمار وطبع مع كتـابه مستـدرك نهج البلاغـة، غنى وكفايـة في دحض الشبهة، و إبطال الفرية. والله الهادي.

---

١. وفيات الأعيان: ٢/ ٣١٣، بيروت، ط دار الثقافة.

٢. لاحظ الروضات: ٤/ ٣٠٤. و لاحظ الرياض: ٤/ ٥٥.

٤

الشيخ سعد الدين بن نحرير بن عبد العزيز

ابن البراج (٤٠٠ـ٤٨١هـ)

مكانة الفقه

إنّ شرف كلّ علم بشرف موضوعه، وشرف ما يبحث فيه عن عوارضه وأحواله.

فكلّ علم يرتبط بالله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، أو يرجع إلى معرفة سفرائه وخلفائه وما أوحى إليهم من حقائق وتعاليم، وأحكام وتكاليف يعدّ من أشرف العلوم، وأفضلها، وأسناها.

وقد تمتع (علم الفقه) بمكانة خاصة بين تلك المعارف والعلوم، لأنّه منهج للحياة في كافة المجالات لا سيما العبادات والمعاملات كالنكاح والإرث والقضاء وفض الخصومات والمنازعات وغيرها.

وفي الجملة: هو المنهاج الوحيد والبرنامج الدقيق لحياة المسلم الفردية، والاجتماعية، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهمية تلك التعاليم والبرامج، من خلال الإشارة إلى آثارها في حياة الفرد والجماعة إذ يقول:

«فرَضَ اللهُ الإيمانَ تطهيراً من الشرك، والصّلاة تنزيهاً عن الكبر، والزّكاة تسبيباً للرِّزق. والصّيام ابتلاء لاخلاص الخلق، والحجّ تقوية للدِّين: والجهاد عزّاً

للإسـلام، والأمر بـالمعروف مصلحـة للعوامّ، والنّهي عـن المنكر ردعـاً للسفهاء، وصلـة الرحـم منماة للعدد، والقصـاص حقناً للـدِّمـاء، وإقامـة الحدود إعظامـاً للمحارم، وترك شرب الخمر تحصيناً للعقل، ومجانبة السرقة إيجاباً للعفة، وترك الزِّنا تحصينـاً للنَّسـب، وتـرك اللِّـواط تكثيراً للنَّسـل، والشَّهـادات استظهـاراً على المجاحدات، وترك الكذب تشريفاً للصِّدق، والسَّلام أماناً من المخاوف، والإمامة نظاماً للأُمَّة، والطّاعة تعظيماً للإمامة». [١]

وإذا كـان الفقـه كفيـلاً بسعـادة العبـاد في الـدارين ومبينـاً لفـرائضهـم ووظائفهـم، فقد اختار الله سبحـانه أفضل خـلائقه، وأشرف أنبيائه لإبـلاغ تلك المهمة الجسيمة، فكان النبي ﷺ في حياته مرجعاً للمسلمين، في بيان وظائفهم وما كانوا يحتاجون إليه من أحكام، كما كان قائدهم في الحكم والسياسة، ومعلمهم في المعارف والعقائد؟

إكمال الشريعة بتمام أبعادها

إنّ الشريعـة التي جـاء بها خير الـرسل، هـي آخـر الشرائع التي أنـزلها الله سبحـانه، لهدايـة عباده فهـو ـ صلـوات الله عليه ــ خاتم الأنبيـاء، كما أنّ كتابـه وشريعته خاتمة الشرائع، وآخر الكتب.

قال سبحانه: ﴿**مٰا كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَ خٰاتم النَّبِيّينَ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ [٢].

وهي شريعة كـاملة الجوانب، جامعة الأطراف لم يفـوتها بيان شيء، وأغنت المجتمع البشري عن كلّ تعليم غير سماوي.

١. نهج البلاغة، قسم الحكم، الحكمة رقم ٢٥٢.
٢. الأحزاب: ٤٠.

قال تعالى: ﴿الْيَوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسْلام دِيناً﴾ .[١]

وظاهر قوله: ﴿الْيَوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ ﴾ أنّه سبحانه أكمل دينه النازل على نبيّه ﷺ من جميع الجوانب، وكافة الجهات.

فهذا الدين كامل في معارفه وعقائده ، كامل في وظائفه وأحكامه ، كامل في مقومات استمراره، وموجبات خلوده، ومتطلبات بقائه، على مدى الأيام والدهور.

فلا وجه ـ اذن ـ لقصر الآية على الكمال من ناحية دون ناحية، وجانب دون آخر، فهي بإطلاقها تنبيء عن كمال الشريعة في جميع جوانبها، ومجالاتها من غير اختصاص بالإيمان، أو بالحج، أو بغيره.

على أنّ حديث الإكمال الوارد في هذه الآية، لا يختص بإكمال الدين من حيث بيان العقيدة وتبليغ الشريعة، بل يعم الإكمال بقاء الشريعة واستمرارها طيلة الأعوام ، إذ ليس حديث الدين كالمناهج الفلسفية والأدبية وما يشبه ذلك، فانّ الإكمال في هذه المناهج يتحقّق بمجرّد بيان نظامها وتوضيح خطوطها الفكرية، سواء تحققت على الصعيد العملي أم لا وسواء دامت أو اندثرت ، بل الدين شريعة إلهية انزلت بغية تحقيقها في الخارج ابتداء و استمراراً حسب الأجل الذي أُريد لها.

فتشريع الدين من دون الأخذ بنظر الاعتبار عوامل استمراره يعد ديناً ناقصاً.

ولأجل ذلك دلت السنّة على نزول الآية ﴿الْيَوم أَكْمَلْتُ ﴾ يوم غدير خم عندما قام النبي ﷺ بنصب علي عليه السلام للولاية والخلافة.[٢]

---

١. المائدة:٣.

٢. راجع الغدير: ١/ ٢١٠ـ ٢١٧.

والعجب أنّ ابن جرير أخرج عن ابن جريج، قال: مكث النبي ﷺ بعد ما نزلت هذه الآية ﴿الْيَوم أَكْمَلْتُ ... ﴾ احدى وثمانين ليلة. [١]

وبما أنّ الجمهور أطبقوا على أنّ وفاة النبي ﷺ كانت في الثاني عشر من ربيع الأوّل، فينطبق أو يقارب يوم نزول هذه الآية على الثامن عشر من شهر ذي الحجّة، وهو يوم الغدير الذي قام النبي ﷺ فيه بنصب علي عليه السلام للخلافة والولاية.

وقد بلغت هذه الآية من الأهمية بمكان حتى روى المحدّثون عن طارق بن شهاب، قال: قالت اليهود للمسلمين: إنّكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا ـ معشر اليهود ـ نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأيّ آية؟ قال: ﴿الْيَوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي﴾.

أخرج ابن جرير، عن عيسى بن حارثة الأنصاري قال: كنّا جلوساً في الديوان، فقال لنا نصراني: يا أهل الإسلام: لقد أُنزلت عليكم آية لو أُنزلت علينا لاتخذنا ذلك اليوم، وتلك الساعة عيداً ما بقي اثنان، وهي قوله: ﴿الْيَوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دينكُمْ ﴾. وكما روى ابن جرير، عن ابن جريج، عن السدى أنّه لم ينزل بعد هذه الآية حرام وحلال، ورجع رسول الله ﷺ فمات. [٢]

بماذا يتحقّق الكمال؟

لا شكّ أنّ الشريعة الإسلامية اكتملت بأمرين أحدهما: كتاب الله سبحانه، والآخر سنّة نبيّه الكريم.

أمّا الأوّل فقد عرّف سبحانه مكانته، وسعة معارفه بقوله: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتاب تِبْياناً لِكُلِّ شَيْء﴾. [٣]

١. الدر المنثور:٢/ ٢٥٧و٢٥٩.
٢. الدر المنثور: ٢/ ٢٥٧.
٣. النحل:٨٩.

فـلا شكّ أنّ المرادِ من لفظـة ﴿كلّ شيء﴾ هـو كلّ شيء أُنيط بيـانـه إلى سفرائه وأنبيـائه سبحانـه من العلوم والمعارف، والمنـاهج والتعاليـم التي لا يصل الفكر الإنساني إلى الصحيح منها مهما بلغ من الكمال.

فهذه الأُمـور تكفّل الكتاب الكـريم ببيانها وذكـر خصوصياتها، وأمّـا بقية العلوم كالهندسـة والرياضيات والفيزياء والكيمياء، فهي خارجـة عن رسالة ذلك الكتاب، وليس بيانها من مهامه ووظائفه.

نعم ربّما يحتمل أن يكون لـلآية معنى أوسع ممّا ذكـر، غير أنّ هذا الاحتمال ـ على فرض صحته ــ لا يصحح أن يكون (القرآن الكريم) مصـدراً لتلك المعارف، حتى يرجع إليـه كافة العلماء الأخصاء في هذه العلـوم، وإنّما يتيسر استخراج هذه العلوم والمعـارف لمن له قابليـة علمية إلهية غيبيـة، حتى يتسنّى له استخـراج هذه الحقائق والمعارف من بطون الآيات.

وأمّا مكانـة السنّة فيكفي فيها قولـه سبحانه: ﴿وَمٰا يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ﴾ [١] وقوله سبحانه: ﴿وَمٰا آتاكُمُ الـرَّسُول فَخُذُوهُ وَ مٰا نَـهَاكُمْ عَنْـهُ فَانْتَهُوا﴾ [٢]، وغير ذلك مـن الآيات التـي تنص على لـزوم اقتفـاء أثر النبـي، وتصريح علىٰ وجـوب اتّباعه، وعدم مخالفته ومعصيته.

وعلى ذلك تكـون الشريعـة الإسلاميـة شريعة كـاملـة الجوانب، قـد بيّنت معارفها، وأحكامها بكتاب الله العزيز وسنّة نبيّه الكريم، فلم يبق مجال للرجوع إلى غير الوحي الإلهي وإلى غير ما صدر عن النبي الكريم. وهذه الحقيقة التي تكشف عنها الآيـة ـ بوضـوح ـ وأنّ الديـن اكتمل في حياة النبي بفضـل كتابه وسنتـه، مما أطبقت عليه كلمـة العترة الطاهرة بلا خلاف، نأتي ببعـض ما ورد عنهم في ذلك المجال.

١. النجم: ٣.
٢. الحشر:٧.

لكلّ شيء أصل في الكتاب والسنّة

لقد صرّح أئمّة أهل البيت والعترة الطاهرة بأنّه ما من شيء في مجالي العقيدة والشريعة إلاّ وله أصل في الكتاب والسنّة وهذا هو ما يظهر من كلماتهم ونصوصهم الوافرة.

روى مرازم، عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن الكريم تبيان كلّ شيء حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد إلاّ بيّنه للناس حتى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا نزل في القرآن إلاّ وقد أنزل الله فيه». [1]

وروى عمرو بن قيس، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: « إنّ الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلى يوم القيامة، إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله، وجعل لكلّ شيء حدّاً وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه». [2]

وروى سليمان بن هارون قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «ما خلق الله حلالاً ولا حراماً إلاّ و له حدّ كحدّ الدار، فما كان من الطريق فهو من الطريق، وما كان من الدار فهو من الدار، حتى أرش الخدش فما سواه، والجلدة ونصف الجلدة». [3]

وروى حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «ما من شيء إلاّ وفيه كتاب أو سنّة» [4].

وعن المعلّى بن خنيس، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ و له أصل في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال». [5]

---

١. الكافي:١/ ٥٩ ح١.
٢. الكافي: ١/ ٥٩ ح٢ من كتاب فضل العلم.
٣، ٤، ٥. الكافي:١/ ٥٩ـ ٦٠ ح٣ و ٤ و ٦ من كتاب فضل العلم.

وعن سماعة، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: قلت له: أكلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أو تقولون فيه؟ قال: «بل كلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم». [١]

هذا هو حال الكتاب والسنّة عند أئمّة العترة الطاهرة، فلو لم نجد حكم كثير من الموضوعات والحوادث، في الكتاب والسنّة ولاوقفنا على جملة من المعارف والعقائد فيهما، فما ذلك إلاّ لأجل قصور فهمنا وقلّة بضاعتنا، لأنّ في الكتاب رموزاً وإشارات، وتنبيهات وتلويحات منها تستنبط أحكام الحوادث والموضوعات، ويهتدي بها الإنسان إلى المعارف والعقائد وقد اختص علمها بهم دون غيرهم.

كما أنّ عندهم سنّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي لم تصل كثير منها إلى أيدي الناس، هذه هي حقيقة الحال عن أئمّة العترة الطاهرة، وعلى ذلك اقتفت شيعتهم أثرهم في تشييد صرح المعارف والعقائد، وإرساء فقههم، وفروعهم وأُصولهم.

إنّ القارىء الكريم لو راجع الجوامع الحديثية والتفسيرية، ووقف على كيفية استدلال الأئمّة الطاهرين، بالآيات والسنّة النبوية على كثير من المعارف والأحكام لأذعن بصحة ما قلناه، وهو أنّ عندهم علم الكتاب بالمعنى الجامع الوسيع، كما أنّ عندهم السنّة النبوية بعامتها.

وهذا لا ينافي أن يكون الكتاب هادياً للأُمّة جمعاء، وأن تكون السنّة في متناول أيدي الناس، غير أنّ الاكتناه برموز الكتاب وإشاراته، والإحاطة بعامة سننه، من خصائص العترة الطاهرة.

وقد قام بعض الأفاضل بجمع الأحاديث، التي استدل فيها الأئمّة الطاهرون بالكتاب والسنّة على أُمور وأحكام، ممّا لم تصل إليه أفهام الناس، وإنّما خصّ علم ذلك بهم.

---

١. الكافي: ١/ ٦٢ ح ١٠ من كتاب فضل العلم.

فإذا كان الشارع قد أعلن عن خاتمية الرسالة وكمال الشريعة الإسلامية، وجب أن تتقارب الخطى والمواقف بين المسلمين، ويقل حدة الخلاف والنقاش بينهم، ويجتمع الكل على مائدة القرآن والسنّة من دون أن يختلفوا في عقائدهم، ولا أن يتشاجروا في تكاليفهم ووظائفهم.

ولكنّنا ـ مع الأسف ـ نشاهد في حياة المسلمين أمراً خلاف ذلك، بل يضاده، وينادي بأنّ الرسول ﷺ لم يأت بشريعة كاملة جامعة الأطراف شاملة لكلّ شيء.

وتلك الحقيقة المرّة والخلافات المتجذرة التي حدثت بين المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ بل قبيلها أيضاً.

فقد نشب النزاع بينهم في أبسط المسائل إلى أعقدها، وافترقوا فرقتين أو فرقاً حتى انتهوا إلى سبعين فرقة.

فهذا هو التاريخ يحدّثنا أنّ أوّل نزاع نشب في مرضه (عليه الصلاة والسلام) روى البخاري باسناده عن عبد الله بن عباس، قال: لما اشتدّ بالنبيّ مرضه الذي مات فيه، قال: «ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي»، فقال عمر: إنّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، حسبنا كتاب الله، وكثر اللغط، فقال النبي ﷺ: «قوموا عنّي لا ينبغي عندي التنازع» قال ابن عباس: الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه. [1]

ولم ينحصر الخلاف في أُخريات حياته، بل ظهر الخلاف أيضاً عند تجهيز جيش أُسامة، حيث إنّه ﷺ أمر أُسامة بأن يسير إلى المكان التي سار إليها أبوه من قبل، وجهز له جيشاً وعقد له راية، فتثاقل أكابر الصحابة عن المسير معه لمّا رأوا

---

١. صحيح البخاري:١/ ٢٩، باب كتابة العلم؛ وج٤/ ٦٩، كتاب الجهاد، باب جوائز الوفد؛ وصحيح مسلم:٥/ ٧٦، كتاب الوصية، باب ترك الوصية.

مرض النبي ﷺ وهو يصرّ على مسيرهم، حتى أنّه خرج معصب الجبين، وقال: جهزوا جيش أُسامة، لعن الله من تخلف عنه. (١)

وأمّا اتساع رقعة الخلاف، ودائرة الاختلاف بعد لحوقه ﷺ بالرفيق الأعلى فحدث عنه ولا حرج.

فقد اختلفوا في موته ﷺ قال عمر بن الخطاب: من قال إنّ محمّداً قد مات قتلته بسيفي هذا، وإنّما رفع إلى السماء كما رفع عيسى عليه السلام.

ولمّا جاء أبو بكر بن أبي قحافة من السُّنْح، وقرأ قول الله سبحانه: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرّ الله شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشاكِرين**﴾ (٢) رجع عمر عن قوله، وقال: كأنّي ما سمعت هذه الآية حتى قرأها أبو بكر. (٣)

وأخطر الخلافات وأعظمها هو الاختلاف في الإمامة، وإدارة شؤون الأُمّة الإسلامية، فمنهم من قال بتعدد الأُمراء فأمير من الأنصار وأمير من المهاجرين، ومن قائل بلزوم انتخابه عن طريق الشورى، ومن قائل ثالث بالتنصيص بالولاية والامارة.

ولأجل ذلك يقول الشهرستاني في «ملله ونحله»: ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان. (٤)

ولم يقف الخلاف والاختلاف عند هذا الحدّ، فقد اتّسع نطاقه بعد الاختلاف في الزعامة السياسية، حتى شمل القيادة الفكريّة، فحدثت مذاهب واتّجاهات،

١. الملل والنحل للشهرستاني:١ / ٢٣، المقدمة الرابعة؛ وشرح نهج البلاغة:٢/ ٢٠.

٢. آل عمران: ١٤٤.

٣. الملل و النحل:١ / ٢٣.

٤. الملل والنحل:١ / ٢٤.

ووجدت مناهج متباينة في المعارف الاعتقاديّة، التي تشكل دعامة الدين وأُصوله وجذور الإسلام وأسسه.

فاختلف المسلمون ـ في هذا المجال ـ إلى معتزلة وجبريّة.

وانقسمت الأُولى إلى: واصليّة، هذليّة، نظاميّة، خابطيّة، بشريّة، معمريّة، مرداريّة، ثمامیّة، هشاميّة، جاحظيّة، خياطيّة.

كما انقسم خصوم المعتزلة (أعني الجبريّة) إلى: جهمية، نجارية، ضرارية.

وقد كان هذا الاختلاف في إطار خاص، أي في معنى الإسلام والإيمان وما يرجع إلى فعل الله سبحانه، ثمّ اختلفوا في صفاته سبحانه إلى: أشعرية، ومشبّهة وكراميّة.

ونشبت حروب طاحنة على إثر تلك الاختلافات والنقاشات أسفر عنها سفك دماء الأبرياء من المسلمين.

غير أنّ اطار الاختلاف لم يقف عند هذا الحدّ، فقد حدث اختلاف في مصير الإنسان وما يؤول إليه بعد موته من البرزخ ومواقفه، ويوم القيامة وخصوصياته، إلى غيرها من الاختلافات والمنازعات الفكرية، التي فرقت شمل المسلمين، ومزقت وحدتهم وكأنّهم نسوا قول الله تعالى: **﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾**. [1]

فصارت الأُمّة الواحدة أُمماً متعددة، وأصبحت اليد الواحدة أيدي متشتتة.

ولو أضفنا إلى ذلك ما نشب بين المسلمين من الاختلاف في المناهج الفقهية التي أرساها الصحابة والتابعون، إلى أن وصلت النوبة إلى الأئمّة الأربعة لهال الإنسان هذا الاختلاف الواسع المروع، وعند ذلك يسأل المرء نفسه: ترى أي

---

١. الأنبياء: ٩٢.

الأمرين أحقّ وأصحّ؟

١. ما نصّ به القرآن الكريم، وحدّث عنه سيّد المرسلين عن كمال الدين بأُصوله وجذوره، وشعبه وفروعه بحيث لم يبق للمسلم حاجة إلاّ رفعها، ولا حادثة إلاّ بيّن حكمها، ومقتضى ذلك أنّ تقليل حدّة الخلاف والنقاش إلى أقلّ حدّ ممكن.

٢. ما نلمسه ونراه ـ بوضوح ـ من الخلاف والتشاجر في أبسط الأُمور وأعقدها من دقيقها وجليلها، بحيث لم يبق أصل ولا فرع إلاّ وفيه رأيان بل آراء.

إنّ حديث الاختلاف الكبير هذا لا يمكن أن يعد أمراً هيناً، كيف والإمام علي عليه السلام يعتبره دليلاً على نقصان الدين إن كان المختلفون على حق، وإلاّ كان اختلافهم أمراً باطلاً، لأنّ كمال الشريعة يستلزم أن يكون كلّ شيء فيها مبيناً، فلا مبرر ولا مصحّح للاختلاف.

يقول الإمام عليه السلام في ذم اختلاف العلماء في الفتيا:

ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام، فيحكم فيها برأيه ثمّ ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلاف قوله، ثمّ يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً. وإلههم واحد، ونبيّهم واحد، وكتابهم واحد أفأمرهم الله ـ سبحانه ـ بالاختلاف فأطاعوه؟! أم نهاهم عنه فعصوه؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟! أم كانوا شركاء له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟! أم أنزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن تبليغه وأدائه، والله سبحانه يقول: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾ وفيه تبيان لكلّ شيء وذكر أنّ الكتاب يصدق بعضه بعضاً.[١]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة رقم١٨.

ترى أنّه عليه السلام بعدما يندّد بالاختلاف، يقول أم أنزل الله ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟

فإكمال الدين في كافة أبعاده ينفي وجود الثاني، كما أنّ وجود الخلاف في عامة المسائل لا يجتمع مع إكمال الدين، فما هو الحل لهذين الأمرين المتخالفين؟!

الإجابة على هذا السؤال

إنّ هناك تحليلين يمكن أن يستند إليهما الباحث في حلّ تلك المعضلة:

الأوّل: انّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإن أكمل دينه في أُصوله وفروعه غير انّ المسلمين في القرون الغابرة وقفوا أمام النصوص الإسلامية، فأوجدوا مناهج ومذاهب لا تلائم القرآن الكريم ولا السنّة النبويّة.

بيد انّ هذه الإجابة لا تتفق مع الواقع، بل تعتبر قسوة على الحقّ وأصحابه، لأنّ الدين كان عند المسلمين في الصدر الأوّل من أعز الأشياء وأغلاها، فكانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم في سبيله.

فعند ذلك كيف يمكن أن ينسب إليهم بأنّهم قد وقفوا في وجه النصوص الإسلامية، وقابلوها بآرائهم، ورجحوا أفكارهم ونظرياتهم على الوحي؟

كيف والقرآن الكريم يصف تلك الثلة بقوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِداءُ عَلى الكُفّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوىٰ عَلىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللهُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً**﴾.[1]

---

١. الفتح:٢٩.

الثاني: انّ الشريعة الإسلاميـة قد جاءت بدقائق الأُمـور وجلائلها، غير أنّ الشارع الحكيـم قد أودع علم كتـابه والإحـاطة بسنـة نبيّه ــ اللّذيـن اكتملت بهما الشريعة، وتمت بهما النعمة. واستغنت الأُمّة بهما عـن التطفل علىٰ موائد الآخرين ـ عند أُنـاس منزهين عـن الإثم والذنـب، مصونين عن الـزلل والخطأ، قـد أحاطـوا بمحكم القرآن ومتشابهه، ومجملـه، ومفصّله وناسخه ومنسوخه، وعـامّه وخاصّه، ومطلقه ومقيده، بل بـدلالاته وتنبيهاته، ورموزه و إشاراتـه التي لا يهتدي إليها إلاّ من شملته العناية الإلهيّة، وعمّته الفيوض الربّانية.

كما وأحاطـوا بسنّة نبيّهـم، وشوارد أقـواله، ووجـوه أفعالـه، وألوان تقـريره وإقراره.

فالتحق ﷺ بـالرفيـق الأعلى والحال هذه، أي أنّ العلـم بحقائق الكتـاب ومتون سنّته مخزون عند جماعة خاصّة، قد عرّفهم ﷺ بصفاتهم وخصوصيّاتهم تارة، وأسمائهم وأعدادهم تارة أُخرى كما سيوافيك.

ولو أنّ الأُمّـة الإسلاميّة رجعـوا في مجال العقائد والمعارف، ومـوارد الأحكام والوظائف إلى تلك الثلّة الطاهرة، لأوقفوهم على كلّ غرة لائحة، وحجّة واضحة، وقول مبين، وبرهان متين، واستغنوا بذلك عن كلّ قول ليس له أصل في كتاب الله وسنّة رسوله، ولمسوا إكمال الدين في مجالي العقيدة والشريعة بكلّ وضوح.

فحـديث إكمال الـدين في جميع مجالاتـه أمر لا غبـار عليـه، ولكنّ الخلاف والنقاش حدث في أسس الإسلام وفروعه لأجل الاستقلال في فهم الذكر الحكيم، وجمع سنّـة الرسـول من دون أن يـرجعوا إلى مـن عنده رمـوز الكتـاب وإشاراتـه، ودلائله وتنبيهاتـه، فهـم ورّاث الكتاب [1] وترجمان السنّـة، فافترقوا ــ لأجل هذا الاعراض ـ إلى فرق كثيرة ومناهج عديدة.

---

١. إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾. (فاطر/ ٣٢).

إنّ الاستقلال في فهم المعارف والأُصول واستنباط الفروع، ألجأ المسلمين إلى الأخذ بالقياس والاستحسان، وتشييد قواعد ومقاييس ظنية كسد الذرائع والمصالح المرسلة، وغيرها من الأُمور التي ما أنزل الله بها من سلطان، وذلك لأنّهم واجهوا من جانب إكمال الدين من حيث الفروع والأُصول، بحيث لا يمكن إنكاره حسب الآيات والأحاديث، ومن جانب آخر واجهوا الحاجات والحوادث المتجددة التي لم يجدوا لها دليلاً، لا في الكتاب ولا في السنّة، فلاذوا إلى العمل بهذه المقاييس حتى يسدوا الفراغ، ويبرّئوا الشريعة الإسلامية عن وصمة النقص.

قال ابن رشد مستدلاً على حجّية القياس: إنّ الوقائع بين أشخاص الأُناس غير متناهية، والنصوص والأفعال والإقرارات (أي تقرير النبي) متناهية، ومحال أن يقابل ما لا يتناهى بما يتناهى.[1]

وكأنّه يريد أن يقول: إنّه لولا القول بحجّية القياس لأصبحت الشريعة ناقصة غير متكاملة.

وهذا الجواب(وهو إيداع علم الكتاب عند العترة وإحاطتهم بالسنّة) ممّا يلوح عند الغور في غضون السنّة، ولعلّ القارئ الكريم يزعم ـ بادئ بدء ـ أنّ هذا الجواب غير مدعم بالبرهان، غير أن من راجع السنّة يرى النبي ﷺ يصرّح في خطبة حجّة الوداع بأنّ عترته أعدال الكتاب العزيز وقرناؤه، وهم يصونون الأُمّة عن الانحراف والضلال، ولا يفارقون الكتاب قدر شعرة، ومع الرجوع إليهم لا يبقى لقائل شك ولا ترديد.

روى الترمذي، عن جابر قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجّة يوم عرفة، وهو على ناقته القصوى يخطب فسمعته يقول:

«يا أيها النّاس إنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله

١. بداية المجتهد ونهاية المقتصد:١/ ٢ راجع أيضاً المدخل الفقهي العام : ١/ ٧٧.

وعترتي أهل بيتي». [١]

وروى مسلم في صحيحه: «أنّ رسول الله قام خطيباً بماء يدعى خمّاً بين مكة والمدينة... ثمّ قال: ألا يا أيّها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فأُجيب وانّي تارك فيكم ثقلين: أوّلها كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ...وأهل بيتي». [٢]

وقد روى هذا الحديث أصحاب الصحاح والسنن بعبارات مختلفة، كما رووا أنّه نطق به النبي ﷺ في حجّة الوداع، وفي غدير خم وقبيل وفاته، فدراسة الحديث توقفنا على مكانة أهل البيت النبوي، وعترة رسول الله ﷺ الذين هم عدل القرآن الكريم في الهداية والنور، والعصمة، فمن فارقهم فقد فارق الكتاب والسنّة وحاد عن جادة الحقّ إلى هاوية الضلالة.

عدد الأئمة

إنّ النبيّ ﷺ لم يكتف بالتنصيص بالوصف، بل أخبر بأنّ عدد الأئمّة الذين يعقبوه هو اثنا عشر، وقد رواه أصحاب الصحاح والمسانيد، فروى مسلم، عن جابر بن سمرة، انّه سمع النبي يقول: «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش». [٣]

وروى البخاري قال: سمعت النبي يقول: يكون اثنا عشر أميراً: «فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي: قال كلّهم من قريش». [٤]

---

١. صحيح الترمذي: ٣/ ١٩٩، باب مناقب أهل بيت النبي.

٢. صحيح مسلم:٧/ ١٢٣، باب فضائل علي بن أبي طالب.

٣. صحيح مسلم:٦/ ٣ـ٤، باب الناس تبع لقريش، من كتاب الأمارة.

٤. صحيح البخاري: ٦/ ٦٥، كتاب الأحكام.

وهناك نصوص أُخرى لهذا الحديث تصرح بأنّ عدد الولاة اثنا عشر وأنّهم من قريش.

وجاء علي عليه السلام يفسّر حديث النبي صلى الله عليه وآله ويوضح إبهامه، ويقول: «إنّ الأئمّة من قريش في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم ولا يصلح الولاة من غيرهم». (١)

إحاطة العترة بالسنّة

ما ذكرناه آنفاً من أنّ العترة الطاهرة أحاطوا بالسنّة النبوية، التي لم تحتفظ بأكثرها الأُمّة وانّ كلّ ما يروون من أحاديث في مجالي العقيدة والشريعة، كلّها رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن طريق آبائهم.

وقد وردت في هذا الصعيد نصوص لا مجال لنقلها برمتها، بل نكتفي بالقليل من الكثير:

روى حماد بن عثمان وغيره، قالوا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله قول الله عزّ وجلّ». (٢)

وعن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إذا حدثتني بحديث، فاسنده لي، فقال: «حدّثني أبي عن جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عليه السلام، عن الله عزّ وجلّ

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٤٢.

٢. جامع أحاديث الشيعة:١ / ١٢٧ـ١٢٨.

وكلّ ما أحدّثك (فهو) بهذا الاسناد» وقال: «يا جابر لحديث واحد تأخذه عن صادق خير لك من الدنيا وما فيها». (١)

ومن كتاب حفص بن البختري، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: نسمع الحديث منك فلا أدري منك سماعة، أو من أبيك، فقال: «ما سمعته منّي فأروه عن أبي، وما سمعته فاروه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم». (٢)

وعن يونس، عن عنبسة قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن مسألة فأجابه فيها، فقال الرجل: إن كان كذا وكذا ما كان القول فيها، فقال له: «مهما أجبتك فيه بشيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لسنا نقول برأينا من شيء». (٣)

كيفية بيان الفقه عند الإمامية

لقد عكفت الشيعة بعد لحوق النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى على دراسة الفقه، وجمع مسائله وتبويب أبوابه وضم شوارده، وأقبلوا عليه إقبالاً تاماً قلّ نظيره لدى الطوائف الإسلامية الأُخرى، حتى تخرّج من مدرسة أهل البيت وعلى أيدي أئمّة الهدى، عدّة من الفقهاء العظام، فبلغوا الذروة في الفقاهة والاجتهاد، نظراء: زرارة ابن أعين، ومحمد بن مسلم الطائفي، وأبي بصير الأسدي، ويزيد بن معاوية، والفضيل بن يسار، وهؤلاء من أفاضل خريجي مدرسة أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله عليهما السلام، فأجمعت العصابة على تصديق هؤلاء، وانقادت لهم بالفقه والفقاهة.

ويليهم في الفضل والفقاهة ثلة أُخرى، وهم خريجو جامعة أبي عبد الله

---

١. جامع أحاديث الشيعة.

٢. المصدر نفسه: ١/١٢٨ـ١٢٩.

٣. المصدر نفسه، ومن أراد الوقوف على المزيد فليرجع إلى المصدر المذكور ص ١٢٦ـ ٢١٩.

الصادق عليه السلام ، نظراء: جميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عثمان، وحماد بن عيسى، وأبان بن عثمان.

كما أقرت العصابة على فقاهة ثلة أُخرى من تلاميذ أصحاب الإمام موسى ابن جعفر الكاظم وابنه أبي الحسن الرضا عليهما السلام ، نظراء: يونس بن عبد الرحمان، وصفوان ابن يحيى، ومحمد بن أبي عمير، وعبد الله بن المغيرة، والحسن بن محبوب والحسين بن علي بن فضال، وفضالة بن أيوب.[١]

هؤلاء أفذاذ الشيعة في الفقه والحديث في القرنين: الأوّل والثاني من الهجرة، وقد تخرّجوا من جامعة أهل البيت عليهم السلام وأخذوا منهم الفقه وأُصول الاجتهاد والاستنباط.

نعم لا ينحصر المتخرّجون من جامعتهم في هؤلاء الذين ذكرناهم، فقد تخرّج منها جماعة كثيرة تجاوزت المئات بل الآلاف، وقد ضبطت كتب الرجال أسماءهم وخصوصياتهم وكتبهم.

ومع أنّ كتب الرجال والفقه تنص على مكانتهم في الفقاهة، ومدى استنباطهم الأحكام الشرعية، غير أنّ كتبهم في القرون الثلاثة الأُولى كانت مقصورة على نقل الروايات بأسنادها، والإفتاء في المسائل بهذا النحو، مع تمييز الصحيح عن السقيم والمتقن عن الزائف.

وتطلق على كتبهم عناوين: الأصل، الكتاب، النوادر، الجامع، المسائل، أو خصوص باب من أبواب الفقه، كالطهارة، والصلاة، وما شابه ذلك.

هذه الكتب المدونة في القرون الثلاثة بمنزلة «المسانيد» عند العامة، فكلّ كتاب من هؤلاء الرواة يعد مسنداً للراوي، قد جمع فيه مجموع رواياته عن الإمام أو

١. راجع رجال الكشي: ٢٠٦و٣٢، ٤٦٦ .

الأئمّة في كتابه، وكان الإفتاء بشكل نقل الـرواية بعد إعمال النظر ومراعاة ضوابط الفتيا.

ومع إطلالـة القرن الرابع خـرج لون جديـد في الكتابة والفتيا، وهـو الإفتاء بمتون الـروايات مـع حذف أسنادهـا، والكتابـة على هذا النمط مـع إعمال النظر والدقة فخرج الفقه ـ في ظاهره ـ عن صورة نقل الرواية، واتخذ لنفسه شكل الفتوى المحضة.

وأوّل من فتـح هذا البـاب في وجه الشيعـة على مصراعيـه هو والـد الشيخ الصدوق «علي بن الحسين بن موسى بن بابويه» المتوفّى عام ٣٢٩هـ، فألّف كتاب «الشرائع» لولده الصدوق، وقد عكف فيه على نقل متون ونصوص الروايات، وقد بثّ الصدوق هذا الكتاب في متون كتبه: كالفقيه، والمقنع والهداية، كما يظهر ذلك من الرجوع إليها.

ولقـد استمر التـأليف على هـذا النمط، فتبعه ولـده الصـدوق المتوفّى عـام ٣٨١، فألّف «المقنـع والهداية»، وتبعـه شيخ الأُمّة ومفيـدها «محمـد بن محمـد بن النعمان» المتوفّى عـام ٤١٣ في «مقنعته»،وتلميـذه شيخ الطـائفة محمـد بن الحسن الطوسي المتوفّى عام ٤٦٠ في «نهايته».

ولما كـانت متـون هـذه الكتـب والمؤلّفـات مأخـوذة مـن نفس الـروايـات والأُصول وقعت متـونها موضع القبول من قبل الفقهـاء فعاملوها معـاملة الكتب الحديثيـة، وعـولـوا عليهـا عنـد اعـوازهم النصـوص على اختـلاف مشـاربهم وأذواقهم.

وكان سيدنـا الأُستاذ آية الله البروجردي (١٢٩٢ ــ ١٣٨٠هـ) يسمّي تلك الكتب بـ«المسائل المتلقاة»، وسماها بعض الأجلّة بـ:«الفقه المنصوص».

مبدأ تطور الفقه عند الشيعة الإمامية

إنّ ظهور النمط الثاني (تجريد المتون عن الأسانيد) تمخّض عنه اندثار الطريقة القديمة السائدة طيلة قرون، لكنّه لم يكن رافعاً للحاجة وسادّاً للفراغ، لأنّ هناك وقائع وأحداث لم ترد بعينها في متون الروايات وسنن النبي ﷺ وإن كان يمكن استنباط أحكامها من العمومات والإطلاقات والأُصول الواردة في الكتاب والسنّة.

ولذلك دعت الحاجة في أوائل القرن الرابع إلىٰ إبداع منهج خاص في الفقه، وهو الخروج عن نطاق عبائر النصوص والألفاظ الواردة في الكتاب والسنّة، وعرض المسائل على القواعد الكلية الواردة في ذينك المصدرين، مع التحفظ على الأُصول المنقولة عن أئمّة الشيعة من نفي القياس والاستحسان ونفي الاعتماد على كلّ نظر ورأي ليس له دليل.

وهذا اللون من الفقه وإن كان سائداً بين فقهاء العامة، لكنّه كان مبنياً على أُسس وقواعد زائفة، كالعمل بالقياس وسائر المصادر الفقهية.

وأوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه في وجه الأُمّة، هو شيخ الشيعة وفقيهها الأجل، الحسن بن علي بن أبي عقيل أبو محمد الحذّاء عرّفه النجاشي بقوله: فقيه متكلم ثقة، له كتب في الفقه والكلام منها: كتاب «المتمسك بحبل آل الرسول»، كتاب مشهور في الطائفة، وقيل: ما ورد الحاج من خراسان إلّا طلب واشترى منه نسخاً، وسمعت شيخنا أبا عبد الله (المفيد)رحمه الله يكثر الثناء على هذا الرجل رحمه الله.[1]

---

١. رجال النجاشي: ٣٥. واختلف أرباب المعاجم في كنيته واسم أبيه لاحظ تعليقات فوائد الرجال للعلامة بحر العلوم:٢/ ٢١٢.

وهذا شيخ الطائفة الطوسي يعرّفه ويعرّف كتابه المذكور في فهرسته، ويقول: وهو من جملة المتكلّمين، إماميّ المذهب، ومن كتبه كتاب «المتمسك بحبل آل الرسول» في الفقه وغيره، وهو كتاب كبير حسن.[١]

ويقول العلاّمة: ونحن نقلنا أقواله في كتبنا الفقهية، وهو من جملة المتكلّمين وفضلاء الإمامية.

ويصف كتابه «المتمسك بحبل آل الرسول» بأنّه كتاب مشهور عندنا[٢]، وقد نقل آراءه العلاّمة في «مختلف الشيعة» في جميع أبواب الفقه، وهذا يكشف عن أنّ الكتاب المذكور كتب على أساس الاستنباط، وردّ الفروع إلى الأُصول، والخروج عن دائرة ألفاظ الحديث، عملاً بقول الصادق: علينا إلقاء الأُصول إليكم، وعليكم التفريع.[٣]

ولعلّه لأجل هذا قال العلاّمة بحر العلوم في «فوائده الرجالية»: هو أوّل من هذّب الفقه واستعمل النظر، وفتق البحث في الأُصول والفروع في ابتداء الغيبة الكبرى وبعده الشيخ الفاضل «ابن الجنيد».[٤]

وقال مؤلف «روضات الجنات» أيضاً: إنّ هذا الشيخ هو الذي ينسب إليه إبداع أساس النظر في الأدلّة، وطريق الجمع بين مدارك الأحكام بالاجتهاد الصحيح، ولذا يعبّر عنه وعن الشيخ أبي علي ابن الجنيد في كلمات فقهاء أصحابنا بالقديمين، وقد بالغ في الثناء عليه أيضاً صاحب «السرائر»، وغيره وتعرضوا لبيان خلافاته الكثيرة في مصنفاتهم.[٥]

---

١. الفهرست: ٧٩. ضبط الشيخ اسم أبيه «عيسى»،والنجاشي«علي»؛ والثاني أقرب إلى الصواب.

٢. الخلاصة: ٤٠.

٣. السرائر قسم المستطرفات: ٤٧٧ في ما أورده من جامع البزنطي.

٤. الفوائد الرجالية: ٢/ ٢٢٩.

٥. روضات الجنات:٢/ ٢٥٩.

والتاريـخ وإن لم يضبط عام وفاتـه، غير أنّه من معـاصري الشيخ الكليني المتوفّى عام ٣٢٩هـ ومن مشايخ جعفر بن محمد بن قولويه، المتوفى عام ٣٦٩هـ وقد ترجم له السيد الأمين في أعيان الشيعة ترجمة مبسوطة. (١)

والثاني هو محمد بـن أحمد بن جنيد، أبو علي الكاتب الاسكـافي، الذي قال النجاشي عنه: وجه في أصحابنا، ثقة، جليـل القدر، صنّف فأكثر، ثمّ ذكر فهرس كتبـه ومنهـا: كتـاب «تهذيـب الشيعـة لأحكـام الشريعــة»، وكتـاب «الأحمدي للفقه المحمدي». (٢)

ويصف الشيخ الطـوسي كتاب «تهذيـب الشيعة لأحكـام الشريعة»: بأنّـه كتـــاب كبير في عشريـن مجلـــداً، يشتمـل على عـــدّة مـن كتـب الفقـــه على طريق الفقهاء. (٣)

وقوله: على طريقة الفقهاء إشارة إلى أنّه كان كتاباً على نمط الكتب الفقهية الاستدلالية، نظير الكتب الفقهية للعامة.

ولأجل ذلك يقـول مؤلف «روضـات الجنات» : إنّ هذا الشيـخ تبع الحسن ابن أبي عقيل العماني فأبدع أساس الاجتهاد في أحكام الشريعة.

ونقل عن «ايضاح العلامة» أنّه قال: وجدت بخط السيد السعيد محمد بن معد، مـا صورته: وقع إليّ مـن هذا الكتاب ــ أي كتاب «تهذيب الشيعة» ــ مجلد واحد، وقد ذهب من أوّله أوراق، وهو كتاب النكاح، فتصفحته ولمحت مضمونه فلم أر لأحد من هذه الطائفة كتـاباً أجود منه، ولا أبلغ ولا أحسن عبارة، ولا أدق معنى، وقد استوفى منه الفروع والأُصول، وذكر الخلاف في المسائل واستدل بطريق

---

١. أعيان الشيعة: ٢٢/ ١٩٢ـ٢٠٢.

٢. رجال النجاشي: ٢٧٣.

٣. الفهرست: ١٦٠.

الإمامية وطريق مخالفيهم، وهذا الكتاب إذا أمعن النظر فيه وحصلت معانيه علم قدره ومرتبته، وحصل منه شيء كثير ولا يحصل من غيره.

ثمّ يقول العلاّمة: قد وقع إليّ من مصنفات هذا الشيخ المعظم الشأن كتاب «الأحمدي في الفقه المحمّدي»،وهو مختصر هذا الكتاب، جيد يدلّ على فضل هذا الرجل وكماله، وبلوغه الغاية القصوى في الفقه وجودة نظره، وأنا ذكرت خلافه وأقواله في كتاب «مختلف الشيعة في أحكام الشريعة». (١)

وبذلك يعلم أنّ استعمال القياس في فقهه كان لأجل الاستدلال على طريق المخالفين، ولعلّه إلى ذلك ينظر الشيخ حيث يقول في «عدّته» : لما كان العمل بالقياس محظوراً في الشريعة عندهم لم يعملوا به أصلاً، وإذا شذ واحد منهم عمل به في بعض المسائل، على وجه المحاجة لخصمه، وإن لم يكن اعتقاده، رووا قوله وأنكرواعليه. (٢)

الثالث: الشيخ الفقيه المحقّق النقّاد نابغة العراق، ونادرة الآفاق، الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (٣٣٨ـ٤١٣هـ).

يقول تلميذه، أبو العباس النجاشي عنه في رجاله : شيخنا وأُستاذنا رضي الله عنه، فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والوثاقة والعلم. (٣)

ويقول عنه تلميذه الآخر الشيخ الطوسي في فهرسته: محمد بن محمد بن النعمان المفيد، يكنّى أبا عبد الله المعروف بابن المعلم، من جملة متكلّمي الإمامية،

---

١. روضات الجنات :٦/ ١٤٥ـ١٤٧، نقلاً عن إيضاح العلاّمة: ٨٨ـ ٨٩،ط إيران، وقد نقله بعض الأجلّة عن خلاصة العلاّمة، وهو ليس بصحيح.

٢. عدة الأُصول: ١/ ٣٣٩ الطبعة الحديثة. لاحظ أيضاً في ذلك ما حقّقه السيد بحر العلوم في فوائده: ٣/ ٢١٣ـ٢٢٥.

٣. رجال النجاشي:٣٩٩ برقم ١٠٦٧.

انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته، وكان مقدماً في العلم وصناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، وله قريب من مائتي مصنف كبار وصغار. [١]

وكفى في فضل الرجل وتقدّمه في الفقه والكلام انّه تخرّج عليه وتربّى في مدرسته العلمان الكبيران: السيد المرتضى، والشيخ الطوسي قدس الله أسرارهما.

وقد ذكر النجاشي من أسامي مؤلفاته نحواً من مائة وأربعة وستين كتاباً. وقد طبع منه في الفقه: المقنعة، (والمسائل الصاغانية «والاعلام» فيما اتّفقت عليه الإمامية وهو كالذيل لكتاب أوائل المقالات) غير أنّ رسائله في الفقه كثيرة معروفة، يظهر لمن راجع الفهارس.

الرابع: علي بن الحسين الملقّب بـ «علم الهدى» والمعروف بـ «السيد المرتضى» (٣٥٥ـ ٤٣٦هـ).

قال عنه تلميذه الشيخ الطوسي: متوحّد في علوم كثيرة، مجمع على فضله، مقدّم في العلوم مثل علم الكلام والفقه وأُصول الفقه، ثمّ ذكر تصانيفه.

وقال عنه تلميذه الآخر أبو العباس النجاشي: حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه وسمع من الحديث فأكثر. وذكر تآليفه. [٢]

ومن تآليفه في الفقه: الانتصار في انفرادات الإمامية، صنّفه للأمير الوزير عميد الدين في بيان الفروع التي شنّع على الشيعة لأنّهم خالفوا فيها الإجماع فأثبت انّ لهم فيها موافقاً من فقهاء سائر المذاهب، وانّ لهم عليها حجّة قاطعة، من الكتاب والسنّة، وقد طبع الكتاب كراراً.

---

١. فهرست الشيخ الطوسي: ١٦٦.

٢. فهرست الشيخ: ١٢٥؛ رجال النجاشي: ٢٧٠ برقم ٧٠٨.

وكتابه هذا في الفقه، وكتابه الآخر أعني: «الذريعة في أُصول الفقه» يعربان عن أنّ السيد من الشخصيات البارزة التي يضن بها الدهر إلاّ في فترات قليلة.

الخامس: شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ)، فقيه الشيعة وزعيمهم في القرن الخامس بعد السيد المرتضى الشهير بعلم الهدى، فقد قام بتأليف كتاب على هذا النمط وأسماه كتاب «المبسوط»، وألّفه بعد كتابه المسمّى بـ«النهاية» الذي كتبه على النمط الأوّل من التأليف.

قال في مقدمة «المبسوط»: كنت عملت في قديم الوقت كتاب «النهاية»، وذكرت جميع ما رواه أصحابنا في مصنفاتهم وأُصولها من المسائل، وفرّقوه في كتبهم، ورتبته ترتيب الفقه، وجمعت فيه النظائر... ولم أتعرض للتفريع على المسائل ولا لتعقيد الأبواب، وترتيب المسائل وتعليقها والجمع بين نظائرها، بل أوردت جميع ذلك أو أكثره بالألفاظ المنقولة، حتى لا يستوحشوا من ذلك وعملت بآخره مختصر جمل العقود، وفي العبارات سلكت فيه طريق الإيجاز والاختصار، وعقود الأبواب في ما يتعلّق بالعبادات ... ووعدت فيه أن أعمل كتاباً في الفروع خاصة، يضاف إلى كتاب «النهاية»، ويجتمع مع ما يكون كاملاً كافياً في جميع ما يحتاج إليه.

ثمّ رأيت أنّ ذلك يكون مبتوراً يصعب فهمه على الناظر فيه، لأنّ الفرع إنّما يفهمه إذا ضبط الأصل معه، فعدلت إلى عمل كتاب يشتمل على عدد جميع كتب الفقه التي فصلوها الفقهاء، وهي نحو من ثلاثين كتاباً، أذكر كلّ كتاب منه على غاية ما يمكن تلخيصه من الألفاظ، واقتصرت على مجرد الفقه دون الأدعية والآداب، وأعقد فيه الأبواب وأقسم فيه المسائل، وأجمع بين النظائر واستوفيه غاية

الاستيفاء، وأذكر أكثر الفروع التي ذكرها المخالفون. [١]

وقد لخّصنا عبارة الشيخ في مقدمته، وقد أوضح فيها طريقته الحديثة، التي اجتمعت فيه مزية التفريع والتكثير، والإجابة على الحاجات الجديدة، وبيان أحكام الحوادث مع عدم الخروج عن حدود الكتاب والسنّة، بل الرجوع إليهما في جميع الأبواب.

وقد نال هذا الكتاب القيم رواجاً خاصّاً، وهو أحد الكتب النفيسة للشيعة الإمامية في الفقه، وقد طبع في ثمانية أجزاء.

كما أنّ للشيخ الطوسي كتاباً آخر وهو كتاب «الخلاف»، سلك فيه مسلك الفقه المقارن.

والحقّ أنّ شيخ الطائفة قد أُوتي موهبة عظيمة وفائقة، فخدم الفقه الإسلامي بألوان الخدمة، فتارة كتب كتاب «النهاية» على طريقة الفقه المنصوص أو المسائل المتلقاة كما كتب «المبسوط» على نهج الفقه التفريعي، وأثبت أنّ الشيعة مع نفيهم للقياس والاستحسان، قادرون على تفريع الفروع، وتكثير المسائل، وتبيين أحكامها من الكتاب والسنّة مع التحفّظ على أُصولهم بالاجتهاد.

ثمّ ألف كتاب «الخلاف» على نمط الفقه المقارن، فأورد فيه آراء الفقهاء في عصره والعصور الماضية، وهو من أحسن الكتب وأنفسها، كما أنّه ابتدع نوعاً رابعاً في التأليف، فأخرج أُصول المسائل الفقهية بأبرع العبارات وأقصرها وأدرجها في فصول خاصة، أسماها «الجمل والعقود»، وقد أشار إليها في مقدمته إذ قال وأنا مجيب إلى ما سأل الشيخ الفاضل أدام الله بقاه في املاء مختصر، يشتمل على ذكر كتب العبادات، وذكر عقود وأبواب وحصر جملها، وبيان أفعالها، وأقسامها إلى الأفعال والتروك وما يتنوع من الوجوب والندب، وأضبطها بالعدد، ليسهل على

١. المبسوط: ١/ ٢ـ٣.

من يريد حفظها، ولا يصعب تناولها ويفزع إليه الحافظ عند تذكّره، والطالب عند تدبّره.

فهذه الألوان الأربعة في كتب الشيخ يسدّ كلّ منها ناحية من النواحي الفقهية.

السادس: الشيخ سعد الدين أبو القاسم عبد العزيز بن نحرير[١] بن عبد العزيز بن براج الطرابلسي، تلميذ السيد المرتضى، وزميل الشيخ الطوسي أو تلميذه المعروف بالقاضي تارة وبابن البراج أُخرى، فقيه عصره وقاضي زمانه، وخليفة الشيخ في الشامات.

وهو أحد الفقهاء الأفذاذ في القرن الخامس بعد شيخيه: المرتضى والطوسي، صاحب كتاب «المهذب» في الفقه وغيره من الآثار الفقهية فهو ﷺ اقتفى خطوات شيخ الطائفة من حيث التبويب والتفريع، ويعد الكتاب من الموسوعات الفقهية البديعة في عصره.

وقبل كلّ شيء نذكر أقوال أئمّة الرجال والتراجم في حقّه، فنقول:

١. يقول الشيخ منتجب الدين في الفهرست: القاضي سعد الدين أبو القاسم عبد العزيز بن نحرير بن عبد العزيز بن البراج، وجه الأصحاب، وفقيههم، وكان قاضياً بطرابلس، وله مصنفات منها: «المهذب» و«المعتمد» و«الروضة» و«المقرب» و«عماد المحتاج في مناسك الحاج» أخبرنا بها الوالد، عن والده، عنه.[٢]

٢. ويقول ابن شهر آشوب في «معالم العلماء»: أبو القاسم عبد العزيز بن

---

١. نقل السيد بحر العلوم في فوائده: ٣/ ٦١ انّ في نسختين من نسخ إجازة العلاّمة لأبناء زهرة «بحر» مكان نحرير وجعله أصحّ لكون «بحر» أكثر في الأسماء من «نحرير».

٢. بحار الأنوار: ١٠٥/ ٢٤١، و قد طبع فهرست منتجب الدين في هذا الجزء من أجزاء البحار.

نحرير بن عبد العزيز، المعروف بابن البراج، من غلمان [١] المرتضى رضي الله عنه، لـه كتب في الأُصـول والفروع، فمـن الفروع: الجواهـر، المعالم، المنهـاج، الكـامل، روضة النفس في أحكام العبادات الخمس، المقرب، المهذب، التعريف، شرح جمل العلم والعمل للمرتضى رحمه الله. [٢]

٣. وقال العـلاّمة الحلّي في إجازتـه لأولاد زهرة المدرجة في كتـاب الإجازات للمجلسي الملحق بـآخر أجـزاء البحار، قال: ومـن ذلك جميع كتب الشيـخ عبد العزيز بن نحرير البراج. [٣]

٤. وقال الشهيد في بعـض مجاميعه في بيان تلامـذة السيد المرتضى : ومنهم أبو القاسم عبد العزيز بن نحـرير بن البراج، وكان قاضي طرابلس، ولاّه القاضي جلال الملك رحمه الله وكـان أُستـاذ أبي الفتـح الصيـداوي، وابـن رزح[كـذا]، مـن أصحابنا.

٥. وقال ابن فهد في اصطلاحات المهـذب: والقاضي عبد العزيز بن البراج تولى قضاء طرابلس عشرين سنة.

وقال في رموز الكتاب :وبكتابي القاضي: إلى المهذب والكامل. [٤]

٦.وقال الشيـخ علي الكركي في إجـازته للشيخ بـرهان الديـن أبي إسحاق إبراهيم بن علي في حقّ ابن البراج: الشيخ السعيد، خليفة الشيخ الإمام أبي جعفر محمـد بن الحسن الطـوسي بالبـلاد الشاميـة، عز الـدين عبـد العزيـز بن نحريـر ابن البراج قدس سره. [٥]

---

١. المراد من الغلمان في مصطلح الـرجاليين هوالخصيـص بالشيخ، حيث إنّـه تلمذ عليه و صـار من بطانة علومه.

٢. معالم العلماء: ٨٠.

٣. البحار:١٠٥/ ٢٦٥.

٤. الفوائد الرجالية:٣/ ٦٣.

٥. رياض العلماء:٣/ ١٤٤، وما نقلناه من الشهيد آنفاً نقلناه من ذاك المصدر.

٧.وذكـره الشهيد الثـاني في إجـازتـه، قال: «...وعـن السيد المرتضـى علم الهدى، وعن الشيخ سـلار والقاضي عبد العـزيز بن البراج، والشيـخ أبي الصلاح بجميع ما صنفوه ورووه».

وقال في حـاشية هذا الموضـع: وجدت بخط شيخنا الشهيـد انّ ابن البراج تولّى قضاء طرابلس عشرين سنة أو ثلاثين.[١]

٨. وقال بعـض تلامـذة الشيخ علي الكركـي، في رسالتـه المعمولـة في ذكر أسـامي مشـايخ الأصحـاب: ومنهم الشيخ عبـد العزيـز بن البراج الطـرابلسي، صنف كتبـاً نفيسة منهـا: المهذب، والكامـل، والموجز، والإشراق، والجواهـر، وهو تلميذ الشيخ محمد بن الحسن الطوسي.

٩. وقال الأفندي التبريزي في الرياض: وقد وجدت منقولاً عن خطّ الشيخ البهـائي، عن خط الشهيـد أنّـه تولّى ابن البراج قضـاء طـرابلس عشرين سنـة أو ثلاثين سنة، وكـان للشيخ أبي جعفر الطوسي أيام قراءتـه على السيد المرتضى كلّ شهـر اثنا عشر دينـاراً ولابن البراج كل شهـر ثمانية دنـانير، وكان السيـد المرتضى يجري على تلامذته جميعاً.

١٠. ونقل عـن بعض الفضـلاء أنّ ابن البراج قـرأ على السيـد المرتضى في شهـور سنة تسـع وعشرين وأربعمائة إلى أن مـات المرتضى، وأكمـل قراءتـه على الشيخ الطوسي، وعاد إلى طرابلـس في سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، وأقام بها إلى أن مات ليلة الجمعـة لتسع خلون من شعبان سنة احـدى وثمانين وأربعمائة وقد نيف على الثمانين.[٢]

---

١. ولاحظ الفوائد الرجالية للسيد بحر العلوم:٣/ ٦٢.

٢. رياض العلماء:٣/ ١٤١ـ ١٤٢.

١١. ونقل صاحب الروضات عـن «أربعين الشهيد»، نقلاً عن خط صفي الدين المعد الموسوي: انّ سيدنا المرتضى ــ رضي الله عنه ـ كان يجري على تلامذته رزقاً فكان للشيخ أبي جعفر الطوسي ﷺ أيّام قراءته عليه كلّ شهر اثنا عشر ديناراً وللقاضي كلّ شهر ثمانية دنانير، وكان وقف قرية على كاغذ الفقهاء. (١)

١٢. وقال عنـه التفريشي في رجـاله: فقيه الشيعـة الملقّب بالقـاضي، وكان قاضياً بطرابلس. (٢)

١٣. وقال المولى نظـام الديـن القريشي في نظـام الأقوال: عبـد العزيـز بن البراج، أبو القـاسم، شيخ من أصحـابنا، قـرأ على السيد المرتضى في شهـور سنة تسع وعشريـن وأربعمائة وكمل قـراءتـه على الشيخ الطـوسي، وعبر عنـه بعض ـ كالشهيـد في الدروس وغيره ـ بالقـاضي، لأنّه ولي قضاء طرابلـس عشرين سنة أو ثـلاثين، مـات ليلـة الجمعـة لتسع خلـون مـن شعبـان سنـة احـدى وثمانين وأربعمائة. (٣)

١٤. وقال الشيخ الحرّ العاملي في أمل الآمل:... وجه الأصحاب وفقيههم، وكان قـاضياً بطـرابلس، وله مصنفـات، ثمّ ذكر نفس مـا ذكره منتجب الـدين في فهرسته، وابن شهر آشوب في معالمه، والتفريشي في رجاله. (٤)

١٥. وقال المجلسي في أوّل البحار: وكتاب المهذب وكتاب الكامل وكتاب جواهر الفقه للشيخ الحسن المنهاج، عبد العزيز بن البراج، وكتب الشيخ الجليل ابن البراج كمؤلفها في غاية الاعتبار. (٥)

---

١. روضات الجنات: ٤/ ٢٠٣. وانظر رجال السيد بحر العلوم:٣/ ١٠٥.

٢. نقد الرجال: ١٨٩.

٣. رياض العلماء: ٣/ ١٤٥، نقلاً عن نظام الأقوال.

٤. أمل الآمل:٢/ ١٥٢ـ ١٥٣.

٥. بحار الأنوار: ١/ ٢٠و٣٨.

١٦. وفي مجمع البحرين. مادة «برج»:وابن البراج: أبـو القاسم عبد العزيز من فقهاء الإمامية وكان قاضياً بطرابلس.

١٧. وقال التستري في مقـابيس الأنوار: الفاضل الكـامل، المحقّق المدقق، الحائز للمفاخر والمكارم ومحاسن المراسم: الشيخ سعـد الدين وعز المؤمنين، أبو القاسم عبد العزيز بن نحرير بن عبد العزيز بن البراج الطرابلسي الشامي نوّر الله مـرقده السـامي، وهو مـن غلمان المرتضى، وكـان خصيصاً بـالشيخ وتلمذ عليـه وصار خليفتـه في البلاد الشامية، وروى عنـه وعن الحلبي، وربما استظهر تلمـذته على الكراجكي وروايته عنه أيضاً. [١] وصنف الشيخ له ـ بعد سؤاله ـ جملة من كتبه معبراً عنه في أوائلها بالشيخ الفاضـل، وهو المقصود به والمعهود، كما صرح به الـراوندي في «حل المعقـود»، وكتب الشيخ أجـوبـة مسائل لـه أيضاً، وكـان من مشايخ ابن أبي كامل، والشيخ حسكا، والشيخ عبد الجبار، والشيخ محمد بن علي بن محسن الحلبي، وروى عنه ابناه الأُستاذان: أبو القاسم وأبو جعفر اللّذان يروي عنهما القطب الـراونـدي وابـن شهر آشـوب السروي وغيرهـم، ولـه كتب منهـا: المهـذب، والجواهـر، وشرح جمل المرتضى، والكـامـل، وروضـة النفس، والمعـالم، والمقرب، والمعتمد، والمنهاج، وعماد المحتـاج في مناسك الحاج، والموجز، وغيرها، ولم أقف إلاّ على الثلاثة الأُول، ويعبر عنه كثيراً بابن البراج. [٢]

١٨. وقـال المتتبع النـوري:... الفقيه العـالم الجليل، القـاضي في طـرابلس الشام في مدّة عشريـن سنة، تلميذ علم الهدى وشيخ الطائفـة، وكان يجري السيد عليه في كلّ شهر دينار(الصحيح ثمانية دنـانير)، وهو المراد بالقاضي على الإطلاق

---

١. سيوافيك من صاحب رياض العلماء خلافه وأنّ الذي تتلمذ عليه هو تلميذ القاضي لا نفسه، وأنّ الاشتباه حصل من وحدة الاسم واللقب.

٢. مقابيس الأنوار:٧ـ٩.

في لسان الفقهــاء، وهو صاحب المهـذب والكامل والجواهـر وشرح الجمل للسيد والموجز وغيرها... توفّي ﷺ ليلة الجمعة لتسع خلون من شعبان سنة ٤٨١هـ وكان مولده ومنشأه بمصر.[١]

١٩. وقال السيد الأمين العاملي: وجه الأصحــاب، وكان قاضياً بطرابلس، وله مصنفات، ... كتاب في الكلام، وكان في زمن بني عمار.[٢]

٢٠. وقال الحجّة السيد حسن الصدر عنه: القاضي ابن البراج، هو الشيخ أبو القـاسم عبد العـزيز بـن نحرير بـن عبد العزيـز بن البراج، وجـه الأصحاب وفقيههم امـام في الفقه، واسـع العلم، كثير التصنيف، كـان من خـواص تلامـذة السيد المرتضى حضر عالي مجلس السيد في شهور سنة ٤٢٩ إلى أن توفّي السيّد.

ثمّ لازم شيخ الطـائفة أبا جعفر الطـوسي حتى صار خليفـة الشيخ وواحد من أهل الفقه، فولّاه جلال الملك قضاء طرابلس سنة ٤٣٨، وأقام بها إلى أن مات ليلـة الجمعة لتسـع خلون مـن شعبـان سنة احـدى وثمانين وأربعمائة، وقـد نيف على الثمانين، وكان مولده بمصر وبها منشؤه.[٣]

إلى غير ذلك من الكلمات المعطـرةالتي فاحـت بها كتب التراجم والـرجال والتي تعرب عن مكانة الرجل ومرتبتـه في الفقه وانّه أحد أعيان الطائفة في عصره، وقاضياً من قضاتهم في طرابلس.

غير أنّ من المؤسف أنّ أرباب التراجم الذين تناولوا ترجمة الرجل عمدوا إلى نقل الكلمات حـولـه بعضهم عن بعضهم مـن دون تحليل لشخصيتـه، ومن دون إشارة إلى ناحية من نواحي حياته العلمية والاجتماعية.

---

١. المستدرك: ٣/ ٤٨١.

٢. أعيان الشيعة: ٧/ ١٨.

٣. تأسيس الشيعة لفنون الإسلام: ٣٠٤.

ولأجل ذلك نحاول في هذه المقدمة القصيرة تسليط المزيد من الأضواء على حياته، وتحليلها.

أضواء على حياة المؤلف

ميلاده: لم نقف على مصدر يعين تاريخ ميلاد المترجم له على وجه دقيق، غير أنّ كلمة الرجاليين والمترجمين له اتّفقت على أنّه توفي عام ٤٨١ هـ وقدنيف على الثمانين، فعلى هذا فإنّ أغلب الظن أنّه ﷺ ولد عام ٤٠٠ هـ أو قبل هذا التاريخ بقليل.

هو شامي لا مصري

وأمّا موطنه فقد نقل صاحب «رياض العلماء» عن بعض الفضلاء أنّ مولده كان بمصر، وبها منشأه. [1]

وأخذ منه صاحب «المقابيس» والسيد الصدر كما عرفت، ولكنّه بعيد جدّاً.

والظاهر أنّه شامي لا مصري، ولو كان من الديار المصرية لزم عادة أن ينتحل المذهب الإسماعيلي، وينسلك في سلك الإسماعيليين، لأنّ المذهب الرائج في مصر ــ يومذاك ــ كان هو المذهب الإسماعيلي، وكان الحكام هناك من الفاطميين يروّجون لذلك المذهب، فلو كان المترجم له مصري المولد والمنشأ فهو بطبيعة الحال إذا لم يكن سنياً، يكون إسماعيلياً، وبما أنّه يعد من أفذاذ فقهاء الشيعة الإمامية لزم أن يشتهر انتقاله من مذهب إلى مذهب، ولذاع وبان، مع انّه لم يذكر في حقّه شيء من هذا القبيل.

---

١. رياض العلماء: ٣/ ١٤٣.

هـذا هـو القاضي أبـو حنيفـة النعمان بن محمـد التميمي المغـربي، الفقيـه الفـاطمي الإسماعيلي، مـؤلـف كتـاب «دعائم الإسـلام» المتـوفّى في القـاهـرة في جمادى الآخرة عـام ٣٦٣هـ قدعـاش بين الفاطميين وألّف على مذهبهـم، ومات عليه، وصلىّ عليه المعز لدين الله.

وتـرجمه السيـد بحر العلـوم في الجزء الـرابع ص ١٤٥ مـن فـوائده، وعلّق عليه المعلق تعليقات مفيدة، فشكر الله مساعي المؤلف والمعلق فلاحظ.

فالظاهـر أنّ ابن البراج شامي، وقد انتقل بعد تكميـل دراسته في بغداد إلى مـولده ــ البـلاد الشـامية ــ للقيـام بـواجباتـه، وحفظ الشيعـة مـن الرجـوع إلى محاكم الآخرين.

منزلته العلمية

قـد وقفت في غضون كلمات الـرجـاليين والمترجمين انّ السيد المرتضى كـان يجري الرزق على الشيخ الطوسي اثني عشر دينـاراً وعلى المؤلف ثمانية دنانير، وهذا يفيد أنّ المؤلف كان التلميـذ الثاني من حيث المرتبة والبراعة بعـد الشيخ الطوسي في مجلس درس السيد المرتضى، كيـف وقد اشتغل الشيخ بالدراسـة والتعلم قبله بخمسة عشر عاماً، لأنّه ولد عام ٤٠٠ هـ أو قبله بقليل وولد الشيخ الطوسي عام ٣٨٥هـ.

وحتى لو فـرض أنّهما كانا متقـاربين في العمر ومدّة الـدراسة، ولكن بـراعة الشيخ وتوقده ونبـوغه ممّا لا يكاد ينكر، وعلى كـلّ تقدير فالظاهـر أنّ هذا السلوك من السيد بالنسبة لتلميذيه كان بحسب الدرجة العلمية.

زمالته للشيخ

لقد حضر المؤلف درس السيد المرتضى ﷺ عام ٤٢٩هـ وهو ابن ثلاثين سنة أو ما يقاربه فقد استفاد من بحر علمه وحوزة درسه قرابة ثمان سنين، حيث إنّ المرتضى لبّى دعوة ربّه لخمس بقين من شهر ربيع الأوّل سنة ٤٣٦هـ.[١]

فعندما لبّى الأُستاذ دعوة ربّه، حضر درس الشيخ إلى أن نصب قاضياً في طرابلس عام ٤٣٨هـ وعلى ذلك فقد استفاد من شيخه الثاني قرابة ثلاث سنوات، ومع ذلك كلّه فالحقّ أنّ القاضي ابن البراج زميل الشيخ في الحقيقة، وشريكه في التلمذ على السيد المرتضى، وأنّه بعدما لبّى السيد المرتضى دعوة ربّه وانتهت رئاسة الشيعة ــ في بغداد ــ إلى الشيخ الطوسي، حضر درس الشيخ الطوسي توحيداً للكلمة، وتشرفاً وافتخاراً، أوّلاً، واستفادة ثانياً كما قبل من جانبه الخلافة والنيابة في البلاد الشامية.

وتدل على أنّ ابن البراج كان زميلاً صغيراً للشيخ لا تلميذاً له أُمور:

١. عندما توفي أُستاذه السيد المرتضى ﷺ، كان القاضي ابن البراج قد بلغ مبلغاً كبيراً من العمر، يبلغ الطالب ـ في مثله ـ مرتبة الاجتهاد، وهو قرابة الأربعين، فيبعد أن يكون حضوره في درس الشيخ الطوسي من باب التلمذ المحض بل هو لأجل ما ذكرناه قبل قليل.

٢. انّ السيد المرتضى عمل كتاباً باسم «جمل العلم والعمل» في الكلام والفقه على وجه موجز، ملقياً فيها الأُصول والقواعد في فن الكلام والفقه.

وقد تولّى شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي شرح القسم الكلامي منه وهو ما يعبّر عنه بـ «تمهيد الأُصول» وقد طبع الكتاب بهذا الاسم وانتشر.

---

١. رجال النجاشي: ١٩٣.

بينما تولىّ القـاضي ابن البراج ـ المترجم لـه ـ شرح القسم الفقهي ومـن هذا يظهـر زمالـة هذيـن العلمين، بعضهما لبعض في المجـالات العلمية، فكلّ واحـد يشرح قسماً خاصاً من كتاب أُستاذهما.

٣. انّ شيخنا المؤلّف ينقل في كتابه«شرح جمل العلم والعمل» عند البحث عن جواز إخراج القيمة من الأجناس الزكوية ما هذا عبارته: «وقد ذكر في ذلك ما أشـار إليه صـاحب الكتـاب رضي الله عنه مـن الروايـة الـواردة، من الـدرهم أو الثلثين، والأحوط إخراجها بقيمة الوقت، وهذا الـذي استقر تحريرنا له مع شيخنا أبي جعفر الطوسي ورأيت من علمائنا من يميل إلى ذلك». [١]

وهذه العبارة تفيد زمالتهما في البحث والتحرير.

٤. نرى أنّ المؤلّف عندمـا يطرح في كتابه«المهذب» آراء الشيـخ يعقبه بنقد بنّاء ومنـاقشة جـريئة، ممـا يدل على زمـالته للشيخ لا تلميـذاً آخذاً، ونأتي لـذلك بنموذجين:

أوّلاً: فهـو يكتب في كتاب الأيمان مـن «المهذب» إذا مـا حلف الـرجل على عدم أكل الحنطة، فهل يحنث إذا أكلها دقيقاً أو لا، ما هذا عبارته:

كان الشيخ أبو جعفر الطوسي ﵀ قد قال لي يوماً في الدرس: إن أكلها على جهتها حنث، وإن أكلها دقيقاً أو سويقاً لم يحنث.

فقلـت لـــه: ولم ذلـك؟ وعين الـــدقيـق هـي عين الحنطــة، وإنّما تغيرت بالتقطيع الذي هو الطحن.

فقال: قد تغيرت عمّا كانت عليـه. وإن كانت العين واحدة، وهو حلف أن لا يأكل ما هو مسمى بحنطة لا ما يسمى دقيقاً.

---

١. شرح جمل العلم والعمل: ٢٦٨، وقد حقق نصوصه الأُستاذ مدير شانه‌چي دام ظله.

فقلت له: هذا لم يجز في اليمين، فلو حلف: لا أكلت هذه الحنطة مادامت تسمّى حنطة، كان الأمر على ما ذكرت، فإنّما حلف أن لا يأكل هذه الحنطة أو من هذه الحنطة.

فقال: على كلّ حال قد حلف أن لا يأكلها وهي على صفة، وقد تغيّرت عن تلك الصفة، فلم يحنث.

فقلت: الجواب هاهنا مثل ما ذكرته أوّلاً، وذلك: إن كنت تريد أنّه حلف أن لا يأكلها وهي على صفة. أنّه أراد وهي على تلك الصفة، فقد تقدّم ما فيه، فإن كنت لم ترد ذلك فلا حجّة فيه.

ثمّ يلزم على ما ذكرته أنّه لوحلف أن لا يأكل هذا الخيار وهذا التفاح، ثمّ قشره وقطعه وأكله الاّ يحنث ولا شبهة في أنّه يحنث.

فقال: من قال في الحنطة ما تقدم، يقول في الخيار والتفاح مثله.

فقلت له: إذا قال في هذا مثل ما قاله في الحنطة علم فساد قوله بما ذكرته: من أنّ العين واحدة، اللّهمّ إلاّ إن شرط في يمينه أن لا يأكل هذا الخيار أو هذا التفاح وهو على ما هو عليه، فأنّ الأمر يكون على ما ذكرته؟ وقد قلنا إنّ اليمين لم يتناول ذلك.

ثمّ قلت: على انّ الاحتياط يتناول ما ذكرته، فأمسك. (١)

ثانياً: ما جاء في كتاب الطهارة، في الماء المضاف إذا اختلط بالماء المطلق وكانا متساويين في المقدار، فذهب القاضي إلى أنّه لا يجوز استعماله في رفع الحدث، ولا إزالة النجاسة، ويجوز في غير ذلك، ثمّ قال:

وقد كان الشيخ أبو جعفر الطوسي ﵀ قال لي يوماً في الدرس: هذا الماء يجوز

١. المهذب:٢/ ٤١٩و٤٢٠، كتاب الكفارات.

يجوز استعماله في الطهارة و إزالة النجاسة.

فقلت له: ولم أجزت ذلك مع تساويهما؟

فقال: إنّما أجزت ذلك لأنّ الأصل الإباحة.

فقلت له: الأصل و إن كان هو الإباحة، فأنت تعلم أنّ المكلّف مأخوذ بأن لا يرفع الحدث ولا يزيل النجاسة عن بدنه أو ثوبه إلّا بالماء المطلق، فتقول أنت بأنّ هذا الماء مطلق؟! فقال: أفتقول أنت بأنّه غير مطلق؟

فقلت له: أنت تعلم أنّ الواجب أن تجيبني عمّا سألتك عنه قبل أن تسألني بـ«لا» أو «نعم» ثمّ تسألني عمّا أردت، ثمّ إنّني أقول بأنّه غير مطلق.

فقال: ألست تقول فيها إذا اختلطا وكان الأغلب والأكثر المطلق فهما مع التساوي كذلك؟

فقلت له: إنّما أقول بأنّه مطلق إذا كان المطلق هو الأكثر والأغلب، لأنّ ما ليس بمطلق لم يؤثر في إطلاق اسم الماء عليه، ومع التساوي قد أثر في إطلاق هذا الاسم عليه، فلا أقول فيه بأنّه مطلق، ولهذا لم تقل أنت بأنّه مطلق، وقلت فيه بذلك إذا كان المطلق هو الأكثر والأغلب، ثمّ إنّ دليل الاحتياط تناول ما ذكرته، فعاد إلى الدرس ولم يذكر فيه شيئاً. [1]

وهذا النمط من البحث والنقاش والأخذ والرد في أثناء الدروس يرشد إلى مكانة القاضي في درس الشيخ الطوسي، وانّ منزلته لم تكن منزلة التلميذ بل كان رجلاً مجتهداً ذا رأي ونظر ربما قدر على اقناع أُستاذه و إلزامه برأيه.

٥. انّ الناظر في ثنايا كتاب «المهذب» يرى بأنّ المؤلف ــ المترجم له ـ يعبر عن أُستاذه السيد المرتضى بلفظة «شيخنا» بينما يعبر عن «الشيخ الطوسي»

---

١. المهذب :١/ ٢٤ـ٢٥، كتاب الطهارة.

بلفظة «الشيخ أبـو جعفر الطوسي» لا بـ «شيخنا» والفـارق بين التعبيرين واضح وبيّن.

وهذا و إن لم يكن قـاعدة مطردة في هذا الكتـاب إلاّ انّها قاعدة غـالبة. نعم عبّر في «شرح جمل العلم والعمل» عنه بـ«شيخنا» كما نقلناه.

٦. ينقل هو رأي الشيخ الطوسي في مواضع كثيرة بلفظ «ذكر»أي قيل، وقد وجدنا موارده في مبسوط الشيخ ﷺ ونهايته.

ولا شكّ أنّ هذا التعبير يناسب تعبير الزميل عـن الزميل لا حكاية التلميذ عن أُستاذه.

وعلى كلّ تقدير فرحم الله الشيخ والقـاضي بما أسديا إلى الأُمة من الخدمات العلمية، ووفقنا للقيام بواجبنا تجاه هذين العلمين، والطودين الشامخين.

استمرار الاجتهاد والمناقشة في آراء الشيخ

لقد نقل صـاحب المعالم عن والده ـ الشهيـد الثاني ـ ﷺ بأنّ أكثر الفقهاء الذيـن نشأوا بعد الشيخ كـانوا يتبعونـه في الفتوى تقليداً لـه لكثرة اعتقادهـم فيه وحسن ظنّهم به، فلمّا جـاء المتأخرون وجدوا أحكاماً مشهـورة قد عمل بها الشيخ ومتابعوه فحسبـوها شهرة بين العلماء، وما دروا أنّ مرجعهـا إلى الشيخ وأنّ الشهرة إنّما حصلت بمتابعته.

قال الوالد ـ قدّس الله نفسه ـ : وممّن اطّلع على هذا الذي تبيّنته وتحقّقته من غير تقليد: الشيخ الفـاضل المحقّق سديـد الدين محمـود الحمصي، والسيد رضي الدين ابن طاووس، وجماعة.

وقال السيد ﷺ في كتابـه المسمّى بـ«البهجة لثمرة المهجـة»: أخبرني جدي الصالح ـ قدّس الله روحه ـ ورام بن أبي فـراس ـ قدّس روحه ـ أنّ الحمصي حدّثه

أنّـه لم يبق مفـت لـلإمـامية على التحقيـق بل كلّهـم حـاك. وقـال السيـد عقيب ذلـك: والآن فقـد ظهـر لي أنّ الـذي يفتـى بـه ويجاب على سبيـل مـا حفظ مـن كلام المتقدمين. [١]

ولكن هذا الكـلام على إطلاقه غير تام، لما نرى من أنّ ابـن البراج قد عاش بعد الشيخ أزيـد من عشرين سنة، وألّف بعض كتبـه كالمهذّب بعـد وفاة الشيخ وناقش آراءه بوضوح، فعند ذلك لا يستقيـم هذا القول على إطلاقه: «لم يبق مفت للإمامية على التحقيق بل كلّهم حاك».

وخلاصة القول: إنّ في الكـلام المذكور نوع مبالغة، لوجـود مثل هذا الفقيه البارع.

منزلته عند الشيخ الطوسي

قد عرفت مكانة الشيخ ومنزلته العلمية، فقد كان الشيخ الطوسي ينظر إليه بنظر الإكبار والإجلال، ولأجل ذلك نرى أنّ الشيخ ألف بعض كتبه لأجل التماسه وسؤاله.

فها هو الشيخ الطوسي يصرّح في كتابه «المفصح في إمامة أمير المؤمنين» بأنّه ألّف هذا الكتاب لأجل سؤال الشيخ (ابن البراج) منه فيقول:

سألـت أيها الشيخ الفاضـل أطال الله بقـاءك وأدام تأييـدك املاء كـلام في صحّة إمامة أمير المؤمنين، علي بن أبي طالـب، صلوات الله عليه. [٢]

كما أنّه ألف كتابـه «الجمل والعقود» بسؤاله أيضاً حيث قال: أمّـا بعد فأنا مجيب إلى ما سأل الشيخ الفاضـل ـ أدام الله بقاءه ـ، من إملاء مختصر يشتمل على

١. معالم الدين: ٤٠٨ ـ الطبعة الجديدة ـ المطلب الخامس في الإجماع.

٢. الرسائل العشر: ١١٧.

ذكر كتب العبادات.[١]

ونرى أنّه ألّف كتابه الثالث «الإيجاز في الفرائض والمواريث» بسؤال الشيخ أيضاً فيقول: سألت أيدك الله املاء مختصر في الفرائض والمواريث.[٢]

ولم يكتف الشيخ بذلك، فألف رجاله بالتماس هذا الشيخ أيضاً إذ يقول: أمّا بعد فإنّي قد أجبت إلى ما تكرر سؤال الشيخ الفاضل فيه، من جمع كتاب يشتمل على أسماء الرجال الذين رووا عن النبي ﷺ وعن الأئمّة من بعده إلى زمن القائم عليه السلام، ثمّ أذكر من تأخر زمانه عن الأئمّة من رواة الحديث.[٣]

ويقول المحقّق الطهراني في مقدمته على «التبيان» عند البحث عن «الجمل والعقود»: قد رأيت منه عدّة نسخ في النجف الأشرف، وفي طهران، ألّفه بطلب من خليفته في البلاد الشامية، وهو القاضي ابن البراج، وقد صرح في هامش بعض الكتب القديمة بأنّ القاضي المذكور هو المراد بالشيخ، كما ذكرناه في الذريعة ج٥ص ١٤٥.[٤]

ويقول المحقّق الشيخ محمد واعظ زاده في تقديمه على كتاب «الرسائل العشر»:

وفي هامش النسخة من كتاب «الجمل والعقود» التي كانت بأيدينا، قد قيد أنّ الشيخ هو ابن البراج.

وعلى ذلك يحتمل أن يكون المراد من الشيخ الفاضل في هذه الكتب الثلاثة هو الشيخ القاضي ابن البراج، كما يحتمل أن يكون هو المراد في ما ذكره في أوّل

---

١. الرسائل العشر: ١٥٥.

٢. الرسائل العشر: ٢٦٩.

٣. رجال الشيخ: ٢.

٤. التبيان، ج١، مقدمة المحقق الطهراني ص(ث).

كتاب الفهرست حيث قال:

ولما تكـرر من الشيخ الفـاضل ـ أدام الله تـأييده ـ الرغبـة في ما يجري هـذا المجـرى وتوالى منـه الحث على ذلـك، ورأيته حـريصـاً عليـه، عمدت إلى كتـاب يشتمل على ذكر المصنفات والأُصول ولم أفرد أحدهما عن الآخر...، وألتمس بذلك القربة إلى الله تعالى، وجزيل ثوابه، ووجوب حقّ الشيخ الفاضل ـ أدام الله تأييده ـ وأرجو أن يقع ذلك موافقاً لما طلبه إن شاء الله تعالى.[١]

ونرى نظير ذلك في كتابه الخامس أعني «الغيبة» حيث يقول:

فانّي مجيب إلى مـا رسمه الشيخ الجليل (أطـال الله بقاه) من إمـلاء كلام في غيبة صاحـب الزمان[٢]. وربما يحتمـل أن يكـون المراد من الشيـخ في الكتـاب الخامس، هو الشيخ المفيد، ولكنّه غير تام لوجهين:

أوّلاً: انّه ﷺ قد عين تاريخ تأليف الكتاب عند البحث عن طول عمره حيث قال: فإن قيل: ادعاؤكم طول عمر صاحبكم أمر خارق للعادات، مع بقائه ـ على قولكم ـ كامل العقل تام القوة والشباب، لأنّه على قولكم في هذا الوقت الذي هو سنة سبع وأربعين وأربعمائة....

ومن المعلوم انّ الشيخ المفيد قد توفي قبل هذه السنة بـ٣٤ عاماً.

أضف إلى ذلك أنّه يصرّح في أوّل كتاب الغيبة بأنّه (رسمه مع ضيق الوقت وشعث الفكر، وعـوائق الزمان، وطوارق الحدثان)، وهـو يناسب أُخريـات إقامة الشيخ في بغداد، حيـث حاقت به كثير مـن الحوادث المؤسفة المؤلمة، حتى ألجأت الشيـخ إلى مغـادرة بغـداد مهـاجـراً إلى النجف الأشرف، لما دخـل طغـرل بـك

---

١. فهرست الشيخ: ٢٤.

٢. الغيبة: ٧٨.

السلجوقي بغداد عام ٤٤٧، واتّفق خروج الشيخ منها بعد ذلك عام ٤٤٨، فقد أحرق ذلك الحاكم الجائر مكتبة الشيخ والكرسي الذي يجلس عليه في الدرس، وكان ذلك في شهر صفر عام ٤٤٨. [١]

أضف إلى ذلك أنّ شيخ الطائفة ألف كتاباً خاصاً باسم «مسائل ابن البراج» نقله شيخنا الطهراني في مقدمة «التبيان» عن فهرس الشيخ. [٢]

أساتذته

لا شكّ أنّ ابن البراج ﷺ أخذ أكثر علومه عن أُستاذه السيد المرتضى ﷺ وتخرج على يديه، قال السيد بحر العلوم: وقد تلمذ على السيد المرتضى وأخذ عنه العلم والفقه، الجم الغفير من فضلاء أصحابنا وأعيان فقهائنا منهم ...والقاضي السعيد «عبد العزيز بن البراج». وحضر بحث شيخ الطائفة على النحو الذي سمعت، غير أنّنا لم نقف على أنّه عمّن أخذ أوليات دراساته في الأدب وغيره [٣].

وربّما يقال إنّه تتلمذ على المفيد، كما في «رياض العلماء» [٤] وهو بعيد جدّاً، لأنّ المفيد توفّي عام ٤١٣هـ والقاضي بعد لم يبلغ الحلم لأنّه من مواليد ٤٠٠ أو بعام قبله، ومثله لا يقدر على الاستفادة عادة من بحث عالم نحرير كالمفيد ﷺ.

وقد ذكر التستري صاحب المقابيس أنّه تلمذ على الشيخ أبي الفتح محمد ابن علي بن عثمان الكراجكي أحد تلاميذ المفيد ثمّ السيد، ومؤلف كتاب «كنز

---

١. لاحظ المنتظم لابن الجوزي:٨/ ١٧٣، الكامل لابن الأثير:٨/ ٨١.
٢. التبيان ص أ ـ ب . ونص به أيضاً العلاّمة الطباطبائي في فوائده الرجالية لاحظ :٣/ ٢٣٣.
٣. الفوائد الرجالية: ٣/ ١٣٩.
٤. رياض العلماء:٣/ ١٤٢.

الفوائد» وغيره من المؤلفات البالغة ثلاثين تأليفاً. [١]

وقال في الرياض نقلاً عن المجلسي في فهرس بحاره: إنّ عبد العزيز بن البراج الطرابلسي من تلاميذ أبي الفتح الكراجكي، ثمّ استدرك على المجلسي بأنّ تلميذه هو القاضي عبد العزيز بن أبي كامل الطرابلسي، لا عبد العزيز بن نحرير[٢] غير أنّ التستري لم يذكر على ما قاله مصدراً، نعم بحسب طبع الحال فقد أخذ عن مثله.

وربّما يقال بتلمذه على أبي يعلى محمد بن الحسن بن حمزة الجعفري، صهر الشيخ المفيد وخليفته، والجالس محله الذي وصفه النجاشي في رجاله بقوله: بأنّه متكلّم فقيه قيم بالأمرين جميعاً. [٣]

ولم نقف على مصدر لهذا القول، سوى ما ذكره الفاضل المعاصر الشيخ كاظم مدير شانه‌چي في مقدمة كتاب «شرح جمل العلم والعمل» للقاضي ابن البراج.

وربّما عدّ من مشايخه أبو الصلاح تقي الدين بن نجم الدين (٣٤٧ ـ ٤٤٧هـ)، عن عمر يناهز المائة، وهو خليفة الشيخ في الديار الحلبية، كما كان

١. ريحانة الأدب: ٥/ ٤٠.

٢. رياض العلماء: ٣/ ١٤٢.

٣. رجال النجاشي: ٢٨٨، وهذا الشيخ هو الذي اشترك مع النجاشي في تغسيل السيد المرتضى، يقول الشيخ النجاشي عند ترجمة المرتضى: وتوليت غسله ومعي الشريف أبو يعلى محمد بن الحسن ابن حمزة الجعفري وسالار بن عبد العزيز،وبذلك يظهر أنّه كان حياً عام وفاة المرتضى، وهو ٤٣٦ والأخير هو الحقّ الحقيق بالتصديق لاحظ مقال العلاّمة الحجّة السيد موسى الزنجاني دام ظله في مجلة «نور علم» العدد ١١و١٢.

وليعلم أنّ الشيخ أبا يعلى غير محمد بن علي بن حمزة الطوسي المشهدي، وهو الذي يقول فيه الشيخ منتجب الدين: فقيه، عالم، واعظ له تصانيف منها: الوسيلة، الواسطة، الرائع في الشرائع، المعجزات، مسائل في الفقه (البحار: ١٠٢/ ٢٧١).

القاضي خليفته في ناحية طرابلس.

كما يحتمل تلمّذه على حمزة بن عبد العزيز الملقّب بسلاّر صاحب المراسم، المتوفّ عام ٤٦٣هـ المدفون بقرية خسرو شاه من ضواحي تبريز، ولم نجد لذلك مصدراً وإنّما هو وما قبله ظنون واحتمالات، وتقريبات من الشيخ الفاضل المعاصر «مدير شانه‌چي» وعلى ذلك فقد تلمذ المترجم له على الشيخ أبي عبد الله جعفر بن محمد الدوريستي الذي هو: «ثقة عين، عدل، قرأ على شيخنا المفيد، والمرتضى علم الهدى». [١]

وقد ذكر الفاضل المعاصر من مشايخه عبد الرحمان الرازي، والشيخ المقرئ ابن خشاب، ونقله عن فهرست منتجب الدين، غير أنّا لم نقف على ذلك في فهرست منتجب الدين وإنّما الوارد فيه غير ذلك. [٢]

فقد قال الشيخ منتجب الدين: الشيخ المفيد أبو محمد عبد الرحمان بن أحمد بن الحسين النيسابوري الخزاعي، شيخ الأصحاب بالري، حافظ، ثقة، واعظ، سافر في البلاد شرقاً وغرباً، وسمع الأحاديث عن المؤالف والمخالف، وقد قرأ على السيدين: علم الهدى المرتضى، وأخيه الرضي، والشيخ أبي جعفر الطوسي، والمشايخ: سالار، وابن البراج، والكراجكي ـ رحمهم الله جميعاً ـ وقال أيضاً: الشيخ المفيد عبد الجبار بن عبد الله بن علي المقرئ الرازي فقيه الأصحاب بالري، قرأ عليه في زمانه قاطبة المتعلمين من السادة والعلماء، وقد قرأ على الشيخ أبي جعفر الطوسي جميع تصانيفه وقرأ على الشيخين سالار وابن البراج. [٣]

---

١. فهرست منتجب الدين: ٢١٥ـ٢١٦.

٢. وقد رفعنا رسالة في هذا الموضوع إلى الفاضل المعاصر «مدير شانه‌چي» فتفضل بالجواب مصرّحاً بأنّ الحق انّهما من تلاميذه لا من مشايخه.

٣. بحار الأنوار: ١٠٥ / ٢٤٢ عن فهرست منتجب الدين.

عام تأليف الكتاب

قد ذكر القاضي في كتـاب الإجارة تاريخ اشتغاله بكتابـة باب الإجارة وهو عام ٤٦٧ هـ [1]. فالكتـاب حصيلة ممارسة فقهيـة، ومزاولة طويلـة شغلت عمر المؤلف مدّة لا يستهـان بها، وعلى ذلك فهو ألّف الكتاب بعد تخلّيـه عن القضاء، لأنّه اشتغل بالقضاء عام ٤٣٨هـ ومـارسها بين عشرين وثلاثين عاماً، فعلى الأوّل كتبها بعد التخلّي عنه، وعلى الثاني اشتغل بالكتابة في أُخريات ممارسته للقضاء.

وعلى ذلك فالكتاب يتمتع بأهمية كبرى، لأنّه ﷺ وقف في أيّام تولّيه للقضاء على موضوعات ومسائل مطروحة على صعيد القضاء، فتناولها بالبحث في الكتاب وأوضح أحكـامهـا، فكم فـرق بين كتاب فقهي يـؤلّف في زوايـا المدرسـة من غير ممارسة عملية للقضاء، وكتاب يؤلّف بعد الممارسة لها أو خلالها.

ولأجل ذلك يعتبر الكتاب الحاضر «المهذب» من محاسن عصره.

تلاميذه

كـان شيخنـا المترجم لـه يجاهـد على صعيـد القضـاء بينما هـو يـؤلـف في موضوعـات فقهية وكلامية، وفي نفس الـوقت كان مفيداً ومـدرساً، فقد تخرج على يديه عدة من الاعلام نشير إلى بعضهم:

١. الحسن بن عبد العزيز بن المحسن الجبهاني(الجهياني) المعدل بالقاهرة، فقيـه، ثقة، قـرأ على الشيـخ أبي جعفر الطـوسي، والشيخ ابـن البراج ــ رحمهم الله

---

١. راجع الجزء الثاني، كتاب الإجارة، ص ٤٧٦ قال: إذا استأجر داراً فقال المؤجر وهو مثلاً في رجب: آجرتك هـذه الدار في شهر رمضان، أو كـان في مثل هذه السنة وهـي سنة سبع وستين وأربعمائة، فقال: أجرتك هذه الدار سنة ثمان و ستين وأربعمائة، إلى آخره.

جميعاً ـ. [١]

٢. الداعي بن زيد بن علي بن الحسين بن الحسن الأفطسي الحسيني الآوي، الذي عمّر عمراً طويلاً كما ذكره صاحب المعالم في إجازته الكبيرة، وهو يروى عن المرتضى، والطوسي، وسلاّر، وابن البراج، والتقي الحلبي جميع كتبهم وتصانيفهم وجميع ما رووه وأُجيز لهم روايته. [٢]

٣. الشيخ الإمام شمس الإسلام الحسن بن الحسين بن بابويه القمي، نزيل الري المدعو حسكا، جدّ الشيخ منتجب الدين الذي يقول نجله في حقه: فقيه، ثقة، قرأ على شيخنا الموفق أبي جعفر ـ قدّس الله روحه ـ جميع تصانيفه بالغري ـ على ساكنه السلام ـ وقرأ على الشيخين: سلاّر بن عبد العزيز، وابن البراج جميع تصانيفهما. [٣]

٤. الشيخ المفيد أبو محمد عبد الرحمان بن أحمد بن الحسين النيسابوري الخزاعي.

٥. الشيخ المفيد عبد الجبار بن عبد الله بن علي المقري الرازي، وقد توفّي بطرابلس، ودفن في حجرة القاضي، كما حكى عن خط جدّ صاحب المدارك، عن خط الشهيد وكان حياً إلى عام ٥٠٣هـ. [٤]

وقد عرفت نصّ الشيخ منتجب الدين في حقّ الرجلين.

٦. الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن المحسن الحلبي، فقيه، صالح، أدرك الشيخ أبا جعفر الطوسي رحمه الله. [٥]

---

١. فهرست منتجب الدين المطبوع في الجزء ١٠٥ من البحار، ص ٢١٩.
٢. المستدرك: ٣/ ٤٤٤؛ طبقات أعلام الشيعة في القرن الخامس: ٧٥.
٣. فهرست منتجب الدين المطبوع في بحار الأنوار: ١٠٥/ ٢١٩.
٤. طبقات أعلام الشيعة في القرن الخامس: ١٠٣ و ١٠٧.
٥. فهرست منتجب الدين المطبوع في بحار الأنوار: ١٠٥/ ٢٦٥.

وقال في «الرياض»: انّه يظهر من إجازة الشيخ علي الكركي للشيخ علي الميسي وغيرها من المواضع، انّه يروي عن القاضي عبد العزيز بن البراج ـ قدّس الله روحه ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن محسن الحلي [١] و ينقل عنه.

وقال في تلك الإجازة في مدح ابن البراج هكذا: الشيخ السعيد الفقيه، الحبر العلامة، عزّ الدين، عبد العزيز بن البراج ﷺ. [٢]

٧. عبد العزيز بن أبي كامل القاضي عزّ الدين الطرابلسي، سميّ شيخنا المترجم له، يروي عن: المترجم له، والشيخ الطوسي، وسلاّر، و يروي عنه: عبد الله بن عمر الطرابلسي كما في «حجّة الذاهب». [٣]

٨. الشيخ كميح والد أبي جعفر، يروي عن ابن البراج. [٤]

٩و١٠. الشيخان الفاضلان الأُستاذان ابنا المؤلف: أبو القاسم [٥] وأبو جعفر اللّذان يروي عنهما الراوندي والسروي وغيرهم. [٦]

١١و١٢. أبوالفتح الصيداوي وابن رزح، من أصحابنا. [٧]

هؤلاء من مشاهير تلاميذ القاضي وقفنا عليهم في غضون المعاجم وليست تنحصر فيمن عددناهم.

---

١. ووصفه الشيخ منتجب الدين: بالحلبي كما نقلناه آنفاً.

٢. رياض العلماء: ٣/ ١٤٤.

٣. طبقات أعلام الشيعة في القرن الخامس: ١٠٦.

٤. طبقات أعلام الشيعة في القرن السادس: ٤.

٥. وبما أنّ كنية القاضي هو أبو القاسم، فلازم ذلك أن يكون اسم ابنه القاسم لا أبا القاسم،ومن جانب آخر فإنّ التسمية بنفس القاسم وحده بلا ضمّ كلمة الأب إليه قليل في البيئات العربية، فيحتمل وحدة الكنية في الوالد والولد.

٦. المقابيس: ٩٠.

٧. رياض العلماء: ٣/ ١٤٣و١٤٥.

وقال السيد بحر العلوم: وله كتـاب الموجز في الفقه، قرأ عليه الفقيه شمس الإسـلام الحسن بن الحسين بـن بـابويـه [١]، والشيـخ الفقيـه الحسين بـن عبـد العزيز[٢]، وشيخ الأصحاب عبـد الرحمان بن أحمد الخزاعي [٣]، وفقيه الأصحاب عبد الجبار بن عبد الله الرازي [٤]، و عبيد الله [٥]، عن الحسن بن بابويه. [٦]

وفي خاتمة المطاف ننبه على أُمور:

١. انّه كثيراً مـا يشتبه الأُستاذ بـالتلميذ لأجل المشاركـة في الاسم واللقب، فتعد بعض تصانيف الأُستاذ من تآليف التلميذ.

قال في «ريـاض العلماء»: وعندي أنّ بعـض أحوال القـاضي سعد الـدين عبد العزيز ابن البراج هذا، قد اشتبه بأحوال القاضي عز الدين عبد العزيز بن أبي كامل الطرابلسي [٧]. ويظهـر مـن الشهيـد الأوّل في كتـابـه «الأربعين» في سنـد الحديث الثاني والثلاثين، وسند الحديث الثالث والثلاثين مغايرة الرجلين.

قال الشهيد الأوّل في سند الحديث الثاني والثلاثين: ...حدثنا الشيخ الإمام قطب الدين أبو الحسين المعروف بالقطـب الراوندي، عن الشيخ أبي جعفر محمد ابن علي بن المحسن الحلي. [٨]

---

١. وهو جدّ الشيخ منتجب الدين المدعو بـ«حسكا» تجد ترجمته في فهرست منتجب الدين.

٢. ترجمه الشيخ منتجب الدين في فهرسته ص ٤ وقال: «الموفق الشيخ أبو محمد الحسين بن عبد العزيز ابن الحسن الجهاني المعدل بـالقاهرة. فقيه، ثقة، قرأ على: الشيـخ أبي جعفر الطوسي، والشيخ ابن البراج».

٣. ترجمه الشيخ منتجب الدين في فهرسته: ٧، ونص على تلمذه على ابن البراج.

٤. لاحظ المصدر نفسه.

٥. لاحظ المصدر أيضاً، ص ١٥.

٦. الفوائد الرجالية:٣/ ٢٣.

٧. رياض العلماء:٣/ ١٤٣و١٤٥.

٨. وقد عرفت أنّ الصحيح هو «الحلبي».

قال: حدّثنا الشيخ الفقيه الإمام سعد الدين أبو القاسم عبد العزيز بن نحرير بن البراج الطرابلسي، قال: حدّثنا السيد الشريف المرتضى علم الهدى أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي، إلى آخره، وفي سند الحديث الثالث والثلاثين... حدّثنا الشيخ أبو محمد عبد الله بن عمر الطرابلسي، عن القاضي عبد العزيز بن أبي كامل الطرابلسي، عن الشيخ الفقيه المحقّق أبي الصلاح تقي بن نجم الدين الحلبي، عن السيد الإمام المرتضى علم الهدى... إلى آخره. (١)

ولاحظ الذريعة ج٢٣، ص ٢٩٤ فلا شكّ ـ كما ذكرنا ـ فإنّ القاضي عبد العزيز ابن أبي كامل، تلميذ القاضي بن نحرير.

٢. يظهر من غضون المعاجم أنّ بعض ما ألّفه القاضي في مجالات الفقه كان مركزاً للدراسة، ومحوراً للتدريس، حيث إنّ الشيخ سعيد بن هبة الله بن الحسن الراوندي ـ الشهير بالقطب الراوندي ـ كتب بخطه إجازة لولده على كتاب «الجواهر في الفقه» لابن البراج عبد العزيز وهذه صورتها:

قرأه عليّ ولدي نصير الدين أبو عبد الله الحسين ـ أبقاه الله ومتّعني به ـ قراءة إتقان، وأجزت له أن يرويه عن الشيخ أبي جعفر محمد بن المحسن الحلبي عن المصنف. (٢)

ولم تكن الدراسة لتقتصر على كتاب «الجواهر»، بل كان كتابه الآخر وهو (الكامل) كتاباً دراسياً أيضاً.

ولذلك نرى أنّ الشيخ أبا محمد عبد الواحد الحبشي، من تلاميذ القاضي عبد العزيز بن أبي كامل الطرابلسي، قرأ الكامل عليه.

---

١. الأربعون للشهيد، في شرح الحديث الثاني والثلاثين والثالث والثلاثين: ٢٣ ـ ٢٤، فيظهر من السندين مغايرة الرجلين وتعاصرهما.

٢. قد مضى أنّه من تلاميذ القاضي.

والكامل من مؤلفات شيخنا المترجم له.[١]

٣. نقل صاحب الرياض أنّه تولّى القضاء في طرابلس، لدفع الضرر عن نفسه بل عن غيره أيضاً، والتمكن من التصنيف، وقد عمل أكثر الخلق ببركته بطريق الشيعة، وقد نصبه على القضاء جلال الملك عام ٤٣٨هـ.[٢]

٤. وقال صاحب الروضات: إنّ المستفاد من كتاب (الدرة المنظومة) لسيدنا العلاّمة الطباطبائي انّه يعبر عن القاضي بالحافي، ولم نجد له مصدراً قبله.

قال في منظومته:

وسنّ رفع اليد بالتكبير والمكث حتى الرفع للسرير
والخلع للحذاء دون الاحتفا وسن في قضائه الحافي الحفا[٣]

تآليفه

خلّف المترجم له ثروة علمية ضخمة في الفقه والكلام، تنبئ عن سعة باعه في هذا المجال، وتضلّعه في هذا الفن.

وإليك ما وقفنا عليه من أسمائها في المعاجم:

١. الجواهر: قال في رياض العلماء: رأيت نسخة منه في بلدة ساري، من بلاد مازندران،وهو كتاب لطيف، وقد رأيت نسخة أُخرى منه بإصفهان عند الفاضل الهندي، وقد أورد ﷺ فيه المسائل المستحسنة المستغربة والأجوبة

---

١. طبقات أعلام الشيعة في القرن السادس: ١٦٨.

٢. رياض العلماء:٣/ ١٥٢؛وتأسيس الشيعة: ٣٠٤.

٣. روضات الجنات:٤/ ٢٠٥، لكن من المحتمل أن يكون «الحافي»مصحف «القاضي»لقرابتهما في الكتابة فلاحظ.

الموجزة المنتخبة.[١]

٢. شرح جمل العلم والعمل.

٣. المهذب، وهو الكتاب الذي بين يديك.

٤. روضة النفس.

٥. المقرب في الفقه (الذريعة ٢٢، ص ١٠٨).

٦. المعالم في الفروع (الذريعة ج٢١، ص ١٩٧).

٧. المنهاج في الفروع(الذريعة ج٢٣، ص ١٥٥).

٨. الكامل في الفقه، وينقل عنه المجلسي في بحاره (الذريعة ج١٧، ص ٢٥٧).

٩. المعتمد في الفقه(الذريعة ج٢١، ص ٢١٤).

١٠. الموجز في الفقه، وربما ينسب إلى تلميذه ابن أبي كامل الطرابلسي (لاحظ الذريعة ج٢٣، ص ٢٥١).

١١. عماد المحتاج في مناسك الحاج (لاحظ الذريعة ج١٥، ص ٣٣١).

ويظهر من الشيخ ابن شهر آشوب في «معالم العلماء» أنّ كتبه تدور بين الأُصول والفروع كما أنّ له كتاباً في علم الكلام.

ولكنّه مع الأسف قد ضاعت تلك الثروة العلمية، وذهبت أدراج الرياح ولم يبق إلاّ الكتب الثلاثة: الجواهر، المهذب، شرح جمل العلم والعمل.

ويظهر من ابن شهر آشوب أنّه كان معروفاً في القرن السادس بابن البراج، مما يؤكد على أنّ ابن البراج كان شخصية من الشخصيات، حتى أنه نسب القاضي إلى هذا البيت.

١. رياض العلماء:٣/ ١٤٢.

هذه هي كتبه وقد طبع منها «الجواهر» ضمن «الجوامع الفقهية» على وجه غير نقي عن الغلط، فينبغي لرواد العلم إخراجه وتحقيق متنه على نحو يلائم العصر[١].

كما أنّه طبع من مؤلفاته «شرح جمل العلم والعمل» بتحقيق الأُستاذ كاظم مدير شانه‌چي.

وقد كان سيدنا الأُستاذ آية الله العظمى البروجردي ﷺ يحث الطلاب على مراجعة المتون الفقهية المؤلّفة على يد الفقهاء القدامى، وكان يعتبر الشهرة الفتوائية على وجه لا يقل عن الإجماع المحصّل.

وكان من نواياه ﷺ طبع بعض الكتب الفقهية الأصيلة منها:

١. الكافي، للفقيه أبي الصلاح الحلبي.

٢. الجامع للشرائع، ليحيى بن سعيد الحلي.

٣. كشف الرموز، للفقيه عز الدين الحسن بن أبي طالب اليوسفي الآبي، تلميذ المحقّق وشارح كتاب «النافع» شرحاً حسناً متوسطاً وقد أسماه ـ كما عرفت ـ بـ«كشف الرموز».

٤. المهذب، للقاضي ابن البراج.

١. وقد أنجز هذه الأُمنية الشيخ المحقق البهادري فقد حققه وانتشر وقدمنا له مقالاً سيوافيك فيما بعد.

الشيعة والتشريع الإسلامي

تدويناً وتطويراً [1]

الكتاب والسنّة هما المصدران الرئيسيّان للتشريع الإسلامي لدى المسلمين، فالكتاب نـور وهداية للأُمّـة في شتى حقول الحياة، قـال سبحانه: ﴿**ونزّلنا عَلَيْكَ الذِّكْر تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [2] فلو شكّكنا في عمومية الشيء في الآية الشريفة وسعته لكل ما يصدق عليه، فلا يُشك في أنّ التشريع أعني وظيفة الإنسان امام الله وامام أخيه المسلم من أوضح مصاديقه، فهو مبيّن لكلّ ما يحتاج إليه الإنسان فيما يرجع إلى المبدأ والمعاد، وإلى ما يحتاج إليه في حياته الفرديّة والاجتماعيّة من السنن والقوانين.

فإذا كانت هذه مكانة الكتاب، فما هي مكانة السنّة في ذلك الحقل؟

إنّ السنّة أوّلاً مبيِّنة لإجمال الكتاب وإبهامه، وموضحة لتنزيله وتفسيره. قال سبحانه: ﴿**وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكر لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نزّل إليهمْ وَلَعلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. [3]

وثانياً: انّ الرسول هو الأُسوة والقدوة، فهو بقوله وفعله يبيّن عزائم الشرع ورخصه، فرائضه ونوافله. قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**

---

١. طبعت هذه المقالة كمقدمة لكتاب جواهر الفقه لابن البراج.

٢. النحل: ٩٨.

٣. النحل: ٤٤.

لِمَنْ كانَ يَرْجُوا الله وَاليَـوم الآخر وذَكَرَ اللهَ كَثيراً﴾ [١]، وقال سبحانه: **﴿وَما آتاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهوا﴾** [٢].

وقال الرسول الأعظم ﷺ:ألا إنّي أُوتيت الكتاب ومثلـه معه، ألا إنّي أُوتيت القرآن ومثله معه، ألا يوشك رجل ينثني شبعاناً على أريكته، يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم من حلال فاحلّوه وماوجدتم من حرام فحرّموه...». [٣]

وفي ظل هـذين المصـدرين المبـاركين استغنت الأُمّة عـن كلّ تقنين بشري وتشريع غير إلهي إلى يـوم القيـامـة فقد كـان لهم في هـدى الكتـاب والسنّـة غنى وكفـاية. كيف لا وقـد أطلق سبحـانـه حكم الجاهلية على كـلّ تشريع غير إلهي، وقال: **﴿أَفَحُكْم الجاهِليّة يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَومٍ يُوقِنُون﴾** . [٤]

فإذا كان هذه منزلة السنة النبوية، كان من الواجب على الأُمّة القيام بضبط كلّ دقيق وجليل أُثر عنه ﷺ، ولكن ـ يا للأسف ـ تقـاعست الأُمّة الإسلامية عن تدوين السنّة وجمعهـا وضبطها في حياة صاحبها وبعد رحيلـه، وتوانت عن القيام بهذا الـواجب إلى منتصف القـرن الثاني بعـد ضيـاع قسم كبير من السنّـة وتسرّب الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة إلى أوسـاط المسلمين عامة والمحدثين خاصة، وبعد ان ألمّ بهم الندم قاموا بواجبهم ولما ينفعهم الندم.

روى السيوطي، قال: أراد عمر بن الخطاب أن يكتب السنن واستشار فيها أصحـاب رسول الله فـأشار إليـه عامّتهـم بذلـك فلبث عمر بـن الخطاب شهـراً يستخير الله تعالى في ذلك شـاكاً فيه، ثمّ أصبح يـوماً وقد عزم الله تعـالى له، فقال:

---

١. الأحزاب: ٢١.

٢. الحشر: ٧.

٣. مسند أحمد: ٤/ ١٣١.

٤. المائدة: ٥٠.

إنّـي كنت فكرت لكم مـن كتابة السنن ما قد علمتم، ثـمّ تـذكرت فإذا أُناس من أهل الكتاب كتبـوا مع كتاب الله كتباً فـاكبّوا عليها وتركـوا كتاب الله، وانّي والله لا البس كتاب الله بشيء فترك كتابة السنن.

وروى ابن سعد بسنده عن الزهري قال: لمّا أراد عمر بن الخطاب أن يكتب السنن فاستخار الله شهراً ثـمّ أصبح وقد عزم الله له فقال: ذكرت قومـاً كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله.[١]

هذا قـرظة بن كعب الأنصاري، قـال: أردنا الكوفة فشيَّعنـا عمر إلى صرار، وقال: تدرون لم شيّعتكم؟ قلنا: نعم. نحن أصحاب رسول الله، فقال: إنّكم تأتون أهل قرية لهم دويٌّ بالقرآن كدويّ النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث، فتشغلوهم، جرّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول الله، وامضوا وأنا شريككم.[٢]

وقدجرت السيرة في ظل هذا الحظر على ترك كتـابة السنّة نجم عنها حرمان الأُمّة من عدل الكتـاب وقرينه، ولوصحّ ما ذكره الخليفـة من التعليل، لوجب على الأُمّـة في جميع الأجيـال والقـرون تمزيق الصحـاح والمسـانيد والقضـاءعلى السنّـة النبويـة، ولا ينتج ذلك إلاّ البُـؤس والشقاء والتجاءهـا إلى القوانين الموضـوعة في مجال التشريع والأخلاق والسياسة والنظم الاجتماعية.

نعم أحس الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (المتوفّـى ١٠١هـ) بخطورة الموقف وضرورة تـدوين الحديث، فكتب إلى عالم المدينـة أبي بكر بن حـزم وقال: انظر ما كان من حديث رسول الله فاكتبه، فانّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلاّ أحاديث النبيّ ﷺ ولتفشوا العلم ولتجلسـوا حتى يعلم من لا يعلم،

١. السيوطي: تنوير الحوالك في شرح موطأ مـالك الفائدة الثانية: وراجع: فتح الباري بشرح صحيح البخاري المقدمة: ٦،ط دار المعرفة.

٢. ابن سعد: الطبقات الكبرى:٦/ ٧؛ الحاكم: المستدرك:١/ ١٠٢.

فانّ العلم لا يهلك حتى يكون سراً. [١]

ومع هـذا الإصرار المؤكَّد مـن الخليفة حـالت رواسب الحظـر السابـق من جانب الخلفـاء الماضين عن قيام ابن حـزم بمهمته الملقاة على عاتقـه، فلم يكتب شيء من أحـاديث النبـي إلاّ صحـائف غير منظمة ولا مـرتبـة إلى ان دالت دولـة الأُمويّين وقامـت دولة العباسيين وأخذ أبـو جعفر المنصور بمقاليـد الحكم، فقام المحدّثـون عام ١٤٣، بتـدوين الحديث، فهـذا هو السيـوطي يشرح تلك المأسـاة ويقول: «شرع علماء الإسـلام في هذا العصر في تـدوين الحديث والفقـه والتفسير فصنّف ابـن جريج بمكـة، ومـالك الموطأ بـالمدينة، والأوزاعـي بالشـام، ابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما في البصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة وصنّف ابن إسحاق المغازي، وصنّف أبوحنيفة الفقه والرأي ـ إلى أن قال ـ : وقبل هـذا العصر كـان الأئمّــة يتكلّمـون من حفظهـم أو يـروون العلـم من صحـف صحيحة غير مرتبة. [٢] وقد أدى ذلك التقاعس والتـواني إلى أنّه لما تكثرت الفروع بسبب اختـلاط المسلمين بغيرهم ولم يجدوا في السنة النبويـة نصّاً فيها، مـال قسمٌ من العلماء إلى القول بـالرأي والاستحسان، فـافتوا بآرائهم فيما لا يجدون نصّـاً فيه فـاشتهـروا بـأصحـاب الــرأي والقيـاس، وكـان أكثـر أهـل العـراق مـن أتبـاع هذه المدرسـة، كما أنّ أكثر أهل الحجاز كانـوا يتجنّبون عنه، وقـد روي انّه لما سأل ربيعـة بـن عبد الرحمان (المتوفّـى ١٣٦هـ) سعيـد بن المسيـب عن علّـة الحكم، فأجاب: أعراقي أنت؟ [٣]

ولم تكن إحدى الطائفتين أولى من الأُخرىٰ في أداء الوظيفة، فإذا كان العمل بالرأي والقياس أمـراً محظوراً فالتزمّت بالنصوص المحدودة وعـدم هداية الأُمّة إلى

١. البخاري: الصحيح، كتاب العلم، ج١، ص ٢٧.

٢. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ٢٦١.

٣. أحمد أمين: فجر الإسلام: ١/ ٢٩٠.

واجبها في مجال الفروع والتكاليف محظورٌ مثله، وما ذلك إلاّ أنّ الحظر الذي فرضه الخليفة بعد رحلة النبي أدّى إلى ذلك وقسم العلماء والفقهاء إلى قسمين بين معتمد على المقاييس والمعايير الظنية كالقياس والاستحسان وسدّ الذرائع وشرع من قبلنا إلى غير ذلك ممّا لم ينزل الله بها من سلطان، ومتزمت حصر التشريع الإلهي في النصوص المحدودة التي لا تتجاوز عن أربعمائة حديث أو ما يقرب من ذلك. (١)

وقد ظهر أثر ذلك التقاعس في ضبط الحديث في عصر الخلفاء فضلاً عن الأعصار المتأخرة فلنأت بنموذج أو نموذجين من ذلك:

١. انّ مسألة العول شغلت بال الصحابة فترة من الزمن وكانت من المسائل المستجدة التي واجهت جهاز الحكم بعد الرسول، قد طرحت أيّام خلافة عمر بن الخطاب، فتحيّر فأدخل النقص على الجميع استحساناً، وقال: والله ما أدري أيّكم قدّم الله وأيّكم أخّر. ما أجد شيئاً أوسع لي من ان أُقسم المال عليكم بالحصص، وادخل على ذي حقّ ما أدخل عليه من عول الفريضة. (٢)

أو يصح الاعتماد في الفتيا على هذا التعليل الوارد عن الخليفة أو يجب أن يصدر المفتي عن دليل شرعي إلهي يقنعه بأنّه قام بواجبه؟

٢. سُئل عمر بن الخطاب عن رجل طلّق امرأته في الجاهلية تطليقتين وفي الإسلام تطليقة واحدة فهل تُضم التطليقتان إلى الثالثة أو لا؟ فقال للسائل: لا آمرك ولا أنهاك. (٣)

وقد أدّى ذلك إلى القول بحجّية قول الصحابيّ وفعله وتقريره وعومل معه معاملة المعصوم في حجّية أقواله وأفعاله وتقريراته، يقول محمد بن عمر الأسلمي:

---

١. محمّد رشيد رضا: الوحي المحمّدي: ١٢٥.

٢. الجصاص: أحكام القرآن: ٢/ ١٠٩؛ الحاكم: المستدرك: ٤/ ٣٤٠.

٣. المتقي الهندي: كنز العمال: ٥/ ١١٦.

وكلّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا أئمّة يقتدى بهم ويحفظ عليهم ما كانوا يفعلون ويستفتون فيفتون [١] وهـذا ينـاقض مـوقـف أهـل السنّـة مـن حصر العصمـة في النبي ﷺ.

موقف الشيعة من السنّة النبوية:

هـذا حال الأُمّـة المنتسبـة إلى السنّة وهـم الجمهور الأعظـم من المسلمين، ولكن كان حال أئمّة الشيعة وقادتهم ومتابعيهم على خلاف ذلك فهم لم يتقاعسوا عـن أداء الـواجـب بل عمـدوا إلى ضبط سنّـة النبـي دقيقهـا وجليلهـا، فهـذا أمير المؤمنين كتب ما أملى عليـه رسول الله، في الحلال والحرام والعزائم والـرخص، أخرج الحمويني بسنده عن الإمام محمد الباقر عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: يا علي؛ اكتـب ما أملي عليك، قلت: يـا رسول الله أتخاف عليَّ النسيان؟ قـال: لا، وقد دعـوت الله ـ عـزّ وجلّ ـ أن يجعلك حـافظاً، ولكن أُكتب لشركائك الأئمة من ولـدك، بهم تسقى أُمتي الغيث، وبهم يستجاب دعاؤهـم، وبهم يصرف الله عن الناس البـلاء، وبهم تنزل الرحمة مـن السماء، وهذا أوّلهم وأشار إلى الحسن عليه السلام . ثمّ قال: وهذا ثانيهم وأشار إلى الحسين عليه السلام . ثمّ قال: والأئمّة من ولده. [٢]

وقد ورث هذا الكتـاب أئمّة أهل البيت عليهم السلام واحداً تلو واحـد فيصدرون عنه، وهـذا هو عـذافر الصيرفي، قـال: كنت مع الحكم بـن عتيبة عنـد أبي جعفر عليه السلام ، فكان يسأله وكـان أبو جعفر عليه السلام له مكـرماً، فاختلفا في شيء، فقـال أبو جعفر عليه السلام : « هذا خط علي عليه السلام و إملاء رسول الله ﷺ» وأقبل على الحكَم، وقال:

---

١ . ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢/ ٣٧٦.

٢ . القندوزي: ينابيع المودة: ٢٠ ط عام ١٣٠١ هـ ؛ بحار الأنوار:٣٦/ ٢٣٢، الحديث ١٤.

«يا أبا محمّد اذهب أنت وسلمة وأبو المقداد حيث شئتم يميناً وشمالاً، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرئيل» . [١]

نعم كان لأمير المؤمنين غير هذا كتبٌ أُخرى مثل كتاب الفرائض، وكتاب الآداب وغيرهما ممّا ورد في الكتب الحديثية.

الطبقة الأُولى

ثمّ إنّ الطبقة الأُولى من الشيعة اقتدوا بإمامهم أمير المؤمنين عليه السلام فألّفوا في ذلك كتباً ورسائل حفظوا بذلك السنّة النبوية، واستقوا العلم من نميره العذب وقد ذكرهم أصحاب المعاجم في طبقاتهم وإليك أسماء لفيف منهم:

١. أبو رافع مولى رسول الله وخازن بيت المال في عهد أمير المؤمنين، صنّف كتاب السنن والأحكام والقضايا. [٢]

٢. عبيد الله بن أبي رافع مؤلف كتاب «من شهد حروب أمير المؤمنين من أصحاب النبي». [٣]

٣. علي بن أبي رافع، كاتب أمير المؤمنين، صنّف كتاباً في فنون من الفقه: الوضوء والصلاة وسائر الأبواب. [٤]

٤. ربيعة بن سميع صنّف كتاب زكاة النعم على ما سمعه من أميرالمؤمنين. [٥]

٥. سليم بن قيس مؤلف الأصل المعروف المطبوع المنتشر. [٦]

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٦٠ برقم ٩٦٧، ذكره في ترجمة محمّد بن عذافر الصيرفي.

٢. النجاشي: الرجال: ١/ ٦٤ برقم ١.

٣. الطهراني: الذريعة: ١/ ١٤.

٤. النجاشي: الرجال: ١/ ٦٥ برقم ١.

٥. النجاشي: الرجال:١/ ٦٧ برقم ٢.

٦. المصدر نفسه: برقم ٣.

٦. الأصبغ بن نباتة المجاشعي، قد كتب عهد أمير المؤمنين إلى مالك الأشتر النخعي ووصيته إلى ابنه محمّد بن الحنفية.[١]

٧. سلمان الفارسي الصحابي الجليل، ذكر ابن شهر اشوب له كتاب خبر جاثليق.[٢]

٨. أبو ذر الغفاري، قال ابن شهر اشوب: له خطبة يشرح فيها الأُمور بعد النبيّ ﷺ[٣] كتاب وصايا النبيّ، وقد شرحه العلاّمة المجلسي وأسماه عين الحياة.

٩. أبو الأسود الدؤلي، التابعي المعروف، أخذ النحو عن أمير المؤمنين وكتبه في كراس وعرضه على أمير المؤمنين، فقال: نعم ما نحوت.[٤]

١٠. زيد بن وهب الجهني الكوفي، جامع خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد.[٥]

الطبقة الثانية

ثمّ إنّ الطبقة الثانية نهجوا منهاج سلفهم، حذو القذة بالقذة وألّفوا كتباً ورسائل في الحديث والفقه والتفسير، فبلغوا الذروة في فهم الحديث وفقهه واستنباط الأحكام من المصادر، نظراء: زرارة بن أعين (المتوفّى ١٥٠هـ)، ومحمّد ابن مسلم الطائفي، وأبي بصير الأسدي (المتوفّى ١٥٠هـ) وبريد بن معاوية،

---

١. المصدر نفسه: برقم ٤.
٢. ابن شهر اشوب: معالم العلماء: ٥٧ برقم ٣٨٢.
٣. المصدر نفسه: ٣٢ برقم ١٨٠.
٤. التستري: قاموس الرجال: ٥/ ١٧١ نقله عن الذهبي.
٥. ابن شهر اشوب: معالم العلماء: ٥١ برقم ٣٤.

والفضيل بن يسار من تلاميذ مدرسة أبي جعفر الباقر (المتوفّى ١١٤هـ) والإمام الصادق (المتوفّى ١٤٨هـ).

ويليهم في الفضل ثلة أُخرى وهم خريجو مدرسة الإمام الصادق، نظراء: جميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عثمان، وحماد بن عيسى، وأبان بن عثمان، وهم أصحاب الأُصول والكتب المذكورة في المعاجم.

وهناك طبقة رابعة من خريجي مدرسة الإمام الكاظم وأبي الحسن الرضا عليه السلام ذكرت أسماؤهم وآثارهم في المعاجم.

وكفاك في عنايتهم بحديث رسول الله المروي عن طريق العترة الطاهرة الذين هم أعدال الكتاب وقرناؤه في حديث الثقلين انّ أبان بن تغلب (المتوفّى ١٤١هـ) وهو من خريجي مدرسة الباقر والصادق عليهما السلام، حدّث عن الصادق عليه السلام بثلاثين ألف حديث.[١]

لا قياس ولا استحسان ولا...

وفي ظلّ أحاديث العترة الطاهرة المروية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم استغنى فقهاء الشيعة عن القياس والاستحسان والاعتماد على كلّ دليل ظني ما لم يدل دليلٌ قطعيٌ على حجّيته، حيث إنّهم دوّنوا الأُصول والفروع في حياة أئمّتهم وجاءوا بجوامع حديثية عديدة في أعصارهم[٢] وبعدهم[٣] إلى أن وصلت النوبة إلى المحمدين الثلاثة: أبي جعفر الكليني (المتوفّى٣٢٩هـ) والشيخ

---

١. البهائي: الوجيزة: ٦، الطبعة الحجرية.

٢. كجامع الحسين بن سعيد الأهوازي المعروف بالثلاثين. (الرجال للنجاشي ١٧٢، برقم ١٣٥). وجامع علي بن مهزيار من أصحاب الإمام الجواد. (الرجال للنجاشي ٦٢٢ برقم ٦٦٥).

٣. كنوادر الحكمة لمحمّد بن أحمد بن يحيى، يقول النجاشي: وهو كتاب كبيرحسن، ج٢/ ٢٤٤ برقم ٩٤٠.

الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ) والشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) فألفوا الجوامع الحديثية الكبرى، فصارت مداراً في استنباط الأحكام، فألّف الكليني كتاب الكافي في الأُصول والفروع في ثمانية أجزاء، والصدوق كتاب «الفقيه» في أربعة أجزاء، والطوسي كتاب التهذيب في عشرة أجزاء والاستبصار في أربعة أجزاء، شكر الله مساعيهم.

مراحل تدوين الفقه وتطويره

كان تدوين الفقه بين الشيعة بعد رحلة النبي ﷺ على غرار تدوين الحديث، فالكتب الفقهية هي الكتب الحديثية، لكنّها مختصة بروايات وردت حول الفروع والأحكام والسنن والآداب، فكان الفقهاء من أصحاب الأئمّة يؤلّفون الكتب الفقهية ويذكرون الحديث بسنده ونصه ولا يتجاوزون ذلك. وربما يرون ذلك أمراً غير صحيح، إلى أن وصلت النوبة، إلى علي بن الحسين بن بابويه (المتوفّى ٣٢٩هـ) فقام بتدوين الفقه على نمطٍ جديد، وأحدث فيه تطويراً، فحذف الأسانيد، وأتى بالمتون على ترتيب الكتب الفقهية، فألّف كتاب الشرائع وقد كان عمله هذا ثورة في ذلك المجال، وتبعه ابنه الصدوق فألف المقنع والهداية على ذلك الغرار، وتبعه الشيخ المفيد فألف المقنعة، والشيخُ الطوسي النهاية وراج هذا النمط في الفقه. وهو كان تدويناً وتطويراً للفقه تلقاها الأجيال بالقبول، وتعد تلك المرحلة، المرحلة الأُولى بالنسبة إلى التطوير، كما تعد المرحلة الثانية بالنسبة إلى تدوين الفقه، وقد كانت المرحلة للتدوين ذكر المتون مع الأسانيد.

ولما اتسع نطاق الفقه باتساع دائرة الحاجات، لم يرِ فقهاء الشيعة محيصاً عن التجاوز عن متون الأحاديث إلى صياغة فروع جديدة مستنبطة من تلك الأحاديث ومضامينها بعبارات جديدة، انطلاقاً من قولهم ﷺ علينا إلقاء الأُصول

وعليكم التفريع.[١]

ولعلّ أوّل كتاب خرج على هذا النمط هو كتاب «المتمسك بحبل آل الرسول» تأليف الشيخ الأقدم الحسن بن علي بن أبي عقيل المعاصر للشيخ الكليني وكتاب «تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة» تأليف محمّد بن أحمد ابن الجنيد المعاصر للصدوق.

ثمّ قام شيخ الطائفة بتأليف المبسوط على ذلك الغرار فخرج في ثمانية أجزاء، كما ألّف الخلاف في الفقه المقارن الذي أودع فيه آراء فقهاء المذاهب الإسلامية؛ وتوالت حركة التأليف بعده على ذلك النمط إلى يومنا هذا، فألّفت مجاميع فقهية مفصلة تتجاوز المئات والألوف.

وتشكل هذه المرحلة الثالثة من تدوين الفقه، وبما أنّ الشيعة الإمامية التزمت بانفتاح باب الاجتهاد ووجوب رجوع العاميّ إلى المجتهد الحي لم يزل هذا النوع يتكامل من صورة إلى أُخرىٰ يقف عليها السائر في الكتب الفقهية لهذه الطائفة. وشتان ما بين استنباط الأحكام والفروع من الكتاب والسنّة وبين الرجوع فيها إلى المقاييس الظنية.

وقد قامت مؤسسة النشر الإسلامي في الآونة الأخيرة بنشر آثار فقهية وكلاميّة لثلاثة من كبار فقهاء الشيعة في القرن الخامس:

١. جواهر الفقه، للقاضي عبد العزيز بن البراج(٤٠٠ـ ٤٨١ هـ) مؤلف المهذب والكامل في الفقه الإمامي، وهو من اعلام الفقه في عصره وتلميذ المرتضى وزميل شيخ الطائفة.

٢. المسائل الميافارقية، للسيّد الشريف المرتضى(٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) صاحب

---

١. الحرّ العاملي: وسائل الشيعة :١٨، كتاب القضاء، الباب ٦، الحديث٥٢.

التآليف الممتعة في مجال الفقه والأُصول والكلام.

٣. العقائد الجعفرية، لشيخ الطائفة محمّد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ). وهو أُستاذ الشيعة في عصره ومهذب أُصولهم وفروعهم وله يد بيضاء على العلم وأهله.

والرسالتان الأُوليان في الفقه والثالثة في عقائد الإمامية يجمعها كونها من آثار القدماء ومن تراث الشيعة الخالد قام بتأليفها أُستاذٌ بعد أُستاذ، فالمرتضى أُستاذ شيخ الطائفة وهو أُستاذ ابن البراج، ولإيقاف القارئ على حياتهم نذكر شيئاً يسيراً منها.

القاضي ابن البرّاج [١]

الشيخ سعد الدين أبو القاسم، عبد العزيز بن نحرير بن عبد العزيز بن البراج الطرابلسي، يعرّفه الشيخ منتجب الدين بقوله: «وجه الأصحاب وفقيههم وكان قاضياً بطرابلس، وله مصنفات، منها: «المهذّب» و «المعتمد» و «الروضة» و «المقرب»: و «عماد المحتاج في مناسك الحاج» أخبرنا بها الوالد عن والده عنه. [٢]

يقول ابن شهر اشوب: «أبو القاسم المعروف بابن البراج، من غلمان المرتضى ـ رضي الله عنه ـ له كتب في الأُصول والفروع، فمن الفروع: الجواهر، المعالم، المنهاج، الكامل، روضة النفس في أحكام العبادات الخمس، المقرب، المهذب، التعريف، شرح جمل العلم والعمل للمرتضىؒ. [٣]

١. قدّمنا ذكره لكون كتابه أبسط من التأليفين الآخرين، ولأجل ذلك قدم في الطبع على الآخرين.

٢. منتجب الدين: الفهرست: ١٠٧، برقم ٢١٨.

٣. ابن شهر اشوب: معالم العلماء: ٨٠ برقم ٥٤٥.

وقد أثنـى عليه كلّ مـن تأخر عنـه كالعـلاّمة الحلّي في إجـازته لبنـي زهرة، والشهيد الأوّل في بعض مجاميعـه، وابن فهد في مهذّبه، والمحقّق الثـاني في إجازته، والشهيد الثاني في إجازته، إلى غير ذلك من أئمّة الفقه، تراهم أثنوا عليه ثناء بليغاً كاملاً.[1]

وقد تعرفت على أسماء تآليفه فقد طبع منها ثلاثة:

١. شرح جمل العلم والعمل، وهـو شرح كتاب جمل العلم والعمـل للسيّد المرتضى على وجه موجـز، ألقى فيها الأُصول والقواعد في فني الكـلام والفقه وقد تولّى شيخ الطائفة شرح القسم الكلامي منه وانتشر باسم تمهيد الأُصول، بينما تولى القـاضي ابن البراج شرح القسـم الفقهي، ونشر وحقق نصـوصـه الأُستـاذ الشيخ كاظم مدير شانه چي دام ظلّه.

٢. المهـذَّب ، وهـو أبسـط كتـاب فقهي استــدلالي بعـد كتـاب المبسـوط للشيخ الطوسي، وقد اشتغل به عام ٤٦٧، فالكتاب حصيلة ممارسة فقهية شغلت عمر المؤلف وقد انتشر في جزءين ضخمين:

٣.جواهر الفقه، وهو كتاب فقهي اقتصر فيه المؤلف على ذكر الفتيا، لعلها كانت رسالة عملية لمن كان يرجع إليه في الشامات.

الشريف المرتضى (٣٥٥ـ٤٣٦هـ)

هو السيد المرتضى، علم الهدى، ذو المجـدين، أبو القاسم علي بن الحسين ابن موسى بن محمّـد بن موسى بن إبراهيم بن الإمام مـوسى الكاظم عليه السلام مفخرة من مفاخـر العترة الطاهرة، وإمـام من أئمّة العلم والحديـث والأدب، وبطل من أبطـال الديـن والعلم والمذهب، وهـو بعـد أُستاذ الكـلام ومحقّقـه، وإمام الفقـه

---

١. راجع للوقوف على نصوصهم تقديمنا لكتاب المهذب لابن البراج:١/ ٣٢ـ٣٦.

ومؤسس أُصوله.

ولأجل إيقاف القارئ على منزلته العلمية نأتي ببعض ما ذكره علماء الفريقين في حقّه:

قال النجاشي(٣٧٢ـ ٤٥٠هـ):

أبو القاسم المرتضى، حاز من العلوم ما لم يدانه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلماً شاعراً أديباً ،عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا. (١)

وقال تلميذه الآخر شيخنا الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ):

إنّه أكثر أهل زمانه أدباً وفضلاً، متكلم، فقيه، جامع العلوم كلّها ـ مدّ الله في عمره ـ. (٢)

وقال في فهرسته: المرتضى متوحّد في علوم كثيرة، مجمع على فضله، مقدم في العلوم، مثل علم الكلام، والفقه، وأُصول الفقه، والأدب والنحو، والشعر، ومعاني الشعر، واللغة، وغير ذلك، له من التصانيف ومسائل البلدان شيء كثير مشتمل على ذلك فهرسته المعروف. (٣)

وقال الثعالبي:

وقد انتهت الرسالة اليوم ببغداد إلى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم، وله شعر في نهاية الحسن. (٤)

وقال ابن خلكان (٦٠٨ـ٦٨١هـ):

كان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر، وله تصانيف على مذهب الشيعة

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٠٢ برقم ٧٠٦.
٢. الطوسي: الرجال: ٤٨٤ برقم ٥٣، باب في من لم يرو عنهم.
٣. الطوسي: الفهرست: ٩٩.
٤. الثعالبي: تتميم يتيمة الدهر: ١/ ٥٣.

ومقالـة في أُصول الديـن، وذكره ابن بسام في الـذخيرة ، وقال: كان هـذا الشريف إمام أئمّة العـراق بين الاختلاف والإتفاق، إليه فزع علماؤها وعنـه أخذ عظماؤها، صاحب مـدارسها وجمّاع شاردها وآنسهـا، ممن سارت أخباره وعرفـت له أشعاره، وحمدت في ذات الله مآثره وآثاره، إلى تآليفه في الدين وتصانيفه في أحكام المسلمين ممّا يشهد أنّه فرع تلك الأُصول ومن أهل ذلك البيت الجليل. [1]

ترى نظير هذه الكلمات كثيرة مبثوثة في طيـات الكتب والمعاجم كلّها تشير إلى مكانته المرموقة ومآثره الجليلة.

ويشهد على ذلك: التراث العلمي الذي خلفه السيّد المرتضى وكان ولم يزل مرجعاً لأعلام الدين،وهي تربـو على ٨٦ كتاباً ورسالة في مجالات مختلفة وحيث لا يمكن لنا سرد أسمائها والإشادة بأبعادها نكتفي في المقام بكتبه الفقهية والأُصولية، ومن أراد التفصيل، فليرجع إلى المعاجم.

١. الذريعة في أُصول الفقه، وهو أبسـط كتاب في أُصول الفقه، فرغ منه في نهاية القرن الرابع (سنة ٤٠٠ هـ) على ماشاهدت في بعض النسخ الخطية في مدينة قزوين، وطبع الكتاب في جزءين.

٢. مفردات في أُصول الفقه.

٣. الخلاف في الفقه.

٤. الناصريات في الفقه.

٥. الانتصار فيما انفردت به الإمامية.

ثـمّ إنّ للسيـد رسـائل وافـرة في الكـلام والفقـه وفنـون شتى، ومنهـا رسالـة «المسائل الميـافارقيـة» وتشتمل على ٦٥ مسألـة فقهية وغير فقهيـة ذكرهـا

١. ابن خلّكان: وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٣ برقم ٤٤٣.

ابن شهراشوب في ترجمته.

وللسيد رسـائل أُخرى في مسائل فقهيـة وكلاميـة وأُصولية، نطـوي الكلام عنها رعاية للإيجاز.

هذا هو السيد المرتضى وهذه كلمات الثنـاء من العلماء في حقّه وهذه آثاره، وأمّـا تلاميـذه فكفى انّـه قد انجبت مـدرسته أفـذاذاً يفتخـر بهم الدهـر، و إليك أسماؤهم:

١. شيخ الطائفة، أبو جعفر الطوسي (ت٤٦٠هـ).

٢. أبو يعلى سلّار بن عبد العزيز الديلمي مؤلف «المراسم» (ت٤٦٣هـ).

٣. أبو الصلاح تقي بن النجم، خليفته في بلاد حلب (ت ٤٤٧هـ).

٤. القاضي عبد العزيز بن البراج الطرابلسي (ت٤٨١هـ).

٥. الشريف أبو يعلى محمّد بن الحسن بن حمزة الجعفري (ت ٤٦٣هـ).

٦. الشيخ أبو الفتح محمّد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩هـ).

٧. أبو الصمصام ذوالفقار بن معبد الحسيني المروزي.

٨. السيدنجيب الدين أبو محمّد الحسن بن محمّد بن الحسن الموسوي.

٩. السيد التقي بن أبي طاهر الهادي النقيب الرازي.

١٠. الشيخ أبو الحسن سليمان الصهرشتي، صاحب كتاب «قبس المصباح».

إلى غير ذلك من الشخصيات البارعة الذين استقوا من منهل علمه ومعين فقهه. [١]

---

١. قد استقصى العلاّمة الأميني في موسوعته أسماء تلامذة السيد، فلاحظ: الغدير: ٤/ ٢٧٠ـ٢٧١.

شيخ الطائفة، محمّد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠ هـ)

لا عتب على اليراع أن تهيب شخصية شيخ الطائفة، ومكانته العلمية ومنزلته الرفيعة، وجهاده المتواصل في طريق نشر العلم والهدى، ومناهضته المخالفين والمعاندين إلى غير ذلك من مآثر وفضائل جمة لا يحيط بها القلم ولا يبلغ مداها البيان ويعجز عن تحديدها ورسمها، وبما انّ الميسور لا يسقط بالمعسور، نكتفي بتعريف بعض نواحي شخصيته، قال تلميذه الجليل النجاشي:

أبو جعفر، جليل من أصحابنا، ثقة، عين، من تلامذة شيخنا أبي عبد الله (المفيد). [1]

وقال العلاّمة الحلّي (٦٤٨ـ ٧٢٨هـ):

شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارفٌ بالأخبار والرجال والفقه والأُصول، والكلام، والأدب وجميع الفضائل تُنسب إليه، صنّف في كلّ فنون الإسلام، وهو المهذّب للعقائد في الأُصول والفروع، والجامع لكمالات النفس في العلم والأدب، وكان تلميذ الشيخ المفيد، وُلدَ ـ قدّس الله سرّه ـ في شهر رمضان سنة ٣٨٥ هـ، وقدم العراق سنة ٤٠٨ هـ، وتوفي رضي الله عنه ليلة الاثنين الثاني والعشرين من محرم سنة ٤٦٠ بالمشهد المقدّس الغروي ودفن بداره. [2]

وقد ألّف شيخ الباحثين، الشيخ الطهراني رسالة مستقلة في ترجمة شيخنا الطوسي، أدّى فيها حقّ المقام، ولم يبق في القوس منزعاً، ولكن نكمّل مقاله بكلمة قيمة هي:

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٣٢، برقم ١٠٦٩.

٢. العلاّمة الحلي: خلاصة الأقوال في علم الرجال: ١٤٨.

كلمة السيد المحقّق البروجردي (١٢٩٢ ـ ١٣٨٠هـ)

كـان السيد البروجـردي كثير الإعجاب بـالشيخ وتآليفـه القيمة، وقـال في تقديمـه على كتاب الخلاف مـا هذا نصـه: ويستفاد مـن أدعيته للمفيـد في كتاب التهذيب[١] عند نقل عبارة المقنعة إلى أواخر كتاب الصلاة بقوله : قال الشيخ أيّده الله تعالى: ومنه إلى آخر الكتاب بقوله: قال الشيخ ﷺ، أنّه كتب الطهارة و الصلاة من التهـذيب في حيـاة الشيخ المفيد، وهـو من أبنـاء أربع أو ثمان وعشرين سنـة، ولكنك إذا نظـرت إلى كلماته في الكتـابين [٢] وما جادل بـه المخالفين في المسائل الخلافية كمسألة مسح الرجلين، وما أفـاده في مقام الجمع بين الأخبار، واختياراته في المسائل وما يستند إليه فيها وما يورده من الأخبار في كلّ مسألة، تخيّلته رجلاً من أبنـاء السبعين وصرف عمـره في تحصيل العلـوم الأدبيـة والأُصـولين، والقـراءات والتفسير، ومسائل الخلاف والوفاق، وطاف البلاد في طلب أحاديث الفريقين وما يتعلق بها من الجرح والتعديل حتـى صار له قدم راسخة في جميع العلـوم الدينية، ولو قيل لك إنّه كان شاباً حدثاً لأنكرت ذلك ولقلت«إنْ هذا لشيء عجاب». [٣]

ثمّ إنّ تآليف شيخنا الطوسي في نواح مختلفـة تشهد على كونه متخصصاً في العلوم وملمّاً بكثير منها، وقد ذكر أصحاب المعاجم فهرس كتبه. [٤]

وأمّـا تلاميـذه فحدّث عنهم ولا حـرج، وقد ذكـر السيد البروجـردي أسماء بعض تلاميـذه ممن قرأوا عليه وصـدروا عنه في تقديمـه على كتاب الخلاف، ومن أراد التفصيل فليرجع إليه.

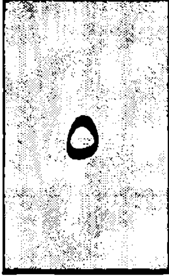
---

١. التهذيب للشيخ الطوسي شرح استدلالي على كتاب المقنعة للشيخ المفيد.

٢. المقصود بالكتابين، التهذيب والاستبصار.

٣. البروجردي: مقدمة الخلاف، ص ١و٢ الطبعة الحجرية.

٤. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٣٢ بـرقم ١٠٦٥؛ العلامة: خلاصـة الأقوال: ١٤٨. وقـد ذكـر الشيخ الطوسي، ـ قدس سره ـ فهرس تآليفه في فهرسته:١٨٨ برقم ٧١٢.



أحمد بن علي بن أبي طالب

الطبرسي (... ـ حوالي ٥٥٠ هـ)

المعارف والعقائد بين التشبيه والتعطيل

لم تزل المعارف والعقائد منذ أن صدع بها القرآن الكريم والسنّة النبويّة، يتلاعب بها رجال بين آونة وأُخرى.

فمنهم من يبني عقائده الدينيّة على أساس الحسّ، فلا يتورّع عن وصفه سبحانه بأوصاف وأفعال لا تفترق عن التشبيه والتجسيم قدر شعرة، فيرى أنّ له صورة وجوارح، وأعضاءً، من يدٍ ورِجلٍ ، ورأس وعينين. فهذه هي المجسّمة والمشبّهة يصفونه سبحانه بما توحي إليهم القوّة الخياليّة، الأسيرة لعالم الحسّ والمادّة، وآخر ما عندهم في ساحة التنزيه: «انّ هذه الأعضاء له سبحانه ولكن بلا كيف، وأنّها لا تشابه ما لدى الإنسان من أعضاء».

ومنهم من يعطّل العقول عن الوصول إلى المعارف قائلاً بأنّه لا يمكن للإنسان إدراك عالم الغيب، فالواجب عليه: الإطلاق، والإمرار، ثمّ السكوت، وهم الذين يقولون :إنّ كلّ ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته، والسكوت عليه. [1]

---

١. الرسائل الكبرى لابن تيمية: ١/ ٣٢، نقله عن سفيان بن عيينة.

وربما يتفلسف ويقول: إنّما أُعطينا العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربوبية، فمن شغل ما أُعطي لإقامة العبودية في إدراك الربوبيّة، فاتته العبودية ولم يدرك الربوبية. [١]

وكأنّه يتصوّر أنّ العبودية تنحصر في القيام والقعود لأداء الصلاة، والإمساك للصوم، ولكنّه غفل عن أنّ ركناً من العبودية يعود إلى العقل والقلب، وأقلّ مراتبه الإيمان بالغيب.

فإذا أمكن له استشعار الغيب وما فيه من المعارف عن طريق الإمعان في الكتاب والسنّة، والأقيسة العقليّة، فقد قام بوظيفة الربوبية.

وهذا يعرب عن أنّ الطائفتين تائهتان، وتسيران في وادٍ مُظْلِم، فالأُولى تؤدّي إلى التجسيم والتشبيه، والثانية إلى تعطيل وإيصاد باب المعرفة في وجه الإنسان.

فلو كان التفكّر العقلي في المعارف الإلهيّة أمراً ممنوعاً، وكانت الوظيفة منحصرة في القراءة فحسب، كما يقوله ابن قدامة المقدسي: «وعلى هذا درج السلف والخلف، فهم متّفقون على الإقرار والإمرار والإثبات، لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنّة رسوله من غير تعرّض لتأويله» [٢]. فما بال القرآن يثير في الإنسان التفكّر في المعارف، ويأخذ بيده للوصول إلى غايتها الممكنة، ويقول: ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ﴾. [٣]

وقال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلى بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ فَسُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفُونَ﴾ . [٤]

---

١. رضا نفسان، علاقة الإثبات والتفويض، نقلاً عن الحجّة في بيان المحجة: ٣٣.

٢. المراد من التأويل تفسيرها بما يتجاوب مع تنزيهه على ضوء سائر الآيات والأقيسة المنطقيّة.

٣. الأنبياء: ٢٢.

٤. المؤمنون: ٩١.

وقال سبحانه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.[١]

إنّ ثمة أُصولاً يعتقد بها الإلهيّون جميعاً، وفي مقدّمتهم المسلمون، لا يمكن للعلوم الطبيعية أن تساعدهم في فهمها ولا أن تهدي إليها البشر. كالبحث في أنّ المصدر لهذا العالم والمبدع له، أزليّ أو حادث، واحد أو كثير، بسيط أو مركب، جامع لجميع صفات الجمال والكمال أو لا؟ هل لعلمه حدّ ينتهي إليه أو لا؟ هل لقدرته نهاية أو لا؟ هل هو أوّل الأشياء وآخرها أو لا؟هل هو ظاهر الأشياء وباطنها أو لا؟

فالاعتقاد بهذه المعارف عن طريق العلوم الطبيعيّة والحسّية غير ممكن،والاعتماد على الوحي للتعرّف عليها غير مقدور، لأنّه يجب معرفتها قبل معرفة الوحي وحامله، فكيف يُتعرَّف عليها عن طريق النبيّ والوحي المنزل عليه.

نرى أنّه سبحانه يذكر الفؤاد إلى جانب السمع والبصر ويقول:

﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.[٢]

والمراد من الشكر في ذيل الآية: صرف النعمة في مواضعها، فشكر السمع والبصر هو إدراك المسموعات والمبصرات بهما، وشكر الفؤاد هو درك المعقولات غير المشهودات به، فالآية تحرّض على استعمال الفؤاد والقلب والعقل في ما هو خارج عن إطار الحسّ وغير واقع في متناول أدواته. ولأجل أن يتّخذ القرآن في بعض المجالات موقف المعلّم فيعلّم المجتمعَ البشري كيفية البرهنة العقلية على توحيد الخالقية والتدبير فيقول:

---

١. الأنبياء:٢٤.

٢. النحل:٧٨.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ... * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾.[١]

إنّ تعطيل العقول عن المعارف الإلهيّة يجرّ الإنسان إلى التشبيه والتجسيم، وإن تبرّأ منهما وانبرى إلى نفي هذه الوصمة عن نفسه وأهل ملّته.[٢]

نظرة إجمالية في كتابين:

إنّ هناك أثرين أُلِّفا في عصر متقارب، قام بتأليف أحدهما الحافظ محمّد بن إسحاق بن خزيمة(٢٢٣ـ٣١١) أسماه كتاب «التوحيد وإثبات صفات الربّ عزّ وجلّ»، وقد بلغ في حشد الإسرائيليّات والموضوعات والمجعولات بمكان أثار حفيظة الرازي عليه، وقال في تفسير قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ : «واعلم أنّ محمّد ابن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سمّاه بالتوحيد وهو في الحقيقة كتاب الشرك، واعترض عليها، وأنا أذكر حاصل كلامه بعد حذف التطويلات، لأنّه كان رجلاً مضطرب الكلام قليل الفهم، ناقص العقل».[٣]

ولو سبر الإنسان فهرس هذا الكتاب الذي طبع في آخره، لوقف على

---

١. الواقعة:٥٧ـ٧٢.

٢. لاحظ مقدّمة الجزء السادس من موسوعتنا «مفاهيم القرآن»: ١٥ـ١٦.

٣. تفسير الإمام الرازي: ٢٧/ ١٥٠.

أنّ الرجل من رؤوس المشبّهة، لكنّه تستّر في غير واحد من المقامات بقوله: «إنّا نثبت لله ما أثبته الله لنفسه، نقرّ بذلك بألسنتنا، ونصدِّق بذلك بقلوبنا، من غير أن نشبّه وجه خالقنا بوجه أحد المخلوقين، وعزَّ ربّنا أن يشبَّه بالمخلوقين، وجلّ ربّنا عن مقالة المعطّلين».

وهذه واجهة الرجل والغطاء الذي تستّر خلفه، لكنّه لمّا صار بصدد نقض أهل التنزيه، وقع في ورطة التجسيم، فقد صار في كتابه إلى إثبات النفس والوجه والعين واليد والرِجْل لله سبحانه، واستوائه على العرش، وكونه في السماء بالمعنى الحرفي منها، ويكفيك نموذجاً قوله في الأخير:

«قد ذكرنا استواء ربّنا على العرش في الباب قبله، فاسمعوا الآن ما أتلوا عليكم عن كتاب ربّنا الذي هو مسطور بين الدفّتين، مقروء في المحاريب والمكاتيب، ممّا هو مصرّح في التنزيل، انّ الربّ جلّ وعلا في السماء، لا كما قالت الجهميّة المعطّلة إنّه في أسفل الأرضين، فهو في السماء، عليهم لعائن الله البالغة».[1]

وقام بتأليف الآخر صدوق الأُمّة ومحدِّثها وحافظها محمد بن علي بن الحسين ابن موسى بن بابويه (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) وأسماه بالتوحيد، والكتاب مطبوع منتشر، ترى أنّه جمع فيه الخطب والروايات المأثورة عن الإمام علي أمير المؤمنين وعترته في مجال التوحيد وسائر المعارف، فهو يندّد بالمعطّلة الذين عطّلوا العقول عن المعارف، ويرون أنّ وظيفة الإنسان، هو توصيف الربّ بالصفات والسكوت عليها، كما يندّد بالمشبّهة، الذين نزّلوا الربّ درجة الجسم والجسمانيّات، وفيه بحوث عقليّة ومنطقيّة تتجاوب مع الفطرة وصريح المعقول.

قارن بين الكتابين، ثمّ اقض أيّهما ألصق بمقام الوحي والنبوّة، وأيّهما أليق

١. توحيد ابن خزيمة: ١١٠.

بتعريف التوحيد للعالم.

إنّ كشف الحقائق ورفع الحجب عنها يتمّ بأُمور ثلاثة، دعا إليها الكتاب العزيز وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ .[1]

والمراد من الحكمة ــ والله العالم ـ الحجّة التي تنتج الحقّ الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا إبهام والقرآن مليئ بها، خصوصاً في مجال التنديد بالوثنيّة، ودحض الشرك، وقد تعرّفت على بعض الآيات في صدر المقال.

والموعظة، هو البيان الذي تلين به النفس، ويرقّ به القلب، لما فيه صلاح حال السامع.

والجدل هو الحجّة التي تستعمل لإفحام الخصم، عن طريق مسلّماته، أو مسلّمات الناس، فلعلّ الآية إشارة إلى ما يذكره أهل المنطق بالبرهان والخطابة والجدل.

غير أنّ القرآن يقيّد العظة والجدل بالتي هي أحسن، مشيراً إلى أنّهما على قسمين، ثمّ إنّ مبدأ الكلام لو كان هو القسم الأوّل، فتقسَّمُ بالبرهان، وإن كان هو القسم الثاني، فتوصف بالخطابة، وإن كان الثالث، فبالجدل. والاحتجاج مَقْسمٌ، له أقسامه الثلاثة الماضية، وبعد دعوة القرآن الكريم إلى الاحتجاج بالطرق الثلاثة لا يبقى شكّ في مشروعية الاحتجاج في باب المعارف، سواء كان الهدف إقناع النفس وهدايتها، أو إقناع الغير.

أضف إليه أنّ النبيّ ﷺ والعترة الطاهرة عليهم السلام هم الأُسوة في المجالات كلّها، ولهم مناظرات ومراجعات يقف عليها من سبر كتب الحديث والسيرة والتاريخ.

---

١. النحل:١٢٥.

نعم، ربّما يتخيّل الغافل أنّ أئمّة أهل البيت، نهوا عن المناظرة والاحتجاج، ولكنّه لو صحّ فإنّما نَهُوا من ليس له قدم ثابت في باب المعارف، ولا له معرفة بصناعة الكلام و إقامة البرهان، فيقع في قلبه عند المناظرة ما لا تحمد عاقبته.

كما أنّ الغاية من النهي عن الجدل، هو الجدل المبني على التعصّب والأنانيّة لا التعرّف على الواقع وكشف الحجب عن وجه الحقيقة.

هذا هو رئيس الشيعة وإمام مذهبهم الإمام الصادق عليه السلام، قد ربّىٰ في حجره رجالاً عارفين بصناعة المناظرة، فناظروا المخالفين في مجالات شتّى، وأفحموهم فخرجوا مرفوعي الرؤوس، وهذا هشام بن الحكم ناظر عمرو بن عبيد (المتوفّى ١٤٢هـ) رئيس المعتزلة في وقته، وهو جالس في مسجد البصرة وله حلقة كبيرة، وعليه شملة سوداء من صوف متّزر بها، وشملة مرتدٍ بها، والناس يسألونه، فاستفرج هشامُ الناسَ، فأفرجوا له، ثمّ قعد في آخر القوم، فقال له: أيّها العالم إنّي رجل غريب، تأذن لي في مسألة؟!

وقد نقل مناظرته مع عمرو بن عبيد للإمام الصادق فضحك وقال: «يا هشام من علّمك هذا؟» قال هشام: شيء أخذته منك وألفته.[1]

لقد تخرّج على يدي الإمام الصادق عليه السلام رجال بارعون في الكلام، ناظروا المخالفين مناظرة مبنيّة على أسس صحيحة من الكتاب، والسنّة والعقل كحُمران ابن أعين، وقيس بن الماصر ومؤمن الطاق المعروف بالأحول وغيرهم؛ روى الكليني عن يونس بن يعقوب، قال: كنت عند أبي عبد الله، فورد عليه رجل من أهل الشام، فقال: إنّي رجل صاحب كلامٍ وفقه، وفرائض، وقد جئت لمناظرة أصحابك... فالتفت أبو عبد الله عليه السلام إليّ، وقال: «يا يونس لو كنت تُحسِنُ الكلامَ كلّمتَه» قال يونس: فيا لها من حسرة. ثمّ قال لي: «أُخرج إلى الباب فانظر من ترى

---

١. الكافي: ١/ ١٧٠.

من المتكلّمين فأدخله» قال: فأدخلت حُمرانَ بن أعين، وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحول، وكان يُحسِن الكلام، وأدخلت هشام بن سالم وكان يُحسِن الكلام، وأدخلت قيس بن الماصر وكان عندي أحسنهم كلاماً، وكان قد تعلّم الكلام من علي بن الحسين عليهما السلام ـ إلى أن قال ـ فورد هشام بن الحكم، وهو أوّل ما اختطّت لحيته، وليس فينا إلاّ من هو أكبر سنّاً منه، قال: فوسَّع له أبو عبد الله وقال: «ناصرنا بقلبه ولسانه ويده ـ ثمّ قال ـ يا حُمران كلِّم الرجل» فكلّمه، فظهر عليه حمران، ثمّ قال: «يا طاقي كلِّمه» فكلّمه فظهر عليه الأحول، ثمّ قال: «يا هشام بن سالم كلِّمه» فتعارفا.[١] ثمّ قال أبو عبد الله لقيس الماصر: «كلِّمه» فكلّمه، فأقبل أبو عبد الله عليه السلام يضحك من كلامهما، ممّا قد أصاب الشامي.[٢]

كلّ ذلك يعرب عن أنّه لو صدر نهي عن المناظرة، فإنّما هو لغايات أُخرى، لوجود ضعف في المناظِر، وعدم وقوفه على أُصولها.

قال السيد المرتضى (٣٥٥ـ٤٣٦هـ): قلت للشيخ المفيد (أدام الله عزّه): إنّ المعتزلة والحشوية يزعمون أنّ الذي نستعمله من المناظرة شيءٌ يخالف أُصول الإمامية، ويخرج عن إجماعهم، لأنّ القوم لا يرون المناظرة ديناً، وينهون عنها، ويروون عن أئمّتهم بتبديع فاعلها، وذمّ مستعملها، فهل معك رواية عن أهل البيت عليهم السلام في صحّتها، أم تعتمد على حجج العقول، ولا تلتفت إلى من خالفها، وإن كان عليه إجماع العصابة؟

فقال: أخطأت المعتزلة والحشوية فيما ادّعوه علينا من خلاف جماعة أهل مذهبنا في استعمال المناظرة، وأخطأ من ادّعى ذلك من الإماميّة أيضاً، وتجاهل،

---

١. أي لم يظهر غلبة لأحدهما على الآخر، وفي نسخة: فتعاركا.

٢. الكافي: ١/ ١٧١ـ ١٧٢، الحديث ٤، كتاب الحجّة. لاحظ في التعرّف على مضمون المناظرة، نفس الحديث.

لأنّ فقهاء الإماميّة ورؤساءهم في علم الدين كانوا يستعملون المناظرة، ويدينون بصحّتها، وتلقّى ذلك عنهم الخلف ودانوا به، وقد أشبعت القول في هذا الباب، وذكرت أسماء المعروفين بالنظر وكتبهم ومدائح الأئمّة لهم في كتابي «الكامل في علوم الدين»، وكتاب «الأركان في دعائم الدين»، وأنا أروي لك في هذا الوقت حديثاً من جملة ما أوردت في ذلك إن شاء الله، ثمّ روى بسنده عن أبي جعفر محمّد ابن النعمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: «خاصِمُوهم وبيّنوا لهم الهدى، الذي أنتم عليه، وبيّنوا لهم ضلالهم، وباهلوهم في عليّ عليه السلام». [١]

ويظهر من ديباجة كتاب الاحتجاج أنّ هذه الفكرة قد كانت موجودة في عصره أيضاً، ولأجل ذلك قام بتأليف كتاب الاحتجاج ردّاً عليها، قال:

ثمّ إنّ الذي دعاني إلى تأليف هذا الكتاب، عدول جماعة من الأصحاب، عن طريق الحجاج جدا، وعن سبيل الجدال وإن كان حقّاً، وقولهم: «إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام لم يجادلوا قطّ، ولا استعملوه ولا للشيعة فيه إجازة، بل نهوهم عنه وعابوه» فرأيت عمل كتاب يحتوي على ذكر جمل من محاوراتهم في الفروع والأُصول، مع أهل الخلاف وذوي الفضول، قد جادلوا فيها بالحقّ من الكلام، وبلغوا غاية المرام. وانّهم عليهم السلام إنّما نهوا عن ذلك الضعفاء والمساكين من أهل القصور عن بيان الدين، دون المبرزين في الاحتجاج، الغالبين لأهل اللجاج، فإنّهم كانوا مأمورين من قِبَلِهم بمقاومة الخصوم، ومداواة الكلوم، فَعَلَت بذلك منازلهم، وارتفعت درجاتهم وانتشرت فضائلهم. [٢]

---

١. الفصول المختارة من العيون والمحاسن: ٢٨٤ (للسيد المرتضى، اختارها من كتاب العيون للشيخ المفيد).

٢. مقدمة الاحتجاج: ١٣. وقد عقد العلاّمة المجلسي باباً في البحار تحت عنوان: ما جاء في تحرير المجادلة والمخاصمة في الدين والنهي عن المراء. راجع البحار، ج٢، ص ١٢٤ حيث نقل فيه ٦١ أثراً.

تقييم كتاب الاحتجاج

إنّ كتاب الاحتجاج ضمَّ بين دفّتيه، احتجاجات النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام في شتّى المجالات، وأناروا لطلبة الحقّ والحقيقة طريقَ الهدى، كما قطعوا الطريق على أهل اللجاج، وبذلك انتشرت علومهم، وفضائلهم وليس لهذا الكتاب مثيل في مؤلفات أصحابنا، حيث جمع في كتاب واحد ما وصل إليه من مناظراتهم، إلاّ أنّه ربّما يؤخذ عليه بعض الأشياء، لا بأس بالتنويه عليها:

١. أكثر ما أورده في الكتاب من المناظرات مراسيل لا مسانيد.

إنّ المؤلف يجيب عن هذا الإشكال بقوله: «ولا نأتي في أكثر ما نورده من الأخبار بإسناده، إمّا لوجود الإجماع عليه، أو موافقته لما دلّت العقول إليه، أو لاشتهاره في السير والكتب بين المؤالف والمخالف، إلاّ ما أوردته عن أبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام فإنّه ليس في الاشتهار على حدّ ما سواه، وإن كان مشتملاً على مثل الذي قدّمناه. فلأجل ذلك ذكرتُ إسناده في أوّل جزء من ذلك دون غيره، لأنّ جميع ما رويت عنه، إنّما رويته بإسناد واحد من جملة الأخبار التي ذكرها عليه السلام في تفسيره.»[1]

والسند الذي روى به احتجاجات الإمام العسكري ذكره في أوّل الكتاب على النحو التالي:

حدّثني السيد العالم العابد أبو جعفر مهدي بن أبي حرب الحسيني المرعشي (رضي الله عنه) قال: حدّثني الشيخ الصدوق أبو عبد الله جعفر بن محمّد بن

١. مقدمة الاحتجاج: ١/ ١٥.

أحمد الدوريستي[١](رحمة الله عليه) قال: حدّثني أبي محمّد بن أحمد، قال: حدّثني الشيخ السعيد أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي ﷺ قال:حدّثني أبو الحسن محمّد بن القاسم المفسّر الاسترابادي [٢] قال: حدّثني أبو يعقوب يوسف بن محمّد بن زياد وأبو الحسن علي بن محمد بن سيّار وكانا من الشيعة الإمامية قالا: حدّثنا أبو محمّد الحسن بن علي العسكري....

وبهذا الاسناد الذي ذكره في أوّل الكتاب، أخرج ما رواه عن الإمام العسكري وأشار إليه في الباب الخاصّ به.

سواء كان ما اعتذر به المؤلّف مقبولاً أو غير مقبول، فقد عولجت هذه النقيصة في هذه الطبعة [٣] على القدر المستطاع، حيث قام المحقّقان لهذا الكتاب بإرجاع مراسيلها إلى المسانيد، وذلك بالغور في كتب مشايخنا الإمامية، كالكافي للشيخ الكليني، وكتب الصدوق المختلفة، وغيرهما، وبذلك أصبحت جل أحاديثه مسندة، خارجة عن الإرسال.

على أنّ ما اعتذر به المؤلف عذر مقبول؛ وذلك لأنّ المسائل العقائدية تختلف عن المسائل الفرعية العملية، فالمطلوب في الثانية هو العمل وإن لم يكن هناك يقين بالصحّة، وهذا بخلاف الحال في الأُولى، فإنّ المطلوب فيها هو الاعتقاد والإذعان، وهو رهن قوّة البرهان ورصانة الحجّة. فلو توفّرت فيه لنال الإنسان ضالّته المنشودة وإلاّ فلا، من غير فرق بين كونه مسنداً أو مرسلاً، فلأجل ذلك ترك المؤلف الاسناد ورواها بالشكل المرسل اعتماداً على مضمون الحجّة، وقوّتها.

---

١. نسبة إلى «دوريست»، قرية من قرى الري. ويقال لها الآن«درشت»، كما في «الكنى والألقاب» لشيخنا المحدّث القمّي ٢: ٤٨٠.

٢. وهو الراوي لتفسير الإمام العسكري، روى عنه الشيخ الصدوق في الفقيه وغيره.

٣. طبعة منظمة الأوقاف.

إنّ موقف النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام في عامّة المناظرات، هو موقف المعلّم المحايد، والمرشد الناصح وهو يعتمد على قوة العارضة وحصافة الرأي، لا على كونه نبيّاً موحىً إليه أو وصيّاً قائماً مقام النبيّ. ولولا اتّخاذ ذلك الموقف لما أنتجت تلك المناظرات وصارت عقيمة، وعلى ضوء ذلك، فالاعتماد إنّما هو على المضمون والمحتوى، سواء أصحّ اسناده إلى المعصوم أو لا.

أضف إلى ذلك أنّه ليس علينا ردّ المراسيل بما أنّها مراسيل، وكيف يكون ذلك، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: «لا تكذّبوا الحديث إذا قام به مرجئيّ ولا قدريّ ولا حروريّ، ينسبه إلينا فإنّكم لا تدرون لعلّه شيءٌ من الحقّ، فيكذّب الله فوق عرشه». [1]

٢. نقل في ثنايا الكتاب رواية ظاهرة في وقوع التحريف في الذكر الحكيم. غير أنّه أورد ما أورد، على سبيل التأليف، وألقى التحقيق على عاتق القارئ، كشأن كلّ كتاب كانت الغاية منه جمع الشوارد، ولَمّ المتفرّقات، بغضّ النظر عن الصحّة وعدمها.

ولعلّ ما جاء في التعليق على هذا الموضع في هذه الطبعة ما يروي الغليل ويقطع السبيل، فلاحظ.

هذا بعض ما يمكن أن يقال في تقييم الكتاب، وأمّا ما يرجع إلى مادة الكتاب وما فيه من البراهين الدامغة، والحجج اللامعة في أبواب المعارف والحكم فحدّث عنه ولا حرج. ويكفيك العيان عن البيان ولانطيل الكلام، وأخصّ بالذكر مناظرات الإمام الطاهر عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، ففيها الحجّة على رفعة منزلته وعلوّ شأنه وسعة اطّلاعه على كتب العهدين.

١. المحاسن:١/ ٢٣٠.

حياة الطبرسي

المؤلّف هو أحمد بن عليّ بن أبي طالب المعروف بالطبرسي، من علماء القرن السادس من مشايخ ابن شهر آشوب، المتوفّ عام (٥٨٨هـ).

١. قال في معالم العلماء: شيخي أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي، له كتاب الكافي في الفقه حسن، الاحتجاج، مفاخرة الطالبية، تاريخ الأئمّة عليهم السلام، فضائل الزهراء عليها السلام، كتاب الصلاة.[١]

٢. قال الشيخ الحرّ العاملي في أمل الآمل: هو عالم فقيه، فاضل محدّث ثقة، له كتاب الاحتجاج على أهل اللجاج كثير الفوائد (ثمّ ذكر روايته عن الشيخ الصدوق بالطريق الذي ذكره هو في أوّل كتاب الاحتجاج وقد عرفت نصّه).[٢]

٣. قال أيضاً في خاتمة كتاب الوسائل عند ذكر الكتب المعتمدة: كتاب الاحتجاج تأليف الشيخ الجليل أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي.[٣]

٤. قال العلاّمة المجلسي: كتاب الاحتجاج وإن كان أكثر أخباره مراسيل لكنّه من الكتب المعروفة المتداولة، وقد أثنى السيد ابن طاووس على الكتاب وعلى مؤلّفه، وقد أخذ عنه أكثر المتأخّرين.[٤]

٥. قال الفقيه الشيخ يوسف البحراني: الفاضل العالم المعروف بالشيخ أبي منصور الطبرسي صاحب الاحتجاج وغيره، كان من أجلاّء العلماء ومشاهير الفضلاء.[٥]

---

١. معالم العلماء (باب الألف): ٢٥(برقم ١٢٥).

٢. أمل الآمل: ٢/ ١٧.

٣. وسائل الشيعة: ٢٠/ ٤١.

٤. بحار الأنوار: ١/ ٢٨.

٥. كشكول البحراني: ١/ ٣٠٠ـ ٣٠١.

وقال أيضاً: كثيراً ما ينقل الشيخ في شرح الإرشاد فتاواه وأقواله، فمن ذلك ما نقله في كتاب القصاص في شرح الإرشاد في مسألة أنّ للمولى القصاص من دون ضمان الدية للديان بهذه العبارة: وجمع الشيخ أبو منصور الطبرسي بين الروايتين في كتابه، بأنّ القائل.... [١]

٦. قال الخونساريّ: إنّ هذا الرجل «أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي» من أجلاّء أصحابنا المتقدّمين،وإنّ كتاب الاحتجاج كتاب معتبر معروف بين الطائفة، مشتمل على كلّ ما اطّلع عليه من احتجاجات النبيّ والأئمّة ، بل كثير من أصحابهم الأماجد مع جملة من المخالفين، وفي خواتيمه توقيعات كثيرة خرجت من الناحية المقدّسة إلى بعض أكابر الشيعة. [٢]

٧. وقال شيخنا المجيز الطهراني: أحمد بن علي بن أبي طالب الشيخ أبو منصور الطبرسي صاحب الاحتجاج ومن مشايخ رشيد الدين محمّد بن علي بن شهر آشوب (المتوفّى ٥٨٨هـ) ترجمه وذكر تصانيفه في معالم العلماء، وهو يروي عن السيد العابد أبي جعفر مهدي بن أبي حرب الحسيني المرعشي في أوّل الاحتجاج. [٣]

هذه كلمات مشايخ الإماميّة في حقّ الرجل وكتابه، والسابر في كتب التراجم يجد نظير هذه الإطراءات في حقّه، اكتفينا بهذا المقدار منها، وعلى كلّ تقدير فلم تعلم سنة ولادته ولا عام وفاته، فهو من علماء القرن الخامس، أدرك أوائل القرن السادس، ولعلّه توفّي حوالي عام (٥٣٠هـ) أو أزيد بقليل.

---

١. المصدر نفسه.

٢. روضات الجنّات:١/ ٦٤(رقم الترجمة ١٤).

٣. طبقات أعلام الشيعة (القرن السادس): ١٢.

تآليفه

إنّ لشيخنا المترجم تآليف ذكرها تلميذه ابن شهر آشوب في معالم العلماء، وقد عرفت نصّه. وإليك أسماءها:

١. الاحتجاج.

٢. تاريخ الأئمّة عليهم السلام.

٣. كتاب الصلاة.

٤. الكافي في الفقه، ووصفه تلميذه بأنّه حسن.

٥. مفاخر الطالبية.[١]

ومع الأسف أنّ الدهر قد عفا على الجميع، فلم يبق منها إلاّ كتاب الاحتجاج، ولعلّ في بعض المكتبات توجد نسخة من بعضها.

إزاحة شبهة

وربّما ينسب هذا الكتاب إلى الشيخ أبي علي الطبرسي مؤلّف «مجمع البيان»، ويظهر من روضات الجنّات أنّ ابن أبي جمهور الإحسائي مؤلّف «الغوالي» (المتوفّى حوالي ٩٠٠هـ) والمحدّث الأمين الاسترابادي (المتوفّى ١٠٣٥هـ) نسبا الكتاب إلى صاحب التفسير.[٢]

وقال العلاّمة المجلسيّ في مقدّمات البحار: وينسب هذا الكتاب «الاحتجاج» إلى أبي علي الطبرسي وهو خطأ، بل هو تأليف أبي منصور أحمد بن

١. ولعلّ الصحيح: «مفاخر الطالبيين».

٢. روضات الجنّات: ١/ ٦٥.

علي بن أبي طالب، كما صرّح به السيد ابن طاووس في كتاب «كشف المحجّة»[١] وابن شهر آشوب في «معالم العلماء».[٢]

ويكفي في المقام قول تلميذه ابن شهر آشوب، حيث عدّه من تآليفه، وهو أعرف بحال أُستاذه من غيره، أضف إلى ذلك أنّ ما ذكره من السند لروايات الإمام العسكري ـ على ما عرفت ـ يدلّ على أنّه ليس من تآليف صاحب التفسير، إذ لم يعرف له مثل هذا السند.

ونقل السيد الأمين في «أعيان الشيعة» عن «رياض العلماء»، أنّ هذا الطبرسي المترجم غير صاحب «مجمع البيان» لكنّه معاصر له، وهما شيخا ابن شهر آشوب وأُستاذاه، وظنّي أنّه بينهما قرابة.[٣]

المعروفون بالطبرسي

قد اشتهر لفيف من علماء الإماميّة بهذا اللقب:

١. أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مؤلّف «الاحتجاج».

٢. أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي، مؤلّف «مجمع البيان» (٤٧١ ـ ٥٤٨هـ).

٣. أبو نصر الحسن بن الفضل بن الحسن رضي الدين، صاحب «مكارم الأخلاق»، ابن أبي عليّ صاحب «مجمع البيان».

---

١. ذكره في كتاب «المجلي» على ما في كشكول المحدّث البحراني.

٢. بحار الأنوار: ١/ ٩.

٣. أعيان الشيعة: ١/ ٢٩. والمطبوع من رياض العلماء، فاقد لهذا النصّ، وإنّما جاء فيه ما ذكره المحدّث البحراني من الترجمة في حقّ الرجل. ويظهر من السيد الأمين، وكذا صاحب الروضات١: ٣٤، كون الجزء في متناولها. ولكن صريح محقّق كتاب «رياض العلماء» أنّ الجزء الأوّل والثاني مفقودان.

٤. أبو الفضل علي بن الحسن بن الفضل بن الحسن الطبرسي، صاحب «مشكاة الأنوار».

٥. أبو علي محمّد بن الفضل الطبرسي، كما في «أمل الآمل» وقال: كان عالماً صالحاً عابداً يروي ابن شهر آشوب عنه، من تلاميذ الشيخ الطوسي.[١]

٦. أحمد بن علي بن عبد الجبار الطبرسي القاضي الراوي عن سعيد بن هبة الله القطب الراوندي (المتوفّى ٥٧٣هـ).[٢]

وهناك أعلام للطائفة اشتهروا بهذا الاسم لم نذكرهم روماً للاختصار.

هل الطبرسي منسوب إلى طبرستان؟

اشتهر على الألسن وذاع بين الناس، وذكرته بعض الكتب[٣] أنّ الطبرسي نسبة إلى طبرستان المعروفة اليوم باسم «مازندران» وهي تشمل أكثر ما يقع على ضفاف بحر الخزر، ولكن للنظر فيه مجال:

١. إنّ النسبة إلى المركّب المزجي تتحقّق بحذف الجزء الثاني، و إلحاق الياء إلى الجزء الأوّل، فيقال في «بعلبك» «بعليّ»، وفي «معدي كرب» «معديّ»، قال ابن مالك في ألفيّته:

وانسب لصدر جملة وصدر ما ركّبَ مزجاً وبثان تمّما
إضافة مبدوءة بابن أو أب أو اله التعريف بالثاني وجب

قال ابن عقيل في شرحه: إذا نسب إلى الاسم المركّب، فإن كان مركّباً

١. أمل الآمل: ٢/ ٢٩٣.
٢. طبقات أعلام الشيعة، القرن السادس: ١٣.
٣. الفوائد الرضويّة للمحدّث القمّي: ١/ ٣٥٢.

تركيب جملة أو تركيب مزج حذف عجزه وأُلحق صدره ياء النسبة، فتقول في «تأبّط شرّاً» «تأبطيّ» وفي «بعلبك» «بعليّ» وإن كان مركّباً إضافة، فإن كان صدره ابناً أو أباً، أو كان معروفاً بعجزه، حذف صدره وأُلحق عجزه ياء النسبة، فتقول في «ابن الزبير» «زبيري» وفي «أبي بكر» «بكريّ» وفي «غلام زيد» «زيديّ».... [1]

وعلى ضوء ذلك، فالصحيح في النسبة إلى طبرستان هو «الطبريّ» لأنّها مركّبة من «طبر» الذي هو معرّب «تبر» في الفارسية بمعنى الفأس، ومن «ستان» الذي بمعنى الناحية فركّبا معاً وقيل طبرستان ومعناه المنطقة التي يكثر فيها الفأس، وذلك لأنّ أكثر أهلها كانوا يصطحبونه إمّا للدفاع عن أنفسهم من هجوم الوحوش المنتشرة في غاباتها الكثيرة، وإمّا لقطع الأشجار، فالصحيح عند النسبة حذف العجز أعني «ستان» وإدخال الياء على الصدر فتكون «الطبريّ».

هذا إذا كان المتكلّم بهذه النسبة هم العرب، وأمّا غيرهم فلا يتّبعون تلك القاعدة العربيّة، فيدخلون الياء على جميع المركّب، فيقولون في «عربستان» «عربستاني» وفي «تاكستان» «تاكستاني» وفي المقام «طبرستاني»، فهذا يدلّ على أنّ لفظ الطبرسي ليس منسوباً إلى طبرستان، لا عند العرب ولا عند غيرهم.

٢. تصريح اللغويّين بذلك، قال في «تاج العروس» في مادة «طبر»: طبرستان بلاد عظيمة، منها دهستان، وجرجان، واستر آباد، وآمل، والنسبة إليها «طبري». [2]

قال في «معجم البلدان»: النسبة إلى طبرستان «الطبريّ»، وأمّا «الطبريّة» فالنسبة إليها «الطبراني» على غير قياس، فكأنّه لمّا كثرت النسبة بالطبريّ إلى طبرستان أرادوا التفرقة بين النسبتين، فقالوا «طبراني» إلى طبرية، كما قالوا

---

١. شرح ابن عقيل: ٢/ ٣٩١(طبع مصر).

٢. تاج العروس: مادة «طبر».

«صنعاني» بالنسبة إلى صنعاء.[١]

فقد تحقّق بذلك أنّ الكلمة غير منسوبة إلى طبرستان، فيتعيّن كونها منسوبة إلى نفس «طبرس» وأمّا تعيين ذلك المكان وأين يقع من بلاد إيران، فيحدّثنا المؤرخ أبو الحسن علي بن زيد البيهقي المعروف بابن فندق المتوفّى سنة (٥٦٥هـ) في تاريخ بيهق المؤلّف باللغة الفارسيّة، أنّ «طبرس» رستاق واقع بين قاشان وإصفهان، وأنّ الشيخ الطبرسي صاحب التفسير من ذلك المكان.[٢]

وقد ذكر الحسن بن محمّد بن الحسن القمي المعاصر لابن العميد في تاريخ قم، تلك الناحية فعبّر عنها بـ «طبرس» وأُخرى رستاق «طبرش» ولعلّ في تبديل الشين إلى السين والتلفّظ بـ«طبرس» مكان «طبرش» لأجل إكمال التعريب، ولا ينطبق هذا المكان إلاّ على بلدة «تفرش» التي هي واقعة بين «قم» و«أراك» ولعلّ تعبير البيهقي بأنّها واقعة بين قاشان وإصفهان، غير دقيق. ولكنّ الجاري على الألسن عند التعبير عن هذه البلدة هو «تفريش» بكسر الراء وإضافة الياء، ولعلّ التغيير طرأ عند التعريب.[٣]

---

١. معجم البلدان: ٤/ ١٨ (طبع دار إحياء التراث العربي).

٢. تاريخ بيهق: ٢٤٢ـ ٢٤٣، وقد ذكر هذا الكلام في ترجمته للشيخ الطبرسي مؤلّف التفسير و يظهر من عبارته أنّه كان بينهما معاشرة، حيث إنّ الشيخ الطبرسي قطن في بيهق مدّة من الزمن، واستمرّت زمالتهما.

٣. و من أراد التبسّط في تحقيق الحال، فليرجع إلى تعاليق الأُستاذ أحمد بهمنيار على تاريخ بيهق ومذكّرات الأُستاذ محمّد القزويني: ٥/ ٢٨٥، ومقدّمة الشهيد السيد محمد علي القاضي الطباطبائي على «جوامع الجامع» للشيخ أبي علي الطبرسي مؤلّف مجمع البيان (طبعة تبريز).

٦

أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي المجد الحلبي

(من أعيان القرن السادس)

العقيدة و الشريعة أو الفقه الأكبر والفقه الأصغر

يعتمد الإسلام في دعوته العالمية، على العقيدة والشريعة من دون تفريق وفصل بينهما.

فبالدعوة إلى الأُولى يغذّي العقل والفكر، ويرفع الإنسان إلى سماء الكمال، ويصونه عن السقوط في مهاوي الشرك والوثنية، وعبادة غير الله سبحانه، ويلفت نظره إلى مبدئه ومصيره، وانّه من أين جاء ولماذا جاء، وإلى أين يذهب.

وبالدعوة إلى الثانية يمهد طريق الحياة له ويضيئ دُروبها الموصلة إلى سعادته الفردية والاجتماعية، الدنيوية والأُخروية.

والجدير بالذكر هو أنّ الإسلام لا يفرّق بين العقيدة والشريعة، ويندد بالذين يكرسون اهتمامهم في العقيدة دون الشريعة، ويختصرون الدين في الإيمان المجرّد عن العمل، بل يرى أنّ ترك العمل قد يؤدي إلى زوال العقيدة، ويقول سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَساءُوا السُّوأى أن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ [1] وفي نفس

١. الروم: ١٠.

الوقت ينـدد بالذين يحطّـون من شأن العقيدة ويعكفون على العمـل والعبادة من دون تدبّر في غاياتها، ومقاصدها، والتفكير في الآمر بها، وتتلخص العبادة عندهم في السجود والركـوع فقط ويغفلون عن قولـه سبحانه: **﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّمٰواتِ وَالأرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبحَانَكَ فَقِنَا عَذابَ النَّارِ﴾** [1].

وتأكيداً لهذه الصلة بين العلمين، قام لفيف من علمائنا القدامى والمتأخرين بـالجمع بينهما حتى في التأليـف، فكان الفقـه الأكبر (العقـائد) إلى جانب الفقـه الأصغر (الأحكام). نذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

١. السيد الشريف المرتضـى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) صاحب الآثـار الجليلة. فقد جمع بين العلمين في كتابه المسمى بـ «جمل العِلم والعمل».

وقد تولى شيخ الطائفة محمّد بن الحسـن الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) شـرح القسم الكلامي منه وأسماه: «تمهيد الأُصول» وقد طبع ونشر.

كما تولى تلميذه الآخر القاضي ابن البـراج (٤٠١ ـ ٤٨١ هـ) شرح القسم الفقهي منه وأسماه: «شرح جمل العلم والعمل» وقد طبع أخيراً.

٢. الشيخ أبو الصـلاح تقي الدين الحلبـي (٣٧٤ ـ ٤٤٧هـ) فقـد ألّف كتاباً باسم: «تقريب المعارف في العقائد والأحكام» وقد طبع ونشر.

٣. أبو المكارم عـزّ الدين حمزة بن علي بن زهرة الحلبـيّ (٥١١ ـ ٥٨٥هـ) مؤلف: «غنية النزوع» فقد أدرج في كتابه العقائد وأُصول الفقه والأحكام.

٤. علاء الـدين أبو الحسن علي بـن الحسن بن أبي المجد الحلبي مـن أعلام القرن السادس الهجري.

---

١. آل عمران: ١٩١.

٥ . المحقق الفقيه الشيخ جعفر النجفي المعروف بكاشف الغطاء (١١٥٦ ـ ١٢٢٨ هـ) مؤلف كتاب «كشف الغطاء» حيث ضم إلى جانب الفقه مباحث هامة كلامية وأُصولية لا يستغني عنها الباحث، وبذلك أثبت أنّ العمل ثمرة العقيدة، وقرينها تكويناً وتشريعاً.

إلى غير ذلك من تآليف على هذا النمط يطول الكلام بذكرها.

فقد ألّف كتابه هذا المسمى بـ «إشارة السبق إلى معرفة الحق» على هذا المنوال، وقد طبع الكتاب في ضمن «الجوامع الفقهية» عام ١٢٧٦ هـ بالطبعة الحجرية، وأعيد طبعه بصورةٍ محقّقةٍ مصححة بهيّة.

ترجمة المؤلّف:

إنّ التاريخ قد بَخَس المؤلف حقّه حيث لم يذكر عنه شيئاً جديراً بشخصيته العلميّة الممتازة، ولم يكن المؤلف هو الوحيد الذي أصابه هذا البخس، فكم له من نظير في تاريخ علمائنا.

هذا هو الفقيه الطائر الصيت عز الدين الحسن بن أبي طالب اليوسفي الآبيّ مؤلّف «كشف الرموز» [1] شرحاً على كتاب «النافع» للمحقق، فلا تجد لذلك الفقيه الكبير ـ الذي يعرب كتابه عن تضلّعه في الفقه ـ ترجمة ضافية لائقة بشخصيته، إلاّ جملاً عابرة فلا عتب علينا إذا لم نوفق لأداء حق مؤلفنا فلنذكر ما وقفنا عليه من جمل الإطراء وعبارات الثناء عليه:

١ . قال المحقق الشيخ أسد الله التستري (المتوفّى ١٢٣٤ هـ) صاحب المقابس:

---

١ . فرغ من تأليف كتابه عام ٦٧٢هـ و لا نعلم من ترجمته غير أنّه تلميذ المحقّق (المتوفى عام ٦٧٦هـ).

ومنها ابن أبي المجد الشيخ الفقيه المتكلّم النبيه علاء الدين أبو الحسن علي ابن أبي الفضل بن الحسن بن أبي المجد الحلبي ـ نور الله مرقده ـ وهو صاحب كتاب «إشارة السبق إلى معرفة الحق» في أُصول الدين وفروعه إلى الأمر بالمعروف، وتاريخ كتابة نسخته الموجودة عندي سنة ثمان وسبعمائة، ويظهر من الامارات أنّها كانت عند صاحب «كشف اللثام» وأنّ هذا الكتاب هو الذي يعبّر عنه فيه بالإشارة [1].

٢. وقال الخوانساري: إنّ «إشارة السبق إلى معرفة الحق» الذي يعبر عنه المتأخرون بالاشارة، هو مختصر في أُصول الدين وفروعه إلى باب الأمر بالمعروف فهو بنصّ الفاضل الهندي، وصاحب الرياض وغيرهما تصنيف الشيخ علاء الدين أبي الحسن بن أبي الفضل الحسن بن أبي المجد الحلبي، ثم نقل عبارة صاحب «مقابس الأنوار» التي تقدمت [2].

٣. وقال الشيخ حبيب الله الكاشاني: منهم علاء الدين وهو علي بن أبي الفضل بن الحسن بن أبي المجد الحلبي، كان متكلماً ومن مصنفاته كتاب «إشارة السبق» [3].

٤. قال شيخنا الطهراني: علي بن الحسن ابن أبي المجد الحلبي علاء الدين أبو الحسن مؤلف كتاب «إشارة السبق إلى معرفة الحق» المطبوع في مجموعة «الجوامع الفقهية» في ١٢٧٦هـ . قال صاحب المقابس: إنّ تاريخ كتابة النسخة الموجودة عنده ٧٠٨ هـ وكنية والده أبو الفضل بن أبي المجد [4].

---

١. مقابس الأنوار: ١٢ مؤسسة آل البيت، قم.

٢. روضات الجنات: ٢ / ١١٤، وأوعز إليه أيضاً في ج٤ ص ٣٥٦.

٣. لباب الألقاب في ألقاب الأطياب: ٢١.

٤. طبقات أعلام الشيعة النابس في القرن الخامس: ١١٩. وكان اللازم أن يذكره في قسم سادس القرون لا خامسها.

٥. وقال في الذريعة: «إشارة السبق إلى معرفة الحق» في أُصول الدين وفروعه العبادية من الطهارة إلى آخر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للشيخ علاء الدين أبي الحسن علي بن أبي الفضل الحسن بن أبي المجد الحلبي. ترجمه سيدنا الحسن صدر الدين في التكملة [١] وذكر صاحب الروضات تصريح الفاضل الهندي، وصاحب رياض العلماء بنسبة الكتاب إليه، وذكر أنّ نسبته إلى الشيخ تقي الدين بن نجم الدين الحلبي كما ذكر البعض نشأت من الاشتراك في النسبة إلى حلب، وقال الشيخ أسد الله في المقابس: إنّ النسخة الموجودة عندي من هذا الكتاب تاريخ كتابتها سنة ٧٠٨، وطبع ضمن مجموعة تسمى «الجوامع الفقهية» سنة ١٢٧٦هـ. [٢]

والإمعان في الكتاب يُورث الاطمئنان بأنّه كان من فقهاء القرن السادس الذين ظهروا بعد الشيخ الطوسي وعاصروا الشيخ الطبرسي (المتوفّى ٥٤٨ هـ) وعماد الدين محمد بن علي بن حمزة الطوسي (المتوفّى بعد سنة ٥٦٦ هـ)، وقطب الدين الراوندي (المتوفّى ٥٧٣ هـ) مؤلف «فقه القرآن»، وقطب الدين محمد بن الحسن الكيدري البيهقي الذي كان حيّاً إلى سنة ٥٧٦ هـ، مؤلف كتاب «الاصباح»، ورشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب (المتوفّى ٥٨٨ هـ). إلى غير ذلك من نوابغ القرن السادس الذي احتفل التاريخ، وكتب التراجم بأسمائهم وأسماء كتبهم وتآليفهم.

والمؤلف من مدينة حلب الشهباء أكبر مدينة سورية بعد دمشق التي تبعد عن الحدود التركية قرابة خمسين كيلو متراً، وقد فتحها المسلمون سنة ١٦ هـ، وقد أنشأ سيف الدولة الحمداني الدولة الحمدانية فيها، وجعل عاصمتها حلب،

١. وهذا القسم من التكملة بعد مخطوط، وأمّا المطبوع فيرجع إلى علماء جبل عامل.
٢. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢ / ٩٩.

ودخلت مدينة حلب آنذاك في عهدجديد وهو عهد أمجادها التي لم تشهد لها مثيلاً، وأصبحت مركزاً ثقافياً وعلمياً وعسكرياً من أعظم المراكز التي عرفها الإسلام، وقد وفد كبار الشعراء والعلماء على بلاط سيف الدولة، فصار ملتقى رجال العلم والفكر الذين وجدوا في العاصمة حامياً لهم .

وينسب إلى حلب من رواة الشيعة الأقدمين آل أبي شعبة، في أواسط المائة الثانية، وهذا البيت بيت كبير نبغ فيه محدّثون كبار، منهم الحسن بن علي (المعروف بابن شعبة) من علماء القرن الرابع مؤلف «تحف العقول».

وكان في حلب سادات آل زهرة وكانوا نقباء، وخرج منهم جملة من العلماء منهم السيد أبو المكارم: صاحب «الغنية» وقبره بسفح جبل «جوشن» إلى اليوم، وذرية بني زهرة موجودة إلى الآن في قرية الفوعة من قرى حلب [1].

وقد طلع من تلك المدينة في القرنين الرابع والخامس فحول من فقهاء الشيعة نذكر أسماء بعضهم:

١. علي بن الحسن بن شعبة، من أعلام القرن الرابع ، مؤلف «تحف العقول».

٢. أبو الصلاح تقي الدين (٣٧٤ ـ ٤٤٧ هـ) مؤلف كتاب «الكافي» .

٣. حمزة بن علي بن زهرة (٥١١ ـ ٥٨٥ هـ) صاحب «غنية النزوع».

٤. السيد جمال الدين أبو القاسم عبد الله بن عليّ بن حمزة (٥٣١ ـ٥٨٠هـ) أخو أبي المكارم حمزة بن علي.

إلى غيرهم من الفطاحل الأعلام الذين أنجبتهم تلك التربة الخصبة بالفكر والفضيلة.

---

١. دائرة المعارف الشيعية: ٣/ ١٧ـ٣٦.

الماع إلى كتاب إشارة السبق:

الكتاب مجموعة من المعـارف والأحكام وقد بسط الكلام في الأوّل واختصر في الثاني، فحرر أحكـام الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والأمـر با لمعروف والنهي عـن المنكر، وختم الكـلام مشعراً بـأنّه قـد فرغ عمّـا قصده، ويعـرب أنّ الكتاب كان رسالة عملية للمؤلف وقد كتبه بصورة واضحة وإن كانت براهينه في المعارف مشرقة عالية لا يتحملها إلاّ الأمثل فالأمثل.

وختاماً، نرجو من الله سبحانه أن يتغمد المؤلف الفقيه برحمته الواسعة.

كما نـرجـو منـه سبحـانـه أن يـوفـق المسلمين للعـودة إلى أحضـان الفقـه الإسلامـي، والأخذ بأحكـام الشريعة في جميع المجالات، ونبـذ القوانين الـوضعية الكافرة المستوردة.

وقـد تمّ تحقيق الكتـاب في مؤسسـة الإمام الصـادق عليه السلام وقـامـت بنشره مؤسسة النشر الإسلامي المعروفة بغزارة الإنتاج العلمي.

حيّا الله رجال العلم والفقه، والاجتهاد من أبناء أُمّتنا الإسلامية المجيدة.

7

السيد أبو المكارم حمزة بن علي الحسيني

ابن زهرة الحلبي (٥١١ ـ ٥٨٥ هـ)

التشيّع في حلب عبْر القرون و ترجمة المؤلف

انتشر الإسلام في عصر النبيّ ﷺ في الجزيرة العربية، كما انتشر بعد رحيله في شتّى الأقطار وما ذلك إلاّ لانّه دين الفطرة، يدعو إلى عبادة ربّ واحدٍ، لا شريك له، ونبذ عبادة الأصنام، والحجر والبشر، وإلى العدل والمساواة، وكلّ عمل وخلق حسن، وينهىٰ عن كلّ خلق وعمل قبيح، إلى غير ذلك ممّا يرفع الإنسانَ عن حضيضِ الحيوانيّة إلى ذروة الكمال.

و والاه التشيّع في الانتشار بسرعة في الأقطار الإسلامية، وما ذلك إلاّ لأنّ أكثر المهاجرين والأنصار كانوا يشايعون عليّاً عليه السلام ويحاربون معه لاسيما في الحروب التي نشبت أيام خلافته. فبعد ما نزل الإمام بالكوفة، انتشر التشيّع في العراق.

ولما غادر الإمام الصادق عليه السلام المدينةَ المنورة ونزل بالكوفة أيّام أبي العباس السفاح حيث مكث فيها مدّة سنتين، فعمِد الإمام إلى نشر علومه، وتخرج على يديه الكثير من العلماء. فقويت شوكةُ التشيّع وهذا الحسن الوشّاء يحكي لنا

إزدهار مدرسة الإمام في العراق في تلك الظروف ويقول: أدركتُ في هذا المسجد يعني مسجدَ الكوفة تسعمائة شيخ كلّ يقول: حدثني جعفر بن محمد [١].

وقد كان لهذه المدرسة العظيمة للإمام أكبر الأثر في انتشار التشيّع في أقطار العالم وإن كانت جذوره موجودة قبل الإمام الصادق عليه السلام في الشام ومصر وغيرهما وقد انتشر التشيّع بواسطة مدرسة الإمام في معظم الأمصار الإسلامية خصوصاً في ثالث القرون وما بعده.

ومع انّ الشام كانت معقلَ الأُمويين ودارَ خلافتهم نرى انّ التشيّع قد دبّ فيها دبيبَ الماء في الورد، فما من بلدة أو قرية إلاّ و فيها نجم لامع من علماء الشيعة يقتفي أثر أهل البيت وينادي بموالاتهم التي نصّ القرآن الكريم عليها وقدكان لسماع كلمات أهل البيت عليهم السلام جاذبيّة خاصة في قلوب المسلمين حيث يحنُّون إليهم حنانَ العاشق للمعشوق، لا سيما إنّهم كانوا يصلون على أهل بيت محمّد وآله وعترته في كلّ يوم وليلة تسعَ مرات . و هذا الأمر يدفعهم إلى التعرف عليهم والإعتناء بشأنهم.

و لهذا وذاك، قوي انتشار التشيّع والموالاة لأئمّة أهل البيت في أكثر الأقطار الإسلامية حتى في معاقل الأعداء ودار خلافتهم.

حلب الشهباء وجمالها الطبيعي

من المناطق التي اعتنقت التشيعَ منذ عصور قديمة هي الشام وأخصّ منها بالذكرحلب الشهباء التي نبغ فيها كثير من بيوتات الشيعة، وتربّى في أحضانها جيل كبير من المحدثين والفقهاء والمتكلمين والأُدباء من الشيعة التي ستمرّ عليك أسماء بعضهم. وقبل التعرف عليهم، نذكر شيئاً عن هذه المدينة الزاهرة.

١. النجاشي، الرجال:١/ ١٣٧ رقم ٧٩.

يقول ياقوت الحموي: «حَلَب» بالتحريك مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيّبة الهواء صحيحة الأديم والماء. (١)

وقد وصف الشعراء والأُدباء أزهارها وأثمارها، وأشاروا إلى ضواحيها ونواحيها وما فيها من جمال الطبيعة وكمال الصنع، وكانّك ترى ماءها الفضيّ يجري على تراب كالذهب. وترى فيها أنواعاً من الأزهار والفواكه كلّها تسقىٰ بماء واحد وكأنّ الشاعر بشعره يقصد تلك البلدة إذ يقول:

صُبغت بلون ثمارها أوراقها ... فتكاد تُحسبُ أنّهن ثمار

و للشاعر أبي بكر الصنوبريّ قصيدة تبلغ مائة وأربعة أبيات يصف فيها منتزهات حلب وقراها مستهلّها:

إحبسا العيس إحبساها ... وسلا الدارّ سلاها

و من جملتها:

أنا أحمى حلباً دا ... رًا و أحمى من حماها

أي حسن ما حوته ... حلبٌ أو ما حواها

إلى أن يقول:

حلب أكرم مأوى ... وكريم من أواها

بسط الغيثُ عليها ... بسط نورٍ، ماطواها

وكساها حللا، أبـ ... ـدع فيها إذ كساها

حللا لُحْمتها السُّو ... سن و الوَرْدُ سَداها (٢)

١ و ٢. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٨٢ و ٢٨٦.

قال السيد الخوانساري نقلاً عن كتاب تلخيص الآثار:

انّ حلب مدينة عظيمة بأرض الشام كثيرة الخيرات، طيّبة الهواء ، صحيحة التربة، لها سور حصين، وكان الخليل عليه السلام يحلب غنمه، ويتصدق بلبنها يوم الجمعة، ولقد خصّ الله هذه المدينة ببركة عظيمة من حيث يُزرع بأرضها القطن، والسمسم، والدخن، والكرم، والمشمش، والتين، يسقى بماء المطر، وهي مسورة بحجر أسود، والقلعة بجانب السور لانّ المدينة في وطأ من الأرض، والقلعة على جبل مدور، لها خندق عظيم، وصلَ حفره إلى الماء، وفيها مقامان للخليل عليه السلام يزاران إلى الآن، وفي بعض ضياعها بئر إذا شرب منها من عضَّه الكلب الكلِيب برأ.

ومن عجائبها سوق الزجاج لكثرة ما فيها من الظرائف اللطيفة ، والآلات العجيبة.[١]

التشيّع في حلب عبْر القرون

دخل التشيّع في حلب قبل عهد الحمدانين (٢٩٣ـ ٣٩٢ هـ) ولكنّه انتشر وقوى فيها على عهدهم وذلك لانّ الدولة الحمدانيّة كانت من الدول الشيعيّة، يجاهرون بالتشيّع وينصرونه وكانوا يكرمون الأُدباء والشعراء والعلماء والمحدثين، لا سيما الذين يجاهرون منهم بالتشيّع وولاء أهل البيت . ومن أبرز شعراء الحمدانيّين أبو فراس الحمداني (٣٢٠ـ ٣٥٧ هـ) وله القصيدة الميميّة الطائرة الصيت التي مستهلّها:

الحق مهتضم والدين مخترم وفيء آل رسول الله مقتسم

١. السيد الخوانساري، روضات الجنات: ٢/ ١١٥.

إلى أن قال:

قـام النبـي بها يـوم الغـديـر لهم ... والله يشهـد و الأمـلاك والأُمـم
حتى إذا أصبحـت في غير صاحبها ... باتت تنازعها الذؤبان والرخم
و صيّروا أمـرهـم شـورى كـأنّهم ... لا يعلمـون ولاةَ الحـقّ أيّهم
تالله مـا جهـل الأقـوامُ موضعها ... لكنّهم ستروا وجهَ الذي علموا
ثـمّ ادعاها بنـو العباس ملكهم ... ولا لهم قَدَم فيها ولا قِدَم

ولأجل تلك المناصرة، ووجود المناخ المساعد، أصبح التشيّع مذهباً رائجاً في تلك البلدة الخصبة ممتداً إلى ضواحيها كا لموصل وتشهد بذلك نصوص كثير من المؤرخين.

١. يقول ياقوت الحموي وهو يذكر حلب: والفقهاء يفتون على مذهب الإمامية. [١]

٢. وقال ابن كثير الشامي في تاريخه: كان مذهب الرفض فيها في أيّام سلطنة الأمير سيف الدولة بن حمدان رائجاً رواجاً تاماً.

٣. وقال مؤلف نهر الذهب: لم يزل الشيعة بعد عهد سيف الدولة في تصلّبهم حتى حلّ عصبتَهم وأبطل أعمالهم نورُ الدين الشهيد (٥٤٣) ومن ذلك الوقت ضعف أمرهم غير انّهم ما برحوا يجاهرون بمعتقداتهم إلى حدود (٦٠٠) فأخفوها.

ثمّ ذكر أنّ مصطفى بن يحيى بن حاتم الحلبي الشهير بـ «طه زاده» فَتك بهم في حدود الألف فاخفوا أمرهم، وذكر بعض ما يفعله الحلبيّون مع الشيعة من

---

١. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ج٢، ص ٢٧٣.

الأعمال الوحشية والمخازي والقبائح التي سوّدت وجه الإنسانية ويخجل القلم من نقلها.

وقال القاضي المرعشي: «أهل حلب كانوا في الأصل شيعة وإلى أواخر زمان الخلفاء العباسية كانوا على مذهب الإمامية، وقد أُجبروا في زمان انتقال تلك الولاية إلى حكم السلاطين العثمانية على ترك مذهبهم» وما مرّ من فعل (طه زاده) يؤيد ذلك فإن استيلاء العثمانيين على حلب كان في أوائل المائة العاشرة.

وقال مؤلّف نهر الذهب: انّه لم يزل يُوجد في حلَب عدّة بيوت معلومة يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيّع ويتهابون الزواج معهم مع أنّ ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة أهل السنة.[١]

٤. وقال ابن كثير:

لما سار صلاح الدين إلى حلب فنزل على جبل جوشن، نُودي في أهل حلب بالحضور في ميدان باب العراق فاجتمعوا فأشرف عليهم ابن الملك نورُ الدين فتودّد إليهم وتباكى لديهم وحرّضهم على قتال صلاح الدين وذلك عن إشارة الأُمراء المقدّمين فأجابه أهل البلد بوجوب طاعته على كلّ أحد وشرط عليه الروافض منهم أن يعاد الأذانَ بحيّ على خير العمل، وأن يذكر في الأسواق وأن يكون لهم في الجامع، الجانبَ الشرقي، وأن يذكر أسماء الأئمّة الاثني عشر بين يدي الجنائز، وأن يكبروا على الجنازة خمساً، وأن تكون عقود أنكحتهم إلى الشريف أبي طاهر أبي المكارم حمزة بن زاهر[٢] الحسيني فأجيبوا إلى ذلك كلّه، فأذّن بالجامع

١. السيد الأمين، أعيان الشيعة: ج١، ص ٢٠١.

٢. كذا في المصدر والصحيح «زهرة».

وسائر البلد بحيّ على خير العمل. (١)

ونقل السيد الأمين عن أعلام النبلاء عن كتاب الروضتين، عن ابن أبي طي انّه قال: فأذّن المؤذنـون في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل، وصلّى أبي في الشرقي مُسبّلا، وصلّى وجوه الحلبيين خلفه وذكروا في الأسواق وقُدام الجنائز أسماء الأئمّة وصلّوا على الأمـوات خمس تكبيرات، وأُذن للشريف ـ ابن زهرة ــ أن يكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه وفعلوا جميع ما وقعت الأيمان عليه. (٢)

٥. قال ابن كثير:

إنّ بدر الدولـة أبا الربيع سليمان بن عبد الجبار بـن أرتق صاحب حلب لما أراد بناء أوّل مـدرسة للشافعية بحلـب لم يمكّنه الحلبيون، إذ كان الغـالب عليهم التشيعَ.

إنّ ابتداء إمرة سليمان هذا في حلب نيابة عن عمّه «ايلغاري» بن ارتق، كان سنة ٥١٥ هـ وانتهاؤها ٥١٧ و إنّ تلك المدرسـة تسمى «الزجاجية» وانّه كلما بنى فيها شيء نهاراً خـرّبه الحلبيون ليـلاً إلى أن أعياه ذلك، فاحضر الشريـف زهرة بن علي بن إبراهيم الإسحاقي الحسيني والتمس منه أن يباشر بناءها فكفّ العامة عن هدم ما يبنى، فباشر الشريف البناء ملازماً له حتى فرغ منها. (٣)

وخرج مـن حلب عدّة من علماء الشيعـة وفقهائهم منهم الشيخ كـردي بن عكبري بن كردي الفارسي الفقيه الثقة الصالح، كان يقول: بوجوب الاجتهاد عيناً

---

١. ابن كثير: البداية و النهـاية: ١٢/ ٣٠٩ حوادث سنة ٥٧٠ وفي غير واحد من المعاجـم، كالرياض ٢/ ٢٠٨. تبعاً لمجالس المؤمنين: ١ / ٦٣ وقد صحّف فيها لفظ السبعين بسبع فلاحظ.

٢. السيد الأمين: أعيان الشيعة: ج٦، ص ٢٥٠ ، ترجمة ابن زهرة.

٣. السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة: ٧/ ٦٩، و زهرة المذكور جدّ المؤلّف فيعرب عن مكانة المؤلف في عصره حيث كان رئيساً مطاعاً.

وعـدم جـواز التقليـد قـرأ على الشيـخ الطـوسي وبينهما مكـاتبـات وسـؤالات وجوابات. [١]

و منهم الفقيـه المقدام أبو الصـلاح تقي بن نجم الحلبـي (٣٧٤ ـ ٤٤٧) مؤلف «الكافي»، و «التهذيب» و «المرشد» و «تقريب المعارف»، ـ وقد طبع الأول والأخير ـ وغيرها.

وقد كـانت الصلة بين شيعة حلب وشيعـة الكوفة وثيقة جـدّاً ولأجل ذلك نـرى انّ بعض البيـوت العراقيـة ينتسب إلى حلـب ومـا ذلك إلاّ لـوجود الصلـة التجارية أو العلمية بين البلدين، فهـذا هو عبيد الله بن علي بن أبي شعبة المعروف بالحلبي ومـا هو إلاّ انّه كان يتجّر هـو وأبوه واخوته إلى حلب فـاشتهروا بالحلبيّين. وعبيد الله هذا من فقهـاء الشيعة في القرن الثاني وله كتاب يرويـه أصحابنا عنه [٢] ورواياته مبثوثة في المعاجم الحديثية.

هذا بعض ما كان للشيعة من الشأن في تلك التربة الزاهرة وأمّا مصيرهم في القرون فقد حـدّث عند المؤرخون وقد مرّ تصريح بعضهـم بما جرى على شيعة آل البيت من المجازر فيها. ولنشير إلى النزر اليسير منها ونترك الكثير إلى مجال آخر.

إنّ تاريخ الشيعة تـاريخ حافل بالتضحيات حيـث إنّهم عاشوا بين الخوف والرجاء، وبين الحجر والمدر، وقد تعامل معهم الأُمويّون والعباسيّون بشكل يَندى له جبين البشرية، فلم يكن السبب وراء ذلـك إلاّ عدم تحالفهم مع الظالمين، ومع ذلك فبقـاء الشيعـة اليـوم يعـدّ مـن أكبر المعـاجـز ومن خـوارق العـادات، إذ لم يشهد التاريـخ أُمة أصابها النوائب والمظـالم والقتل الذريع مثل ما أصـابت شيعة أهل البيت ومواليهم، ولو انّك وقفت على ما في طيات كتب التاريخ لضُقتَ ذرعاً

---

١. الخوانساري: روضات الجنات ج٢،ص ١١٥.

٢. النجاشي، الفهرست ترجمة عبيد الله، رقم ٦٤٠.

ولملئت ممّا جاء فيها رُعباً.

٦. قال كرد علي في خطط الشام:

كان أهل حلب سنة حنفية، حتى قدم الشريف أبو إبراهيم الممدوح ـ في عهد سيف الدولة ـ فصار فيها شيعة وشافعية، وأتى صلاح الدين، وخلفاؤه فيها على التشيّع، كما أتى عليه في مصر، وكان المؤذن في جوامع حلب الشهباء يؤذّن بحيّ على خير العمل، وحاول السلجوقيون مرات، القضاء على التشيّع، فلم يوفّقوا إلى ذلك، وكان حكم بني حمدان وهم شيعة، من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيّع في الشمال، ولا يزال على حائط صحن المدفن الذي في سفح جبل «جوشن» بظاهر حلب ذكر الأئمّة الاثني عشر، وقد خرب الآن.[١]

٧. وقال ابن جبير: للشيعة في هذه البلاد أُمور عجيبة، وهم أكثر من السنيين بها، وقد عموا البلاد بمذاهبهم.[٢]

دخل صلاح الدين الأيوبي إلى حلب عام ٥٧٩ وحمل الناس على التسنن وعقيدة الأشعري ولا يُقدَّم للخطابة ولا للتدريس إلّا من كان مقلِّداً لأحد المذاهب الأربعة، ووضع السيف على الشيعة فقتلهم وأبادهم مثل عمله في مصر، إلى حدّ يقول الخفاجي في كتابه:«فقد غالَ الأيوبيّون في القضاء على كلّ أثر للشيعة».[٣]

وبما انّه سبحانه شاء أن يبقى التشيّع في حلب، نرى أنّ الدولة الأيوبيّة لم تتمكن من القضاء على التشيّع فيها تماماً بل بقى مع ما أصابه من الكوارث والمحن.

---

١. كرد علي خطط الشام:٦/ ٢٥٨.

٢. ابن جبير، الرحلة، ص ٢٥٠ ط مصر. قام برحلته هذه عام ٥٨١ و استغرقت ثلاث سنوات.

٣. الخفاجي: الأزهر في ألف عام:١/ ٥٨.

٨. هذا هو ياقوت الحموي يكتب عن حلب عام ٦٣٦ هـ أي بعد دخول الأيوبي لها بسبع وخمسين سنة ما لفظه: وعند باب الجنان مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رُؤي فيه في النوم، وداخل باب العراق مسجدُ غوث، فيه حجر عليه كتابة زعموا انّها خطّ علي بن أبي طالب ﷺ وفي غربي البلد في سفح جبل جوشن قبر المحسِن بن الحسين يزعمون انّه سقط لما جيء بالسبي من العراق ليُحْمَل إلى دمشق، أو طفل كان معهم بحلب فدفن هنالك، وبالقرب منه مشهد مليح العمارة تعصب الحلبيون، وبنوه أحكمَ بناءٍ، وأنفقوا عليه أموالاً، يزعمون أنّهم رأوا علياً ﷺ في المنام في ذلك المكان. [1]

هكذا استمر التشيّع في حلب رفيع البناء، لم يقلعه تلك الهزّاتُ العنيفة، ولم تقوّضه تلك العواصف الشديدة، إلى أن أفتى الشيخ نوح الحنفي [2] بكفر الشيعة واستباحة دمائهم وأموالهم ، تابوا أو لم يتوبوا، فزحفوا على شيعة «حلب» وأبادوا منهم أربعين ألفاً أو يزيدون، وانتهبتْ أموالهم، وأُخرج الباقون منهم من ديارهم إلى «نبل» و«النغاولة» و« أُمّ العمد» و«الدلبوز» و«الفوعة» وغيرها من القرى، واختبأ التشيّع في أطراف حلب في هذه القرى والبلدان.

٩. هاجم الأمير ملحم بن الأمير حيدر، بسبب هذه الفتوى جبل عامل عام ١٠٤٨ فانتهك الحرمات واستباح المحرمات يوم وقعة قرية «أنصار» فلا تسأل عمّا أراق من دماء، واستَلب من أموال، وانتهك من حريم، فقد قتل ألفاً وخمسمائة، وأسّر ألفاً وأربعمائة، فلم يرجعوا حتى هلك في الكنيف ببيروت.

فيالله من هذه الجرأة الكبرى على النفوس والأعراض، ومن تلك الفتيا، الّتي غرّرت بأُولئك على تلك الفظائع والجرائم. [3]

---

١. ياقوت الحموي، معجم البلدان: ٢/ ٢٨٤.

٢. كان مفتي قونية في عصر الخلافة العثمانية توفي عام ١٠٧٠. اقرأ ترجمته في الأعلام للزركلي: ٨/ ٥١.

٣. محمد حسين المظفر، تاريخ الشيعة، ص ١٤٧.

١٠. ولم يكن ذلك الفتك الـذريع أوّل تصفية جسدية للشيعـة، بل صُبّت عليهم قوارع في دار الخلافة، قبل قرنين بالوحشيـة التامة يَنْدىٰ لها جبين الإنسانية. فقد قتل السلطـان سليم في الاناضول وحدهـا أربعين ألفاً، وقيل سبعين لا لشيء إلاّ أنّـهم شيعة. [1]

ما أقبحها من عصبية وما أقساها.

تـرى أكان يسـوغ في شريعة الإنصـاف أن يُسام قـوم يـدينون بـدين الحقّ، ويتّبعـون أوصيـاء النبيّ الشرعيين الّـذيـن أوصى النبـيّ ﷺ بمـوالاتهم ومحبتهم، ويمنعوا من أبسط حقوقهم الإنسانية وهي حـرّية الرأي والمعتقد، خاصة إذا كان ذلك المعتقـد من النـوع الذي يـأخذ بصـاحبـه إلى الفضيلة والطهـر، والإنسانيـة والكمال؟!

ترى أكـان يسوغ أن تمنع جماعة يحترمـون وصية النبيّ ﷺ في ذريته وخلفائه الأبرار، مـن أداء شعائرهم النـابعة من الكتـاب والسنة إلاّ في غطـاء التقية؟! وإذا كانت التقية أمراً قبيحاً فعمل من حملهم عليها أقبح.

وهذا هـو العالم الشـاعر إبـراهيم يحيى [2] يصف مظـالم «جزار» والي عكـا وفظايعه على الشيعة في جبل عامـل تلك المنطقة الخصبة بالعلم والفضل، وجمال الطبيعـة وكانـت ولم تزل داراً للشيعـة منـذ عصـور، تلمع كشقيقتهـا «حلب» في خريطة الشـامات وقد صوّر الشاعـر ما جرى عليهم في قصيدته على وجـه يدمي الأفئدة والقلـوب، وقد هـاجر من مـوطنه إلى دمشق ونظـم فيها القصيـدة الميميّة نقتطف منها ما يلي:

---

١. محمد جواد مغنية، الشيعة والحاكمون، ص ١٩٤ نقلاً عن أعيان الشيعة.

٢. اقرأ ترجمته في الجزء الثاني من دائرة المعارف اللبنانية لرئيس الجامعة اللبنانية فؤاد البستاني.

يعــزّ علينـــا أن نــروحَ و مصرنـــا لفـرعــونَ مغنـىٰ يصطفيـه و مغنـم
منــازلُ أهـل العــدل منهـم خليّـة وفيهـا لأهـل الجور جيش عـرمـرم
وعــاثت يــدُ الأيـام فينا و مجدنـا وبــالــرغم مني أن أقــول مهــدَّم
ولسـت تــرى إلاّ قتيـلاً و هـاربـاً سليبـاً و مكبـوبـاً يغـلّ و يــزغـم
وكـم علَـم في عـامـل طُـوّحت بــه طـوائح خطب جـرحهـا ليس يـلأم
وأصبــح في قيـــد الهوان مكبّـــلاً وأعظــمُ شيء عــــالم، لا يعظّـــم
وكم من عـزيز نـاله الضيم فـاغتدىٰ وفي جيــده حبـل من الــذلّ محكـم
وكـم هــائم في الأرض تهفــوا بلبّــه قـــوادم أفكـــار تغـــور و تتهـــم
ولما رأيـتُ الظلـم طــال ظـــلامـه وانّ صبـــاح العـــدل لا يتبســـم
تـــرحلـــتُ عــن دار الهوان و قلما يَطيب الثـوىٰ في الـدار والجار، أرقـم
تملكهـــا ــــ و الملك لله ــ فــاجــر ســـواء لـــديــه مــا يحلّ و يحرم
عتـلّ زنيم، يُظهــر الــديـن كــاذبـاً و هيهــات أن يخفـى على الله مجرم [١]

نسب المؤلف

اتّفقت كلمـة المترجمين على أنّ نسبَه ينتهي إلى الإمـام الصادق عليه السلام ، ولكن اختلفوا في عددِ الوسائط فذكر الأفنديّ التبريزي نسبَه بالنحو التالي:

السيد عـز الدين أبـو المكارم حمزة بـن علي، بن أبي المحاسن زهـرة، بن أبي علي الحسن ، بن أبي المحـاسن زهرة، بن أبي المواهب علي، بن أبي سـالم محمد، بن

١. محمد جواد مغنية ، الشيعة والحاكمون، ص ١٩٦.

أبي إبراهيم محمد النقيب، بن علي، بن أبي علي أحمد، بن أبي جعفر محمد، بن أبي عبد الله الحسين، بن أبي إبراهيم إسحاق المؤتمن، بن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام الحسيني الحلبي، وقال:

هذا الذي ذكرناه، من نسبه هو الموجود في المواضع المعتبرة، ورأيت في أواخر بحث أُصول الفقه من بعض نسخ الغنية له، نسبه هكذا:

السيد أبو المكارم حمزة، بن علي، بن زهرة، بن علي، بن محمد، بن أحمد، بن محمّد، بن الحسين، بن إسحاق بن جعفر الصادق عليه السلام، ولعلّ فيه اختصاراً كما هو الشائع في الأنساب [1] وعلى ما ذكره يصل نسب المؤلف إلى الإمام الصادق عليه السلام باثنتي عشرة واسطة.

و قد ذكر شيخ الباحثين الطهراني نسبه بالنحو المتقدم وكأنّه تبع صاحب الرياض. [2]

و يقول السيد الخوانساري: السيد بن زهرة الحلبي ينتهي نسبه إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق باثنتي عشرة واسطة سادات أجلاء. [3]

نعم حكى السيد الأمين عن كتاب اعلام النبلاء «أنّه قد أبقت أيدي الزمان قبر المترجم في تربته الكائنة في سفح جبل جوشن جنوبيّ المشهد، وبينها وبين التربة أذرع وقد كانت تلك التربة مردومة فاكتشفت في جمادي الأُولى سنة ١٢٩٧ وقد حاط جميل باشا ما بقي من هذه التربة بجدران حفظاً لها، وقبر المترجم ظاهر فيها وعلى أطرافه كتابة حسنة الخط هذا نصه:

بسم الله الرّحمن الرّحيم: هذه تربة الشريف الأوحد ركن الدين أبي المكارم

١. الأفندي التبريزي، الرياض: ج ٢، ص ٢٠٢.
٢. الطهراني، طبقات أعلام الشيعة القرن السادس، ص ٨٧.
٣. الخوانساري، روضات الجنات: ج ٢، ص ٣٧٤.

حمزة، بن علي، بـن زهرة، بـن علي، بن محمـد، بن محمـد، بن أحمد، بـن محمـد، بن الحسين، بن إسحاق بن جعفر الصادق صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأئمّة الطاهرين وكانت وفاته في رجب سنة ٥٨٥ هـ ـ رضي الله عنه ـ. [١]

وعلى ما ذكره ينتهي نسبه إلى الإمام الصادق عليه السلام بوسائط تسع.

وذكر العمري نسب أبي إبراهيم محمد الذي هو الجدّ السادس للمؤلف إلى الإمام الصادق عليه السلام بالنحو التالي:

أبو إبراهيم: محمد، بن جعفر، بن محمد، بن أحمد، بن الحسين، بن إسحاق، ابن جعفـر الصادق عليه السلام . [٢]وقال: وكـان أبو إبراهيم لبيبـاً عاقلاً ولم تكن حـاله واسعة، فزوجه الحسين الحرّاني، بنته خديجة المعروفة بأُمّ سلمة ـ إلى أن قال: ـ فأمدَّ أبا إبـراهيم ، الحسين الحرّاني بماله وجاهـه، ونبغ أبو إبراهيـم وتقدّم وخلف أولاداً سادة فضلاء، ولهم عقب منتشر بحلب. [٣]

وقـال الزبيـدي في تاج العـروس: بنو زهـرة شيعة بحلـب بل سادة نقبـاء، علماء، فقهاء، محدثون كثر الله أمثالهم وهو أكبر بيت من بيوت الحسين وهم:

أبو الحسـن زهرة، بن أبي المواهب علي، بن أبي سـالم محمد، بن أبي إبـراهيم محمـد الحرّاني وهـو المنتقـل إلى حلب وهـو ابـن أحمد الحجـازي، بن محمـد، بـن الحسين، (وهوالذي وقع إلى حـرّان) بن إسحاق، بن محمد [٤] المؤتمن، ابن الإمام جعفر الصادق عليه السلام الحسيني الجعفري، وجمهور عقب إسحاق بن جعفر ينتهي إلى أبي إبراهيم المذكور». [٥]

---

١. السيد الأمين، أعيان الشيعة: ٦/ ٢٤٩.

٢ و ٣. العمري المجدي، ص ٩٩.

٤. كذا في المصدر و الصحيح «أبو محمد»، إذ لا واسطة بين إسحاق، والإمام الصادق عليه السلام .

٥. الزبيدي، تاج العروس: ج٣، ص ٢٤٨ (مادة زهرة).

ولأجل التعرف على بعض الشخصيات الذين شادوا هذا البيت الرفيع نذكر شيئاً من ترجمة أبيه وجدّه ونترك ترجمة الباقين من أجداده إلى مجال آخر فإنّ الاشارة إلى حياتهم تحوجنا إلى القيام بتأليف مفرد.

أبوه: علي بن زهرة

قال في الرياض: وكان علي، والد السيد ابن زهرة هذا من أجلة العلماء بحلب، ويروي هو عن والده زهرة الحلبي المذكور، ويروي عنه ولده السيد ابن زهرة المذكور على ما رأيته بخطّ بعض الأفاضل نقله عن خط الشيخ سديد الدين يوسف والد العلاّمة ـ قدّس الله سرّه ـ، وصرّح بذلك محمد بن جعفر المشهديّ في مزاره الكبير أيضاً. وقال الكفعمي في أواخر فرج الكرب وفرج القلب: إنّ السيد العالم علي بن زهرة الحسيني طاب ثراه ألف في التغاير كتاباً سماه آداب النفس، ومراده بالتغاير ما هو مصطلح علماء البديع أعني به ما سماه بعضهم التلطيف. ثمّ قال: واعلم انّ هذا السيد وأباه زهرة وأولاده يحيى وحمزة وسائر سلسلته المعروفين، كلّهم من أكابر العلماء ببلاد حلب. [1]

جدّه أبو المحاسن [2] زهرة

قال في الرياض: كان من أكابر العلماء بحلب، ويروي عنه ولده عليّ المذكور، وهو يروي عن ابن قولويه على ما رأيته بخطّ بعض الأفاضل نقلاً عن خطّ الشيخ سديد الدين يوسف والد العلاّمة ـ قدّس سرّه ـ وبه صرّح الشيخ

---

١. الأفندي التبريزي، رياض العلماء، ج٤، ص ٩٧ ولاحظ روضات الجنات، ج٢، ص ٣٧٤ و طبقات الأعلام القرن السادس، ص ١٨١.

٢. اختلفت كلمة أصحاب المعاجم في كنيته، فصاحب الرياض على أنّه «أبو المحاسن» بينما يصرّ السيد الأمين على انّ كنيته «أبو الحسن» و انّ الأوّل كنية «زهرة» الثاني.

محمد بن جعفر المشهديّ في المزار الكبير أيضاً، لكنّه قال: انّه يروي عن الصدوق.

والسيد زهرة الحلبي هذا هوالذي ينسب إليه سبطه حمزة المعروف بالسيد ابن زهرة وسائر أولاد زهرة وبنو زهرة معروفون. (١)

ولو كان يروي عن ابن قولويه المتوفى عام ٣٦٩ هـ أو الصدوق المتوفى عام ٣٨١هـ فقد عاش (جدّ المؤلف) في العقد الثاني من القرن الرابع وأدرك سنين كثيرة من القرن الخامس.

ولعلّ في هذا الالمام العابر، غنى وكفاية للقارئ في التعرف على حياة والد المؤلف وجدّه بوجه موجز.

لقد ظلّ البيت، عامراً بالعلم والفضل، والفقه والحديث، مُشعّاً عبْر القرون، حتى بعد مضي مؤلفنا الجليل الذي عاش بين (٥١١ـ ٥٨٥ هـ) ومع ما أصابته من نكبات ونوائب تدمي القلوب، وتهزّ المشاعر في أواخر القرن السادس ـ على ما عرفت ـ فما برح البيت ساعياً في تربية نوابغ العلم وابطال الفقه وجهابذة الحديث حتى القرن السابع والثامن وبعدهما ويكفيك ما نذكره في المقام من استجازة عدّة من أعلام البيت وفقهائهم، علاّمةَ عصره وفقيه دهره الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي (٦٤٨ـ ٧٢٦ هـ)، المشتهر بالعلاّمة على الإطلاق وهذا نصّ اجازته لبني زهرة نقتطف منه ما يلي قال: بعد البسملة والتحميد والمقدمة:

وبلغنا في هذا العصر، وورود الأمر الصادر من المولى الكبير، والسيد الجليل،

١. الأفندي التبريزي، الرياض، ج٢، ص ٣٥٦ ولاحظ أعيان الشيعة، ج٧، ص ٦٩.

أقول: نقل الجدّ عن الصدوق فضلاً عن ابن قولويه بعيد جداً، لأنّ حفيده المترجم له المتوفىٰ عام ٥٨٥هـ ينقل عنه، فكيف يصحّ لشيخه أن ينقل عن الصدوق المتوفىٰ عام ٣٨١هـ أو عن إبن قولويه المتوفىٰ عام ٣٦٩هـ إذ لازم ذلك أن يكون الجدّ من المعمّرين و لم يذكر في عدادهم!.

الحسيب النسيب، نسل العترة الطاهرة، وسلالة الأنجم الزاهرة، المخصوص بالنفس القدسيّة، والرئاسة الانسية، الجامع بين مكارم الأخلاق، وطيب الاعراق، أفضل أهل عصره على الإطلاق، علاء الملّة والحقّ والدين، أبي الحسن علي، [1] بن أبي إبراهيم محمد، ابن أبي علي الحسن، بن أبي المحاسن زهرة، بن أبي المواهب علي، بن أبي سالم محمد، بن أبي إبراهيم محمد النقيب، بن أبي علي أحمد، بن أبي جعفر محمد، بن أبي عبد الله الحسين، بن أبي إبراهيم إسحاق المؤتمن، ابن أبي عبد الله جعفر الصادق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ابن أبي جعفر محمد الباقر ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ابن أبي الحسن علي زين العابدين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ابن أبي عبد الله الحسين السبط الشهيد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ابن أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

نسب تضاءلت المناسبُ دونه فضياؤه لصباحه في فجره

أيّده الله تبارك وتعالى بالعنايات الإلهية، وأمَدّه بالسعادات الربانية، وأفاض على المستفيدين من جزيل كماله كما أسبغ عليهم من فواضل نواله.

يتضمن سبب اجازة صادرة من العبد له ولأقاربه السادات الأماجد، المؤيّدين من الله تعالى في المصادر والموارد، وأجوبة عن مسائل دقيقة لطيفة،

١. هكذا في البحار المطبوع، الجزء ١٠٤/ ٦١. فلو حذفنا الكنى يكون نسب المستجيز هكذا: على بن محمد بن الحسن، بن زهرة و على هذا، تكون الواسطة بينة وبين زهرة اثنين ولا يخفى بعده لانّه يُصبح المستجيز تِرْب ولد المؤلف الذي كان يعيش في أوائل القرن السابع، و من البعيد أن يروي عن العلاّمة عام ٧٢٣. وفي البحار الجزء ٢٦/ ٢١ المطبوع عام ١٣١٥ «علاء الدين أبو الحسن، علي بن إبراهيم، بن محمد، بن أبي الحسن، بن أبي المحاسن زهرة فيكون نسبه بعد حذف الكنى هكذا: علي بن إبراهيم بن محمد بن الحسن بن زهرة، فتكون الواسطة بينهما ثلاث، ولا يخلو عن بعد أيضاً. أضف إليه ما فيه من الغلط فانّ محمّداً والد إبراهيم هو الحسن لا ابن الحسن.

ومباحث عميقة شريفة، فامتثلت أمره رفع الله قدره، وبادرتُ إلى طاعته وإن استلزمت سوءَ الأدب، المغتَفر في جنب الاحتراز عن مخالفته، وإلاّ فهو معدن الفضل والتحصيل، وذلك غنى عن حجّة ودليل.

وقد أجزت له أدام الله أيّامه.

ولولده المعظم والسيد المكرم، شرف الملة والدين أبي عبد الله الحسين.

ولأخيه الكبير الأمجد والسيد المعظم الممجّد بدر الدين أبي عبد الله محمد.

ولولديه الكبيرين المعظمين أبي طالب أحمد أمين الدين، وأبي محمد عز الدين حسن عضدهما الله تعالى بدوام أيّام مولانا.

أن يروي هو وهم، عني جميعَ ما صنفته في العلوم العقلية والنقلية أو أنشأته أو قرأته أو أُجيز لي روايته أو سمعته من كتب أصحابنا السابقين، رضوان الله عليهم أجمعين، وجميع ما أجازه لي المشايخ الذين عاصرتهم واستفدت من أنفاسهم... إلى آخرها. [1]

و الاجازة مفصلّة جديرة بالمطالعة، تعرب عن تضلّع العلاّمة في غالب الفنون والعلوم، واتصاله المستمر بالمشايخ واستجازته عن أساتذته العلوم والحديث والفقه وقد أرّخها بـ ٢٥ شعبان ٧٢٣.

وهذا الثناء العاطر الذي سمعناه عن العلاّمة على أبناء زهرة في القرن الثامن يُوقفنا على انّ ذلك البيت العلوي لم يزل باقياً على ذروة العلم وكان كشجرة طيّبة تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها إلى حدّ نرى انّ العلامة الحلي، يتواضع للمستجيز، ويعدّ سؤاله، أمراً صادراً منه، فإذا كان هذا حال البيت في الأثمار والاضاءة في القرن الثامن فكيف حاله في عصر المؤلف وبعده؟ ولذلك نشير إلى شخصيات معاصرة للمؤلف كلّهم من نتاج بيته الرفيع.

---

١. المجلسي: البحار: ١٠٤/ ٦١ـ ٦٢.(ط بيروت).

أقطاب الطائفة في عصر المؤلّف

١. الشريف زهرة بن علي بن زهرة بن الحسن الحسيني وهو أخو الشريف أبي المكارم مؤلفنا الجليل. قال المقريزي في خططه:

أنشد الشريف زهرة بن علي بن زهرة بن الحسن الحسيني وقد اجتاز بالمعشوق يريد الحج:

قد رأيت المعشوقَ و هو من المهجر   بحال تنبُو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سوء   قد أدالت يد الحوادث منه

و« المعشوق» كما في معجم البلدان: قصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء في وسط البرية عمره المعتمد. [1]

٢. عبد الله بن علي بن زهرة أخوه الآخر ولد عام ٥٣١ وتوفي عام ٥٨٠.

وقد قرأ النهاية على أخيه أبي المكارم، وله كتاب التجريد لفقه الغنية عن الحجج والأدلة، ولعلّه لخّص كتاب أخيه «الغنية»، وله ترجمة في غير واحد من الكتب. [2]

٣. السيد محي الدين أبو حامد محمد بن عبد الله بن علي بن زهرة وهو ابن أخي المؤلف، ويروي عنه، يحيى بن سعيد مؤلف الجامع للشرائع المتوفّى عام ٦٩٠هـ، وعلي بن موسى بن طاووس المتوفّى سنة ٦٦٤هـ، والمحقّق الحلّي المتوفّى سنة ٦٧٦هـ، وقد قرأ مقنعة المفيد على عمّه أبي المكارم سنة ٥٨٤ هـ، وله من العمر أقلّ من العشرين فيكون من مواليد حوالى عام ٥٦٥ هـ، وله ترجمة

---

١. المقريزي، الخطط: ج٣، ص ٢٥٩، لاحظ أعيان الشيعة: ج٧، ص ٧٠.
٢. الطهراني، طبقات أعلام الشيعة القرن السادس، ص ١٦٥

في طبقات أعلام الشيعة. [١]

٤. أحمد بن محمد بن جعفر الشريف النقيب أبو طالب أمين الدين الحسيني، يروي عنه: السيد محي الدين أبو حامد، محمد بن عبد الله بن زهرة في «الأربعين»، وابن أخي السيد أبي المكارم كما مرّ، وقد صرّح بأنّ الشريف خال والده عبد الله بن علي بن زهرة، والظاهر انّه من السادة العلماء النقباء بحلب من بني زهرة. [٢]

هؤلاء بعض الشخصيات البارزة الذين تخرجوا من هذا البيت فهم بين متقدم على المؤلّف أو معاصر له أو متأخر عنه، وهناك فقهاء أجلاء نبغوا من هذا البيت عبر العصور فالقيام بترجمتهم ولو بصورة المامة عابرة يحوجنا إلى تأليف مفرد.

حياة المؤلف وأشواطه العلمية

أظنّ انّه قد حان الوقت لاستعراض ترجمة مؤلفنا الكبير أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة.

و ننقل قبل كل شيء كلمات الأعلام في حقّه:

١. قال ابن شهر آشوب (٤٨٨ ـ ٥٨٨هـ) : حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي، له كتاب قبس الأنوار في نصرة العترة الأخيار، وغنية النزوع حسن. [٣]

٢. وقال العلاّمة الحلي: حمزة بن علي بن زهرة الحسيني (بضم الزاي) الحلبي، قال السيد السعيد صفي الدين معد (رحمه الله): انّ له كتاب قبس الأنوار

١. لاحظ الجزء المختص بالقرن السابع باسم الأنوار الساطعة في المائة السابعة، ص ١٦٠.

٢. السيد الأمين: أعيان الشيعة: ٣/ ٩١.

٣. ابن شهر آشوب، معالم العلماء: ص ٤٦ برقم ٣٠٣.

في نصرة العترة الأطهار وكتاب غنية النزوع. [١]

٣. قال الزبيـدي: فمِنْ وُلْد علي، الشريف أبوالمكـارم حمزة بن علي المعروف بالشريف الطاهـر، قال ابن العديم في تاريخ حلب: كان فقيهـاً أُصولياً نظّاراً على مذهب الإماميـة، وقال ابن أسعد الجواني: الشريف الطاهر عز الـدين أبو المكارم حمزة ولد في رمضان سنة ٥١١ وتوفي بحلب سنة ٥٨٥. [٢]

٤. وقال الطباخ الحلبي في اعلام النبلاء: الشريف حمزة بن زهرة الإسحاقي الحسيني أبوالمكـارم السيد الجليل، الكبير القدر، العظيم الشأن، العـالم، الكامل، الفـاضل، المدرس، المصنـف، المجتهـد، عين أعيـان السـادات والنقبـاء بحلب، صاحب التصانيف الحسنة والأقـوال المشهورة، له عدّة كتب، وقبره بحلب بسفح جبل جوشن، عند مشهـد الحسين، له تربة معروفة مكتـوب عليها اسمه ونسبه إلى الإمام الصادق عليه السلام وتاريخ موته أيضاً. [٣]

٥. وقال نظام الـدين القرشي في كتاب نظام الأقـوال: حمزة بن علي بن زهرة الحسيني، أبو المكـارم المعروف بابـن زهرة، عالم فـاضل، متكلّم من أصحابنـا، له كتب: منهـا غنية النزوع في الأُصـول والفروع، وكتاب قبـس الأنوار في نصرة العترة الأطهـار، ولد في شهـر رمضان في سنـة احـدى عشرة وخمسمائة، وتوفي سنـة خمس وثمانين وخمسمائة، وروى عنه ابن أخيه محمد بن عبد الله بن علي بن زهرة ومحمد بن إدريس. [٤]

٦. وقال الشيخ الحر العاملي: هو فاضل عالم ثقة جليل القدر له مصنفات

---

١. العلاّمة الحلي، ايضاح الاشتباه: ١٦٨ـ ١٦٩.

٢. الزبيدي، تاج العروس: ج٣، ص ٢٤٩ (مادة زهرة).

٣. أعلام النبلاء: ٤/ ٢٦٩ برقم ١٣٢.

٤. الأفنديّ التبريزي، الرياض: ج٢، ص ٢٠٦ نقله عن نظام الدين القرشي.

كثيرة، ثمّ ذكر تآليفه التي ستوافيك. (١)

٧. وقال القاضي نور الله ما هذا خلاصته: إنّ السيد أبا المكارم حمزة بن زهرة كان من مجتهدي علماء الإمامية، وصاحب التصانيف الكثيرة وكان رئيساً كبيراً بحلب ـ ثمّ قال:ـ وكان من أفاضل المتأخرين ، المناظرين ومن هذه السلسلة السيد علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي إبراهيم محمد بن أبي علي الحسن بن أبي المحاسن زهرة بن أبي علي الحسن، ثمّ ساق نسب علاء الدين إلى الإمام أميرا المؤمنين عليه السلام. (٢)

٨. وقال العلاّمة المجلسي: وكتاب «غنية النزوع في علم الأُصول والفروع» للسيد العالم الكامل أبي المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني. (٣)

وقال في الفصل الثاني من فهرس البحار: وكتاب الغنية مؤلفه غني عن الإطراء وهو من الفقهاء الأجلاّء، وكتبه معتبرة مشهورة لا سيما هذا الكتاب. (٤)

٩. وقال السيد الخوانساري: السيد أبو المكارم من كبار فقهائنا الأصفياء النبلاء، وكلما أطلق السيد ابن زهرة ينصرف الإطلاق إليه وله كتاب «غنية النزوع إلى علم الأُصول والفروع» تعرض بتبيين مسائل الأُصولين ثمّ الفقه في نحو من أربعة آلاف بيت، وهو غير «غنية» أخيه، والنزوع (بضم النون) بمعنى الاشتياق. (٥)

١٠. وقال المحدّث النوري: السيد عزالدين أبو المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي الفقيه الجليل المعروف صاحب الغنية وغيرها المتولد في الشهر المبارك سنة احدى عشر وخمسمائة، المتوفّى سنة خمس وثمانين وخمسمائة،

---

١. الحر العاملي، أمل الآمل: ٢/ ١٠٥ رقم ٢٩٣.

٢. القاضي نور الله المرعشي ، مجالس المؤمنين: ١/ ٥٠٨.

٣ و ٤. المجلسي: بحار الأنوار: ١/ ٢١و٤٠.

٥. السيد الخوانساري، روضات الجنات: ج٢، ص ٣٧٤ـ ٣٧٥ رقم الترجمة ٢٢٥.

هو وأبوه وجدّه وأخوه وابن أخيه من أكابر فقهائنا، وبيتهم بيت جليل بحلب. [١]

١١. وقال المحدّث القمي: أبو المكارم حمزة بن علي بن زهرة الحسيني الحلبي العالم الفاضل الجليل الفقيه الوجيه صاحب المصنفات الكثيرة في الإمامة والفقه والنحو وغير ذلك. ثمّ ذكر تآليفه. [٢]

١٢. وقال شيخنا المدرس في موسوعته: ابن زهرة حمزة بن علي بن أبي المحاسن زهرة، عالم فاضل جليل القدر من أكابر علماء الإمامية ومتكلميهم وفقهائهم، ويروي بواسطة واحدة عن أبي علي ولد الشيخ الطوسي المتوفّى سنة ٥١٥ هـ. [٣]

إلى غير ذلك من الكلمات المماثلة التي تعرب عن مكانة المؤلف العليا، ولعلّ في ما ذكرناه من الكلمات غنى وكفاية.

آثاره وتآليفه:

إنّ أحسن ما يستدل به على مكانة الإنسان وسعة باله وكثرة اطّلاعه ورصانة تفكيره، هو الآثار التي يتركها الإنسان بعد رحيله فانّها مرآة لما كان ينطوي عليه من المواهب والطاقات وقد ترك مؤلفنا الجليل آثاراً قيمة، خالدة على جبين الدهر مشرقة عبر القرون والأجيال لا تندرس بمرّ الحقب والأيام، وهاهو أثره القيم الذي يزفه الطبع إلى القراء لم يزل مصدراً للعلم ومرجعاً للفقهاء منذ تأليفه إلى يومنا هذا وقد كان محور الدراسة في عصره وبعد رحيله حتى انّ المحقق الطوسي قرأه على معين الدين المازني المصريّ، وكتب أُستاذه اجازة له في خاتمة الكتاب

---

١. النوري، المستدرك، الخاتمة ،٣/ الفائدة الثالثة، ص ٤٧٥.

٢. القمي، الكنى والألقاب، ج١، ص ٢٩٤.

٣. المدرس التبريزي، ريحانة الأدب، ج٧، ص ٥٥٠.

وسيوافيك نصّها.

و ها نحن نذكر صورة موجزة من تصانيفه:

١. الاعتراض على الكلام الوارد من حمص [١].

٢. الجواب عمّا ذكره مطران [٢] نصيبين.

٣. الجواب عن الكلام الوارد من ناحية الجبل.

٤. جواب الكتاب الوارد من حمص، رواها عنه ابن أخيه السيد محيي الدين محمد وغيره ويحتمل اتحاده مع الأوّل.

٥. جواب المسائل الواردة من بغداد. [٣]

٦. قبس الأنوار في نصرة العترة الأخيار. وقد رد عليه بعض المخالفين من معاصري العلامة الحلي أسماه «المقتبس» ثمّ رد عليه الشيخ علي بن هلال بن فضل (المتوفّى ٨٧٤ هـ) وأسماه الأنوار الجالبة لظلام الغلس من تلبيس صاحب المقتبس (الذريعة: ١٧/ ٣١).

٧. مسائل في الرد على المنجمين تبلغ ٢١ مسألة، وللشريف المرتضى أيضاً كتاب بهذا الاسم(الذريعة: ٢/ ٣٨٧).

٨. مسألة في انّ النظر الكامل على انفراده كاف في تحصيل المعارف العقلية.

٩. مسألة في نفي الرؤية واعتقاد الإمامية ومخالفيهم ممن ينسب إلى السنة

١. حِمْص: بالكسر ثمّ السكون بلد مشهور قديم و هي بين دمشق و حلب، بناها رجل يقال له حمص بن المهر، معجم البلدان، ج٢، ص ٣٠٢. وفي الذريعة ٥/ ١٨٥ جواب الكتاب الوارد من حمص.

٢. مطران: بفتح الميم و سكون الطاء رئيس الكهنة، و هو فوق الأسقف و دون البطريرك و الكلمة أصلها يونانية. المنجد مادة «مطر». وفي الذريعة ٥/ ١٩٣ جواب المسألة الواردة من نصيبين.

٣. وفي الذريعة (٥/ ٢١٦ جواب المسائل البغدادية).

والجماعة.

وعبر عنها في الروضات (٢/ ٣٧٥) بـ « الشافية » ، تلك المسألة التي تفترق فيها العدلية عن الأشاعرة فالطائفة الأُولى ينزهون الربّ عنها في الدنيا والآخرة والأشاعرة ينفونها في الدنيا ويثبتونها في الآخرة.

١٠. مسألة في كونه تعالى جباراً حيّاً.

١١. المسألة الشافية في ردّ من زعم انّ النظر على انفراده غير كاف في تحصيل المعرفة به تعالى. (١)

١٢. مسألة في أنّ نية الوضوء عند المضمضة والاستنشاق.

١٣. مسألة في تحريم الفقاع.

١٤. مسألة في الرد على من ذهب إلى انّ الحسن والقبح لا يعلمان إلاّ سمعاً.

وهذه المسألة تعبر عنها، بأنّ الحسن والقبح عقليّان ـ كما عليه العدلية ـ أو شرعيّان كما عليه الأشاعرة.

١٥. مسألة في الردّ على من قال في الدين بالقياس.

١٦. مسألة في إباحة نكاح المتعة.

١٧. نقض شبه الفلاسفة.

١٨. النكت في النحو.

١٩. غنية النزوع إلى علمي الأُصول والفروع. (٢)

---

١. قد كتب غير واحد من علمائنا رسالة في هذا الموضوع لاحظ الذريعة ج٥/ ١٩٢ برقم ٨٨٢.

٢. الحر العاملي: أمل الآمل: ٢/ ١٠٥ رقم ٢٩٣، ذكر فهرس تصانيفه، بالنحو الذي ذكرنا، و ذكرنا موارد اختلافه مع الذريعة في الهامش والمتن. والعجب انّ بعض ما ذكر في أمل الآمل، لم نعثر عليه في الذريعة و لعلّه ذكره تحت عنوان آخر.

وذكر في الذريعة ما يلي:

٢٠. جوابات مسائل البلدان للسيد أبي المكارم عز الدين حمزة بن زهرة (الذريعة٥/ ٢١٦).

٢١. مسائل البلدان أوعز إليه في ج٥/ ٢١٦ قائلاً بانّه يأتي في الميم. ولم يذكرها في محلّها ويحتمل اتحادهما.

والظاهر انّ الزمان قد لعب بتصانيفه، إذ لم نجد في المعاجم شيئاً يدلّ على وجود نسخة من كتبه في المكتبات والمتاحف، غير كتاب «الغنية» الذي نحن بصدد التقديم له، فما ظنّك بكتب عالم أو طائفة أُغير عليها بخيل وركاب، وقُتلوا في عقر دارهم، أو أجبروا على ترك ديارهم، والنزول في الجبال والقرى النائية؟!

مشايخه وأساتذته

إنّ وليد بيت العلم والفضل كابن زهرة يتخذ ـ بطبع الحال ـ مشايخ بيته، سناداً وعماداً لرقيّه. وأساتذة لعلومه ولذلك قرأ سيدنا المترجم على لفيف منهم، وإليك أسماء من وقفنا عليهم من أساتذته.

١. والده: علي بن زهرة الحلبي. [١]

٢. جدّه: السيد أبو المحاسن زهرة الحلبي. [٢]

٣. أبو منصور محمد بن الحسن بن منصور النقاش الموصلي تلميذ أبي علي ولد شيخ الطائفة. [٣]

---

١ و ٢. السيد الخوانساري: الروضات: ٢/ ٣٧٤.

٣. السيد الأمين: أعيان الشيعة: ٦/ ٢٥٠ و هو يصرّ بأنّ كنيته «أبو الحسن».

٤. أبو عبد الله الحسين بن طاهر بن الحسين، وهو يروي عن الشيخ أبي الفتوح.[١]

تلامذته ومن يروي عنه

يروي عنه لفيف من الأكابر.

١. الشيخ معين الدين المصري.[٢]

٢. الشيخ شاذان بن جبرئيل القمي الّذي كان حياً سنة ٥٨٤ هـ.[٣]

٣. الشيخ محمد بن جعفر المشهدي صاحب «المزار» المشهور.[٤]

٤. ابن أخيه السيد محيي الدين محمد.[٥]

٥. محمد بن إدريس الحلي مؤلف السرائر (المتوفّى ٥٩٨ هـ) ولو صحّ فهو من مشايخ روايته لا انّه تتلمذ عليه كما يظهر من تعبيره عنه في السرائر.[٦]

وقال السيد حسين البروجردي في نخبة المقال:

وابن علي بن زهرة الأجل ذو غنية عنه ابن إدريس نقل

ولعل من سبر الكتب والمعاجم يعثر على أسماء أُخرى تروي عن المؤلف أو يروي هو عنهم.

---

١. الأفندي التبريزي، الرياض: ٢/ ٢٠٥ وفي المصدر المعري مكان المصري والصحيح ما أثبتناه.

٢ و ٣. السيد الخوانساري: الروضات: ٢/ ٣٧٥ و أمل الآمل: ٢/ ١٠٦.

٤. الحرّ العاملي: أمل الآمل: ٢/ ١٠٦ ولاحظ ريحانة الأدب: ٧/ ٥٥١.

٥. طبقات أعلام الشيعة، القرن السابع: ١٦٠.

٦. ذكره في أمل الآمل و الروضات وغيرهما لاحظ السرائر: ٢، ص٤٤٣.

غنية النزوع إلى علمي الأُصول والفروع

هذا الكتاب مشتمل على العلوم الثلاثة:

أ. الفقه الأكبر: وهذا القسم مشتمل على مهمات المسائل الكلامية من التوحيد إلى المعاد.

ب. أُصول الفقه: وهو حاو لبيان القواعد الأُصولية التي يستنبط منها الأحكام الشرعية ، ألفّه على غرار أُصول القدماء، ومن فصوله النافعة ، بحثه عن القياس، وآثاره السلبية في الفقه. وقد خلت كتب المتأخرين من أصحابنا من طرح هذه المسألة ودراسة أدلّة المثبتين والنافين، وما هذا إلاّ لانّ عدم حجّيته هو الأصل المسلّم في فقه أهل البيت.

ج. الفروع والأحكام الشرعية: وهو دورة فقهية كاملة، استدلالية، يستدل بالكتاب والسنة النبوية وأحاديث العترة الطاهرة والإجماع، وهذا القسم من محاسن الكتب وجلائلها و إليك مواصفاته:

١. يستمد من الكتاب العزيز في مسائل كثيرة على وجه ليس له مثيل فيما بأيدينا من كتب القدماء فقد استدل ، بقرابة مائتين وخمسين آية، في موارد مختلفة فهو بحقّ جدير بالتقدير.

٢. يعتمد على أحاديث نبوية وافرة إمّا استدلالاً على المطلوب، أو احتجاجاً على المخالف وهو الغالب على اسلوب الكتاب فهي عنده أشبه بأُصول موضوعية تلقاها المخالف بالقبول ولأجل هذا الامتياز صار الكتاب فقهاً مقارناً، سدّ به الفراغ الموجود في المكتبة الفقهية في عصره.

٣. يعتمد على الإجماع في مسائل كثيرة تبلغ قرابة ستمائة وخمسين مسألة ومراده من الإجماع ليس الإجماع المصطلح، وهو اتّفاق الأُمة أو الإمامية على الحكم

بشرائطه الخاصة، بل المصطلح الخاصّ له في هذا الكتاب وقبله للشيخ الطوسي في كتاب الخلاف، وقد صرّح بهذا الاصطلاح في القسم الثاني من الكتاب في مبحث الإجماع وحاصله: «انّ المراد منه في مقام الاحتجاج هو قول المعصوم. لأنّ ملاك حجّية الإجماع عند الإمامية هو اشتماله على قوله، وليس الإجماع إلّا طريقاً إلى كشفه، فإذا اكتشفناه عن غير ذاك الطريق، يطلق عليه الإجماع، توسعاً ومجازاً».

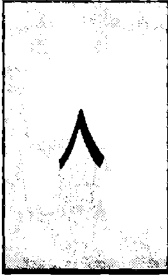
ولا شكّ انّه استعمال على خلاف الاصطلاح الدارج، لكنّه التجأ إليه لأجل المجاراة مع المخالف في مقام الاحتجاج على المدّعىٰ، وسيوافيك تعبيره في مبحث الإجماع في القسم الثاني من الكتاب.

وبذلك يعلم، أن ما يساق إليه من الاعتراض من عصر صاحب الجواهر والشيخ الأنصاري إلى يومنا، من أنّه كيف يدّعي الإجماع في مسائل غير معنونة، أو مختلفة، فهو ناشئ عن عدم الرجوع إلى مصطلحه في الكتاب.

وقد كان سيد مشايخنا المحقّق البروجردي ﴿ يبرّر بذلك الإجماعات الواردة في كتاب الخلاف لشيخ الطائفة، في درسه الشريف الذي كنّا نحضره عام ١٣٦٩ عند البحث عن حجّية الإجماع المنقول بخبر الواحد.

٤. انّ المؤلف يسير على ضوء كتاب الانتصار والناصريات للسيد المرتضى، وكتاب الخلاف والمبسوط للشيخ الطوسي، وقد استفاد المحقّق بالرجوع إليها في تحقيق نصّ الكتاب وتصحيحه.

٥. انّ المؤلف كان فقيهاً متضلّعاً عارفاً بفقه أهل السنّة كعرفانه بفقه الإمامية، ولم يكن اطلاعه على الأوّل أقلّ من الثاني وبذلك أضفى على كتابه صبغة السعة والشمول.



يحيى بن الحسن الأسدي الحلي

ابن البطريق (٥٢٣ ـ ٦٠٠ هـ)

العمدة لإبن البطريق

لقد قامت الإمامية بتدوين مناقب أهل البيت من أقدم العصور إلى زماننا هذا، فألّفوا في هذا المضمار كتباً حافلة ورسائل ذات أهميّة بصور متنوّعة.

ومن أحسن ما أُلّف في هذا الباب في أُخريات القرن السادس، هو كتاب «العمدة» لمحدّث عصره، وعلاّمة زمانه، الحافظ: يحيى بن الحسن بن البطريق الأسدي الحلي (٥٢٣ ـ ٦٠٠هـ) فقام بتدوين الفضائل والمناقب لوصيّ المختار، بصورة بديعة لم يسبقه إليها أحد من أصحابنا الإمامية حتّى شيخه العلاّمة الحافظ: محمد بن علي بن شهر آشوب السروي (٤٨٨ ـ ٥٨٨هـ) فقد دوّن جلّ ما رواه أصحاب الصحاح والمسانيد بشكل ممتاز، موضحاً لمشكلاته، ومبيّناً لمعضلاته، معلّقاً عليها كلّما استدعت الحاجة، ويقف الباحث على موقع المؤلّف ومكانته العلمية، من خلال الثناء عليه من أعلام الطائفة، وإليك بعض ما وقفنا عليه:

١. قال العلامة في إجازته لبني زهرة: ومن ذلك جميع مصنّفات الشيخ أبي زكريا: يحيى بن علي البطريق، ورواياته عنّي عن والدي ـ قدّس الله روحه ـ عن

السيّد فخار عن المصنف [١].

وعلى ذلك فيروي العلاّمة (٦٤٨ـ ٧٢٦ هـ) عن شيخنا المترجم بواسطتين: والده والسيد فخار.

٢. قال الشيخ الحر العاملي: الشيخ أبو الحسين يحيى بن الحسن ابن الحسين بن علي بن محمد بن البطريق الحلي، كان عالماً، فاضلاً، محدّثاً، محقّقاً، ثقة، صدوقاً، ثم ذكر كتبه [٢].

٣. وقال المتتبّع الخبير عبدالله الأفندي التبريزي: الشيخ الأجل شمس الدين أبوالحسين يحيى بن (الحسن بن الحسين بن علي بن محمد بن) البطريق الحلّي الأسدي، المتكلم الفاضل، العالم، المحدث الجليل، المعروف بابن البطريق: صاحب كتاب العمدة وغيره من الكتب العديدة في المناقب، وقد رأيت في بعض المواضع في مدحه هكذا: الإمام الأجل شمس الدين جمال الإسلام، العالم الفقيه، نجم الإسلام، تاج الأنام مفتي آل الرسول [٣].

٤. وقال العلامة المجلسي في أول البحار: وكتاب العمدة، وكتاب المستدرك، كلاهما في أخبار المخالفين في الامامة للشيخ أبي الحسين يحيى (بن الحسن بن الحسين بن علي بن محمد) بن البطريق الأسدي [٤].

---

١. إجازة العلاّمة لبني زهرة المطبوعة في البحار: ١٠٧/ ٦٠ ـ ١٣٧، وهذه الإجازة الكبيرة من العلاّمة لبني زهرة الحلبيين توصف بالإجازة الكبيرة كتبها عام ٧٢٣، وهم عبارة عن: علاء الملة والحق والدين أبي الحسن علي بن أبي إبراهيم محمد بن أبي علي الحسن بن أبي المحاسن بن زهرة، وولده المعظم شرف الملة والدين أبي عبدالله الحسين، وأخيه بدر الدين أبي عبدالله محمد، وولديه أبي طالب أحمد أمين الدين وأبي محمد عز الدين الحسن ـ رحمهم الله ـ.

٢. أمل الآمل: ٢/ ٤٥.

٣. رياض العلماء: ٥/ ٣٥٨.

٤. بحار الأنوار: ١/ ١٠ و ٢٩.

ثم قال : وكتاب العمـدة ومؤلّفه مشهوران مذكوران في أسـانيد الإجازات، وأمّا المستدرك فعندنا منه نسخة قديمة نظن أنّها بخط مؤلّفها [١].

٥. وقال في الـروضات بعد نقل مـا ذكره الشيخ الحر في أملـه في حقه : وفي بعض كتب الإجازات اكتنـاء الرجل بأبي زكريا وفي بعضها تلقّبـه بشمس الدين، شرف الاسلام.

ثم قال: ويروي في الأغلب عن عماد الدين محمد بن القاسم الطبري ، وهو يروي عن الشيخ أبي علي، ولد شيخنا الطوسي. [٢]

٦. وقال الميرزا الاسترآبادي في رجالـه الكبير: يحيى بن الحسن ... كان عالماً فـاضلاً، محدثـاً، محققاً، ثقـة، صدوقـاً ، لـه كتب... الى آخـر ما ذكـره الشيخ الحر العاملي في أمله [٣].

٧. وقـال المحدّث النـوري: الشيخ الأجـل شمس الـدين أبـو الحسين أو أبو زكريا ـ كما في إجازة العلاّمـة لبني زهرة ـ : يحيى بن الحسن بن الحسين بن علي بن محمـد بن بطريق الحلّي الأسـدي مؤلف كتـاب «العمدة» الذي جمع فيـه ما في الصحاح الستـة، وتفسير الثعلبي، ومناقـب ابن المغازلي من منـاقب أمير المؤمنين عليه السلام بحيث لم يغادر شيئاً من ذلك، ولم يذكر فيه شيئاً من غيرها، ولم يسبقه الى هذا التأليف البديع أحد من أصحابنا ، ومـؤلف كتاب المستدرك بعد العمدة ، أخرج فيه قريباً من ستمائة حديث من كتب أُخـرى لهم ، عثر عليها بعد تأليف العمدة، كالحلية لأبي نعيـم ، والمغازي لابن إسحاق ، والفردوس لابن شيرويـه الديلمي ، ومناقب الصحابة للسمعاني وغير ذلك من المؤلفات [٤].

---

١. بحار الأنوار: ١/ ١٠ و ٢٩.

٢. روضات الجنات: ٨/ ١٩٦.

٣. منهج المقال: ٥١٣.

٤. المستدرك: ٣/ ١٣، ط مؤسسة آل البيت .

٨ . قال السيد الصدر : أبو الحسين يحيى بن الحسن بن الحسين بن علي ابن محمد بن البطريق الأسدي ، المتكلم الفاضل ، المحدث الجليل ، المعروف بابن البطريق ، يروي عن ابن شهر آشوب سنة خمس وتسعين [١] وخمسمائة وهو صاحب «كتاب العمدة في مناقب الأئمة» و «الخصائص» في مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو أشهر من أن تشرح أحواله ، من كبار شيوخ الشيعة رضي الله عنه [٢].

٩ . وقال شيخنا الطهراني : الشيخ شمس الدين أبو الحسين يحيى بن الحسن بن الحسين بن علي بن محمد الراوي عن محمد بن علي بن شهر آشوب في ٥٧٥، وقد أرّخ في «كشف الحجب» وفاته سنة ٦٠٠ عن سبع وسبعين سنة ، وهو صاحب كتاب «العمدة» المعروف بعمدة ابن البطريق وله « رجال الشيعة » الذي نقل عنه ابن حجر في « لسان الميزان» الذي كتبه في ما زاد على « ميزان الاعتدال » للذهبي [٣].

هذا ما ذكره أعلام الامامية في حق المترجم له ، وترجمه من غيرهم، ابن حجر العسقلاني.

١٠ . قال في لسان الميزان نقلاً عن تاريخ ابن النجّار [٤] : يحيى بن الحسن

---

١ . هكذا في النسخة المطبوعة ، والظاهر انّه مصحّف سبعين ،وقد توفي الشيخ ابن شهر آشوب عام ٥٨٨ فكيف يمكن أن يروي عنه المترجم عام٥٩٥؟! وقد نقل شيخنا الطهراني عام الرواية كما ذكرناه.

٢. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ١٣٠ .

٣. مصفى المقال :٥٠٢.

٤. وهو غير ابن النجار الشيعي، أعني: أبا الحسن محمد بن جعفر بن محمد التميمي النحوي المعروف بابن النجار المتوفّى سنة ٤٠٢هـ مؤلف تاريخ الكوفة ، الموسوم بالمصنف، الذي ينقل عنه السيد عبدالكريم بن طاووس المتوفّى سنة ٦٩٢ هـ في كتابه فرحة الغري، وهو يروي عن أبي بكر الدارمي الذي أجاز التلعكبري سنة ٣٣٠هـ وهذا الكتاب من أنفس الكتب ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا للعثور عليه ونشره.

بن الحسين بن علي الأسدي الحلّي الربعي المعروف بابن البطريق ، قرأ على أحمص الرازي الفقه والكلام على مذهب الإمامية وقرأ النحو واللغة وتعلّم النظم والنثر، وجدّ حتى صارت إليه الفتوى في مذهب الإمامية ، وسكن بغداد مدة ، ثم واسط وكان يتزهّد ويتنسّك، وكان وفاته في شعبان سنة ٦٠٠ وله سبع وسبعون سنة [١].

أقول: وعلى ذلك يكون المترجم له من مواليد عام ٥٢٣هـ وقد نصّ بذلك شيخنا المجيز الطهراني في الثقات العيون ص٣٣٨.

والقارئ الكريم يجد نظير هذه الكلمات من الثناء على المؤلف وكتبه في المعاجم والتراجم مثل أعيان الشيعة ج١٠ ص٢٨٩، والفوائد الرضوية ص٧٠٩، وهدية العارفين ج ٢ص٥٢٢، وريحانة الأدب ج٧ ص٤١٥ .

و الكلّ متّفقون على جلالة قدر الرجل في الأدب وغيره من الفنون الإسلامية وفي ما ذكرنا من الكلمات حول الآثار العلمية التي خلّفها أقوى شاهد عليه، وإليك هذه الآثار:

آثاره العلمية

إنّ حياة شيخنا المترجم له كانت مفعمة بالتأليف والتصنيف والتربية والتدريس فخلّف آثاراً مشرقة تدل على نبوغ الرجل وتضلّعه في فنون الحديث والرجال ، وإليك أسماء ما وقفنا عليه منها في المعاجم وكتب التراجم.

١. اتفاق صحاح الأثر في إمامة الأئمّة الاثني عشر

واسمه يحكي عن مسمّاه ، وعنوانه يكشف عن محتواه.

---

١. لسان الميزان :٦ / ٢٤٧.

٢. تصفّح الصحيحين في تحليل المتعتين

والمراد من المتعتين متعة الحج ومتعة النساء اللتين دلّت نصوص الكتاب والسنّة على جوازهما في العصر النبوي ، وبعده الى أن نهي عنهما نهياً سياسياً، فبقيتا متروكتين بين أبناء السنّة دون غيرهم.

٣. خصائص الوحي المبين في مناقب أميرالمؤمنين عليه السلام

وقد قام بهذا التأليف بعد كتابي العمدة والمستدرك، قال في الرياض: «ورأيت منه نسخة عتيقة بتبريز وعندنا منه نسخة » قد أورد فيه أخبار المخالفين في تفسير الآيات التي نزلت في شأن علي ــ عليه السلام ـ طبع في إيران سنة ١٣١١هـ طبعة حجرية.

٤. الرد على أهل النظر في تصفّح أدلّة القضاء والقدر

ولعلّ الكتاب حول إبطال استنتاج نظرية الجبر من القول بالقضاء والقدر.

٥. العمدة من عيون الأخبار في مناقب إمام الأبرار أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب وصيّ المختار صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الأئمة من ذريته الأطهار

٦. عيون الأخبار

قال في الرياض : نسبه إليه المولى محمد طاهر القمي في مقدمة كتاب الأربعين نقلاً عن كتاب الصراط المستقيم.

٧. المستدرك المختار في مناقب وصيّ المختار

والكتاب استدراك لكتاب العمدة[1].

١. قال في البحار عندنا منه نسخة قديمة، وذكر الطهراني في الذريعة وجود نسخه في المكتبات .

٨. نهج العلوم إلى نفي المعدوم المعروف بسؤال أهل حلب [١]

٩. رجال الشيعة

وينقل عنه ابن حجر في لسان الميزان كما مر.

مشايخه وأساتذته

قرأ شيخنا المترجم له على لفيف من علماء الفريقين وأخذ عنهم الحديث والتفسير والفقه.

فمن الخاصة يروي عن عدة من الأعلام:

١. الشيخ عماد الدين الطبري صاحب بشارة المصطفى، كما يظهر من إجازة الشيخ محمد سبط الشهيد الثاني، للمولى محمد أمين الاستر آبادي.

والشيخ عماد الدين الطبري هو العالم الجليل الواسع الرواية، يروي في كتابه: « البشارة » عن عدة من مشايخه، من سنة ٥٠٣ هـ إلى سنة٥١٧هـ منهم نجل شيخنا الطوسي والفقيه «حسكا» الحسن بن الحسين بن بابويه [٢].

٢. محمد بن شهر آشوب (٤٨٨ ـ ٥٨٨هـ) صاحب «المناقب» و «المعالم» وغيرهما من المؤلّفات [٣].

هؤلاء بعض مشايخه من أعلام الطائفة، وأمّا مشايخه من العامة فقد ذكر أسماءهم عند ذكر طرقه إلى الصحاح الستة في مقدمة كتاب« العمدة » و«الخصائص» وإليك بعض من ذكرهم :

---

١. هذه الكتب ذكرها الشيخ الحر العاملي في أمل الآمل:٢/ ٣٤٥، ونقلها عنه صاحب رياض العلماء: ٥/ ٣٥٤، وغيره من المؤلفين.

٢. لاحظ رياض العلماء :٥/ ٣٥٨.

٣. الثقات العيون: ٢٧٨و ٣٣٨.

٣. أبو جعفر إقبـال بن المبارك بن محمد العكبري الـواسطي ، روى عنه في جمادى الأُولى من شهور عام ٥٨٤هـ .

٤. الشيخ الإمام المقـري أبوبكر عبـدالله بن منصور بن عمران البـاقلاني ، روى عنـه في شهـر رمضـان سنـة ٥٧٩ هـ ، وهـو يـروي صحيـح البخـاري عن طريقيهما معاً كما يروي صحيح مسلم عن طريق الأخير فقط.

٥. فخر الإسـلام أبو عبـدالله أحمد بن الطـاهر وهـو يروي مسنـد أحمد عن طريقه.

٦. السيد الأجل محمـد بن يحيى بن محمد بن أبي السطلين العلـوي الواعظ البغدادي يروي عنه تفسير الثعلبي الموسوم بالكشف والبيان في سنة ٥٨٥هـ.

هؤلاء بعض مشا ئخه وأساتذة حديثه وقد أتى بأسمائهم وخصوصياتهم في مقدمة كتابي «العمدة» و«الخصائص».

الراوون عنه

لقـد تتلمـذ على يد شيخنـا المترجـم لـه ، وروى عنه لفيـف من المشـائخ والعلماء في الحديث والـرجـال،وقد جـاءت أسماؤهـم في غضـون المعاجـم نأتي بها وقفنا عليه:

١. علي بن يحيى بن الحسن ولد المؤلف المكنّى بأبي الحسن الكاتب .

قال الحافظ ابن كثير في «**البداية والنهاية**» ما لفظه : أبو الحسن علي بن يحيى ابن الحسـن بن الحسين بن علي بـن محمد البطـريق بن نصر بـن حمدون بن ثـابت الأسـدي الحلّي ، ثم الواسطـي، ثم البغدادي، الكـاتب الشـاعر الشيعي ، فقيـه الشيعة...

ثم قال : كان فاضلاً ذكياً جيد النظم والنثر ، لكنّه مخذول محجوب عن الحق، وقد أورد ابن الساعي قطعة جيدة من أشعاره الدالة على غزارة مادته في العلم والذكاء رحمه الله (١).

والعجب من ابن كثير يصفه بأنّه« مخذول محجوب عن الحق » وهو يعترف بفضله وعلو كعبه في العلم والأدب!!

أفهل يكون حب أهل البيت الذين أمر الله بحبّهم ومودّتهم موجباً لخذلان من يتولّاهم؟!

أفهل يكون المتّبع لآثارهم بعيداً عن الحق وقد أمر النبي ﷺ بطاعتهم؟!

نعم هكذا يرى ابن كثير ، فمن تولّى أعداء الرسالة هو العزيز ، ومن أحبّ خصوم أهل البيت هو الواقف على الحق؟!!

وقد قرأ الشيخ كمال الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم العفيف الموصلي كتاب «العمدة» عليه ، وكتب عليه إجازة، وهذه صورتها:

قرأ عليّ الأجل الأوحد العالم العامل الورع كمال الدين عزّ الإسلام كهف الطائفة أبو العباس أحمد بن الأجل تاج الدين إبراهيم بن أحمد بن الأجل العفيف الموصلي أدام الله سعادته وبلغه إرادته، من أوّل هذا الكتاب وهو كتاب العمدة في عيون صحاح الأخبار تأليف والدي رحمه الله إلى فصل: «انّه ـ عليه السلام ـ أوّل من أسلم» وأذنت له أن يروي ذلك عنّي وعن والدي المصنّف بالقراءة (٢) وسيوافيك ما نقله الشارح الحديدي منه.

٢. علي بن يحيى بن علي الخياط الشيخ الفقيه أبو الحسن السور آوي ، يروي

---

١. البداية والنهاية: ١٣/ ١٦٤.

٢. الأنوار الساطعة في القرون السابعة: ٣.

عن ابن إدريس المتوفّى عام٥٩٨هـ وعن يحيى بن البطريق [١].

٣. فخار بن معد بن فخار بن أحمد شرف الدين أبو علي العلوي الموسوي الحائري المتوفّى عام ٦٣٠هـ وهو يروي عن جماعة منهم والده معد بن فخار و أبو المكارم حمزة بن زهرة ويحيى بن علي بن البطريق [٢].

٤. السيد نجم الدين محمد بن أبي هاشم العلوي قرأ رجال الكشي على شيخنا المترجم له وكتب شهادة القراءة له في عدّة مواضع من النسخة وهي موجودة عند العلاّمة الورع الشيخ حسن المصطفوي [٣].

٥. محمد بن معد بن علي وهو صفي الدين أبو جعفر الموسوي من تلاميذ ابن البطريق ومشايخ سديد الدين الحلّي (والد العلاّمة الحلي) وابن طاووس كما صرّح به في كتاب اليقين عند روايته عنه في العشر الأخير من صفر عام ٦١٦هـ [٤].

٦. محمد بن عبدالله بن علي بن زهرة الكبير المعروف بابن زهرة، وهو ابن أخ أبي المكارم حمزة بن زهرة صاحب كتاب الغنية المتوفّى عام ٥٨٥هـ، وهو يروي عن شيخنا المترجم له.

قال في الرياض : ويروي عنه محمد بن عبدالله بن زهرة الحسيني الحلبي، كما يظهر من إجازة الشيخ محمد سبط الشهيد الثاني،للمولى محمد أمين الاسترآبادي [٥].

---

١. الأنوار الساطعة:١١٨.

٢. الأنوار الساطعة:١٣٠.

٣. الثقات العيون: ٣١٠.

٤. المصدر نفسه: ٣٣٨، الأنوار الساطعة: ١٧٦.

٥. رياض العلماء: ٥/ ٣٥٨، و لاحظ الثقات العيون: ٣٣٨.

٧. الفقيه مجد الدين أبو المكارم أحمد بن الحسين بن علي أبي الغنائم كما يظهر من أسانيد بعض أحاديث كتبه [١].

هذا وفي أمل الآمل: ويروي الشهيد عن محمد بن جعفر المشهدي عن ابن البطريق، وقد قرأ كتبه عليه [٢].

أقول: وما ذكره غير صحيح، لأنّ محمد بن المشهدي مؤلف المزار ولد حوالي سنة ٥١٠ وابن البطريق ولد عام ٥٣٣ وقراءة الأكبر على الأصغر، والرواية عنه بعيدة.

أضف إلى ذلك انّ شيخنا المجيز الطهراني استخرج مشايخ المشهدي الذين يروي عنهم في كتاب «المزار» فبلغ خمسة عشر رجلاً، ولم يذكر ابن البطريق فيهم، بل ذكر من مشايخه، نظراء: أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني الحلبي المتوفى عام ٥٨٤هـ، والشيخ الفقيه عماد الدين محمد بن أبي القاسم الطبري المتوفّى عام ٥٥٣هـ، ومحمد بن علي بن شهر آشوب المتوفّى ٥٨٨ هـ [٣].

ثمّ إنّ رواية الشهيد عن ابن المشهدي غير صحيحة قطعاً، لأنّ الشهيد من أعلام القرن الثامن، وقد ولد عام ٧٣٤ هـ، وتوفّي عام ٧٨٦هـ فكيف يمكن له الرواية عن ابن محمد المشهدي الذي هو من مواليد حوالي سنة ٥١٠هـ ؟!

كما أنّ ما في الرياض ج٥ ص٤٩ من أنّ صاحب المزار يروي عن نصير الدين الطوسي غير صحيح جداً، لأنّ الطوسي توفّيّ عام ٦٧٢ هـ، فكيف يصح لابن المشهدي أن يروي عنه؟

و ما في أعيان الشيعة من أنّ صاحب المزار توفّي في ٤ ذي الحجة سنة

١. رياض العلماء: ٥/ ٣٥٨.

٢. أمل الآمل: ٢/ ٣٤٥.

٣. راجع الذريعة: ٢٠/ ٣٢٤.

٣٣٦هـ بالحلّة ونقل إلى مشهد الحسين عليه السلام و دفن فيه، غير تام جداً.

هذا هو ما وقفنا عليه من تلاميذ المترجم له ومن يروون عنه.

أولاده

خلّف المترجم له ولدين كريمين فاضلين هما:

١ـ علي بن يحيى بن البطريق نجم الدين أبو الحسن الحلّي الكاتب.

قال محمد بن شاكر في فوات الوفيات ما لفظه : علي بن يحيى بن بطريق : نجم الدين أبو الحسن الحلّي الكاتب ، كتب بالديار المصرية أيام الدولة الكاملية، ثم اختلّت حاله، فعاد إلى العراق، ومات ببغداد سنة اثنتين و أربعين وستمائة، وكان فاضلاً أصولياً . ثم نقل طرفاً من أشعاره [١].

و يظهر من الشارح الحديدي وجود الخلطة والصداقة بينهما حيث ينقل عنه في شرحه، ويقول : كان صديقنا علي بن يحيى البطريق(رحمه الله)، يقول: لولا خاصة النبوّة وسرّها ، لما كان مثل أبي طالب ــ وهو شيخ قريش ورئيسها وذو شرفها ـ يمدح ابن أخيه محمداً وهو شاب قد رُبِّي في حجره وهو يتيمه ومكفوله ، وجار مجرى أولاده، بمثل قوله :

و تلقوا ربيع الأبطحين محمّدا ... على ربوة في رأس عنقاء عيطل

و تأوى إليه هاشم، إنّ هاشماً ... عرانين كعب آخر بعد أوّل

ومثل قوله:

و أبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامىٰ عصمة للأرامل

يطيف به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة و فواضل

---

١. فوات الوفيات: ٣/ ١١٢.

فإنّ هذا الأُسلوب من الشعر لا يمدح بـه التابع والذنابي من الناس ، وإنّما هو مـن مديح الملـوك والعظماء ، فإذا تصوّرت انّـه شعر أبي طـالـب ، ذاك الشيخ المبجّل العظيم في محمد ﷺ وهو شاب مستجير به ، معتصم بظلّه من قريش، قد ربّاه في حجره غلامـاً وعلى عاتقه طفلاً ، وبين يديه شـابّاً، يأكل من زاده،ويأوى إلى داره علمت مـوضع خاصّيـة النبوّة وسرّهـا ، وانّ أمره كـان عظيماً وانّ الله تعالى أوقع في القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً . [١]

٢. محمد بن يحيى بن البطريق ، انظر ترجمته في تأسيس الشيعة: ١٣٠ .

نكات يجب التنبيه عليها

١. قد أطبقت كلمـة المترجمين لشيخنا المؤلّف على أنّ اسمه هـو: يحيى ابن الحسن بن الحسين فما في تعليقـات بعض الأعاظـم بترجمته ، بـالحسن بن الحسين محمول على سهو القلم ويصحّح بسقوط لفظ « يحيى » قبل الحسن.

كما أنّ عد شيخنا المترجـم له من علماء أهل السنّة كما صدر عنـه سهو آخر حيث قال : وانّ كتاب العمدة من الكتب المعتبرة المعتمدة لديهم [٢].

وكيف خفي على مثله أنّه من أعيان الطائفة المحقّة ومحدّثيهم ومن المتفانين في حب أهل البيت المقتفين آثارهم؟!

٢. قال السيـد الصدر في تأسيس الشيعـة : آل البطريق بيت جليل بـالحلّة من الشيعـة الإمـاميـة ، بيت علم وفضـل و أدب، اشتهر منهـم صـاحب الترجمة وابناه: علي بن يحيى ومحمد بن يحيى [٣].

١. شرح نهج البلاغة: ١٤/ ٦٣، طبع مصر.
٢. لاحظ إحقاق الحق: ٢/ ٤٠٦ و ٥٠٩ و ٣/ ٦.
٣. تأسيس الشيعة: ١٣٠.

٣. قال في القاموس : البطريق كالكبريت: القائد من قوّاد الروم ، تحت يده عشرة آلاف رجل، ثم الطرخان على خمسة آلاف، ثم الفومس على مائتين.

٤ . قال شيخنا المجيز الطهراني: ولعل المؤلّف من ولد البطريق الذي عدّه ابن النديم مع ابنه يحيى بن بطريق من السريان المترجمين إلى العربية في عهد المنصور العباسي وإليه تعزى ترجمة «تيماوس» لأفلاطون، فيكون انتماؤه إلى بني أسد بالولاء [1].

٥. المشهور انّ المترجم له توفّي عام ٦٠٠ عن عمر يبلغ ٧٧، غير أنّ إسماعيل باشا في هدية العارفين ج٢ص٥٢٢ ذكر أنّ المترجم له توفي حدود ٦٠٥ ولم يذكر مصدره.

٦ . إنّ شيخنا الطهراني قد عنون المترجم له في الثقات العيون في سادس القرون، وذكر أنّه ولد عام ٥٢٣ وتوفّي عام٦٠٠.

ومع ذلك قد عنونه في الأنوار الساطعة في المائة السابعة وأرّخ ميلاده و وفاته (٦٢٣ ـ٧٠٠ هـ).

و الصحيح هو ما ذكره في الثقات العيون ، ولعلّه تصحيف لتاريخه الصحيح وهو ٥٢٣ ـ٦٠٠، بتبديل خمسة إلى ستة في الميلاد وستة إلى سبعة في الوفاة، ومع ذلك لم يعلم وجه لتكراره في الأنوار الساطعة، لأنّه لم يكن من علماء القرن السابع بل كان من علماء القرن السادس.

تعريف بكتاب العمدة

لقد قام المؤلّف في كتاب العمدة بجمع وتدوين مناقب الإمام أميرا لمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الواردة في الصحاح والسنن والمسانيد لأهل السنّة على

١ . طبقات أعلام الشيعة: ٢/ ٣٣٧ : القرن السادس.

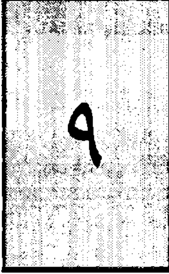
نسق خاص وترتيب مبتكر.

وقد استخرج هـذه المناقب من : صحيحي البخـاري ومسلم ، ومن الجمع بين الصحيحين للحميدي ، ومن كتاب الجمع بين الصحاح الستة لجامعه الشيخ أبي الحسن رزين بـن معاويـة بن عمار العبدري ومسنـد أحمد بن حنبل الشيبـاني، وتفسير الثعلبي الموسـوم بالكشـف والبيان لأبي إسحـاق أحمد ابن محمد بـن نعيم الثعلبي ، ومناقب الفقيه أبي الحسن بن علي بن محمد الطيب المعروف بابن المغازلي الواسطي، ومنـاقب أحمدبن حنبل المعروف بفضائل الصحـابة، إلى غير ذلك من الكتب التي أشار إليها المؤلّف في ديباجة الكتاب ، وخلال فصوله.

وقد كـان هذا الكتاب خير بـداية لهذا النوع من التـأليف والتصنيف أعني «جمع المناقب من الصحاح والمسانيد أو السنن المعتبرة عند أهل السنة» و توالت التآليف والمصنّفات على هذا النمط من بعد.

هـذا والكتاب الحاضر، يشتمـل على تسعمائة وثلاثـة عشر حـديثاً في ستـة وثلاثين فصـلاً ثم ذيّلـه بعدة أُمـور ترى تفصيلهـا في فهرس الكتـاب ولم يخصّها بالفصل، وقد ذكر عدد أحاديث كل فصلٍ في مقدّمته.

كما ذكر المؤلّف أسانيـده وطرقه إلى مؤلّفيها ورواتها في صـدر الكتاب، وهو يعرب عـن مكانتـه في الحديث وتضلّعه فيـه ، وكثرة مشـايخه وأساتـذته، وبلـوغه الذروة في الإحاطة بالمناقب والفضائل.



محمد بن الحسين البيهقي

قطب الدين الكيدري (كان حياً سنة ٦١٠ هـ)

الشريعة الإسلامية ودورها في الحياة البشرية

بُعث النبي ﷺ بكتاب مبين، وسنّة زاهرة، وشريعة جامعة، فأحدث رجّة في كافة جوانب الحياة الإنسانية، ولم يبق مظهر للحياة إلاّ اهتزّ وظهرت معالم التطوّر فيه.

كانت الشريعة الإسلامية زلزالاً في حقل الدين والعقيدة فعصفت بالشرك وجعلت من الإنسان المشرك، موحّداً ضحّىٰ بنفسه ونفيسه في سبيل التوحيد ومكافحة الوثنية.

كانت زلزالاً في جانب العادات والتقاليد والآداب والأخلاق، فقد أبادت الرسوم الجاهلية وذهبت بأعرافها فاصبح الإنسان العاكف على الخرافات الموروثة من الآباء، فرداً موضوعياً رافضاً لما يخالف الفطرة والعقل السليم.

كانت هزّة عنيفة في مجال العلم والمعرفة بعالم الوجود وفسيح الكون وقد دعت إلى النظر في بديع الصنع وخاطبت الإنسان، بقوله: ﴿**قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمواتِ وَالأرض**﴾ [1]، فعاد الجاهل عالماً بالسنن الكونية، سابحاً في بحار

١. يونس: ١٠١.

المعرفة بتأسيسه علوماً وفنوناً لم يكن لها مثيل من ذي قبل، كما أكمل فنوناً موروثة من المتقدّمين.

ومن أعجب ما أحدثته في الحياة الإنسانية تشريع أُسُس ونُظُم في حقل التكاليف والحقوق مبنية على الفطرة والخلقة البشرية لا تحيد عنها قيد شعرة، ولم يرتحل صاحب الدعوة وحامل الشريعة حتى أرسىٰ دعائم أعظم حضارة عرفتها البشرية فكان رائدها وموجدها حيث لم يـر التاريخ مثلها فيما عبر وغبر في الشمولية والعمومية. فصارت الشريعة الإسلامية كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كلّ حين بإذن ربّها، وصار المسلمون مراجع في الكلام والعقيدة، وأساتذة في الأخلاق وعباقرة العلوم، وعلماء شامخين في الحقوق، استغنوا في ظل التشريع الإسلامي عن أي تشريع سواه. ومن مميزاتها البارزة شموليّتها وعموميّتها بحيث لم يبق موضوع إلاّ وتناولته تشريعاً وتقنيناً، وهذا إن دل على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الشريعة الإسلامية ليست وليدة الفكر البشري المتناهي وإنّما هي أثر العلم والقدرة الواسعين غير المتناهيين.

حفّاظ الشريعة وحملتها:

لبّىٰ النبي ﷺ دعوة ربّه وترك كنزين ثمينين ووديعتين كريمتين عرّفهما في حديثه الخالد المعروف بحديث الثقلين، وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي» فكان الكتاب شمساً ساطعة، والعترة الطاهرة أقماراً منيرة أناروا الطريق للمهتدين.

ومن حسن الحظ أنّ جيلاً كبيراً من الأُمّة الإسلامية قد استضاءوا بنورهم ووصلوا القمة في مجال العلم والعمل، ومعالم الفقه ومكارم الأخلاق، فصاروا نجوماً في سماء العلم يهتدي بهم الناس في حياتهم فحملوا الشريعة دقيقها

وجليلها إلى الآخرين إلى أن تواصلت حلقات العلم والحديث والتفسير والفقه إلى العصر الحاضر.

فسلام الله على العترة الطاهرة حملة السنّة النبويّة وحفظة الشريعة، وعلى أصحابهم المتربّين في حجورهم الطاهرة، الحافظين لعلومهم وأسرارهم، والناقلين لأمانتهم إلى الأجيال اللاحقة، فهم كما قال رسول الله: «يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الغالين وانتحال الجاهلين كما ينفي الكير خبث الحديد» [1].

ولو عرضنا أسماء من تخرّجوا من مدرستهم في القرون الإسلامية الأُولى وبالأخص في القرن الثاني والثالث لطال بنا الكلام وطال موقفنا مع القرّاء الكرام، وبما أنّ مؤلف هذا الكتاب من علماء القرن السادس ومن كبار المجتهدين على مذهب العترة الطاهرة في ذلك العصر، نذكر أسماء مشاهير فقهاء ذلك القرن من الإمامية بوجه موجز مقتصراً على اسمهم وعصرهم، كي يقف القارئ الكريم على أنّ الفقه الشيعي الإمامي قد بلغ القمة في تلك العصور ونبغ فيها فطاحل الفقه وأبطال الاجتهاد عندما تجمد الفقه وانحسر عن التطور على مذهب الجمهور، فلو كان القرن السادس والسابع عصر الجمود والركود لفقههم، فقد كان ذانك القرنان عصر ازدهار الفقه الشيعي وتطوره، وقد كثر الفقهاء والمحقّقون في الفقه فيهما، كما كثر التأليف أيضاً بمختلف الألوان وشتى الوجوه، وإليك قائمة مشاهير الفقهاء في القرن السادس:

١. الحسن بن محمّد بن الحسن الطوسي المجاز عن والده شيخ الطائفة في سنة ٤٥٥هـ. الراوي عن والده وعن سلار الديلمي (المتوفّى ٤٦٣هـ) ويروي عنه جمع كثير، منهم: أبو الرضا فضل الله بن علي الراوندي وكان حياً عام ٥١٥هـ.

---

١. رجال الكشّي: ١٠.

٢. الإمام فضل الله بن علي بن هبـة الله المعروف بالسيد الإمام ضيـاء الدين أبي الـرضـا الحسنيّ الـراوندي الكـاشـاني، جمع مع علـو النسـب، كمال الفضل والحسب، وكان أُستاذ أئمّة عصره، كان حياً سنة ٥٤٨ هـ.

٣. الإمام الطبرسي: الفضـل بن الحســن بـن الفضــل (٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) صاحب «مجمع البيـان في تفسير القرآن» وهو غني عن التعـريف وآراؤه في الفقه معروفة.

٤. الحسين بن علي بن محمد جمال الدين أبـو الفتوح النيسابوري الخزاعي، نـزيل الـري صـاحـب التفسير الكبير بـاسم «روض الجنـان» مـن مشـايخ ابـن شهرآشوب وكان حياً عام ٥٥٢هـ.

٥. الإمام قطـب الدين سعيـد بن هبة الله الـراوندي مـؤلف «فقـه القرآن» المتوفّـى ٥٧٣هـ.

٦. عبد الله بـن حمزة بن عبد الله بن حمزة أُستـاذ مؤلف هذا الكتـاب قطب الدين الكيدري، وستوافيك اجازته للمترجم.

٧. عبـد الله بن علي بـــن زهرة أخـو أبي المكارم صـاحـب «الغنية» (٥٣١ ـ ٥٨٠هـ) له «التجريد لفقه الغنية عن الحجج والأدلّة» وغيره.

٨. الشيـخ الإمام رشيـد الديـن محمد بـن علي بن شـهر آشـوب (٤٨٨ ـ ٥٨٨هـ) صاحب المناقب والمتشابهات.

٩. حمزة بن علي بن زهـرة المعــروف بـ «ابن زهــرة» (٥١١ ــ ٥٨٥ هـ) له «غنية النزوع في علمي الأُصول والفروع» فقيه شهير.

١٠. محمـد بن المنصــور المعــروف بــ «ابـن إدريـس العجلي» (٥٤٣ ـ

٥٩٨هـ) صاحب كتاب «السرائر والحاوي لتحرير الفتاوي»، أحد الفقهاء الكبار المعروف بالجرأة على الخلاف.

١١. سديد الدين محمود بن علي بن الحسن، علاّمة زمانه في الأُصولين، له «المصادر في أُصول الفقه» توفي سنة ٦٠٠هـ.

١٢. علي بن الحسن بن أبي المجد الحلبيّ مؤلف كتاب «إشارة السبق» المحقّق المنتشر أخيراً.

هؤلاء نماذج من مشاهير فقهاء القرن السادس الذي نبغ فيه شيخنا المؤلف قطب الدين الكيدري البيهقي، وإليك ترجمته حسب ما وقفنا عليه في كتب التراجم وغيرها.

الإقليم الخصب بالمواهب والقابليات:

إنّ إقليم خراسان إقليم خصب، بالمواهب والاستعدادات، بل كانت ولم تزل تربّي في أحضانها رجالاً كباراً وأفذاذاً في العلم والحديث.

ولقد كانت هذه المنطقة في القرن السادس ولا سيما منطقة بيهق بيئة شيعية، خرج منها العديد من الفقهاء منهم الشيخ **قطب الدين البيهقي** الذي نحن بصدد ترجمته.

قال في معجم البلدان: وقد أخرجت هذه الكورة من لا يحصىٰ من الفضلاء والعلماء والفقهاء والأدباء ومع ذلك والغالب على أهلها مذهب الرافضية.[١]

---

١. ياقوت الحموي: معجم البلدان: ١/ ٥٣٨.

حياة المؤلف ومشايخه ومؤلفاته:

هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن تاج الـدين الحسن بن زين الدين محمد ابن الحسين بن أبي المحامد البيهقي النيسابوري.

كل من ذكـر شيخنا المترجم له فقد أطـراه وأثنى عليه، وإن كان مـا ذكر في حقّه من الكلمات لا تستطيع أن ترسم لنا حياته منذ شبابه إلى شيخوخته، أو تحدد ميلاده ووفاتـه، أو تضبط مشايخه في الرواية والـدراية، وتلامذته والـرواة عنه، ومع هذا النقص الذي ابتلى به كثير من أكابر الطائفة نذكر ما عثرنا عليه من الكلمات في حقّه:

١. قال الشيخ الحر العاملي: الشيخ قطب الـدين محمد بن الحسين بن أبي الحسين القزويني فقيه صالح، قاله منتجب الدين. [١]

٢. قال السيد بحر العلوم: محمد بن الحسين بن أبي الحسين بن أبي الفضل القزويني المعروف بـ «قطب الديـن القـزويني»، فقيـه فاضل من أهل بيت العلم والفقه، ذكره الشيخ منتجب الدين وذكر أباه وأخويه ـ إلى أن قال: ـ ولعل الشيخ قطب الدين محمد بن الحسين القزويني المذكور، هو الشيخ قطب الدين الكيدري المشهور أحد الفضلاء الأعلام والفقهاء المنقول عنهم الأحكام. [٢]

وهذان النّصان مأخوذان من عبارة الشيخ منتجب الدين وإليك نصه:

المشايخ: قطب الـدين محمد، وجلال الدين محمـود، وجمال الدين مسعود، أولاد الشيخ الإمـام أوحد الـدين، الحسين بن أبي الحسين القـزويني كلّهم فقهـاء صلحاء[٣].

---

١. الحرّ العاملي: أمل الآمل: ٢/ ٢٦٦ برقم ٧٧٠.

٢. بحرالعلوم: الرجال: ٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.

٣. منتجب الدين: الفهرست: ١٨٧ برقم ٨٩.

غير أنّ الشك يساور انطباق ما ذكره الشيخ منتجب الدين على شيخنا الكيدري، وذلك من جهتين:

١. أنّه منسوب إلى «بيهق» و«كيدر» من مضافاته، وكلاهما تعرفان اليوم بـ «سبزوار» و«بيهق» من أعمال خراسان وأين هما من بلدة قزوين الواقعة في غرب طهران؟!

٢. أنّ الشيخ الفقيه عبد الله بن حمزة من أساتذة شيخنا وقد أجاز له وذكر اسمه في إجازته هكذا: محمد بن الحسين بن الحسن الكيدري البيهقي، كما سيوافيك، وهو يغاير الموجود في فهرست منتجب الدين. كلّ ذلك يورث الظّن القويّ بأنّ المترجم في الفهرست، غير شيخنا الكيدري.

نعم قال الحموي في معجم البلدان:

كندر: موضعان: أحدهما: قرية من نواحي نيسابور من أعمال طريثيث [1]، والثاني: قرية قريبة من قزوين. [2]

ولعل صاحب المعجم لم يقف على «كيدر» بتاتاً، ولأجل ذلك لم يذكره في معجم البلدان وإنّما ذكر «كندر» .

واحتمال أنّ «كيدر» مصحف «كندر» والمترجم من منطقة «كندر» في قزوين حتى ينطبق عليه ما ذكر في الفهرست بعيد جدّاً، كيف وقد وصفه أُستاذه ابن حمزة المشهدي بالكيدري لا بالكندري؟! كما أنّ العلاّمة الحلي أكثر عنه النقل في مختلف الشيعة وأسماه بقطب الدين الكيدري.

كل ذلك يدل على أنّ عبارة منتجب الدين في فهرسته لا تمتُّ للمترجَم

---

١. كذا في المصدر.

٢. معجم البلدان: ٤/ ٤٨٢.

بصلة فلا محيص لنا من التتبع في سائر المعاجم حتى نقف على ترجمته.

٣. وصفه شيخه عبد الله بن حمزة في إجازته له بقوله: الإمام الأجل، العالم الزاهد، المحقّق المدقّق، قطب الدين تاج الإسلام فخر العلماء ومرجع الأفاضل محمد بن الحسين بن الحسن الكيدري البيهقي وفّقه الله لما يتمنّاه في دنياه وعقباه [١].

٤. قال صاحب الروضات (المتوفّى ١٣١٣هـ):

كان من أكمل علماء زمانه في أكثر الأفنان، وأكثرهم إفادة لدقائق العربية في جموعه الملاح الحسان [٢].

٥. وقال المحدّث النوري نقلاً عن صاحب الرياض: إنّ قطب الدين يطلق على جماعة كثيرة: الأوّل: على قطب الدين الراوندي.

والثاني: على الشيخ أبي الحسن قطب الدين محمد بن الحسن بن الحسين الكيدري السبزواري صاحب «مناهج النهج» بالفارسية وغيره [٣].

٦. وقال شيخنا الطهراني: محمد بن الحسين بن الحسن البيهقي الشيخ قطب الدين أبو الحسن النيسابوري الشهير بـ «قطب الدين الكيدري» شارح نهج البلاغة سنة ٥٧٦ هـ ثم ذكر تآليفه [٤]

٧. وقال المحدّث القمي: أبو الحسن محمد بن الحسين بن الحِسن البيهقي النيسابوري الإمامي الشيخ الفقيه، الفاضل الماهر والأديب الأريب، البحر الزاخر

---

١. سوف يوافيك نصّ الإجازة في أثناء المقال.

٢. الخوانساري: روضات الجنات: ٦/ ٢٩٥ رقم الترجمة ٥٨٧.

٣. النوري: المستدرك: ٣/ ٤٤٨. و لكن الصحيح في اسمه :الحسين بن الحسن.

٤. الطهراني: طبقات أعلام الشيعة (القرن السادس):٢٥٩.

صاحب «الإصباح» في الفقه، وأنوار العقول في جمع أشعار أمير المؤمنين عليه السلام وشرح النهج [١].

٨. وذكر شيخنا المدرس في ريحانته قريباً ممّا ذكر [٢].

مشايخه:

روى عن جمع من مشايخ الإمامية، وإليك أسماءهم:

١. الشيخ الإمام نصير الدين أبو طالب عبد الله بن حمزة بن عبد الله الطوسي الشارحي المشهدي وعرفه منتجب الدين في فهرسته بقوله: فقيه، ثقة، وجه [٣].

٢. المفسّر الكبير الفضل بن الحسن الطبرسي (٤٧١ ـ ٥٤٨هـ) قال شيخنا الطهراني: يظهر نقله عنه من أثناء كتابه هذا (أنوار العقول) عند ذكر الحرز المشهور عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «ثلاث عصى طفقت بعد خاتم» [٤].

٣. الإمام أبو الرضا فضل الله بن علي بن هبة الله المعروف بضياء الدين أبي الرضا الحسنيّ الراوندي الكاشاني ذكر العماد الكاتب الاصفهاني في خريدة القصر أنّه رآه في كاشان سنة ٥٣٣هـ وهو يعظ الناس في المدرسة المجدية.

نقل شيخنا المجيز الطهراني رواية الكيدري عنه وأنّه يروي عنه بغير واسطة،

---

١. الكنى و الألقاب: ٣/ ٧٤.

٢. المدرس التبريزي: ريحانة الأدب: ٤/ ٤٧٣.

٣. منتجب الدين: الفهرست: ٢٦٩ برقم ٢٧٢.

٤. الذريعة: ٢/ ٤٣١ برقم ١٦٩٧، تحت عنوان أنوار العقول.

و ربّما يروي عنه بواسطة أُستاذه الشيخ عبد الله بن حمزة بن عبد الله الطوسي [١] ولعل الثاني أقرب.

٤. محمد بن سعيد بن هبة الله الراوندي المعروف بـ «ظهير الدين» (المتوفّى ٥٧٣ هـ) فقد ترجمه منتجب الدين في فهرسته وقال: فقيه ثقة، عدل، عين. ذكر شيخنا الطهراني أنّ صاحب الترجمة يروي عنه في كتابه «بصائر الأُنس بحظائر القدس» نقله البياضي في الصراط المستقيم [٢].

تآليفه:

إنّ لشيخنا الكيدري تآليف في موضوعات مختلفة يظهر أنّه كان ميّالاً لأكثر من فن واحد، نذكرها حسب ترتيب حروف الهجاء:

١. **إصباح الشيعة بمصباح الشريعة**: وهذا هو الكتاب الذي يزّفه الطبع إلى القراء وسوف نبرهن على أنّه من تآليفه، لا من تأليف الفقيه الصهرشتي.

٢. **أنوار العقول من أشعار وصيّ الرسول**: وهو ديوان أشعار منسوبة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مرتبة قوافيها ترتيب حروف الهجاء، قال شيخنا الطهراني: من جمع قطب الدين الكيدري أوّله: «الحمد لله لانت لعزته الجبابرة، وتضعضعت دون عظمته الأكاسرة» ذكر في أوّله أنّه جمع أوّلاً خصوص أشعاره المشتملة على الآداب والحكم والمواعظ والعبر وسمّاه «الحديقة الأنيقة»، ثم جمع أشعاره عليه السلام جمعاً عاماً في هذا الكتاب الّذي سمّاه «أنوار العقول» [٣].

---

١. طبقات أعلام الشيعة(سادس القرون): ٢٦٠، وهو غير محمد بن علي بن حمزة الطوسي الفقيه مؤلف «الوسيلة» و ان كانا معاصرين. و يظهر من المحقق السيد عبدالعزيزالطباطبائي كونه صاحب الوسيلة. تراثنا:العدد:٣٩/ ٣٠٣. والحق خلافه.

٢. طبقات أعلام الشيعة (سادس القرون): ٢٦٥، و لاحظ أيضاً ص٢٦٠.

٣. الطهراني: الذريعة:٢/ ٤٣١ برقم ١٦٩٧ (أنوار العقول).

٣. البراهين الجليّة في إبطال الذوات الأزليّة: ذكره صاحب الروضات وشيخنا الطهراني في الذريعة [١].

٤. بصائر الأُنس بحظائر القدس [٢].

٥. تنبيه الأنام لرعاية حقّ الإمام: ذكره المؤلف في كتاب إصباح الشيعة [٣].

٦. حدائق الحقائق في تفسير دقائق أفصح الخلائق: شرح على كتاب نهج البلاغة وفرغ منه عام ٥٧٦هـ، ذكر صاحب الروضات أنّه وجد في آخر نسخة عتيقة من الشرح المذكور صورة خط لبعض أعاظم فضلاء عصر الشارح المعظم، بهذه الصورة: وافق الفراغ من تصنيف الإمام العالم الكامل المتبحر الفاضل قطب الدين نصير الإسلام مفخر العلماء مرجع الأفاضل محمد بن الحسين بن الحسن الكيدري البيهقي تغمده الله تعالى برضوانه في أواخر الشهر الشريف شعبان سنة ست وسبعين وخمسمائة [٤] و قد ألّفه بعد شرح ظهير الدين البيهقي المعروف بابن فندق (٤٩٣ ـ ٥٦٥هـ) [٥] وقد أسماه معارج نهج البلاغة طبع عام ١٤٠٩هـ بتحقيق «محمد تقي دانش پژوه» ونشرته مكتبة السيد المرعشي في قم، وشرح شيخه قطب الدين الراوندي، وقد أسمى شرحه بمنهاج البراعة، وطبع بتحقيق المحقق العطاردي عام ١٤٠٣هـ ثمّ أُعيدت طبعته في ثلاثة أجزاء عام ١٤٠٦هـ بتحقيق السيّد عبد اللطيف القرشي.

وقد ذكر صاحب الروضات ملامح الكتاب وقد نقل شيئاً من مقدّمة الكتاب وأنّه قال في ديباجته:

---

١. نفس المصدر:٣/ ٨٠ برقم ٢٤١.

٢. طبقات أعلام الشيعة سادس القرون، ص٢٦٥ و لاحظ أيضاً ص ٢٦٠.

٣. إصباح الشيعة: ١٢٨.

٤. الخوانساري: روضات الجنات: ٦/ ٢٩٨، الأمين: أعيان الشيعة: ٨/ ٢٤٥.

٥. ياقوت الحموي: معجم الأدباء:٥/ ٢٠٨.

«إنّه كامل بإيراد فوائد على ما فيهما (يريد كتابي المنهاج لابن فندق والمعارج لأُستاذه قطب الدين الراوندي) زوائد، لا كزيادة الأديم، بل كما زيد في العقل من الدرر اليتيم، ومتمم ما تضمّناه بتتمة لا تقصر في الفضل دونهما، إن لم تربُ عليهما، وأنّه قد اندرج فيه من علوم نوادر اللغة والأمثال، ودقائق النحو وعلم البلاغة، وملح التواريخ والوقائع، ومن غوامض الكلام لمتكلمي الإسلام، وعلوم الأوائل، وأُصول الفقه والأخبار، وآداب الشريعة وعلم الأخلاق ومقامات الأولياء، ومن علم الطب والهيئة والحساب، على ما اشتمل عليه المعارج، كل ذلك لا على وجه التقليد والتلقين، بل على وجه يجدي بلجَّ اليقين.» [1]

وقد نقل عنه المحقّق ابن ميثم في شرحه على نهج البلاغة في تفسير الخطبة الشقشقية [2].

و قد نقل عنه العلاّمة المجلسي في بحاره في أجزاء السماء والعالم [3]

٧. **الحديقة الأنيقة:** وقد مضى أنّه ألّفه قبل تأليف أنوار العقول.

٨ . **الدرر في دقائق علم النحو:** ذكره شيخنا المدرس في موسوعته [4].

٩. **شرح الإيجاز في النحو:** لاحظ مجلة تراثنا العدد: ٣٩/ ٣٠٢.

١٠ . **شريعة الشريعة:** ذكره في حدائق الحقائق: ٣/ ١٤٥١ .

---

١. روضات الجنات:٦/ ٢٩٥ برقم ٥٨٧ . و ذكر شيخناالطهراني أن منه نسخة في المدرسة الفاضلية الذريعة:٦/ ٢٨٥.

٢. ابن ميثم: شرح نهج البلاغة:١/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.

٣. بحارالأنوار:٥٥/ ٢٧٩، و قد ذكرالسيد بحرالعلوم بعض مواضع النقل، لاحظ الفوائد الرجالية:٣/ ٢٤٢.

والعجب انّ المحدّث النوري ذكر انّ اسم شرحه على النهج هو «الإصباح» لاحظ المستدرك:٣/ ٥١٣. أضف أنّه ذكره تارة باسم «أبي الحسن البيهقي» و أُخرىٰ باسم «أبي الحسين».

٤. ريحانة الأدب:٤/ ٤٧٥.

١١ . كفاية البرايا في معرفة الأنبياء: ذكره شيخنا الطهراني في الذريعة قال: وقد نقل جملة من عباراته شيخنا النوري في خاتمة المستدرك [١].

١٢ . لبّ الألباب في بعض مسائل الكلام: ذكره الطهراني في الذريعة، والمدرس في موسوعته [٢]

١٣ . مباهج المحج في مناهج الحُجج (بالفارسية): ذكر شيخنا الطهراني أن له منتخباً فارسياً باسم «بهجة المناهج» في فضائل النبي والأئمة ومعجزاتهم [٣].

وذكر السيد المحقّق الطباطبائي في مذكّراته أنّ منه نسخة في مكتبة المسجد الأعظم في قم المشرفة ذكرت في فهرستها ص٣٨٣، ومخطوطة أُخرى في مكتبة مدرسةالسيّد الگلپايگاني في قم رقم ٢١٢٥ ذكرت في فهرستها: ٣/ ١٦٩.

إصباح الشيعة من مؤلفات الكيدري:

إنّ هذا الكتاب من تأليف شيخنا المحقّق الكيدري بلا ريب، وإنّ نسبته إلى الشيخ سليمان بن الحسن بن سليمان الصهرشتي خطأ، وذلك بالأدلّة التالية:

أوّلاً: أنّ الشيخ منتجب الدين الذي قام في فهرسته بترجمة علماء الإمامية من بعد عصر الشيخ إلى زمانه (٤٦٠ ــ ٦٠٠هـ) ترجم شيخنا الصهرشتي وذكر تآليفه ولم يذكر له ذلك الكتاب وقال: الشيخ الثقة أبو الحسن سليمان بن الحسن ابن سليمان الصهرشتي فقيه، وجه، دين، قرأ على شيخنا الموّفق أبي جعفر الطوسي وجلس في مجلس درس سيدنا المرتضى علم الهدى(ره) وله تصانيف، منها: كتاب

---

١. الذريعة: ٨/ ٨٩ برقم ٨١٢، و ذكره شيخنا المدرس في ريحانة الأدب: ٤/ ٤٧٥، و لم نعثر عليه في المستدرك.

٢. الذريعة: ١٨/ ٢٨٢ برقم ١١٧، و ريحانة الأدب: ٤/ ٤٧٥.

٣. الذريعة: ١٩/ ٤٦٠ برقم ٢٤١، و رياض العلماء: ٢/ ٤٤٥ و ذكره في الذريعة: ٢٢/ ٣٤٩ باسم «مناهج المنهج» و قال: والظاهر انّ الصحيح «مباهج المهج في مناهج الحجج».

النفيس، كتاب التنبيه، كتاب النوادر، كتاب المتعة أخبرنا بها الوالد عن والده عنه [١] ولو كان له ذلك الكتاب الرائع لما غفل عن ذكره.

وثانياً: أنّ العلاّمة الحلي (٦٤٨ ـ ٧٢٦ هـ) قد نقل عن ذلك الكتاب شيئاً كثيراً ونسبه إلى المحقّق الكيدري، وذلك في مواضع كثيرة والنصوص المنقولة موجودة في هذا الكتاب [٢]

وثالثاً: أنّ نفس الكتاب ينفي أنّه تأليف الصهرشتي الذي هو من تلاميذ المرتضى والشيخ الطوسي ويبدو أنّه قد توفي في أواخر القرن الخامس وكان حياته بين (٤٠٠ ـ ٥٠٠ هـ) وذلك لأنّه ينقل في ذلك الكتاب [٣] من السيد الجليل حمزة ابن علي بن زهرة المعروف بـ «ابن زهرة» المشهور بكتابه «غنية النزوع إلى علمي الأُصول والفروع» وقد ولد كما في نظام الأقوال في رمضان ٥١١هـ وتوفي سنة ٥٨٥هـ، فكيف يمكن أن يكون الكتاب أثراً للصهرشتي الذي أجازه النجاشي سنة ٤٤٢؟!

قال صاحب الرياض: إنّ الشيخ الصهرشتي قال في أواخر «قبس المصباح»: فصل: أخبرنا الشيخ الصدوق أبو الحسن أحمد بن علي بن أحمد النجاشي والصيرفي المعروف بـ «ابن الكوفي» ـ يعني النجاشي صاحب الرجال ـ ببغداد في آخر شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة وكان شيخاً، بهيّاً، ثقة، صدوق اللسان عند الموالف والمخالف رضي الله عنه، ثم ذكر رواياته عن أبي يعلى محمد بن الحسن بن حمزة الجعفري المتوفّى عام ٤٦٣هـ وغيره [٤].

---

١. منتجب الدين: الفهرست:٨٥ برقم ١٨٤، و رياض العلماء:٢/ ٤٤٥.

٢. لاحظ مختلف الشيعة كتاب زكاة الفطرة:١٩٩، كتاب الخمس:٢٠٥، كتاب الشُفعة: ٤٠٣، كتاب الوقف:٤٩١ و ٤٩٤، كتاب النكاح:٥٤٣ و ٥٥٣ و ٥٥٦ و ٥٥٩، نكاح المتعة:٥٦٠ و ٥٦٤، كتاب الفرائض:٧٣٣ في ميراث العمّ والخال؛٧٣٥، و غير ذلك كلّه من الطبعة القديمة الحجرية.

٣. لاحظ إصباح الشيعة: ٩٩ و ١٠٠.

٤. رياض العلماء:٢/ ٤٤٥.

ورابعاً: أنّ من سبر الكتاب يقف على أنّ المؤلف سار على ضوء كتاب الغنية، ترتيباً للكتب، تبويباً للأبواب غالباً، وربما يستخدم من عباراتها شيئاً في طرح المسائل وشرحها.

وهذه الوجوه تثبت بوضوح أنّه من تأليف شيخنا المؤلف الذي بخس التاريخ حقّه، فلم يذكر عن حياته إلاّ شيئاً قليلاً .

ثم إنّ أوّل من نسب الكتاب إلى الشيخ الصهرشتي هو شيخنا العلاّمة المجلسي عند ذكر مصادر بحار الأنوار حيث قال: وكتاب «قبس المصباح» من مؤلّفات الشيخ الفاضل أبي الحسن سليمان بن الحسن الصهرشتي من مشاهير تلامذة شيخ الطائفة ـ إلى أن قال: ـ وكتاب إصباح الشيعة بمصباح الشريعة له أيضاً [1].

ولمّا كان ذلك العزو غير مرضي عند صاحب الرياض قال: ونَسَبه الأُستاذ الاستناد في البحار إليه وينقل عنه فيه، والذي يظهر من كتب الشهيد، أنّ الإصباح المذكور من مؤلّفات قطب الدين الكيدري، لأنّ العبارات التي ينقلها عن القطب المذكور هي مذكورة في الإصباح المزبور[2].

وتبع صاحب البحار، شيخنا المجيز الطهراني في طبقات أعلام الشيعة في ترجمة شيخنا الصهرشتي وقال: وله «إصباح الشيعة بمصباح الشريعة» كذا في فهرست منتجب ابن بابويه [3].

و ما نسبه إلى فهرست منتجب الدين ليس بموجود فيه إذ لم يذكر الكتاب في ترجمة الصهرشتي [4].

ومنهم: السيد الأمين فقد تبع صاحب الذريعة فنسب الإصباح إلى

١. المجلسي، البحار:١ / ١٥.
٢. رياض العلماء:٢/ ٤٤٦.
٣. طبقات أعلام الشيعة(القرن الخامس):٨٨.
٤. منتجب الدين: الفهرست:٨٦.

الصهرشتي[١].

ولم يبق في المقام سوى احتمال أنّ المؤلفين الجليلين ألّفا كتابين مسمّين باسم إصباح الشيعة بمصباح الشريعة، غير أنّه وصل إلينا أحدهما دون الآخر، وقد عرفت أنّ الواصل إلينا ليس إلاّ تأليف الشيخ الكيدري.

نعم اشترك المؤلفان في اسم كتاب آخر وهو التنبيه غير أنّ ما ألّفه الصهرشتي أسماه «تنبيه الفقيه» [٢] وما ألّفه شيخنا المؤلف أسماه بـ «تنبيه الأنام لرعاية حق الإمام».

إجازة ابن حمزة للمؤلف:

إنّ شيخنا المؤلف لما فرغ من كتاب «حدائق الحقائق» الذي ألّفه شرحاً لنهج البلاغة، على غرار ما ألّفه ابن فندق البيهقي، وشيخه قطب الدين الراوندي، عرضه على أُستاذه الشيخ عبد الله بن حمزة، فاستحسنه وكتب تقريظاً له، وأجازه فيه أن يروي عنه ما صحت له روايته ونص الأجازة موجودة على ظهر مصورة كتاب إصباح الشيعة بمصباح الشريعة في مكتبة المرعشي المسجل برقم ١٢٧ واليك نصها:

هذا الكتاب الموسوم بـ «حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة» كتاب جامع لبدائع الحكم، وروائع الكلم، وزواهر المباني وجواهر المعاني، فائق ما صنّف في فنّه من الكتب، حاوٍ في فنون من العلم لبابَ الألباب، ونكت النخب، ألفاظه رصينة متينة، ومعانيه واضحة مستبينة، فبالحري أن يُمسي لكلام أفصح العرب بعد رسول الله ﷺ شرحاً، ويقابل بالقبول والأقبال، ولا يعرض عنه صفحاً، وصاحبه الإمام الأجل العالم الزاهد، المحقّق المدقق، قطب الدين تاج الإسلام، مفخرُ العلماء، مرجعُ الأفاضل، محمد بن الحسين بن الحسن الكيدري البيهقي،

١. الأمين: أعيان الشيعة: ٧/ ٢٩٧.
٢. ابن شهراشوب: معالم العلماء: ٥٦ برقم ٣٧٣.

وفّقه الله لما يتمناه في دنياه وعقباه، قد عبّ في علوم الدين من كل بحر ونهر، وقلب كل فن ممّا انطوى عليه الكتاب بطناً لظهر، ولم يأل جهداً في اقتناء العلوم والآداب، وأدأب نفسه في ذلك، غاية نهار عمره كل الإداب، حتى ظفر بمقصوده، وعثر على منشوده، وها هو منذ سنين يقتفي آثاري ويعشو إلى ضوء ناري، يغتذي ببقايا زادي، ويطأ مصاعَد جوادي.

وقد صح له وساغ رواية جميع ما سمعته وجمعته من الكتب الأُصولية والفروعية والتفاسير والأخبار والتواريخ وغير ذلك على ما اشتمل عليه فهارس كتب أصحابنا وغيرهم، من مشايخي المشهورة لا سيما الكتاب الذي شرحه هو، وهو نهج البلاغة.

وله أن يرويه بأجمعه عنّي، عن السيد الشريف السعيد الأجل أبي الرضا فضل الله بن علي الحسين الراوندي، عن مكي بن أحمد المخلّطي، عن أبي الفضل محمد بن يحيى الناتلي، عن أبي نصر عبد الكريم بن محمد الديباجي، المعروف بسبط بشر الحافي، عن السيد الشريف الرضي -رضي الله عنه-، وعن غير هؤلاء من مشايخي.

وهو حري بأن يؤخذ عنه، وموثوق بأن يعول عليه. وهذا خط العبد المذنب المحتاج إلى رحمة الله عبد الله بن حمزة بن عبد الله الطوسي في شهر رمضان عظم الله بركته سنة ست وتسعين وخمسمائة.

وأظنّ أنّ التسعين مصحّف السبعين، لمقاربتهما كتابةً، ويبدو أنّ المؤلف لمّا فرغ من شرحه على النهج عام ٥٧٦هـ عرض على أُستاذه في هذه السنة أو وقف أُستاذه عليه عفواً، ومن البعيد أن يقف عليه بعد الفراغ بعشرين سنة، أو يعرضه عليه مؤلّف الكتاب بعد تلك الفترة من تأليفه.

فالأجازة دليل على حياة ابن حمزة في تلك السنة، كما هي دالة على أنّ شيخنا المؤلف كان أحد المؤلّفين الأفذاذ الكبار في ذلك العصر.

ثم إنّ شيخنا قطب الدين المجاز صرّح بقراءته على أُستاذه ابن حمزة في بعض كتبه الذي ألّفه عام ٥٧٣ هـ قال المحدّث النوري: قال محمد بن الحسين القطب الكيدري تلميذه في كتاب كفاية البرايا في معرفة الأنبياء والأوصياء: حدّثني مولاي وسندي الشيخ الأفضل، العلاّمة، قطب الملّة والدين نصير الإسلام والمسلمين، مفخر العلماء، مرجع الفضلاء، عمدة الخلق، ثمال الأفاضل عبد الله بن حمزة بن عبد الله بن حمزة الطوسي أدام ظل سمّوه وفضله للأنام، وأهله ممدوداً، وشرّع نكته وفوائده لعلماء العصر مشهوداً قراءة عليه بـ«ساترواربهق» [١] في شهور سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة [٢].

وفاته:

لم تحدّد وفاته بالضبط ، لكنه كان حيّاً في سنة ٦١٠هـ، لأنّه كتب في هذا التاريخ اجازةً على ظهر كتاب «الفائق» لمن قرأه عليه، أورد ابن الفوطي صورتها في ترجمة الكيدري [٣].

كلمة في الكتاب ومؤلّفه :

١ . إنّ مؤلّفنا الجليل ينقل في كتابه هذا عن كتاب «المبسوط» و«النهاية» لشيخ الطائفة وكتاب «المراسم» لسلاّر الديلمي، و«الغنية» لابن زهرة، وكثيراً ما ينقل آراء السيد المرتضى وابن البراج الطرابلسي ولا يذكر مصادر رأيهما .

٢ . إنّ المعروف أنّ القرن السادس قرن الجمود والتقليد لما ورث الفقهاء من الآراء عن الشيخ الطوسي ﷺ وأن أوّل من نهض لرفض الجمود هو الشيخ محمد بن إدريس الحلي (المتوفّى ٥٩٨ هـ) ولكن ذلك زعم غير صحيح، وهذا هو الشيخ

---

١. معرب «سبزوار بيهق».

٢. النوري: المستدرك: ٣/ ٤٧٢.

٣. مجلة تراثنا: العدد ٣٩/ ٣٠٢.

ابن البراج الطرابلسي (٤٠٠ ـ ٤٨١هـ) قد خالف في كتابه «المهذّب» آراء أستاذه أبي جعفر الطوسي، وقد ذكرنا بعض مناظراته الفقهية مع الشيخ الطوسي.

والنموذج البارز لبطلان ذلك الزعم هو كتاب «إصباح الشيعة» لشيخنا الكيدري، فمع أنّ الرأي المنقول عن الشيخ، والموجود في كتابه «النهاية» في فريضة الخمس هو دفنه أو الوصاية حيث قال: ولو أنّ إنساناً استعمل الاحتياط وعمل على أحد الأقوال المقدّم ذكرها من الدفن أو الوصاية لم يكن مأثوماً [1].

مع أنّ هذا كان هو رأي شيخنا الطوسي لكن يتراءىٰ أنّ مؤلّفنا أبدى بشجاعة علمية خاصة رأياً آخراً وألّف كتاباً فيه، وقال: فأمّا ما عدا ذلك من أخماسهم، فلا يجوز لأحد التصرّف فيه، وحكمه في أيدي شيعتهم ومن اشتغل به ذمتهم، حكم ودائع المسلمين وأماناتهم. وقد أمليت في ذلك مسألةً مستوفاةً مستقصاةً وسميتها «تنبيه الأنام لرعاية حق الإمام» يطلع بها على ثنايا هذه المسألة وخباياها [2].

٣. لم يكن كتاب إصباح الشيعة كتاباً مهجوراً عند العلماء كيف وقد نقل عنه لفيف من المتأخّرين منهم شيخنا صاحب «الجواهر» في مبحث الأقارير المبهمة[3] والفاضل الهندي في «كشف اللثام» في مبحث آداب الخلوة[4]، كما نقل عنه المتقدّمون عليهما كالعلاّمة في «المختلف» كما نقل غيره.

٤. قد سبق أن شيخنا المؤلف كانت له شجاعة أدبية في التعبير عن آرائه وكان لا يأبه بمخالفة المشهور، نرى أنّه ربّما يفتي بخلاف المشهور، فقد أفتىٰ في صلاة الاحتياط بالتخيير بين قراءة الحمد والتسبيح [5] مع أنّ المشهور بين الفقهاء قراءة الحمد.

---

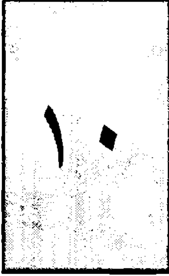
١. الطوسي: النهاية: ٢٠١.

٢. إصباح الشيعة: ١٢٨.

٣. النجفي: الجواهر: ٣٥/ ٣٩.

٤. الفاضل الهندي، كشف اللثام: ١/ ١٩.

٥. لاحظ إصباح الشيعة: ٨٣.



الشيخ يحيى بن سعيد

الحلي الهذلي (٦٠١ ـ ٦٩٠ هـ)

لمحة عن تاريخ تدوين الحديث

لقد رحل النبي ﷺ بعد ان عانى ما عانى من المشاق وتحمل ما تحمل من المتاعب، وقد خلف في أُمّته الإسلامية وديعتين عظيمتين هما: «الكتاب والعترة» وأمر بالتمسك بهما إلى يوم القيامة حيث قال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً».

وتواتر هذا الحديث،واستفاضته وصحّة متنه وسنده تغنينا عن الإفاضة حوله.[١]

وقد أخرجه علماء الفريقين في موسوعاتهم الحديثية والتفسيرية والتاريخية.

وهذا الحديث يعرب عن أنّ العترة كالقرآن الكريم في العصمة عن الخطاء والزلل.

---

١. ويكفي في المقام انّ العالم المحقّق المتتبّع السيد مير حامد حسين قد جمع أسناد الحديث، وطرقه في كتابه القيم «عبقات الأنوار» وطبع في ٦ مجلدات، وقد نشرت جماعة دار التقريب بين المذاهب الإسلامية رسالة حول أسناد الحديث و متنه المستفيض.

وقد وصف الله سبحانه كتابه بقوله: ﴿وَإِنَّه لَكتاب عَزيز* لا يَأْتيهِ الباطل مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيد﴾ (١).

فلو كانت العترة من حيث العصمة كما وصفناها صحّ جعلها قرينة للقرآن وصحّ قوله ﷺ: «ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا أبداً».

ولو كان غير ذلك وجوزنا عليهم الخطاء والزلل لكانت المعادلة غير صحيحة ولا سديدة.

والحديث المذكور كما يعرب عن ذلك الأمر يعرب أيضاً عن أنّ الملجأ المشروع للأُمّة الإسلامية بعد النبي ﷺ هو«الكتاب والعترة»، وانّ ذينك المصدرين هما العاملان الوحيدان للوحدة والاتفاق،والتآخي والاتحاد.

التمسك بالكتاب والعترة عامل الوحدة

هب أنّ الأُمّة اختلفت في أمر الخلافة ـ إلى قائل بنظرية «التنصيص» وانّه لابدّ أن يكون الإمام بعد النبي ﷺ معيناً بنصه، ومن قائل بنظرية «الانتخاب» وانّ الإمام ينتخب بتعيين أهل الحلّ والعقد ـ.

إلاّ أنّها لا تختلف في هذا الحديث المبارك ومفاده ومضمونه، فيجب عليها الأخذ به، والتمسك بالكتاب والعترة، وإن اختلف سلفهم في أمر الخلافة والإمامة الذي مضى عصره، وانقضى دوره. ولأجل هذا يعد الرجوع إلى مذهب العترة الطاهرة سبباً للوفاق والوئام، ووسيلة لجمع شمل الأُمّة.

الشيعة وتدوين الحديث

كانت الشيعة ممن أخذت السنة عن لسان العترة واعتنت بها كاعتنائها

---

١. فصلت: ٤١ ـ ٤٢.

بالقرآن الكريم، ومن هنا كان حرصهم على تسجيل كل ما صدر عن العترة كحرصهم على تسجيل كل ما صدر عن النبي ﷺ، واعتبارهما مفسرين للكتاب العزيز، ومبينين لأحكامه وتعاليمه.

ولما كانت أهمية هذا الموقف لا تتضح إلاّ بعد الوقوف على سير تدوين الحديث في التاريخ الإسلامي، كان لابدّ من إلقاء الضوء على هذه المسألة.

لا ريب انّ النبي ﷺ بحكم القرآن الكريم، لا ينطق عن الهوى، فحديثه حجّة كقرآنه الذي أتى به من عند الله، دون فرق بينهما، إلاّ أنّ القرآن معجزة خالدة، وحديثه حجّة كذلك كما انّ أحاديث عترته بنص النبي ﷺ أيضاً حجج خالدة، بيد انّ بعض الحوادث عاقت المسلمين عن كتابة حديث النبي ﷺ وذلك لأمر صادر عن أحد الخلفاء بعد النبي ﷺ بأنّ «من كتب حديثاً فليحرقه»!! [١]

وربّما برر بعضهم هذا النهي بما نسبوه إلى رسول الله ﷺ من قوله: «لا تكتبوا عنّي شيئاً سوى القرآن، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه». [٢]

ولا يتردد المحقّق الباحث في أنّ هذا الأمر قد صدر لأغراض سياسية وانّ ما نسب إلى النبي ﷺ إنّما هو من الأوهام الباطلة التي لا تصح نسبتها إليه ﷺ.

والله وحده يعلم كم خسر الإسلام والمسلمون بسبب هذا القرار، وكم فقد من الحديث النبوي بسبب النهي عن كتابة الحديث.

ولأجل التقليل من الأضرار الناجمة عن المنع قام الخليفة «عمر بن عبد العزيز» بإصدار أمر بتدوين الحديث بعد مضي قرن من هجرة الرسول الأعظم ﷺ حيث كتب من الشام إلى «أبي بكر بن حزم» وهو من كبار المحدّثين بالمدينة :

---

١. كنز العمال: ٥/ ٢٣٩.

٢. رواه الدارمي في مقدمة سننه.

«انظر من حديث رسول الله فاكتبه فانّي خفت دروس العلم وذهاب العلماء». [١]

غير انّ الشيعة اقتفوا أثر أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فقاموا بكتابة الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة غير مكترثين بذلك النهي.

فقد قام الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام بتأليف عدّة كتب في حياة النبي صلى الله عليه وآله حيث أملى رسول الله كثيراً من الأحكام الإسلامية على علي عليه السلام ، ودوّن ما أملاه رسول الله عليه في حياته الشريفة، واشتهر ذلك بكتاب علي، وقد روى عنه البخاري في صحيحه في باب «كتابة الحديث» وباب «إثم من تبرأ من مواليه». [٢]

و قد اقتفت شيعته النهج الذي سار عليه فجمعوا شذرات الحديث وشوارد السير، وأُصول الأخلاق، وقد جمع الشيخ أبو العباس النجاشي ـ كغيره في أوّل فهرسته أسماء عدّة منهم، و إليك هذه الأسماء:

١. أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحب بيت مال أمير المؤمنين علي عليه السلام صنف كتاب السنن والأحكام والقضايا.

٢. عبيد الله بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين وأوّل من ألّف في الرجال.

٣. علي بن أبي رافع كاتب أمير المؤمنين عليه السلام صنف كتاباً في فنون من الفقه: الوضوء والصلاة وسائر الأبواب.

٤. ربيعة بن سميع صنف كتاب زكاة النعم على ما سمعه عن أمير المؤمنين عليه السلام في صدقات النعم وما يؤخذ من ذلك.

٥. أبو صادق سليم بن قيس الهلالي صاحب أمير المؤمنين عليه السلام ألّف أصله المعروف المطبوع.

---

١. صحيح البخاري: ١/ ٢٧، كتاب العلم.

٢. صحيح البخاري: ١/ ٢٩، كتاب العلم.

٦. الأصبغ بن نباتة المجاشعي من خيار أصحاب أمير المؤمنين ومن شرطة الخميس، له كتاب عهد أمير المؤمنين إلى مالك الأشتر النخعي، ووصيته إلى ابنه محمد ابن الحنفية.

٧. أبو عبد الله سلمان الفارسي، له كتاب خبر جاثليق، وقد أملى الخطبة الطويلة والاحتجاجات.

٨. أبو ذر الغفاري، له كتاب وصايا النبي ﷺ وشرحه العلامة المجلسي وأسماه عين الحياة.

هذا حال الطبقة الأُولى منهم، وأمّا الّذين أعقبوهم فالرواة المعاصرون للأئمّة الهداة خلال القرنين منذ قبض الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى عصر العسكري عليه السلام لم يُؤْثر عنهم فتور في تدوين العلوم وضبط الحديث، وجمع قواعد الفقه وتنسيق طبقات الرجال، وضم حلقات التفسير وإتقان مباني و أُسس الكلام إلى غير ذلك من الموضوعات والله وحده يعلم عدد المؤلفين وتصانيفهم في ذينك القرنين.

وتشهد بذلك الفهارس الموجودة التي ذكرت مصنفات الشيعة ومؤلفاتهم في ذلك العصر لا سيما الجوامع الرجالية الأربعة:(كرجال ابن عمرو الكشي المعاصر للشيخ الكليني (المتوفّى عام ٣٢٩ هـ) ورجال النجاشي (٣٧٢ ـ ٤٥٠ هـ) وفهرست شيخ الطائفة الطوسي(٣٨٥ـ٤٦٠ هـ) فهذه الفهارس وغيرها كفهرس أبي غالب الزراري وبالأخص ما ألفه الشيخ المتتبع الطهراني في موسوعته الخالدة (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) يدلّ على مدى ما بذلوه من جهد في تدوين الحديث وجمعه، كيف وقد أدرك الحسن بن علي الوشاء في عصر واحد ٩٠٠ رجل في مسجد الكوفة كلّهم يقول حدثني جعفر بن محمد عليهما السلام.[1]

١. رجال النجاشي، ترجمة الحسن الوشاء، ص ٢٩.

وقد أحصى الشيخ أبو العباس «ابن عقدة» الثقات من أصحاب الإمام الصادق فصاروا أربعة آلاف. [١]

حتى قام جماعة من المحدّثين في عهد الإمام الرضا عليه السلام بتأليف مجاميع حديثية كبيرة تسمى بالجوامع الأوّلية أمثال:

١. يونس بن عبد الرحمان،وقد وصفه ابن النديم في فهرسته بعلاّمة زمانه، له جوامع الآثار، والجامع الكبير، وكتاب الشرائع.

٢. صفوان بن يحيى البجلي الذي كان أوثق أهل زمانه، صنّف ثلاثين كتاباً.

٣. الحسن والحسين ابنا سعيد بن حماد الأهوازي، صنّفا الكتب الثلاثين.

٤. أحمد بن محمد بن خالد البرقي، له كتاب «المحاسن».

إلى غير ذلك من أصحاب الجوامع الحديثية المسماة بالجوامع الأوّلية التي ترك استنساخها بعد تأليف الجوامع الثانوية بيد أعلام هذه الطائفة، حيث ألفوا جوامع متقنة استمدت موادها من الجوامع السابقة وهذبوها وهذه الجوامع عبارة عن:

١. الكافي لثقة الإسلام الكليني.

٢. من لا يحضره الفقيه لأبي جعفر الصدوق محمد بن علي بن موسى بن بابويه، نزيل الري ،المتوفّى عام ٣٨١هـ.

٣ و ٤. الاستبصار والتهذيب لشيخ الطائفة الطوسي.

ثمّ وصلت النوبة في التدوين والتصنيف والتحقيق والتهذيب للحديث إلى المشايخ المتأخرين فجاءوا بجوامع أوسع من الجوامع السابقة الأُولى والثانية وهي عبارة عن:

---

١. راجع المناقب:١/ ٢٤٧ وغيره، و قد أوردنا نصوص علمائنا حول هؤلاء الرواة في كتاب «كليات في علم الرجال».

١. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة لمحمد بن الحسن الحر العاملي، المتوفّى عام ١١٠٤هـ ويقع في ٢٠ مجلداً من القطع الوزيري.

٢. الوافي في الأُصول والفروع والسنن والأحكام في عدة أجزاء، وهو للمحدّث المحقّق الفيض الكاشاني، وقد اقتصر فيه على النقل من الكتب الأربعة.

٣. بحار الأنوار للعلاّمة المحقّق محمد باقر المجلسي الذي طبع مؤخراً في ١١٠ مجلدات.

إلى غيرها من الجوامع الحديثية الأُخرى التي يضيق المجال بذكرها.

وقد قام أخيراً سيّد الطائفة الأُستاذ الأكبر الحاج حسين البروجردي بتشكيل لجنة من ذوي الفضل والتحقيق لجمع أحاديث الشيعة بترتيب خاص في موسوعة كبيرة وقد توفق ﷺ في ذلك كلّ التوفيق وكانت نتيجة جهود تلك اللجنة تأليف كتاب «جامع أحاديث الشيعة» وقد طبع في ستّة وعشرين جزءاً تحت رياسة العالم الكبير الشيخ إسماعيل المعزّي دامت إفاضاته.

والمتتبع لحالات علماء الحديث والرجال يقف على مدى عنايتهم بجمع الحديث ولم شعثه وتحقيقه وتهذيبه وتعريف رجاله بالاستقامة والضعف إلى غير ذلك ممّا يرجع إلى الحفاظ على تلك الوديعة النبوية في الأُمّة الإسلامية.

ومن المؤسف أن يظهر في الآونة الأخيرة ممّن ينصب العداء لأهل البيت النبوي ولأحاديثهم وآثارهم ويبادر إلى إضعاف أحاديث الشيعة بحجّة انّ كلّ ما يرويه الشيعة الإمامية يرجع إلى الضعفاء من الرواة فقام بجمع أسمائهم في كتاب خاص أسماه «رجال الشيعة في الميزان». [1]

وقد بدأ كتابه هذا بقوله: «أمّا بعد فقد استفحل خطر التشيع في غفلة من أهل الحقّ».

١. و هو تأليف عبد الرحمان بن عبد الله، وقامت دار الأرقم بنشره بالكويت.

وفي الحقيقة ليس خطر الشيعة إلاّ خطر منطقهم القوي وحجّتهم الدامغة، وإلاّ فليست الشيعة إلاّ الحفظة الأُمناء لآثار الرسول ﷺ وآثار عترته، فقد عزب عن الكاتب انّ ما وقف عليه بعد تتبع كتب الشيعة ومصنفاتهم من وجود ١٣٠ راوياً ضعيفاً في اسناد أحاديث الشيعة الذين صرح بضعفهم علماؤهم بعد تسليم ادّعائه وصحّة استنتاجاته، لهو خير دليل على أنّ الشيعة كانوا بالمرصاد لكلّ من كان يحاول الدس والتحريف، أو يزاول الحديث من دون أهلية لازمة.

أجل انّ تصريح علماء الرجال الشيعة بهذا المقدار من الضعاف خير شاهد على مدى حرصهم على سلامة الحديث من كلّ ما يسقط اعتباره.

والكاتب بعد ما تصعد وتصوب، فقد أتى بأسماء ١٣٠ راوياً يعدّون من الضعاف عند محدثي الشيعة، فلو كان وجود الضعفاء دليلاً على سقوط أحاديث الشيعة جمعاء، فليكن وجود الكذابين والوضّاعين والدّجّالين في أحاديث أهل السنّة دليلاً على كون صحاحهم ومسانيدهم موضوعة مكذوبة أيضاً، فإنّ وجود الكذابين والوضاعين في رجال أحاديث أهل السنة ممّا لا ينكر، فقد جمع العلاّمة الأميني طائفة منهم في موسوعته «الغدير» فبلغت سلسلة الوضاعين والكذابين إلى سبعمائة رجل.[١]

أضف إلى ذلك انّ كثيراً ممّن وصفهم بالضعف إنّما هي نظرية شخصية للكاتب لا يوافقه فيها أحد من علماء الرجال من الشيعة، وما ذلك إلاّ لأجل عدم وقوفه على ما هو الهدف من تضعيف الشخصيات العظيمة، كزرارة من جانب أئمّة أهل البيت، فلم يكن الهدف إلاّ حفظ دمائهم بالتبرّي منهم.

و الكاتب وإن كان يهدف في الظاهر إلى تضعيف مجموعة من رواة الشيعة غير انّ له وراء هذا الإدّعاء هدفاً آخر، وهو تضعيف جميع رجال الشيعة واتّهامهم

---

١. لاحظ الغدير الجزء الخامس.

بأنواع التهم.

غير انّه عزب عنه انّه لو صحّ ما رآه من الأحلام لـزم إضعاف صحاح أهل السنّة ومسانيدهم أيضا،لأنّ أصحابها رووا عن الشيعة كثيراً. [١]

إنّ ما ارتكبه الكاتب لا يثير العجب، بل انّ ما يثير الدهشة والحزن والأسى هو أن ينبري من يـدّعي التشيع والولاء إلى تأليف كتاب يحاول فيـه أضعاف جملة كبيرة من أحـاديث الشيعـة وقـد أسماه بـ«معرفة الحديـث وتاريـخ نشره وتدوينـه وثقافته عند الشيعة الإمامية».

و ما أكثر الأسماء التي لا تنطبق على المسمى، فليس الكتاب إلاّ مجموعة من النظريـات الشخصية المسبقة حول رجـال أخاديث الشيعة، وليسـت حجّة حتى على صاحبهـا، وما حـاول من الاستدلال عليهـا بالنصـوص التاريخيـة والرجـالية ليست إلاّ محاولة سخيفـة لا يركن إليها، ولأجل أن يقف القـارئ على بعض ما في هذا الكتاب من النظـريات الساقطة ،نعرض ما ذكره في مقـدمة الكتاب وحسب انّها كبيت القصيـد من كتـابه حيث كـرر في مقدمتـه وفي ثنايـاها صحيحـة حمّاد ونظرية الكاتب حولها.

صحيحة حماد ونظرية الكاتب حولها

لقد زعم الكـاتـب انّ الحديث المروي في الفقيه بسنـد صحيح عن حمّاد بن عيسى عن أبي عبد الله عليه السلام موضوع، والحديث جزء من الأحاديث البيانية لأجزاء الصلاة وشرائطها، وقد رواه صـاحب الوسائل [٢] وقد أقام دلائل ثـلاثة على كون

---

١. لاحظ كتـاب المراجعات للإمـام شرف الدين :٤٢ــ ١٠٥، فقد جمع أسماء مجموعـة كبيرة من رواة الشيعة الذين احتج بهم أصحاب الصحاح والمسانيد.

٢. الوسائل: ٤/ ٦٧٣، الباب الأوّل من أبواب أفعال الصلاة، الحديث ١.

الحديث موضوعاً ومكذوباً على حماد، وإليك بيانها:

١. قال أبو الحسين أحمد بن العباس بن النجاشي في فهرسته ص ١٩: قال حماد بن عيسى: «سمعت من أبي عبد الله عليه السلام، سبعين حديثاً، فلم أزل أدخل الشك على نفسي حتى اقتصرت على هذه العشرين» وهذه العشرون حديثاً هي التي نراها في كتاب قرب الاسناد ص ١٢ـ١٥ طبعة النجف.

رواها عبد الله بن جعفر الحميري عن محمد بن عيسى بن عبيد والحسن ابن ظريف وعلي بن إسماعيل كلّهم عن حماد بن عيسى الجهني، وليس فيها هذه الرواية المذكورة عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام. فإذا كانت رواياته عن أبي عبد الله محصورة في تلك العشرين حديثاً وليس منها هذه الرواية المذكورة فلابدّ وانّها موضوعة عليه.

٢. مات حمّاد بن عيسى سنة ٢٠٩، وله نيف وسبعون سنة، نصّ على ذلك شيخنا أبو عمرو الكشي، ونقله عنه شيخنا أبو جعفر الطوسي في اختياره ص ٣١٧، ونص على ذلك شيخنا ابن داود الحلي أيضاً كما في رجاله ص ٥٥٦، فيكون مولد حماد حوالي سنة ١٣٥، ولم يكن له حين وفاة الصادق عليه السلام إلاّ ثلاثة عشر سنة أو نحوها، فإذا كان لقاؤه لأبي عبد الله الصادق عليه السلام في صغره، فكيف يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام لغلام ليس له إلاّ اثني عشر سنة ونحوها: «ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون سنة أو سبعون سنة فما يقيم صلاة واحدة بحدودها تامة»؟

٣. حماد بن عيسى الجهني، هو راوية كتاب حريز في الصلاة ولا يروي أصحابنا كتاب حريز إلاّ عن حماد بن عيسى الجهني هذا، بعد ما قال حماد لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: «يا سيدي أنا أحفظ كتاب حريز» فلم يعبأ أبو عبد الله بمقاله وادّعائه وقال: «لا عليك. قم فصلّ». لابد وانّ حماداً قام وصلّى بين يديه عليه السلام بأحسن الآداب التي كان قد حفظها من كتاب حريز في الصلاة، ونحن

راجعنا روايات حريز في الصلاة برواية حماد بن عيسى الجهني هذا فوجدنا يروى عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام نفس هذه الآداب المذكورة في هذا الحديث بل وأحسن منها وأتم وأوفى، وإذا كان حماد حفظ نفس هذه الآداب بل حفظ أتمها وأوفاها وتأدب بها في صلاته بين يدي أبي عبد الله الصادق عليه السلام، كيف يرد عليه الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام ويقول له: «يا حماد، لا تحسن أن تصلي، ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون سنة أو سبعون سنة فما يقيم صلاة واحدة بحدودها تامة»؟ [١]

ربما يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم انّ لما استنتجه لمسة من الحقيقة أو مسحة من الصدق، ولا يدري أنّ في ما ذكره خلطاً واغفالاً وأخذاً بما يؤيد نظريته، وتركاً لما لا يوافقه، وإليك بيان ذلك:

١. انّ ما نقله عن ابن النجاشي صحيح غير انّ ما رتب عليه من النتيجة باطل والنتيجة المذكورة هي عبارة عن قوله: «وهذه العشرون حديثاً هي التي نراها في قرب الاسناد ص ١٢ـ١٥ طبع النجف رواها عبد الله بن جعفر الحميري... عن حماد بن عيسى، وليس فيها هذه الرواية المذكورة عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام، فإذاكانت رواياته عن أبي عبد الله محصورة في تلك العشرين حديثاً وليس منها هذه الرواية المذكورة، فلابدّ وانّها موضوعة عليه».

فنحن نسأل الكاتب بأيّ دليل يقول: إنّ ما اقتصر عليه حماد من عشرين حديثاً هي نفس ما وردت في قرب الاسناد عنه في الصحائف المذكورة، مع أنّ لحمّاد روايات عن أبي عبد الله بلا واسطة تقرب الستين في الجوامع الحديثية من الكافي والفقيه والتهذيب والاستبصار وغيرها من الكتب الحديثية.

فلماذا لا تكون تلك الأحاديث العشرون ما ورد في تلك الجوامع الحديثية

---

١. معرفة الحديث وتاريخ نشره وتدوينه: ٣ـ٥ المقدمة.

دون ما ورد في قرب الاسناد؟

لماذا لا تكون مبثوثة بين تلك الجوامع وبين قرب الاسناد؟ فانّ مجرّد ورود عشرين حديثاً في قرب الاسناد لا يكون دليلاً على أنّ ما اقتصر عليه حماد هي تلك الأحاديث العشرون مع أنّ أحاديثه التي تقرب عن الستين حديثاً مبثوثة في الجوامع الحديثية وكلّها عن الإمام الصادق بلا واسطة.[1]

وأمّا ما رواه المحدثون عنه (أي عن حماد) في مختلف الكتب من الاستبصار وأمالي الصدوق وكامل الزيارات، والخصال، وإكمال الدين، وثواب الأعمال وتفسير القمي، ومعاني الأخبار، وبصائر الدرجات، وقصص الأنبياء للراوندي، والإمامة والتبصرة، وأربعين الشهيد، فحدث عنه ولا حرج.[2]

إنّ بعض هذه الأحاديث وإن وردت في تلك الكتب بصورة مكررة إلاّ أنّ

١. وحتى يقف الكاتب على تلك الأحاديث نأتي بإجمال ما وقفنا عليه:

لاحظ الكافي الأجزاء والصفحات والأحاديث التالية:

١/ ٢٨٦ الحديث ٤، ٢/ ٤٦٧ الحديث ٥، ٢/ ٦١٣ الحديث ٢، ٥/ ٣٧٦ الحديث ٥، ٦/ ٤٦ ـ ١٦٧ ـ ٤٧٩ ـ ٤٩٤ ـ ٤٩٦ الحديث ٢ و ٢ و ٦ و ٥ و ٧، ٨/ ٣٠٣ الحديث ٤٦٦.

و لاحظ الفقيه الأجزاء و الصفحات والأحاديث التالية:

٢/ ٢٩٦ الحديث ٢٥٠٥، ٣/ ٤٢٩ الحديث ٤٤٨٧، ٤/ ١٠١ الحديث ٥١٨٢.

ولاحظ التهذيب الأجزاء والصفحات والأحاديث التالية:

١/ ٣٧٤ الحديث ٤، ٢/ ٨١ الحديث ٦٩، ٣/ ٢٣ ـ ١٧٠ الحديث ٨١ و١، ٤/ ٣٣١ الحديث ١٠٧، ٥/ ١٦٣ ـ ٢٣٢ ـ ٣٨٦ ـ ٤٣٠ ـ ٤٤٧ ـ ٤٨٧ الحديث ٧١ و ١٢٥ و ٢٦١ و ١٤٠ و ٢٠٤ و ٣٨٢، ٦/ ٢٧٥ ـ ٢٨٧ الحديث ١٥٣ و ٢٠، ٧/ ٦١ الحديث ٧، ٩/ ٢٠ ـ ٤٣٣ الحديث ٨١ و ٣٩.

٢. لاحظ الموسوعة الحديثية الكبيرة: «معجم الأسانيد لأحاديث الشيعة» للعلاّمة الحجّة السيد محمد باقر الأبطحي الإصفهاني دام ظله الوارف، وقد تفضل علينا بما ذكرناه حول روايات حماد في الكتب الحديثية.

مجموع أحاديثها عن الصادق عليه السلام بلا واسطة يتجاوز ويفوق ما نقله في «قرب الاسناد» من العشرين حديثاً، وعند ذلك فمن أين وكيف وقف الكاتب بأنّ ما اقتصر عليه من العشرين حديثاً هي نفس ما وردت في «قرب الاسناد»، وليس شيء ممّا ورد في هذه الجوامع والكتب من جملة تلك العشرين، فهل هذا إلاّ رجم بالغيب،ورمي الكلام على عواهنه؟! أعاذنا الله منه.

ثمّ إنّ ما نقله النجاشي من أنّ حماداً قال: «سمعت من أبي عبد الله سبعين حديثاً فلم أزل أدخل الشكّ على نفسي حتى اقتصرت على هذه العشرين» إنّما ذكره النجاشي مرسلاً لا مسنداً، فلا يمكن الاحتجاج بهذا المرسل.

نعم نقله الكشي عن حماد مسنداً بواسطة محمد بن عيسى العبيدي، وهو ممّن اختلفت أنظار علماء الرجال في حقّه، والكاتب ممّن بالغ في تضعيفه في كتابه ص ٢٢٢، فكيف يحتج بحديث روى عن مثل العبيدي؟! فإسقاط صحيحة حماد بمثل هذه الرواية عند الكاتب أمر عجيب، وهذا يعرب عن أنّ هدفه ليس إلاّ إسقاط روايات الشيعة عن الحجية بأيّ وسيلة ممكنة وإن كانت باطلة.

٢. نقل في الدليل الثاني عن أبي عمرو الكشي انّ حماداً مات وله نيف وسبعون سنة، فاستنتج منها انّ حماد كان حين وفاة الصادق عليه السلام في السنة الثالثة عشرة من عمره أو نحوها، ثمّ رتب عليه بأنّه لا يصحّ أن يخاطب الإمام غلاماً كهذا بالجملة التالية: ما أقبح بالرجل أن يأتي عليه ستون أو سبعون الخ.

إنّ ما نقله عن أبي عمرو الكشي صحيح ،غير انّا نسأله كيف غفل (أو تغافل) عن نقل ما في رجال النجاشي فإنّه قال: «مات حماد بن عيسى غريقاً بوادي قناة وهو واد يسيل من الشجرة إلى المدينة، وهو غريق الجحفة في سنة تسع ومائتين، وقيل ثمان ومائتين، وله نيف وتسعون سنة رحمه الله» [1].

---

١. لاحظ رجال النجاشي: ١٤٢ برقم ٣٧٠.

وعلى ذلك يكون عمره حين خاطبه الإمام عليه السلام في الحديث على الأقل (٣٤سنة) وعلى حمل «نيف» على الثمانية يكون (٣٧ سنة). وحينها يصح مخاطبة الرجل الكامل الذي يقارب عمره «الأربعين» بهذا الكلام. وليس ابن النجاشي وحيداً في هذا النقل، فقد نقل شيخنا المفيد بأنّ حماداً عاش نيفاً وتسعين [1].

فلو كان من نية الكاتب هو تحقيق الحقّ، فلماذا نقل قول الكشي الذي يتوافق مع ما يتبناه وتغافل عن ذكر قول ابن النجاشي والشيخ المفيد الذي يخالف ما يتبناه.

أهكذا يكون أدب العلم ونهج التحقيق؟!

مع أنّ المحتمل أن يكون «سبعين» في نسخة الكشي مصحف «تسعين» وقد يتفق ذلك كثيراً.

على أنّه إذا دار الأمر بين ما ينقله الكشي وابن النجاشي فالأخذ بالثاني هو المتعين لدقة الثاني دون الأوّل واشتماله على أغلاط واشتباهات هذبها شيخنا الطوسي وأسماه «باختيار الرجال».

٣. نقل في الدليل الثالث قول حماد لأبي عبد الله الصادق عليه السلام : يا سيدي أنا أحفظ كتاب حريز في الصلاة، فلم يعبأ أبو عبد الله بمقاله وقال له: لا عليك قم فصلّ.

إلى هنا صحّ ما نقله من متن الرواية.

غير انّه رتب على ذلك نتيجة واهية حيث قال: لابدّ وانّ حماداً قام وصلّى بين يديه عليه السلام بأحسن الآداب التي كان قد حفظها من كتاب حريز في الصلاة.

فانّا نسأل الكاتب كيف وصل إلى هذه النتيجة؟ أو ليس معروفاً انّ بين

١. لاحظ معجم رجال الحديث: ٦/ ٢٢٧.

العلم والعمل بوناً شاسعاً، فانّ كثيراً من المصلين ـ مع وقوفهم على أحكام الصلاة وواجباتها وآدابها وسننها ـ لا يراعون ذلك.

أو ليس من المحتمل انّ حماداً لم يأت في الصلاة بما حفظه من كتاب حريز، ولأجل ذلك وبّخه الإمام بقوله: ما أقبح بالرجل منكم... الخ.

وما ذكرناه من الاحتمال، وإن لم يكن إلاّ احتمالاً غير انّه يكفي في الأخذ بالحديث وعدم جواز الرد إلاّ إذا قام الدليل القاطع على بطلانه.

أضف إلى ذلك انّ الكاتب حذف لفظة «منكم» من قوله عليه السلام : «ما أقبح بالرجل منكم...» التي تعرب عن أنّ التوبيخ لم يكن متوجهاً إلى حماد وحده، بل لعلّه من باب «إياك أعني واسمعي يا جارة».

و أمّا ما ذكره من أنّ ما ورد في كتاب حريز من الآداب أحسن وأتم وأوفى ممّا ورد في رواية حماد فهو أيضاً بعيد عن الصواب بل النسبة بين الروايتين عموم وخصوص من وجه، ويظهر ذلك بمقارنة الروايتين.

إنّ الكاتب يدّعي انّ الزنادقة كانوا يدسّون في أحاديث الشيعة، واستدل لذلك بما يحكى عن عبد الكريم بن أبي العوجاء، من انّه لما قبض عليه محمد بن سليمان وهو والي الكوفة من قبل المنصور، واحضره للقتل، وأيقن بمفارقة الحياة قال: «لئن قتلتموني ، فقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة» [1].

إنّ الاستدلال بقول (عبد الكريم بن أبي العوجاء) ذلك الزنديق الملحد من عجائب الاستدلالات أفيصح الاستدلال بقول الفاسق فضلاً عن الكافر؟! فمن أين وقف الكاتب على صدق مقاله وحقيّة كلامه؟! انّ من المعلوم انّ الإنسان الآيس من حياته، المحكوم بالقتل والصلب يطلق الكلام على عواهنه ويأتي

١. أمالي المرتضى: ١/ ١٢٨.

بالغث والسمين ليثير غضب الحاكـم من غير أن يكون ملتزماً بصدق مقـاله ونعم ما قال القائل:

إذا يئس الإنســـــان طال لسانـــه كسنـــور مغلوب يصـول على الكلب

والقارئ الكريـم جد عليم بأنّه لـو صحّ ما نقله عن المرتضى فـإنّما يتوجه ذلك إلى الأحاديـث غير الشيعية، فإنّه قال مـا قال لمحمد بن سليمان الـذي كان والياً من قبل المنصور، والكتب التي دس فيها كتب لا تمت إلى الشيعة بصلة.

ويدل على ذلك مـا ذكره ابن الجوزي في كتـاب الموضوعات في حقّ الـرجل «ابن أبي العوجـاء» من انه كـان ربيباً لحماد بن سلمة، وقـد دس في كتب حماد بن سلمة[1].

و قد نص بـذلك أيضاً الذهبي في ميـزان الاعتدال ج ١ ص ٥٩٠ ـ ٥٩٥، وابن حجر في تهذيب التهذيب ج٣ ص ١١ ـ ١٦.

فالكـلّ ينص بأنّ الرجـل دسّ ما دسّ في كتب أبي سلمـة البصري المشتهر بحماد بن سلمة الذي كـان يعدّ من محدّثي السنة، فأين ذلـك من الدس في كتب الشيعة؟ كما نبه بذلك العلاّمة مرتضى العسكري في بعض المنشورات.[2]

***

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير ممّا في هذا الكتاب من الجرأة والإساءة إلى هذه الطائفة وأصولها وفروعها، ونعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل.

هذا وانّ العلاّمة الحجّة السيد موسـى الزنجاني أحد أساتذة الحوزة العلمية الخبير في علمي الرجال والدراية، قد أخذ علىٰ عاتقه نقد هذا الكتاب وتبيين زلاته كما حدثني هو بذلك شفهياً.

---

١. راجع الموضوعات ص ٣٧، طبع المدينة المنورة.

٢. لاحظ دور الأئمّة في إحياء الدين، ج٧ قسم المستدرك.

مميزات الفقه الإمامي وأُسسه

من أهمّ ما يمتاز به الفقه الإمامي الشيعي الإسلامي هو استناده بعد الكتاب العزيز إلى السنّة المروية من لدن حياة النبي ﷺ بواسطة عترته الطاهرة وأتباعهم الصادقين الضابطين بلا انقطاع، في الوقت الذي فقد الآخرون مثل هذا المنبع الصافي مدّة تزيد على مائة سنة، ولهذا اضطروا إلى استعمال القياس والاستحسان والاستصلاح وقاعدة المصالح المرسلة إلى غير ذلك من الاستنباطات الظنية لأجل قلّة النصوص وكثرة الاحتياج إلى الفروع الفقهية الجديدة.

كما أنّ من أهمّ ما يمتاز به هو سعة منابعه الحديثية بفضل عطاء العترة الذي دام ٢٥٠ سنة بعد وفاة الرسول، فيما كان يفقد الآخرون مثل هذا المنبع الواسع، الزاخر المستمر.

كما أنّ من أهمّ ما يمتاز به، هو نقاوة المصدر الذي كان يشكل الركيزة الأساسية للفقه الإمامي بعد القرآن الكريم بفضل ما تتمتع به العترة الطاهرة من العصمة التي جعلها ثقلاً قريناً للقرآن كما عرفت.

و من هذه الشجرة الطيبة، الراسخة الجذور، المتصلة بالنبوة، نتجت هذه الثمرة وهي «الفقه الإمامي».

و امتاز أيضاً بالسعة والشمولية، والعمق والدقة، والانسجام الكامل مع الروح الإسلامية، والنقاوة، والبرهنة الساطعة، والقدرة على مسايرة مختلف العصور ومستجداتها في الإطار الإسلامي دون تخطّي الحدود المرسومة لها.

هذا عن مميزات هذا الفقه.

وأمّا عن الأُسس التي يعتمد عليها أو بالأحرى المصادر التي يستمد منها هذا الفقه مادته، فهي قبل كلّ شيء، القرآن الكريم، الذي استمد منه منذ الأيام الأُولى من تاريخه.

و أمّا مصدره الثـاني فهو الحديث النبوي وأحاديث عترته الطـاهرة التي مرّ عليك بيان كيفية حـرص الشيعة على تدوينها وتسجيلها بدقة وأمـانة، منذ العهد النبوي إلى يومنا هذا، انطلاقاً من حديث الثقلين السالف ذكره.

ثمّ إنّ الفقـه الإمـامـي الشيعي الإسـلامي كما يستمـد مـادتـه مـن ذينك المصدرين ، كذلك يستمد من العقل في إطار خاص مثل باب الملازمات العقلية، كا لملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدمته، وحرمة الشيء وحرمة ضدّه، وحرمة الشيء وفساده، وتوقـف تنجز التكليف على البيان وقبح العقاب بـدونه، واستلزام الاشتغـال اليقينـي البراءة القطعيـة إلى غير ذلك ممّـا يبحـث عنـه في الملازمـات العقلية.

كما انّه يستمد مـادته أيضاً من الإجماع الكاشف عن وجـود النص الوارد في المسألة و إن لم يصل إلى يد الباحث في العصور اللاحقة.

هـذه هي أهـمّ الأُسس التـي يقـوم عليهـا صرح الفقـه الإمـامي الشيعـي الإسلامي.

و قد ألّفت الشيعة الإمامية حول الفقه وأُصـوله ومبادئه ومقدماته مؤلفات كثيرة لا تحصى كثرة، ولا تعـد وفرة، ولا يفي بذكـر أسمائها الفهارس المطـولة غير انّ الأمر الذي يجب التنبيـه عليه هو انّ مؤلفـات فقهاء الإمامية الأقـدمين الذين جاءوا بعـد وفاة الإمـام العسكـري إلى زمـان الشيخ الطوسي (المتوفّـى ٤٦٠هـ) اتّسمت بأنّـها كانت نفس متون الأحاديث وعين عباراتها بحذف الاسناد.

وكـأنّهم كـانـوا حـريصين على أن لا يتخطـوا العبـارات التـي جـاءت في الأحاديث حفاظاً على الأصالة، وتجنباً من أية زيادة أو نقيصة.

و يعد كتـاب الفقه الرضـوي والمقنع للصدوق، ونهاية الشيـخ الطوسي من هذاالنوع.

غير انّه لما اتسع نطاق الفقه باتساع دائرة الحاجات الّتي أدّت بدورها إلى اتساع دائرة الاستنباط، وتجدد الفروع، اضطر فقهاء الإمامية إلى الكف عن الالتزام بنفس متون الأحاديث وعينها في كتابة المؤلفات الفقهية وإلى صياغة فروع جديدة مستنبطة من نفس تلك الأحاديث ومضامينها بعبارات جديدة انطلاقاً من قولهم: «علينا إلقاء الأُصول وعليكم التفريع».[١]

ويعد كتاب المبسوط والخلاف في الفقه للشيخ الطوسي شيخ الطائفة أبرز وأقدم نموذج من هذا النوع.

وتشكل هذه المرحلة، المرحلة الثانية في تطور الفقه الإمامي الشيعي الإسلامي، بعد المرحلة الأُولى التي اتسمت ـ كما قلنا ـ بالتزام نفس عبارات الأحاديث في صياغة المتون الفقهية.

ويعد من أبرز رواد هذه المرحلة الفقهاء التالية أسماؤهم:

١. الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد (المتوفّى ٤١٣هـ).

٢. الشريف المرتضى علي بن الحسين (المتوفّى عام ٤٣٦هـ).

٣. الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ).

٤. الفقيه البارع أبو الصلاح الحلبي صاحب الكافي في الفقه (٣٧٤ـ ٤٤٧هـ).

٥. القاضي الشيخ عبد العزيز بن نحرير بن البراج (المتوفّى سنة ٤٨١هـ) صاحب المهذب البارع الذي هو كالمبسوط في غزارة الفروع.

هؤلاء هم أعيان علماء المرحلة الثانية في تاريخ الفقه الإمامي.

---

١. الوسائل: الجزء ١٨، كتاب القضاء، الباب ٦، الحديث ٥٢. وقد كان سيد الطائفة آية الله البروجردي ﷺ يسمى القسم الأوّل: «الأُصول المتلقاة من الأئمّة ﷺ».

و قد استمر البحث والتنقيب حول المسائل الفقهية بين علماء الشيعة في جميع القرون التي مضت إلى يومنا هذا، ولم يكن ذلك إلّا لأجل انفتاح باب الاجتهاد لديهم، ووجوب رجوع العامي إلى المجتهد الحي، وهم يرون انّ إفتاء علماء المذاهب الأربعة بإقفال باب الاجتهاد، خسارة جسيمة للعلم وما جاءوا به من التعليلات لتوجيه هذا الإغلاق وجوه عقيمة لا جدوىٰ لها. [1]

ولم يكن لذلك الإغلاق إلّا حافز سياسي قد أوضحناه في كتابنا «مفاهيم القرآن». [2]

عصر الجمود أو عصر الازدهار

يصف «مصطفى أحمد الزرقاء» القرن السابع بأنّه قرن الانحطاط والجمود، ويقول: «في هذا الدور أخذ الفقه بالانحطاط، فقد بدأ في أوائله بالركود، وانتهى في أواخره إلى الجمود، وقد ساد في هذا العصر الفكر التقليدي المغلق، وانصرفت الأفكار عن تلمس العلل والمقاصد الشرعية في فقه الأحكام إلى الحفظ الجاف والاكتفاء بتقبل كلّ ما في الكتب المذهبية دون مناقشة، وطفق يتضاءل ويغيب ذلك النشاط الذي كان لحركة التخريج والترجيح والتنظيم في فقه المذاهب، وأصبح مريد الفقه يدرس كتاب فقيه معيّن من رجال مذهبه، فلا ينظر إلى الشريعة وفقهها إلّا من خلال سطوره بعد أن كان مريد الفقه قبلاً يدرس القرآن والسنّة وأُصول الشرع ومقاصده.

و قد أصبحت المؤلفات الفقهية ـ إلّا القليل ـ أواخر هذا العصر اختصاراً

---

١. لاحظ المدخل الفقهي العام تأليف مصطفى أحمد الزرقاء: ١/ ١٨٧، وكتاب «الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية» تأليف الشيخ محمد أبو زهرة ص ٣٨ـ ٣٩، ترى انّ الكاتبين يذكران وجوهاً عليلة لإغلاق باب الاجتهاد.

٢. لاحظ مفاهيم القرآن: ٣/ ٢٠٩ ـ ٣٠٣ و أيضاً الخطط المقريزية: ٢/ ٣٣٣ـ٣٤٤.

لما وجد مـن المؤلفات السابقـة أو شرحاً له، فـانحصر العمل الفقهي في ترديـد ما سبق ودراسـة الألفاظ وحفظها ،وفي أواخـر هذا الـدور حل الفكر العـامي محلّ الفكر العلمي لدى كثير من متأخري رجال المذاهب الفقهية». (١)

وفي هذا العصر نجد ازدهار الفقـه الشيعي حيث اكتسب نضارة قلما نجد نظيرها في القرون السـابقة، كما أنّه بزغت في المحافل العلميـة شخصيات لامعة في الفقه والأُصـول تعد مـن النوابغ القـلائل الذيـن يضن بهم الدهـر إلاّ في فترات، أمثال:

١. الحسن بن زهـرة بن الحسن بن زهرة الكبير، وهـو الجدّ الأعلى لبني زهرة المجازين عن العلاّمة الحلّي في سنة ٧٢٣هـ.

قال الذهبـي في «شذرات الذهب»: رأس الشيعة بحلب وعـزهم وجاههم كان عـالماً بالعـربية والقـراءات والأخبار والفقه على رأي القـوم واندكـت الشيعة بموته في ٦٢٠. (٢)

٢. نجيب الدين محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما الشهير بابن نما ، المتوفّـى سنة ٦٤٥هـ مـن مشايخ سديد الديـن يوسف بن المطهر والد العـلاّمة، والمحقّق الحلي المتوفّـى عـام ٦٧٦هـ وقد بلغ المترجـم له في سلامـة النفس وتحرّي الحقيقية مبلغاً عظيماً حيث وقّع فتوى للمحقّق الحلي وسديد الدين يوسف الحلي في مسألة «مقدار الواجب من المعرفة» مع أنّ الأخيرين من تلاميذه.

إنّ بيت ابن نما بيت عريق في العراق شهير بـالعلم والفضل، وقد خرج من هذا البيت علماء وفقهاء لا يدرك شأوهم ولا يشق غبارهم.

منهم نجم الدين جعفر بن محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما ولد المترجم.

---

١. المدخل الفقهي العام :١/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

٢. طبقات أعلام الشيعة في المائة السابعة: ٣٨.

ومنهم ابنه الآخر نظام الدين أحمد بن محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما، فالكل ـ يعني الوالد والولدين ـ معدودون من الأجلاّء في هذا القرن، وكلّما اطلق ابن نما ينصرف إلى الوالد.

٣. أحمد بن موسى بن جعفر بن طاووس المتوفّى عام ٦٧٣هـ وهو من مشايخ العلاّمة الحليّ، وتقي الدين الحسن بن علي بن داود صاحب الرجال، وهو يروي عن جماعة، منهم: نجيب الدين محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما وفخار بن معد بن فخار بن أحمد ترجمه تلميذه ابن داود في رجاله، ويصفه السيد حسين البروجردي في منظومته بقوله:

فقيه أهل البيت ذو الشمائل   هو ابن طاووس أبوالفضائل
هو ابن موسى شيخ بن داود   في باخع (٦٧٣) مضى إلى الخلود

و هو أوّل من قسم أحاديث الشيعة إلى الصحيح والحسن والموثق والضعيف، وكلّما أُطلق «ابن طاووس» في كتب الفقه والرجال ينصرف إلى هذا، كما انّه كلّما أُطلق في كتب الأدعية والزيارات ينصرف إلى أخيه رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس المتوفّى ٦٦٤هـ.

٤. جعفر بن الحسن بن يحيى الأكبر بن الحسن بن سعيد المشتهر بـ«نجم الدين المحقّق» على الإطلاق (٦٠٠ ـ ٦٧٦هـ) وهو غني عن الإطراء والتوصيف له أثره الخالد «الشرائع» وقد عكف على ذلك الكتاب العلماء بالدراسة والشرح والتعليق، وله شروح وتعاليق ذكرها شيخنا الطهراني في موسوعته القيمة «الذريعة».

٥. الفقيه البارع أبي زكريا نجيب الدين يحيى بن أحمد بن يحيى بن الحسن ابن سعيد الهذلي الشهير بـ :يحيى بن سعيد منسوباً إلى جدّه الأعلى، (٦٠١ ـ ٦٨٩ أو ٦٩٠ هـ)، ذكره المترجمون مقروناً بكثير من التجليل والتكريم والإشادة

بمكانته الرفيعة التي كانت له بين علماء عصره وفضلاء زمانه، وله «الجامع للشرائع» الذي نقدّمه إلى القرّاء.

كلمات الثناء وجمل الإطراء في حقّ المؤلف

قال السيوطي في بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: يحيى بن أحمد ابن سعيد الفاضل نجيب الدين الحلي الشيعي. قال الذهبي: لغوي أديب حافظ للآثار بصير باللغة والأدب، من كبار الرافضة سمع من ابن الأخضر، ولد بالكوفة سنة إحدى وستمائة، ومات ليلة عرفة سنة تسع وثمانين وستّمائة. [1]

وقال ابن داود في رجاله: يحيى بن أحمد بن سعيد شيخنا الإمام العلاّمة الورع القدوة، كان جامعاً لفنون العلوم الأدبية والفقهية والأُصولية وكان أورع الفضلاء وأزهدهم له تصانيف جامعة للفوائد منها كتاب «الجامع للشرائع» في الفقه كتاب «المدخل» في أُصول الفقه وغير ذلك، مات سنة تسع وثمانين وستّمائة. [2]

و قال القاضي نور الله التستري: الشيخ الفاضل يحيى بن أحمد بن يحيى بن سعيد الهذلي الحلي مجيب نداء ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوّة﴾ والمقتبس من مشكاة الولاية والنبوة من أعاظم مجتهدي الشيعة. [3]

وقال الشيخ الحر العاملي في «أمل الآمل»: الشيخ أبو زكريا يحيى بن سعيد وهو ابن أحمد بن يحيى بن الحسن بن سعيد الهذلي من فضلاء عصره، روى عنه السيد عبد الكريم بن أحمد بن طاووس كتاب «معالم العلماء» لابن شهر اشوب

---

١. بغية الوعاة:٢/ ٣٣١.

٢. لاحظ رجال ابن داود، ويقرب منه ما ذكره الأردبيلي في جامع الرواة:٢/ ٣٣٤، والتفريشي في نقد الرجال:٣٧٠.

٣. مجالس المؤمنين: ٢٣٤.

وغيره كما رأيته بخط ابن طاووس، ويروي عنه العلاّمة، له كتاب «جامع الشرائع» وغيره، وذكر العلاّمة انّه كان زاهداً ورعاً.(١)

وقال حجّة التاريخ المتتبع الخبير عبد الله الأفندي في كتابه القيم «رياض العلماء»: كان ﷺ مجمعاً على فضله وعلمه بين الشيعة وعظماء أهل السنة أيضاً.(٢)

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن صالح السيبي القسيني تلميذ فخار بن معد الموسوي، وابن نما في إجازة للشيخ المحقّق الفاضل نجم الدين طمان بن أحمد العاملي الشامي، انّه قال بعد ذكر جماعة من مشايخه المعظمين: رويت عن الفقيه المعظم السعيد الشيخ نجم الدين جعفر بن سعيد جميع ما صنفه وألفه ورواه، وكنت في زمن قراءتي على شيخنا الفقيه نجيب الدين محمد بن نما أتردد إليه أواخر كلّ نهار وحفظت عليه كتابه المسمى بـ «نهج الأُصول إلى معرفة الأُصول» في أُصول الفقه وشرحه لي قال: وقرأت كتاب الجامع في الشرائع تصنيف الفقيه السعيد المعظم شيخ الشيعة في زمانه نجيب الدين أبي زكريا يحيى ابن أحمد بن سعيد، عليه أجمع، وسمع بقراءتي جماعة منهم النقيب الطاهر العالم الزاهد جلال الدين محمد بن علي بن طاووس والفقيه جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي والوزير شرف الدين أبو القاسم على الوزير المعظم بن مؤيد الدين محمد بن العلقمي....

و قال صاحب الروضات بعد نقل هذه العبارة: يظهر منه انّ الشيخ نجيب الدين يحيى بن أحمد الذي هو ابن عم المحقّق من غير واسطة لو لم يكن في زمانه بأشهر منه في الفقه ومتقدماً لدى الفضلاء لما كان بأنقص منه.(٣)

---

١. أمل الآمل: ٢/ ٣٤٦ـ ٣٤٧. ٢. رياض العلماء: ٥/ ٣٣٦.

٣. روضات الجنات: ٢/ ١٨٨ وقد ترجم المؤلف في كتابه أيضاً لاحظ : ٧/ ١٩٨ ــ ١٩٩، وقد سقط لفظة «بن» في «بن مؤيد الدين» من النسخة المطبوعة، فلاحظ.

إلى غير ذلك من جمل الإطراء وكلمات الثناء التي يطول المقام بذكرها ونقلها.

تأليفات المؤلف

قد ترك المؤلف ثروة علمية بين أبناء أُمّته نذكر منها ما يلي:

١. «الجامع للشرائع» وهو ثمرة غنية وناضجة من تلك الدوحة الفقهية (دوحة الفقه الإمامي) الذي سبق الحديث عن مميزاته وأُسسه وقواعده، وشيء من تاريخ نشوئه وتطوره، وبعض أدواره ورجاله .

وقد مدحه بعض الفضلاء بقوله:

ليس في الناس فقيه   مثل يحيى بن سعيد
صنف الجامع فقهاً   قد حوى كلّ شريد

ومدحه بعض آخر بقوله:

يا سعيد الجدود يابن سعيد   أنت يحيى والعلم باسمك يحيى
ما رأينا كمثل بحثك بحثا   ظنه العالم المحقّق وحيا [١]

و يظهر من ثنايا الكتاب انّ الكتاب أُلّف حوالي ٦٥٤هـ قال: وفي هذه السنة وهي سنة أربع وخمسين وستّمائة في شهر رمضان احترق المنبر وسقوف المسجد إلى آخر ما ذكره. [٢]

٢. نزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر:

---

١. رياض العلماء: ٥/ ٣٤٠ـ ٣٤١.

٢. لاحظ الجامع للشرائع: ٤٨١.

وصفه صاحب الروضات بأنّه : كتاب لطيف في الفقه ينوف على ثلاثة آلاف بيت تقريباً، وقد طبع أخيراً بتحقيق العلاّمة السيد أحمد الحسيني ونور الدين الواعظي عام ١٣٨٨هـ ، وأثبت المحقّقان انّ هذا التأليف للمؤلف لا للشيخ مهذب الدين، وناقشا ما ذكره صاحب الرياض في هذا المقام.

٣. «المدخل في أُصول الفقه» ذكره أكثر من ترجم للمترجم له.

٤. «قضاء الفوائت» نسبه إليه الشهيد في غاية المراد. [١]

٥. «الفحص والبيان عن أسرار القرآن» نسبه إليه الشيخ زين الدين البياضي في كتاب «الصراط المستقيم» وقال: إنّه‌ﷺ قد قابل في ذلك الكتاب الآيات الدالة على اختيار العبد، بالآيات الدالة على الجبر ،فوجد آيات العدل تزيد على آيات الجبر بسبعين آية. [٢]

٦. «كشف الالتباس عن نجاسة الأرجاس» نسبه إليه الكفعمي في بعض مجاميعه. [٣]

٧. «كتاب السفر» نسبه إليه الشهيد في الذكرى. [٤]

مشايخه وأساتذته

يروي عن عدّة من المشايخ والفضلاء، ذكرت أسماء بعضهم في آخر هذا الكتاب (الجامع للشرائع) عند نقل رواية ظريف بن ناصح.

منهم:

١. السيد الفقيه محيي الدين أبو حامد محمد بن عبد الله بن علي بن زهرة

١. أعيان الشيعة: ٥٠/١٨، و العجب انّ سيدنا الأمين لم يترجم المؤلف إلاّ بسطر واحد.
٢و ٣و ٤ . رياض العلماء:٥/ ٣٣٧ـ٣٣٨.

الحسيني الحلبي، وليس هذا السيد بالسيد ابن زهرة المشهور صاحب الغنية المتوفّى سنة ٥٨٥ بل هو ابن أخيه.

٢. الشيخ محمد بن أبي البركات بن إبراهيم الصنعاني، وذكر المؤلف انّ تاريخ الرواية شهر رجب سنة ست وثلاثين وستّمائة. [١]

٣. والده الشيخ أحمد عن جدّه يحيى الأكبر.

٤. السيد الأجل فخار بن معد المتوفّى سنة ٦٣٠هـ.

٥. الشيخ نجيب الدين محمد بن جعفر بن هبة الله بن نما الحلي. إلى غير ذلك من المشايخ التي تقف على أسمائهم عند المرور على ترجمة المؤلف في غضون كتب التراجم، وقد جمع صاحب الرياض أسماءهم وبعض خصوصياتهم، فلاحظ. [٢]

تلامذته والراوون عنه

١. السيد عبد الكريم بن طاووس (المتوفّى ٦٩٣هـ) أجازه في ذي القعدة سنة ٦٨٦هـ. [٣]

٢. العلاّمة الحلّي (٦٤٨ـ ٧٢٦هـ). [٤]

٣. ولده صفي الدين محمد بن يحيى بن سعيد.

٤. الشيخ جلال الدين أبو محمد الحسن بن نما الحلّي.

٥. السيد شمس الدين محمد بن أبي المعالي.

---

١. رياض العلماء: ٥/ ٣٣٧ـ ٣٣٨.

٢. لاحظ الجامع للشرائع: ٦٠٥ـ ٦٠٦ .

٣. رياض العلماء: ٥/ ٣٣٧، وقد نقل صورة الاجازة.

٤. لاحظ إجازته لبني زهرة التي كتبها سنة ٧٢٣هـ.

٦. السيد عز الدين الحسن بن علي بن محمد بن علي المعروف بابن الأبزر الحسيني، وكان تاريخ إجازته سنة خمس وخمسين وستّمائة وقد نقل صاحب رياض العلماء صورة الإجازة في حالات المجاز له، فلاحظ.[1]

٧. السيد نجم الدين أبو عبد الله الحسين بن أردشير بن محمد الطبري، وقد أجازه وكتب الإجازة بخطه الشريف على ظهر نهج البلاغة، وكان تاريخها سنة سبع وسبعين وستّمائة[2]، وقد نقل صاحب رياض العلماء صورة الإجازة في ترجمة السيد نجم الدين.

٨. الشيخ كمال الدين علي بن حماد الليثي الواسطي، كما يظهر من إجازة ولد ذلك الشيخ (الشيخ حسين) للشيخ نجم الدين خضر بن محمد بن نعيم المطار آبادي.

٩. الحمويني مؤلف فرائد السمطين، فقد قرأ عليه في داره في ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وستّمائة.

١٠. الشيخ عمرو بن الحسن بن خاقان قرأ عليه المبسوط، أجاز له سنة ٦٧٤هـ.

١١. أحمد بن عبد الكريم وقد كتب كتاب الجامع بخطه وكتب المؤلف عليه إجازة بخطه في جمادى الأُخرى سنة ٦٨١هـ.[3]

١٢. علي بن محمد بن أحمد شرف الدين أبو القاسم بن الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، قرأ على المؤلف كتاب جامع الشرائع.

١٣. شمس الدين محمد بن أحمد بن صالح السيبي القسيني على ما ذكره

١. ونقله المتتبع الطهراني في الأنوار الساطعة: ٤١.

٢. رياض العلماء: ٥/ ٣٣٨.

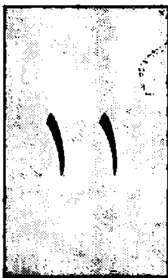
٣. لاحظ الأنوار الساطعة: ٧.

في إجازته للشيخ طومان.[1]

١٤. العالم الزاهد جلال الدين محمد بن علي بن طاووس.

هذه حياة المؤلف المفعمة بالبحث والتحقيق والدراسة والتربية ـ ومع الأسف ـ انّه لم ينتشر له شيء سوى «نزهة الناظر» فقامت ثلة من الفضلاء باستنساخ الكتاب وتحقيق نصوصه وتخريج أحاديثه.

١. لاحظ الأنوار الساطعة: ١٠٩، وقد مرّ نص العبارة في ذلك، فلاحظ.



علي بن عيسى

الإربلي

(... ـ المتوفّى عام ٦٩٣هـ)

إنّ التاريخ البشري حافل بـأنواع من الحوادث والكوارث والملمات والمحن والنجاحات والإخفاقات، فكلّ تلك الظواهر لابدّ لها من سبب ينشئها ويوجدها ولم يكن تحققها علىٰ مسرح التاريخ أمراً اعتباطياً أو اتفاقياً تحققت صدفة.

فالباحث عن التاريخ عندما يستعرض السير التاريخي للحوادث لابدّ أن يأخذ بنظر الاعتبار العلل التي حققتها وأظهرتها على الساحة التاريخية ويبدأ بتحليلها بغية اقتناص العبر المفيدة وتطبيقها علىٰ حياته الفردية والاجتماعية، وعند ذلك يصبح التاريخ محل العبر، ومثار العظات ومصدر العلم بالسنن الإلهية في حياة المجتمعات الإنسانية وانفساخها.

و بالتالي يكون التاريخ مدرسة تطبيقية للوقوف على الأُصول التي فيها حياة الأُمّة وبقاؤها أو موتها وفناؤها.

و قد كان التاريخ في القرون السالفة يتلخص في قراءة الحوادث وتتابعها بسرد حوادث تتضمن انتصارات أقوام على أقوام، ونشوء أُمم وفناءها، دون أن يقوم المؤرخ بتحليل تلك الحوادث التاريخية والوقوف علىٰ أسبابها وعللها، والوقوف على نتائجها ومضاعفاتها. وقد أُطلق علىٰ هذا النوع من كتابة التاريخ بالتاريخ النقلي، وهو أشبه بسرد القصص من دون تحليل واستنتاج.

وأمّا اللون الآخر للتاريخ الذي أصبح علماً مستقلاً احتل مكانة ممتازة بين العلوم الإنسانية هو التاريخ التحليلي، وهو أن يقوم المؤرخ بتحليل الظواهر التاريخية، ويعيّن علل الحوادث ونتائجها، ويميّز الصحيح عن الزائف تحت المشراط العلمي، وهذا اللون من التاريخ وإن شاع في العصور المتأخرة، ولكن ليس كلّ مؤرخ محلل، ولا كل تحليل تحليلاً صحيحاً.

إنّ القرآن الكريم يدعو إلى دراسة التاريخ والتدبر فيه على النمط الثاني وهو يتلو على أسماعنا ما جرىٰ على الأُمم السالفة من سعادة وشقاء، وما استخلفوا من صالح الأعمال وطالحها، ولم يبرح يحث على السبر والغور في حياة الأُمم السالفة، والتفكر فيما حلّ بهم من تقدّم وتدهور حتى يستنتج من قراءة القصص قانوناً عاماً لمجتمعه ويعرف لهم عوامل الرقي والازدهار أو عوامل السقوط والانحلال، قال سبحانه: **﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ القُرىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَحَصِيد﴾**[1] وقال سبحانه: **﴿أَفَلَمْ يَسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الآخِرَةِ خَيرٌ لِلَّذِينَ اتقوا أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾**[2] وقال في آية أُخرى: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فتكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بها فَانّها لا تعمى الأَبْصار وَلٰكِن تعمى القُلُوب الّتي فِي الصُدُور﴾**[3].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الواردة في هذا المضمار.

---

١. هود: ١٠٠.

٢. يوسف: ١٠٩.

٣. الحج: ٤٦.

سيرة الأنبياء والأولياء

إنّ كلّ صفحة من صفحات التاريخ يستلهم منها دروس وعبر، لكن تاريخ الصلحاء وفي طليعتهم الأنبياء والأولياء من أهم المواضع التي يجب أن تستأثر بالاهتمام، فإنّ حياتهم المشرقة احتلت أنصع صفحات التاريخ، ففيها دروس هداية تأخذ بيد البشر وتهديهم إلىٰ ساحل النجاة والسعادة.

فقراءة تاريخ رسول الله ﷺ والأئمّة المعصومين قراءة حياة أُمّة كبيرة يعدون مصابيح الدجىٰ وأعلام التقىٰ وذوى النهىٰ وخزان العلم ومنتهى الحلم وأُصول الكرم وقادة الأُمم ودعائم الأخيار وساسة العباد وأركان البلاد ففي كلّ صفحة من حياتهم دروس وافية تنير الدرب للسائرين.

ولأجل ذلك قامت أُمّة كبيرة بتدوين تاريخ النبي ﷺ وأئمّة أهل البيت، فخلفوا تراثاً تاريخيّاً ضخماً.

و ها نحن نشير إلى لفيف من المؤرخين الذين بذلوا جهوداً كبيرة في تدوين سيرة رسول الله ﷺ وآله المعصومين وفي مقدمتهم:

١. محمد بن إسحاق المدني (المتوفّى ١٥١هـ) صاحب كتاب «المغازي» الذي لخصه ابن هشام، واشتهر بالسيرة النبوية.

٢. لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف (المتوفّى ١٥٨هـ) له من الكتب: «المغازي»، «السقيفة»، «فتوح الإسلام»، «فتوح العراق»، «صفين»، و«قتل الحسين».[١]

٣. إمام علماء الأخبار والمغازي نصر بن مزاحم (المتوفّى ٢١٢هـ) تلميذ لوط بن يحيى أبي مخنف، أثنىٰ عليه النجاشي، وأورد فهرست كتبه،وقال: كوفي

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ١٩١ برقم ٨٧٣.

مستقيم الطريقة ،صالح الأمر، وعدَّ من مؤلفاته وقعة صفين، النهروان، الغارات، المناقب، مقتل الحسين. [١]

إلى غير ذلك من التآليف التي سردها النجاشي في رجاله.

٤. هشام بن محمد السائب، أبو المنذر الناسب (المتوفّى ٢٠٦هـ) العالم بالأيام المشهور بالفضل والعلم، وكان يختص بمذهبنا، ذكر النجاشي كتبه وتاريخه، منها: الجمل، وصفين، والنهروان، والغارات، ومقتل أمير المؤمنين، ومقتل الحسين، إلى غير ذلك من الكتب التي سردها النجاشي في رجاله. [٢]

هؤلاء هم روّاد التاريخ من أصحابنا وتبعهم عدّة جليلة من أئمّة العلم والأدب إلى أن انتهت النوبة إلى فخر الشيعة محي آثار الأئمّة وناشر مناقبهم وفضائلهم، أعني :بهاء الدين أبا الحسن علي بن فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الإربلي نزيل بغداد ودفينها، وقد أثنى عليه كلّ من ذكره من أصحاب المفاهيم ولنذكر نزراً يسيراً من أقوال العلماء في حقّه:

١ .قال الصفدي (المتوفّى ٧٦٤هـ): علي بن عيسى، الإربلي المنشئ، الكاتب البارع، له شعر وترسل، كان رئيساً كتب لمتولّي إربل [٣] ابن صلايا، ثمّ خدم ببغداد في ديوان الانشاء أيّام علاء الدين صاحب الديوان، ثمّ إنّه فتر سوقه في دولة اليهود ثمّ تراجع بعدهم وسلم، ولم يُنكب إلى أن مات سنة اثنتين وتسعين وستّمائة وكان صاحب تجمّل وحشمة ومكارم، وفيه تشيّع، وكان أبوه والياً بإربل،

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٨٤ برقم ١١٤٩.

٢. النجاشي: ٢/ ٣٩٩ برقم ١١٦٧.

٣. إربل: وهي مدينة كبيرة، وقلعة حصينة تقع على تل عال من التراب ما بين الزابين تعد من أعمال الموصل وبينها مسيرة يومين وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا، بينها و بين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل. معجم البلدان:١/ ١٣٨.

ولبهاء الدين مصنفات أدبية مثل المقامات الأربعة ورسالة الطيف المشهورة وغير ذلك.[١]

٢. وذكر ابن شاكر الكتبي نفس النص الماضي من الصفدي، ثمّ ذكر قسماً من أشعاره.[٢]

ولكنّهم لم يقفوا على أثره الخالد المسمّىٰ «كشف الغمة في معرفة الأئمّة» وإنّما ذكره المعلّق علىٰ كتاب فوات الوفيات في التعليقة.

٣. وقال الشيخ الحر العاملي: الشيخ بهاء الدين أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الإربلي، كان فاضلاً، عالماً، محدّثاً، ثقة، شاعراً، أديباً منشئاً، جامعاً للفضائل والمحاسن، له كتب منها:

كشف الغمة في معرفة الأئمّة، جامع حسن فرغ من تأليفه سنة ٦٨٧ هـ وله رسالة الطيف وديوان شعر وعدّة رسائل وله شعر كثير في مدح الأئمّة عليهم السلام، ذكر جملة منها في كشف الغمة.[٣]

٤. وقال في آخر وسائل الشيعة: كشف الغمة في معرفة الأئمّة، تأليف الشيخ الصدوق الجليل علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي.[٤]

٥. ووصفه الأفندي التبريزي بقوله: «الوزير الكبير والشيخ الخبير بهاء الدين أبو الحسن علي بن عيسى فخر الدين بن أبي الفتح الإربلي، وكان يعرف بابن الفخر وقد كان قدّس الله سرّه صاحب الفضائل الجمة والعالم الجليل الذي كشف الغمة وأزال الحيرة عن الأُمّة، وهو مؤلف كتاب كشف الغمة في معرفة

---

١. الصفدي: الوافي بالوفيات: ٢١/ ٣٧٨ برقم ٢٥٠.
٢. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: ٣/ ٥٧ برقم ٣٤٧.
٣. أمل الآمل: ٢/ ١٩٥ برقم ٥٨٨.
٤. وسائل الشيعة: ٢٠/ ٤٣.

الأئمّة، وهو مجلدان كبيران في أحوال النبي وفاطمة والأئمّة عليهم السلام، ثمّ ذكر من مشايخه السيد جلال الدين عبد الحميد بن فخار، وقال: وكان معاصراً للسيد رضي الدين علي بن طاووس ويروي عنه وعن غيره من العلماء من العامة والخاصة كما يظهر من الكتاب المذكور.

ثمّ قال: وكان ولده الشيخ تاج الدين محمد وسبطه الشيخ عيسىٰ بن محمد ابن علي بن عيسى الإربلي من الفضلاء، وكلاهما يرويان الكتاب عنه مع جماعة أُخرى. [١]

٦. وقد ذكر الفوطي في كتابه الحوادث الجامعة في موارد مختلفة نقتبس منها ما يلي:

قال: وفي سنة ٦٥٧ وصل بهاء الدين علي بن الفخر عيسى الإربلي إلىٰ بغداد، ورتب كاتب الانشاء بالديوان، وأقام بها إلى أن مات. [٢]

وقال: إنّه توفي ببغداد سنة ٦٩٣هـ.

وقال أيضاً: تولّىٰ تعميرمسجد معروف سنة ٦٧٨هـ.

وقال أيضاً: له قصيدة رثىٰ بها نابغة زمانه نصير الدين الطوسي والملك عزالدين عبد العزيز.

و لمّا قضىٰ عبدالعزيز بن جعفر ... و أردفه رزء النّصير محمّد

جزعت لفقدان الأخلّاء وانبرت ... شؤوني كمرفض الجمان المبدد

و جاشت إليّ النفس جزعاً ولوعة ... فقلت: تعزّي واصبري فكأن قدِ [٣]

وقال أيضاً: إنشاؤه كتاب صداق في تزويج الخواجة شرف الدين هارون بن

---

١. الأفندي التبريزي: رياض العلماء: ٤/ ١٦٦.
٢. انظر الحوادث الجامعة: ٣٤١، ٤٨٠، ٣٨.
٣. انظر الحوادث الجامعة: ٣٨٠ ـ ٣٨١.

شمس الدين الجويني بابنة أبي العباس أحمد بن الخليفة المستعصم في جمادى الآخرة سنة ٦٧٠ هـ، وإليك جملاً من الكتاب.

الحمد لله الذي جمع الشمل ونظمه، وقوى عقد الإلفة وأحكمه، وأوثق الاجتماع وأبرمه، وصلواته على سيدنا محمد الذي شرفه وأعظمه، ورفع قدره وكرمه، وعلىٰ آله وصحبه الذين أوضحوا منار الإيمان وعلمه، وأظهروا برهانه.[1]

هذه الكلمات تعطينا صورة إجمالية عن حياة مؤلفنا الجليل وقد احتل مكان الصدارة بين مؤرخي الشيعة وكتّابهم ومحدّثيهم، كما أنّه كان معدوداً من الشخصيات البارزة في الدولة العباسية وإنّ رحى الديوان يومذاك كان يدور علىٰ تدبيره وتفكّره، وانشائه وتحبيره، والذي يمكن أن يؤخذ علىٰ ابن الفوطي مؤلف الحوادث انّه أرّخ وفاته ٦٩٣هـ ولكن المتفق عليه بين أصحاب المعاجم هو ٦٩٢هـ.

٧. وحكى شيخنا الأميني عن صاحب رياض الجنة في الروضة الرابعة انّه قال: كان وزيراً لبعض الملوك وكان ذا ثروة وشوكة عظيمة، فترك الوزارة واشتغل بالتأليف والتصنيف والعبادة والرياضة في آخر أمره.[2]

أقول: لم نقف في المصادر علىٰ تصدّي شيخنا المؤلف لمنصة الوزارة غير ما ذكره معاصره ابن الفوطي في الحوادث الجامعة ما مرّ من أنّه وصل إلىٰ بغداد ورتب كاتب الإنشاء في الديوان وأقام بها إلى أن مات، وغير ما نقلناه من الصفدي وتبعه الكتبي من انّه خدم ببغداد في ديوان الانشاء أيّام علاء الدين صاحب الديوان، وما ذكراه لا يدل علىٰ تحمّله أعباء الوزارة.

نعم كان علي بن عيسىٰ بن داود وزيراً للمقتدر بالله في أُخريات القرن الرابع، ولعلّ اشتراكهما في الاسم صار سبباً لهذه النسبة، والعجب من العلاّمة

---

١. انظر الحوادث الجامعة: ٣٦٩.

٢. الغدير: ٥/ ٤٥٢.

الأميني مع تضلعه وحيطته تبع صاحب رياض الجنة، وقال: هو أحد ساسة عصره الزاهي ترنّحت به أعطاف الوزارة وأضاء دستها، كما ابتسم به ثغر الفقه والحديث،وحميت به ثغور المذهب، وسفره القيم ـ كشف الغمة ـ خير كتاب أُخرج للناس في تاريخ أئمّة الدين وسرد فضائلهم والدفاع عنهم والدعوة إليهم، وهو حجّة قاطعة علىٰ علمه الغزير، وتضلّعه في الحديث، وثباته في المذهب، ونبوغه في الأدب، وتبريزه في الشعر، حشره الله مع العترة الطاهرة صلوات الله عليهم. [1]

تآليفه

وقد ترك المترجم له ثروة أدبية وتاريخية ، نذكر منها ما يلي:

١ . رسالة الطيف، كما ذكرها ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات، وقد مرّ كلامه.

٢ . التذكرة الفخرية، وقدكتبها لفخر الدين أبي نصر منوجهر الهمداني، وقد كان يلوذ بعلاء الدين الجويني الحاكم علىٰ بغداد، وقد طبع في بيروت عام ١٤٠٧هـ بتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي والدكتور حاتم الصالح الظامئ.

٣. المقامات الأربع، كما ذكره الصفدي والكتبي كما عرفت.

٤ . جلوة العشاق وخلوة المشتاق، وقد جاء اسمها في مقدمة رسالة الطيف.

٥ . ديوان شعر، وهو من المكثرين في المدايح والمراثي، وقد نقل قسماً من أشعاره في كشف الغمة ، كما نقل شيئاً منه في أمل الآمل.

٦ . عدّة رسائل ذكرها الشيخ الحر العاملي كما عرفت.

٧. كشف الغمة في معرفة الأئمّة.

---

١ . الغدير: ٥/ ٤٤٦.

مشايخه في الرواية

يروي عن عدّة من أعلام الأُمّة، وإليك سرد بعض ما نصّ عليه نفسه في كشف الغمة أو نبّه عليه غيره.

١. سيدنا رضي الدين السيد علي بن طاووس المتوفّى ٦٦٤ هـ.

٢. السيد جلال الدين علي بن عبد الحميد بن فخار، أجاز له سنة ٦٧٦هـ.

٣. تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب، الشهير بابن الساعي البغدادي السّلامي المتوفّى ٦٧٤هـ نص عليه في كشف الغمة. [١] وقال: أروي عنه كتاب معالم العترة النبوية العليّة تأليف الحافظ أبي محمد عبد العزيز ابن الأخضر الجنابذي المتوفّى ٦١١هـ.

٤. الحافظ أبو عبد الله الكنجي الشافعي (المتوفّى٦٥٨هـ) نصّ عليه في كشف الغمة [٢]، وقال: قرأت عليه كتابيه (كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب، والبيان في أخبار صاحب الزمان)و ذلك بإربل سنة ٦٤٨ هـ.

٥. كمال الدين أبو الحسن علي بن وضاح(المتوفّى ٦٧٢هـ). [٣]

٦. الشيخ رشيد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم، قرأ عليه كتاب «المستغيثين بالله عند المهمات والحاجات»، قال في كشف الغمة: كانت قراءتي عليه في شعبان من سنة ٦٨٦ بداري المطلة علىٰ دجلة ببغداد [٤] إلى غير ذلك ممن يروي عنهم في كتبه.

---

١. كشف الغمة: ١٣، الطبعة الحجرية.

٢. كشف الغمة: ١/ ١٠٥.

٣. كشف الغمة: ١/ ٣٧٣.

٤. كشف الغمة: ٢٢٤، الطبعة الحجرية.

الرواة عنه

يروي عنـه عدّة من الفطاحـل، منهم: العلاّمة الحلي، والشيـخ رضي الدين علي بن المطهـر، والسيد شمس الـدين محمـد بن فضـل العلـوي الحسني، والشيخ تقي الدين بـن إبراهيم بن محمد بن سـالم، وولده الوارث علمه ومالـه الشيخ تاج الدين محمد بن علي، إلى غير ذلك.

ما هو كشف الغمة؟

قد عرفت أنّـه في أحوال الأئمّة، وهو خير كتاب في خير مـوضوع، فاق علىٰ كثير ممّا أُلّف قبله في هذا الموضوع، في جـودة السرد، ووضوح العبارة، والأمانة في النقل، والركون إلى المصادر الموثوقة بها بين الفريقين، وبالجملة فهو ضالة الخطيب وأمنية الطالب، ولنعم ما قال في حقّه الشيخ جمال الدين أحمد بن منيع الحلي. [١]

ألا قـل لجامـع هـــذا الكتـــاب يمينـــاً لقـــد نلـت أقصـى المراد
و أظهـرت مـن فضـل آل الـرسـول بتـأليفـــه مـــا يســـوء الأعـــادي

توفي ببغـداد عام ٦٩٢ هــ، ودفن بالجانـب الغربي من بغـداد، وفي البيت الكبير المعروف اليـوم (بكار پرداز خانـه) وكانـت دار سكناه يـوم دفن فيه. قـال شيخنا الطهراني: وكـانت تلك الدار التي دفن فيها الإربلي باقيـة إلى عصرنا، وقد زرت قبره في بقعة في وسط الـدار أنا والعلاّمة الميرزا محمـد الطهراني العسكري في سنة ١٣٤٥هــ وكانـت يسكنها السفير الإيراني ببغـداد، ولكنّها هـدمت فـلا أثر لها اليوم (١٣٨٩هـ). [٢]

فسلام الله عليه يوم ولد و يوم مات و يوم يبعث حياً.

١. وهو من أُدباء الحلة، وقد ترجم له في البابليات، ج١.
٢. الذريعة: ٢١/ ١٢، و لاحظ ١٨/ ٤٧.



الحسن بن يوسف بن المطهّر

العلاّمة الحلّي (٦٤٨ـ٧٢٦هـ)

الحمد لله علىٰ سوابغ النعم وضوافي الآلاء، حمد معترف بالقصور عن إدراك أقلّ مراتب الثناء، وصلّى الله علىٰ محمد عبده ورسوله، أفضل الأنبياء وأكرم الأصفياء وعلىٰ آله السادة النجباء.

أمّا بعد:

فإنّ الإمام الهمام علاّمة العلماء، وأُستاذ الفقهاء، جمال الدين أبا منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر غني عن التعريف والإطراء، فقد سارت بذكره الركبان في حياته، فعطّروا كتبهم بذكره الجميل، وسطّرت أقلامهم له أنصع الصفحات.

وبما انّي بصدد التقديم لواحد من كتبه الفقهية، ممّا جاد به يراعه نقتصر في ترجمته علىٰ ذكر لمحة خاطفة عن حياته وسيرته، ثمّ نعطف عنان القلم إلى الإشادة بما هو المقصود بالذات من هذا التقديم، فنقول:

ولد ﷺ في شهر رمضان سنة ٦٤٨ هـ في بيت عريق في العلم والتقوى، أخذ عن والده الفقيه المتكلم سديد الدين يوسف بن المطّهر، وعن خاله شيخ الإمامية المحقّق الحلّي (٦٠٢ـ٦٧٦هـ) الّذي كان له بمنزلة الأب الشفيق، فحظا باهتمامه

ورعايته، وأخذ عنه الفقه و الأُصـول وسائر علوم الشريعة، ولازم الفيلسوف نصير الدين الطوسي (٥٩٧ــ ٦٧٣هـ) واشتغل عليه في العلوم العقلية ومهـر فيها، وقد بـرع وتقدّم في العلـوم الإسـلامية في مقتبـل عمره على العلماء الفحـول، وفـرغ من تصنيفاته الحكمية والكلامية قبل أن يكمل له ٢٦ سنة.

يعـرّفـه معـاصره ابن داود الحلّي، ويقـول: شيخ الطـائفـة، وعـلاّمـة وقتـه، وصـاحب التحقيق والتـدقيق، كثير التصـانيف، انتهت رئاسـة الإمـامية إليـه في المعقول و المنقول.[1]

وعرّفـه ابن حجر في لسان الميزان بقـوله: عالم الشيعة و إمـامهم ومصنّفهم، وكان آية في الذكاء وكان مشتهر الذكر، حسن الأخلاق.[2]

إلىٰ غير ذلك مـن كلمات الإطـراء في حقّه التـي لا مجال لـذكر معشـارهـا، ولنعطف عنان القلم إلى ما نحن بصدد بيانه:

قد قدّمتُ منـذ زمن ليس ببعيد مقدّمة لأحد كتبه الكـلامية ألا وهو كتاب «نهاية المرام في علم الكلام». وحينما سرحت النظر فيه ازداد إعجابي به، فأدركت انّـي أمـام بحر لجيٍّ بعيد الأغوار، لا يـدرك ساحله، كيف، وهو في الكـلام فارس حلبته، وخبير خباياه وعـويصات مسائله، وحلاّل عقده وغـوامضه، فقد أورد في كلّ مسألة آراء الأوائل والمليين والإسلاميين من الأشاعرة والمعتزلة والإمامية وسائر الفرق وقارن بين المناهج الكلامية وحسم الموقـف برأيه الصائب وعقله الثاقب، وقد تبلورت في هذا الكتاب شخصيته الكلامية وعقليته الفلسفية، فالكتاب عديم النظير بين سائر الموسوعات الكلامية في تبويب المواضيع ومقارنة الآراء، والقضاء الحاسم بينها، وعـدم الحياد عن جادة الحقّ، وانصاف الخصم من نفسـه وقد طبع

---

١. رجال ابن داود: ١١٩ برقم ٤٦١.

٢. لسان الميزان: ٢/ ١٧ برقم ١٢٩٥.

وانتشر[1] في ثلاثة أجزاء ضخام.

وأمّا في الفقه واستنباط الأحكام الشرعية عن أدلّتها التفصيلية فواسطة عقده ومرتكز لوائه، وهو ـ بحق ـ ممّن لا يقف علىٰ ساحله أو يكتفي بظاهره، بل خاض غماره واقتحم لجته فسبر أغواره ووقف علىٰ حقيقته.

وها نحن الآن بصدد التقديم لكتاب فقهي له ﷺ وهو كتاب «تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الإمامية» الّذي يصفه المؤلف في خلاصته بأنّه حسن جيد استخرجنا فيه فروعاً لم نسبق إليها مع اختصاره. وقد حقّق الكتاب بتحقيق رائع يجاوب روح العصر، وهو علىٰ عتبة النشر.

والكتاب واحد من مؤلفاته الكثيرة في الفقه، إذ له وراء ذلك موسوعات فقهية وكتب جامعة لعامة أبواب الفقه، منها:

أ. تبصرة المتعلّمين في أحكام الدين.

ب. إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان.

ج. قواعد الأحكام في مسائل الحلال والحرام.

د. مختلف الشيعة في أحكام الشريعة.

هـ. تذكرة الفقهاء على تلخيص فتاوى العلماء، وذكر قواعد الفقهاء.

و. منتهى المطلب في تحقيق المذهب.

ز. نهاية الأحكام في معرفة الأحكام.

إلىٰ غير ذلك من الكتب أو الرسائل الفقهية التي خلّفها مضافاً إلى ما ألّفه في مجال أُصول الفقه بين مقتضب كتهذيب الأُصول، إلىٰ مسهب كنهاية الوصول إلى علم الأُصول.

١. نشرته مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام في قم المشرّفة.

ومن تمعّن في هذه الكتب يجد أمامه دورات فقهية وموسوعات ضخمة قلّما يتفق لأحد أن يقوم ببعضها.

وثمّة سؤال يطرح نفسه، وهو لماذا قام العلاّمة بهذا العبء الثقيل وألّف كتباً فقهية مختلفة المنحىٰ والمنهج أسفر عن اختلاف فتاواه وآرائه في كتاب بعد كتاب، فما هو السر وراء ذلك؟

والإجابة علىٰ هذا رهن الوقوف على الغايات التي كانت وراء تأليف تلك الكتب.

فقد تكرر منه تأليف تلو تأليف في علم واحد لأجل غايات مختلفة، وإليك دراسة هذه الكتب علىٰ وجه الإيجاز، لتعلم الغايات المتوخاة منها، وربما يعرب أسماؤها عن الغرض المطلوب.

الأوّل: تبصرة المتعلمين

هذا الكتاب دورة فقهية كاملة موجزة بدون شرح واستدلال طرح فيها العلاّمة آراءه الفقهية وفتاواه في جميع الأبواب.

يقول في مقدمته: وضعناها لإرشاد المبتدئين وإفادة الطالبين مستمدين من الله المعونة والتوفيق، فانّه أكرم المعطين، وأجود المسؤولين، ونبدأ بالأهم فالأهم.

والكتاب لوجازته وسلاسة ألفاظه صار موضع اهتمام الفقهاء منذ عصر مؤلفه إلىٰ يومنا هذا وتولّوه بالشرح والتعليق، وقد كان في سالف الزمان كتاباً دراسياً، وذكر شيخنا المجيز في الذريعة ما يقارب ٣٥ شرحاً وتعليقاً عليه، ومن أحسن الشروح إيضاحاً شرح أُستاذنا الكبير الشيخ محمد علي التبريزي المعروف بالمدرّس، وقد طبع الجزء الأوّل منه والجزء الثاني لم ير النور، عسى الله أن يُشحذ الهمم بغية نشر الباقي.

الثاني: إرشاد الأذهان إلىٰ أحكام الإيمان

وهو دورة فقهية كاملة غير استدلالية للفقه الإمامي من الطهارة إلى الديات، ويعد من الكتب الفقهية المعتمد عليها.

يعرفه مؤلفه في خلاصته بأنّه حسن الترتيب.[1]

وقال شيخنا الطهراني: هو من أجل كتب الفقه وأعظمها عند الشيعة، ولذلك تلقّاها علماؤهم بالشرح والتعليق عبر القرون من عصر مؤلفه إلىٰ يومنا هذا، وقد أحصى مجموع مسائله في خمس عشرة ألف مسألة، فرغ منه سنة ٦٧٦ هـ أو ٦٩٦.[2]

والكتاب بالنسبة إلىٰ ما سبقه أشبه بالمفصل إلى المجمل، فقد بسط القول فيه أكثر ممّا ورد في الأوّل، ألّف الأوّل للمتعلّمين المبتدئين ثمّ ألّف هذا لمن ارتقى مرتبة من العلم.

وقد ذكر شيخنا الطهراني في موسوعته أسماء ٣٦ شرحاً وتعليقة على الكتاب[3]، وأنهاها محقّق كتاب إرشاد الأذهان في تقديمه إلىٰ ٥١ شرحاً وتعليقة.[4]

الثالث: قواعد الأحكام في مسائل الحلال والحرام

وهو من الكتب المتداولة المشهورة، وقد ذكر فيه من القواعد ما يناهز ٦٦٠ قاعدة في الفقه، لخص فيه فتاواه وبيّن قواعد الأحكام، ألّفه بالتماس ولده فخر

١. كما في أمل الامل: ٢/ ٨٤، ولم ترد هذه الكلمة في الخلاصة المطبوعة.

٢. الذريعة: ١٣/ ٧٣ و ١/ ٥١٠.

٣. الذريعة: ١/ ٥١٠ برقم ٢٥٠٩.

٤. إرشاد الأذهان: ١٨٥ـ١٩٣، قسم المقدمة.

المحقّقين، وفرغ منه عام ٦٩٣هـ أو ٦٩٢هـ. [١]

وذكره في خلاصته باسمه ولم يصفه بشيء. لكن وصفه في أوّله بقوله: هذا قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام لخصت فيه لب الفتاوىٰ خاصة، وبيّنت فيه قواعد أحكام خاصة، إجابة لالتماس أحب الناس إليَّ وأعزّهم عليَّ، وهو الولد العزيز محمد الّذي أرجو من الله طول عمره بعدي وأن يوسدني في لحدي. [٢]

وفي آخر الكتاب وصية قيّمة للعلاّمة يوصي بها ولده بقوله:

اعلم يا بني أعانك الله تعالى على طاعته... قد لخّصت لك في هذا الكتاب لب فتاوى الأحكام، وبيّنت لك قواعد شرائع الإسلام بألفاظ مختصرة وعبارات محرّرة، وأوضحت لك فيه نهج الرشاد وطريق السداد، وذلك بعد ان بلغت من العمر، الخمسين ودخلت في عشرة الستين، وقد حكم سيد البرايا بأنّها مبدأ اعتراك المنايا.... [٣]

وبما انّ العلاّمة من مواليد عام ٦٤٨هـ فقد بلغ الخمسين عام ٦٩٨هـ، وتجاوز عنه عام ٦٩٩ أو ٧٠٠هـ، وبذلك يعلم انّ ما ذكره شيخنا المجيز من أنّه ألّف القواعد عام ٦٩٣ أو ٦٩٢ هـ ليس بتام.

وممّا يجدر ذكره هو انّ براعة العلاّمة ونبوغه لم يتلخّص في الفقه والأُصول والكلام، بل تعدّاها إلىٰ علوم أُخرى، كالرياضيات العالية التي تتجلّىٰ مقدرته فيها بوضوح في كتابه هذا، وأخص بالذكر «كتاب الوقوف والعطايا، المطلب الثالث في الأحكام المتعلقة في الحساب»، فقد نجح إلىٰ حد كبير في حلّ غوامض المسائل الرياضية الجبرية المعقدة.

---

١. الذريعة: ١٧/ ١٧٦ برقم ٩٣٠.

٢. قواعد الأحكام: ٢.

٣. قواعد الأحكام: ٢/ ٣٤٦.

واستغرقت بحوثه الرياضية أكثر من ٥٠ صفحة بالقطع الرحلي.

و إذا عطفت النظر إلىٰ كتاب الفرائض، فترىٰ نظير تلك البحوث فيها.

فسبحان الله معطي المواهب ومفيض النعم.

ليس من الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

الرابع: مختلف الشيعة في أحكام الشريعة

ذكره في الخلاصة وقال: ذكرنا فيه خلاف علمائنا خاصة وحجة كلّ شخص والترجيح لما يصير إليه. [1]

وقال في مقدمته: إنّي لما وقفت علىٰ كتب أصحابنا المتقدمين رضوان الله عليهم، ومقالات علمائنا السابقين في علم الفقه وجدت بينهم خلافاً في مسائل كثيرة متعددة، فأحببت إيراد تلك المسائل في دستور يحتوي علىٰ ما وصل إلينا من اختلافهم في الأحكام الشرعية، والمسائل الفقهية دون ما اتفقوا عليه، إذ جعلنا ذلك موكولاً إلىٰ كتابنا الكبير المسمّىٰ بـ«منتهى المطلب في تحقيق المذهب» فانّه مجمع بين مسائل الخلاف والوفاق.

ومن محاسن ذلك الكتاب انّه إذا لم يجد للمخالف دليلاً يحاول أن يلتمس دليلاً له.

قال: ثمّ ان عثرنا في كلّ مسألة علىٰ دليل لصاحبها نقلناه وإلاّ حصّلناه بالتفكّر وأثبتناه، ثمّ حكمنا بينهم علىٰ طريقة الإنصاف، متجنبي البغي والاعتساف وسمنا كتابنا هذا بمختلف الشيعة. [2]

---

١. الخلاصة: ٤٥.

٢. مختلف الشيعة: ١/ ١٧٣.

والكتاب دورة فقهية استدلالية من الطهارة إلى الديات، ومن مزاياه انّه حفظ آثار علمائنا السابقين، أمثال: ابن الجنيد، وابن أبي عقيل، والصدوق الأوّل وغيرهم ولولاه لاندثرت آثارهم.

وقد شرع في تأليفه قبل سنة ٦٩٩هـ، وانتهىٰ منه في الخامس عشر من ذي القعدة في ثمان وسبعمائة، أي قبل وفاته بثمانية عشر سنة.

ومن فوائد هذا الكتاب العلم بالمسائل الخلافية وتميزها عن المجمع عليها، فربما يدعى الإجماع في مسألة، ولها مخالف أو مخالفان يعلم من الرجوع إلى ذلك الكتاب.

الخامس: تذكرة الفقهاء علىٰ تلخيص فتاوى العلماء وذكر قواعد الفقهاء

وهي موسوعة فقهية استدلالية كبيرة يذكر فيها أقوال الفقهاء من الشيعة والسنة، ويذكر دليل كل قول ويناقشه، وربما يحاول أن يذكر للمخالف دليلاً من جانبه ثمّ يجيب عنه ، وهو تراث علمي قيم.

وإليك بعض ميزاته:

أ. أثبت في تأليفه هذا انّ الفقه الإمامي الذي يرفض العمل بالقياس والاستحسان قادر على الإجابة على المسائل الفقهية عامة مستمداً من الأدلّة الأربعة: الكتاب، والسنّة، والإجماع، والعقل.

يقول العلاّمة في مقدمة الكتاب: وقد عزمنا علىٰ تلخيص فتاوى العلماء وذكر قواعد الفقهاء علىٰ أحقّ الطرائق وأوثقها برهاناً وأصدق الأقاويل وأوضحها بياناً، وهي طريقة الإمامية الآخذين دينهم من الوحي والعلم الرباني، لا بالرأي والقياس، ولا باجتهاد الناس، علىٰ سبيل الإيجاز والاختصار وترك الإطالة والإكثار.

ب. انّه يقارن الأقـوال بعضها ببعض ويحاكم بينها بـأُسلوب متين، ويشير إلى ذلك في مقدمة الكتـاب بقوله: أشرنا إلىٰ كلّ مسألـة إلى الخلاف و اعتمدنا في المحاكمة بينهم طريق الإنصاف. [١]

ج. انّه أُلّـف بصورة الفقه المقـارن، والمراد منه جمع الآراء الفقهيـة المختلفة وتقييمهـا والموازنة بينهـا بالتماس أدلّتهـا وتـرجيح بعضها علىٰ بعـض، وهذا هـو المسمّىٰ عند القدماء بعلم الخلاف.

فـالمؤلف في هـذا الصـدد يجعـل نفسـه مسـؤولاً عن فحـص جميع الأدلّـة والقضاء بينها واختيار أتقنها وأوثقها بالقواعد وهو ليس أمراً سهلاً، وللفقه المقارن فوائد جمة يذكرها السيد محمد تقي الحكيم حيث يقول:

أ. محاولة البلوغ إلىٰ واقـع الفقه الإسلامي من أيسر طرقـه وأسلمها، وهي لا تتضح عـادة إلاّ بعـد عـرض مختلف وجهـات النظـر فيها وتقييمهـا علىٰ أسـاس موضوعي.

ب. العمل علىٰ تطوير الدراسات الفقهيـة والأُصولية والاستفادة من نتائج التلاقح الفكري في أوسع نطاق لتحقيق هذا الهدف.

ج. ثماره في إشـاعة الـروح الـرياضيـة بين البـاحثين، ومحاولة القضـاء علىٰ مختلف النزعات العاطفية و إبعادها عن مجالات البحث العلمي.

د. تقريب شقة الخلاف بين المسلمين، و الحد من تأثير العوامل المفرّقة التي كان من أهمها وأقـواها جهل علماء بعض المذاهب بأُسس وركـائز البعض الآخر، ممّا ترك المجال مفتـوحاً أمام تسرّب الدعوات المغرضة في تشـويه مفاهيم بعضهم والتقوّل عليهم بما لا يؤمنون به. [٢]

---

١. التذكرة:١/ ٣و٤.

٢. الأُصول العامة للفقه المقارن: ١٠.

والموجود بين أيدينا من الكتاب ينتهي إلىٰ أواخر كتاب النكاح، إلاّ أنّ ثمّة شواهد تشير إلى أنّ المؤلف انتهى في كتابته إلىٰ أكثر من ذلك:

أوّلاً: انّ ولده فخر المحقّقين يقول في كتابه «إيضاح الفوائد في شرح القواعد» في آخر شرحه لإرث الزوج: قد حقّق والدي هذه المسألة وأقوالها وأدلّتها في كتاب التذكرة. (١)

وثانياً: انّه فرغ من كتاب النكاح سنة ٧٢٠هـ بالحلة، فقد عاش بعده حوالي ست سنين، ومن البعيد أن يهمل إنهاء ذلك الكتاب الّذي يعد من ثمرات عمره اليانعة. (٢)

وفي الختام أود أن أُشير إلىٰ ما جاء في مجلة رسالة الإسلام لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة حول هذا الكتاب والإشادة به حيث يقول:

من ذخائر الفكر الإسلامي كتاب تذكرة الفقهاء للشيخ العلاّمة الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلّي ، هذا كتاب من أنفس كتب الفقه الاستدلالي المقارن، وقد جرت عادة المؤلّفين في الفقه المقارن من علماء السنة أن يعرضوا للمذاهب الأربعة متحدّثين عن آراء علمائها، وعن أدلّتهم دون أن يخرجوا عن نطاقها فيعرضوا للمذاهب الأُخرىٰ لا سيما مذهب الشيعة الإمامية.

وقد أوحىٰ ذلك إلى كثير من طلاب العلم وأساتذة الفقه بمعنى فيه ظلم كثير للفقه الإمامي، وهو انّ هذا الفقه ليس كفقه السنة استيعاباً واستنباطاً ودقة نظر، وانّه لا يستند إلىٰ أدلّة يمكن مناقشتها ومقارنتها.

ولما اتسع نطاق الفقه المقارن في كلية الشريعة وأصبح حتماً على الأساتذة والطلاب أن يعرفوا رأي الإمامية في مسائل المقارنة وأن يوازنوا بين أدلّتهم وأدلّة

١. إيضاح الفوائد: ٤/ ٢٤٢.

٢. لاحظ الذريعة: ٤/ ٤٣.

غيرهم من أهل المذاهب الفقهية، كانوا يجدون كثيراً من الصعوبات في الرجوع إلىٰ مصادر هذا الفقه الإمامي، و إذا عثروا على مرجع من هذه المراجع وجدوه مطبوعاً طبعاً حجرياً علىٰ نحو غير مألوف عندنا في مصر، فلم يستطيعوا الإفادة منه على الوجه الذي ينبغي.

إلى أن قال: وكنت أعرف كتاب تذكرة الفقهاء للشيخ الحلّي وهو المعروف بالشيخ العلاّمة، وله مؤلّفات كثيرة غير هذا المؤلّف، ولكن تذكرة الفقهاء بين أيدينا، ولكنّه رهين محبسين: محبس من عدم معرفة علماء السنّة به وعدم اطّلاعهم عليه إلاّ قليلاً منهم، ومحبس من هذه الطبعة الحجرية الضيقة التي تجعله بعيداً عن متناول الذين يهتمون بالفقه ودراسته وأُصوله المحررة.

ولذلك تمنيت لو انّ هذا الكتاب طبع طبعة حديثة حتّى يمكن لعلماء الأزهر وغيرهم أن يقرؤه ، إذاً لوجدوا فيه علماً غزيراً، وخيراً كثيراً، ولاستطاعوا أن يملأوا جو المقارنة الفقهية بما يذكره من آراء وأدلة، ولعرفوا انّ هناك فقهاً لا يقل في مستواه العلمي والفكري عن فقههم، ولما بقي في بعضهم أثر من الرغبة عن هذا الفقه استهانة به أو تعصباً عليه.

ثمّ إنّ صاحب المقال أخذ شيئاً من كتاب النكاح فطبعه في آخر مقاله، يبلغ عدد صفحاته قرابة ٣١ صفحة، وبذلك حاول أن يُلفت نظر الفقهاء في الأزهر وغيره إلىٰ هذا الكتاب الثمين وما فيه من مادة فقهية قلّما يتفق في غيره. [١]

ونحن نزفّ البشرىٰ إلى صاحب المقال، وهي انّ الكتاب قد طبع طبعة أنيقة رشيقة محققة مع تخريج مصادر الروايات والأقوال بشكل مثير للإعجاب، وقد قام بهذا العبء الثقيل مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، وقد خرج منه لحدّ الآن ثمانية أجزاء والباقي قيد الطبع.

١ . مجلة رسالة الإسلام: العدد ٥١ و٥٢، المؤرخة عام ١٣٨٢هـ.

والحقّ انّ أغلب التراث الفقهي للشيعة الإمامية رهين محبسين: عدم اطّلاع علماء السنة عليه، ورداءة طبعه بل لم يزل الكثير منها مخبوءاً لم ير النور.

السادس: منتهى المطلب في تحقيق المذهب

وهو كتاب ضخم يتسم بطابعين: «الاستدلال» و«المقارنة» وهو نظير «التذكرة» ولكن أوسع وأشمل منه، ولذلك يصفه العلاّمة في بعض الموارد بقوله ينتهي بانتهاء عمرنا.

ويصفه في الخلاصة، بقوله: لم يعمل مثله، ذكرنا فيه جميع مذاهب المسلمين في الفقه، رجحنا ما نعتقده، بعد إبطال حجج من خالفنا فيه، يتم إن شاء الله تعالىٰ عملنا منه إلىٰ هذا التاريخ، وهو شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و تسعين وستمائة سبع مجلدات. [١]

ويصفه في مقدمة الكتاب بقوله: أحببنا أن نكتب دستوراً في هذا الفن (الفقه) يحتوي علىٰ مقاصده، ويشتمل علىٰ فوائده علىٰ وجه الإيجاز والاختصار، مجتنبين الإطالة والإكثار مع ذكر الخلاف الواقع بين أصحابنا، والإشارة إلى مذاهب المخالفين المشهورين، مع ذكر ما يمكن أن يكون حجّة لكلّ فريق على وجه التحقيق، وقد وسمناه بـ«منتهى المطلب في تحقيق المذهب» و نرجو من لطف الله تعالى أن يكون هذا الكتاب بعد التوفيق لإكماله أنفع من غيره. [٢]

وعلى ضوء ذلك فقد حاز العلاّمة الحلّي قصب السبق علىٰ غيره في تطوير الفقه المقارن، فتارة ألّف كتاباً لبيان الخلافات في الفقه الإمامي وقارن الأقوال بعضها ببعض مثل المختلف، وأُخرى لبيان الخلافات بين المذاهب الإسلامية

---

١. الخلاصة: ٤٥.

٢. منتهى المطلب: ٤.

سنّية وشيعية، بين مقتضب كالتذكرة ، ومسهب كالمنتهى.

وهذا النوع من الفقه المقارن من خصائصه ولم يسبقه أحد قبله.

نعم، قام غير واحد من مشايخ الشيعة بتصنيف كتب في الفقه المقارن على النمط الثاني كالانتصار للسيد المرتضىٰ(٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) والخلاف للشيخ الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) والكتاب يعد من ذخائر التراث الفقهي الإسلامي، وقد طبع في جزءين كبيرين بالطبعة الحجرية ينتهي الجزء الأوّل إلىٰ آخر الصلاة، والجزء الثاني إلىٰ آخر الحجّ.

وقال في إجازته للسيد مهنا بن سنان بن عبد الوهاب الإمامي المدني قاضي المدينة المتوفّىٰ عام ٧٥٤هـ قال: كتاب منتهى المطلب خرج منه العبادات سبع مجلدات.[1]

إنّه ﷺ يشير إلى الفرق بين التذكرة والمنتهى في نهاية كتاب تحرير الأحكام الذي سيأتي الكلام فيه.

يقول في نهاية هذا الكتاب: «هذا آخر ما أخذناه في هذا الكتاب، وهو قيم يعرض طالب التوسط في هذا الفن، ومن أراد الإطالة فعليه بكتابنا الموسوم بتذكرة الفقهاء الجامع لأُصول المسائل وفروعها مع إشارة وجيزة إلى وجوهها وذكر الخلاف الواقع بين العلماء وإيراد ما بلغنا من كلام الفضلاء.

ومن أراد الغاية وقصد النهاية فعليه بكتابنا الموسوم بـ«منتهى المطلب في تحقيق المذهب» والله الموفق للصواب منه المبدأ وإليه المعاد».[2]

وقد قام بتحقيقه وإخراجه في حلة قشيبة قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية بمشهد الرضا عليه السلام وخرج منه إلى الآن خمسة أجزاء.

---

١. أجوبة المسائل المهنائية:١٥٥؛ البحار: ١٠٤/ ١٤٧.

٢. تحرير الأحكام: ٢/ ٢٨١.

السابع: نهاية الإحكام في معرفة الأحكام

كتاب يحتوي علىٰ جلّ المسائل الفرعية الفقهية مع الإشارة إلى الدلائل بعبارة موجزة.

يعرّفه العلاّمة في مقدمة الكتاب بقوله: لخصت فيه فتاوى الإمامية على وجه الإيجاز وأشرت فيه إلى العلل مع حذف الإطالة والإكثار.

وخرج منه كتاب: الطهارة، الصلاة، الزكاة، البيع إلى آخر الصرف.

وقد فرغ كتاب الصلاة في شهر شعبان من شهور سنة ٧٠٥هـ.

وقد طبع في جزئين بتحقيق السيد مهدي الرجائي (حفظه الله) وهو ممّن وقف عمره في إحياء التراث ونشر مآثر الشيعة.

والفرق بينه وبين التحرير طفيف جداً، فالإشارة إلى الدليل فيه أكثر من التحرير لكن الثاني يفوق عليه بجودة الترتيب والتخريج. واشتماله على تمام الكتب الفقهيّة.

الثامن: تحرير الاحكام

وها نحن الآن بصدد استعراض كتاب فقهي آخر وهو كتاب تحرير الأحكام الشرعية إلى مذهب الإمامية.

وقد عرّفه العلاّمة في مقدمة الكتاب بقوله: جمعنا فيه معظم المسائل الفقهية وأوردنا فيه أكثر المطالب الشرعية الفرعية من غير تطويل بذكر حجّة ودليل، إذ جعلنا ذلك موكولاً إلىٰ كتابنا الموسوم بـ«منتهى المطلب في تحقيق المذهب» فانّه قد شمل المسائل أُصولها وفروعها وذكر الخلاف الواقع بين المسلمين إلاّ ما شذ،

واستدلال كلّ فريق علىٰ مذهبه مع تصحيح الحقّ وإبطال الباطل وإنّما اقتصرنا في هذا الكتاب علىٰ مجرّد الفتاوى لا غير.[١]

وعرّفه في الخلاصة بقوله: حسن جيد، استخرجنا فيه فروعاً لم نسبق إليها مع اختصاره.[٢]

وقال شيخنا المجيز: اقتصر فيه علىٰ مجرد الفتوى وترك الاستدلال، لكنّه استوعب الفروع والجزئيات حتّى أنّه أُحصيت مسائله فبلغت أربعين ألف مسألة[٣] رتّبها علىٰ ترتيب كتب الفقه في أربع قواعد: العبادات، والمعاملات، والإيقاعات، والأحكام؛ بادياً بمقدمة ذات مباحث في معنى الفقه وفضله وآدابه ومعرفته وعدم كتمانه. ثمّ ذكر النسخ الموجودة منه في المكتبات.[٤]

عصر التخريج والتفريع

لقد تألّق نجم المذاهب الأربعة منذ منتصف القرن الرابع، فسرت روح التقليد للأئمة الأربعة سرياناً عاماً اشترك فيه العلماء وجمهور الناس.

لقد تلقّى الجمهور تلك المذاهب تراثاً إسلامياً بلغ من القداسة كأنّها وحي من الله لا يمكن النقاش فيها ولا يجوز الخروج عن إطارها، فأصبحت نصوص الأئمّة الأربعة كالوحي المنزل يجب استفراغ الوسع في فهم كلامهم ومؤدّىٰ لفظهم، وقد خلّف ذلك مضاعفات حالت دون تكامل الفقه، منها:

أ. نشوء روح التقليد بين فقهاء تلك الأعصار والتعصّب لمذهب الأسلاف.

---

١. تحرير الأحكام: ١/ ٢.

٢. الخلاصة: ٤٥ برقم ٥٢.

٣. ولعلّ المراد هي الفروع لا المسائل، لأنّ الأُولى تقارب هذا المقدار دون الثانية.

٤. الذريعة: ٣/ ٣٧٨.

ب. كثرة التخريـج والتفريع والترجيح بين فقهاء المذاهب، فـإنّهم بدل أن يبذلوا جهودهم في فهم الكتاب والسنّة، انصبت جهودهم في استنباط الفروع من الأُصول الثابتـة عند أئمّة المذاهب، ولأجل ذلك كثر التـأليف والتصنيف في هذه العصور وأكثرها يحمل طابع التخريج والتفريع.

إنّ بـاب الاجتهـاد و إن أقفل في هـذه الفترة لكـن نشط الاجتهـاد في إطـار مذهب معين. فلـذلك بدأ التخريج والتفريع في مسـائل كثيرة فلم يكن لأئمّتهم فيها نص، وبذلك ألفت كتب في هذا المضمار، أي استنتاج الفروع من الأُصول وما لا نص فيه من أئمّتهم عمّا فيه نص منهم.

وهذا نـوع من الاجتهاد المحدّد بمذهـب خاص، وقد نشأ العلاّمـة في هذه الأجـواء التي تطلب لنفسهـا التخريـج والتفريـع، فشمّر عن سـاعـد الجد وألّف كتاب «تحريـر الأحكام» لتلك الغـاية،ولـو صحّ ما نقلـه شيخنا المجيز عـن بلوغ مسـائله إلىٰ أربعين ألف، فقـد تحمل عبئـاً ثقيـلاً في جمع تلك الفروع في الأبـواب الفقهيـة المختلفـة وعرضهـا على الأدلّـة واستخـراج حكمها منهـا وليسـت تلك المحـاولة جـديـدة من نـوعهـا، فقـد سبقه فيهـا الشيخ الطـوسي بتـأليفه كتـاب «المبسوط» وكـانت الغايـة من تأليفـه هو الإجابـة على الفروع التي لا نـصّ فيها مستخرجاً أحكامها ممّا نص فيه، يقول:

فإنّي لا أزال أسمع معـاشر مخالفينا من المتفقّهة والمنتسبين إلىٰ علـم الفروع يستحقـرون فقه أصحـابنا الإمـامية ويستنـزرونـه وينسبونهم إلىٰ قلّـة الفروع وقلّـة المسائل، وانّ من ينفي القياس والاجتهاد لا طريق له إلىٰ كثرة المسائل ولا التفريع على الأُصول، لأنّ جلَّ ذلك مأخوذ من هذين الطريقين.

ثمّ ردَّ على وجهة النظر تلك بقوله: إنّ جلَّ مـا ذكروه من المسائل موجود في أخبارنا ومنصـوص عليه تلويحاً عن أئمّتنا الذين قـولهم في الحجة يجري مجرى قول

النبي ﷺ إمّا خصوصاً أو عموماً أو تصريحاً أو تلويحاً.[1]

والتخريج في الفقـه الإمامي يختلف عن التخريج في فقـه المذاهب الأربعة، فإنّ التخريج هنـاك علىٰ ضوء النصوص الموروثة عن أئمّتهـم التي لا تتجاوز عن كونها فتاوى فقهية لهم مستنبطة غالباً من الأساليب الظنية.

وأمّا التخريج في الفقه الإمامي فهو تابع لضوابط معيّنة، إذ يستخرج حكم الفروع مـن الأُصول المنصـوصة إمّـا خصوصـاً أو عمومـاً أو تصريحاً أو تلويحاً كما صرّح به الشيخ.

فالاجتهـاد عند السنّـة في هذا المجـال، اجتهاد شخصي في فهم كـلام إمام المذهـب، ولكـن الاجتهاد في الفقـه الإمـامي اجتهـاد في فهم النصـوص الشرعيـة الواردة من النبي ﷺ وآله المعصـومين الذيـن تجري أقوالهم مجرىٰ قـول النبي ﷺ لحديث الثقلين.

هذه هي الكتب الفقهيـة الثمانية المعروفة للعـلاّمة الحلّي المنتشرة علىٰ نطاق واسع، وله كتب فقهية أُخرىٰ غير مشهورة، وانّ قسماً منها لم ير النور.

مشكلة الاختلاف في آرائه

من استعـرض فتـاوى العلاّمـة الحلّي في كتبـه الفقهيـة ربما يقف علىٰ آراء مختلفة له في مسألـة واحدة في مختلف الكتب، وقد أثارت هذه المسألـة العديد من التساؤلات.

فربما يفسر اختلاف فتـاواه بحرصه على التأليف واستعجـاله في التصنيف، وانّه كان يكتب كلّ مـا يرتسم في ذهنه بلا مراجعة إلى أقواله المتقـدمة، أو انّه كان لا يفحص في الأحاديث والأدلّـة حقّ الفحص. فبدا له التجـدّد في الرأي والتلوّن

١. المبسوط: ١/ ٢.

في الاجتهاد. [١]

وقريب منه ما ذكره المحدّث البحراني في لؤلؤة البحرين. [٢]

وربما يجاب عن الإشكال:

بأنّ فتاوى العلاّمة كانت في متناول فقهاء عصره الذين بلغ عددهم في الحلّة إلى ٤٤٠ مجتهداً. [٣]

فقد كانت تنهال عليه مناقشات العلماء والمجتهدين فيما أفتى به وذهب إليه فكان ـ رضي الله عنه ـ ينظر فيها ويبحثها معهم، فإن لم يقتنع بها ردّها، وإن رآها سديدة قبلها برحابة صدر، وغيّر فتواه. [٤]

وهذا النوع من الدفاع وإن كان صحيحاً إجمالاً ولا يختص هذا بالعلاّمة وعصره، فانّ تغيير الفتاوى لأجل مناقشات المعاصرين ليس أمراً جديداً، لكن تبرير هذا النوع من الاختلاف الشاسع عن هذا الطريق غير كاف، إذ لو كان هذا هو السبب الرئيسي لأشار إليه العلاّمة في طيات كتبه، وانّه رجع عمّا كان يراه فيما سبق لأجل هذه المناقشة، ولكن صياغة كتبه تأبىٰ عن ذلك التبرير فيجب التماس وجه آخر.

وهو انّ العلاّمة الحلّي قد عاش في عصر ازدهرت فيه عملية التخريج والتفريع، وكانت له صلة وثيقة بفقهاء كلا الفريقين طوال ستين سنة، وكان ذا ذكاء خارق وذهن ثاقب، وآية في الدقة والتحقيق، فمثل هذا الفقيه الذي هو في

١. لاحظ تنقيح المقال: ١/ ٣١٥، نقله عن السماهيجي.

٢. لؤلؤة البحرين: ٢٢٦.

٣. رياض العلماء: ١/ ٣٦١، قال: ومن الغرائب ما نقل انّه كان في الحلّة في عصر العلاّمة أو غيره ٤٠٠ مجتهداً وأربعين.

٤. إرشاد الأذهان: ١٦٠، قسم المقدمة.

خضمِّ الاحتكاكات الفقهيـة من جانب وكثرة أسفاره ولقـائه بعلماء كلا الفريقين أتاح له الفرصة في خلق أفكار فقهية جـديدة حسب ما يوحي إليه فهمه الخلاق، وليس هذا بعزيز.

فهذا هـو محمد بـن إدريس الشافعـي (١٥٠ ـ ٢٠٤هـ) قد خلف فتـاوى قديمة وفتاوى جديدة، فلما غادر الحجاز إلى العراق ومكث فيه سنين طوال كانت له آراء، فلما هبط مصر بدت له فتاوى أُخرى غير تلك الفتاوى القديمة، وصارت معروفة بالفتاوى الجديدة.

فمثير هذه الشبه انطلق من جمود فكري وعدم معرفة كاملة بواقع الفقه، ولو كان من فرسان هذه الحلبة لسهل له هذا الأمر ولم ينقم على العلاّمة كثرة فتاواه.

فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيّاً

١٣

محمد بن إبراهيم الشيرازي

صدر المتألّهين (٩٧٩ ـ ١٠٥٠ هـ)

يتضمّن هذا التقديمُ استعراضَ تاريخ الحديث عند الشيعة الإمامية، وتألُّق نجمه في القرن الرابع الهجريّ على يد شيخ المحدثين، ثقة الإسلام، محمّد بن يعقوب الكلينيّ، وبيان خدماته الجليلة في هذا الصعيد.

كما يتضمّن حياة وسيرة صدر الحكماء المتألّـهين، واستعراض المراحل الثلاث التي مرّ بها في حياته المِعْطاء، والآثار العلمية القيمة التي خَلَّفَها للأجيال اللاحقة، والأُصول التي أسّسها وأرساها في ميدان المعرفة، وإخلاصه لكتاب الله العزيز، والسنة المحمدية الشريفة، ولأحاديث العترة المطهَّرة.

ويسعِدُنا أن تأتي هذه الترجمة لذينك العَلَمين الفذّين، والرائدين العبقريّين من روّاد الحديث والفلسفة، في مطلع كتابٍ التقىٰ فيه رافِدا «الحديثِ» و«الحكمة» ليؤكّدَ هذا التلاقي المبارك على مدى التوافق بين «الدين الحنيف» و«العقلِ الحصيف» ومدى التعاضدِ بين «العلمِ والعقيدة».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي عجزت العقول عن كنه معرفته، وقصرت الألسن عن وصف جلاله وجبروته. والصلاة والسلام علىٰ سيّد بريّته، محمّد المصطفىٰ وآله من عترته.

أمّا بعد:

إنّ إحياء ذكرىٰ نوابغ الفكر وأساطين العلم ـ هو في الحقيقة ـ إحياء للعلم نفسه وتثمين للجهود المبذولة في هذا السبيل، وتقييم للتراث الذي خلّفوه، ودعوة للجيل الصاعد إلى اقتفاء آثارهم والإقتداء بمناهجهم.

ومن حسن الحظ ودواعي المسرّة والغبطة أن يقام مؤتمر لإحياء الذكرى المئوية الرابعة لمنار العلم والفكر وحامل لوائه، في عصر أخذ فيه التفكير العقلي يخبو ويتراجع تراجعاً ملحوظاً ـ أمام المدّ الأخباري ـ ألا وهو الحكيم الجليل محمد بن إبراهيم الشيرازي (٩٧٩ ـ ١٠٥٠هـ) المعروف بصدر المتألهين أنار الله برهانه.

وقد قام غير واحد من الكتّاب بتسليط الأضواء علىٰ سيرته وآثاره وما قدّم إلى الساحة الفكرية من تراث عظيم، ولكن مازالت ثمّة خبايا من حياته لم يبحث عنها ولم تلق عناية لأكثر من كتب عنه، لعلّنا نوافيك بها في هذا المقال الذي هو تقديم لكتابه القيّم «شرح أُصول الكافي» لثقة الإسلام الكليني فيناسب طرح موضوعات لها صلة بالمؤلّف والشارح وكتابيهما والتيارات الفكرية التي سادت في

عصرهما ولإيفاء ذلك الغرض نطرح الموضوعات التالية وليكون أداءً لبعض الحقوق:

١. تصوير الظروف والتيارات الفكرية التي سادت عصر الشيخ الكليني.

٢. عرض نبذة مختصرة عن سيرة الكليني والبيت العريق الذي نشأ فيه.

٣. لمحة خاطفة عن الآثار التي تركها وأخصّ بالذكر كتابه القيّم«الكافي».

٤. سيرة الشارح وحياته وآثاره.

٥. الخطوط العريضة لفلسفته.

٦. تحليل كتابه باسم «شرح أُصول الكافي».

هذه هي الخطوط الرئيسيّة لمقالنا.

فنقول:

الحديث المصدر الثاني في التشريع

يُعدّ الحديث المصدر الرئيس للمسلمين قاطبةً في العقائد والأحكام بعد القرآن الكريم، وهو كالكتاب وحي بمعناه وإن لم يكن وحياً بلفظه، وكيف لا يكون كذلك والنبيّ ﷺ لا يصدر في تبيين العقيدة والشريعة إلاّ عن الوحي، قال سبحانه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوىٰ * إنْ هُوَ إلاّ وَحْيٌ يُوحىٰ﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ﴾ [2]

إنّ مقتضى عطف الحكمة على الكتاب، أنّها غيره، وليست هي إلاّ السنّة المأثورة عن طريق قوله ﷺ وفعله وتقريره.

---

١. النجم: ٣ ـ ٤.

٢. النساء: ١١٣.

إنّ العترة الطاهرة بما أنّهم قرناء الكتاب وأعداله وخلفاء الرسول وأوصياؤه، فهم حفظة سننه، وعيبة علمه، فقولهم وفعلهم وتقريرهم يجسّد سنّة النبيّ ﷺ بصورها الثلاث.

لقد وقف المسلمون على مكانة السنّة وعظمتها وأنّها ركن مهم في التشريع الإسلامي ولكن حالت السياسة بعد رحيل النبيّ ﷺ دون نقلها وتدوينها ودراستها لطيلة قرن من الزمن، وقد ألمح بعض الصحابة في عهد الرسول إلى فكرة «حسبنا كتاب الله» وأنّ المسلمين في غنى عن غيره فكانت هذه أخطر عملية منعٍ، لكتابة الحديث وتدوين السنّة عقب وفاة الرسول ﷺ.

روى البخاري عن ابن عباس، قال: لمّا اشتدّ بالنبيّ وجعه، قال: «إئتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده».

قال عمر: إنّ النبيّ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله، حسبنا. فاختلفوا وكثر اللغط.

قال ﷺ: «قوموا عنّي فلا ينبغي عندي التنازع».

فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزية كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله وبين كتابه.[1]

لم تكن فكرة الاستغناء عن سنّة الرسول ﷺ مجرّد أُمنية تراود بعض الصحابة بل نفذّها على الصعيد العملي عندما تولى مقاليد الخلافة، وكان المانع هو نفسه الذي تزعّم عملية الحظر لما أراد النبي كتابتها.

روى الخطيب قال: إنّ عمر بن الخطاب بلغه أنّ في أيدي الناس كتباً، فاستنكرها وكرهها، وقال: أيّها الناس إنّه قد بلغني أنّه قد ظهرت في أيديكم

---

١. البخاري: الصحيح: ١/ ٣٠ باب كتابة العلم، من كتاب العلم.

كتب، فأحبّها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يُبقين أحد عنده كتاب إلاّ أتاني به فأرى فيه رأيي. قال: فظنّوا أنّه يريد ينظر فيها ويقوِّمها على أمر حتى لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار ثمّ قال: أُمنية كأُمنية أهل الكتاب. [١]

لقد صار عمل الخليفة سنّة رائجة في حياته وبعده إلى عصر المنصور الذي دعا الناس إلىٰ تدوين الحديث وكتابته بعد خسارات فادحة أُصيب بها الحديث.

قال الذهبي: وفي سنة ١٤٣هـ شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنّف ابن جريج بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما في البصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنّف ابن إسحاق المغازي، وصنّف أبو حنيفة الفقه والرأي ـ إلىٰ أن قال: ـ وقبل هذا العصر كان الأئمّة يتكلّمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتّبة. [٢]

أمّا شيعة أئمّة أهل البيت فلم يُعيروا أهمية لهذا الحظر، بل دأبوا على كتابة السنّة وتدوينها ونشرها بين أبنائهم لعلمهم بأنّ السنّة وحي كالقرآن الكريم لا يمكن التساهل والتسامح فيها دون نشرها وإلاّ تذهب أدراج الرياح، لأنّ ما في الصدور يذهب بذهاب أصحابها بخلاف الكتاب فإنّه يبقىٰ عبر الأزمنة والقرون.

كان لرفع الحظر عن كتابة الحديث وتدوينه والتحريض على دراسته أثر ملحوظ في انكباب العلماء والمحدّثين على دراسته وكتابته وتدوينه، وشدّ الرحال إلى آفاق بعيدة بُغية جمع السنّة النبوية، فراج الحديث على اثرها أواخر القرن الثاني وبلغ ذروته أوائل الرابع، فصارت الحواضر الإسلامية مراكز مهمة للحديث وجمعه لا سيما حاضرة العراق وضاحيتها الكوفة، والري وضواحيها وخراسان ومدنها،

---

١. الخطيب البغدادي: تقييد العلم، ص ٥٢.

٢. تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ص ٢٦١.

فألِّفت خلالها مسانيد وصحاح وجوامع وموسوعات، كصحيح البخاري لمحمد ابن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (١٩٤ـ٢٥٦هـ) وصحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري (٢٠١ـ٢٦١هـ) إلى غير ذلك من الصحاح والسنن عند أهل السنّة.

كما خرج للشيعة الإماميّة كتاب «الجامع» لأحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي المتوفّى(٢٢١هـ) وكتاب «الثلاثين» لحسين بن سعيد الأهوازي الذي يروي عن الإمام الرضا عليه السلام المتوفّى (٢٠٣هـ) والإمام الجواد عليه السلام المتوفّى(٢٢٠هـ) وكتاب «المحاسن» لأحمد بن محمد بن خالد المتوفّى (٢٧٤هـ) ونوادر الحكمة لمحمد بن أحمد بن يحيى الأشعري المتوفّى (حوالي ٢٩٣هـ) إلى غير ذلك من محدّثي الشيعة الكبار الذين خدموا السنّة وأحاديث العترة ببيانهم وأقلامهم وألسنتهم وحفظوها عن الضياع والاندثار.

والجوامع التي أشرنا إليها على وجه الإيجاز كانت هي المادة المستقاة لشيخنا الكليني في تصنيفه للكافي في الأُصول والفروع باسناد متّصلة قراءة وسماعاً.

* * *

التيارات الفكرية في عصر الكليني

نشأ الكليني في النصف الثاني من القرن الثالث وأدرك الربع الأوّل من القرن الرابع، حيث إنّه ولد في عصر إمامة العسكري عليه السلام التي دامت ستّ سنين (٢٥٤ ـ ٢٦٠هـ) وتوفّي عام ٣٢٨هـ أو ٣٢٩هـ فقد أدرك عصر الظهور والغيبة الصغرىٰ جميعاً، وكان ذلك العصر مشحوناً بتيّارات فكرية مختلفة لم يكن لها مثيل من قبل.

فمن متحدِّث سلفيّ يحمل لواء التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة والجبر ويضم إلى حزمته كلّ غثّ وسمين لا يبالي عمّن أخذ وما أخذ.

إلى مرجئي ينادي بكفاية الإيمان بالله ورسوله عن القيام بالتكاليف، وبالتالي يدعو إلى الانحلال عن القيود الشرعية.

إلى قدريّ يرىٰ حاجة الفاعل في ذاته إلى الله سبحانه دون فعله، وكأنّه إله ثان في الأرض في مقام الإيجاد والتأثير يهدم بمعوله التوحيد في الخالقية.

إلى خارجيّ يكفّر جميع طوائف المسلمين بملء فمه وينزّه الخليفتين الأوّلين ويبغض الآخرين بذريعة أنّه لا حكم إلاّ لله.

إلى دخلاء في الإسلام يتظاهرون به في حين يصوّبون سهامهم إلى ظهر المسلمين.

إلى غير ذلك من التيارات التي عجّت بها تلك الحقبة من الزمان.

ومع أنّ الحواضر الإسلامية كانت مشحونة بهذه الفرق المختلفة إلاّ أنّ الطابع العام الذي كان سائداً على سياسة الحكومات آنذاك هو تأييد السلفية ودعاة الحديث خدمة لمصالحها، ولذلك نجد بين أهل الحديث من رفع راية التجسيم والتشبيه بحماس من غير خوف ولا وجل من أهل التنزيه، منهم:

١. عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التميمي الدارمي السجستاني صاحب «المسند»، ولد قبل المائتين وتوفّي عام ٢٨٠هـ، له كتاب «النقض» يقول فيه: اتّفق المسلمون على أنّ الله تعالى فوق عرشه وسماواته. [١]

٢. خشيش بن أصرم مصنّف كتاب «الاستقامة» يعرّفه الذهبي بأنّه يردّ فيه على أهل البدع [٢] توفّي سنة ٢٢٥هـ. [٣]

---

١. سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٣٢٥.

٢. تذكرة الحفّاظ: ٢/ ٥٥١.

٣. سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٥٠.

ويريد من هـذه الكلمة أهل التنزيه الذين لا يثبتـون لله سبحانه خصائص الموجود الإمكاني وينزّهونه عن الجسم والجسمانيات.

٣. أحمد بن محمد بن أزهـر بن حريث السجستاني السِّجـزي، نقل الذهبي في ميزان الاعتدال عن السلمي، قال: سألت الدار قطني عن الأزهري، فقال: هو أحمد بن محمد بن الأزهر بن حريـث، سجستاني منكر الحديث لكن بلغني أنّ ابن خزيمة حسن الرأي فيه وكفى بهذا فخراً [١] توفّي عام ٣١٢هـ. [٢]

أقول: وكفى بهذا ضعفـاً، لأنّ ابن خزيمـة هو رئيس المجسّمـة والمشبّهة في عصره، ومنه يعلم حال السجستاني، والجنس إلى الجنس يميل.

٤. محمـد بن أبي إسحاق بن خـزيمـة (المتوفّى ٣١١هــ) مـؤلّف كتـاب «التوحيد في إثبات صفات ربّ العالمين» وكتابه هذا مصدر المشبّهة والمجسّمة في العصـور الأخيرة الذي يقـول في حقّه الـرازي عنـد تفسيره قولـه سبحانـه: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾.

واعلم أنّ محمد بن إسحاق بن خزيمة أورد استدلال أصحابنا بهذه الآية في الكتاب الذي سمّاه «التوحيد» وهـو في الحقيقة كتاب الشرك واعترض عليها، وأنا أذكر حـاصل كلامه بعـد حذف التطويـلات، لأنّه كان رجلاً مضطـرب الكلام، قليل الفهم، ناقص العقل. [٣]

٥. عبد الله بن أحمد بن حنبل (٢١٣ـ ٢٩٠هـ) راوية أحاديث أبيه أحمد بن حنبل وكتابه «السنّـة» المطبوع لأوّل مرّة بالمطبعة السلفية ومكتبتهـا عام ١٣٤٩هـ مشحون بـروايات التجسيـم والتشبيه، يـروي فيه ضحك الـرب وتكلّمه وأصبعـه

---

١. ميزان الاعتدال: ١/ ١٣٢.

٢. سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٣٩٦.

٣. الرازي: مفاتيح الغيب: ٢٧/ ١٥٠.

ويده ورجله وذراعيه.

وقد كان لكتاب «التوحيد» لابن خزيمة صدًى واسع في القرن الرابع وبعده، هذا ابن كثير يذكر في حوادث عام ٤٦٠هـ: وفي يوم النصف من جمادى الآخرة قُرئ «الاعتقاد القادري» الذي فيه مذهب أهل السنّة والإنكار على أهل البدع. وقَرأ أبو مسلم الكجي البخاري المحدّث كتاب «التوحيد» لابن خزيمة على الجماعة الحاضرين، وذكر بمحضر من الوزير ابن جهير وجماعة الفقهاء وأهل الكلام واعترفوا بالموافقة.[1]

وقد ظهر في عصر الكليني، الإمام أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ـ٣٢٤هـ) وقد تربّىٰ في أحضان المعتزلة وتتلمذ علىٰ يد أبي علي الجبّائي (٢٣٦ـ٣٠٣هـ) ثمّ رفض الاعتزال والتحق بمنهج الحنابلة ونادىٰ بأعلى صوته في الجامع الكبير في البصرة وقال: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أُعرّفه نفسي، أنا فلان بن فلان كنت قلت بخلق القرآن، وإنّ الله لا يرىٰ بالأبصار، وإنّ أفعال الشرّ أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للردّ على المعتزلة.[2]

إنّ كثيراً ممّن يُحسن الظنّ بإمام الأشاعرة يفسّرون انقلابه إلى منهج الحنابلة بفكرة القيام بإصلاح عقيدة أهل الحديث التي كانت سائدة في أكثر البلاد وأنّ الإصلاح لم يكن ميسّراً إلاّ بالتزيّ بزيّهم، ولو صحّت تلك في بدء الأمر، ولكنّه لم يتخلّص من أكثر ما كان عليه أهل الحديث في ذلك اليوم غير أنّ الجبر والتشبيه والتجسيم صريح في كلمات المحدّثين، وهي مروية في كتب الأشعري ومن والاه.

يقول الدكتور أحمد أمين: في رأيي لو سادت المعتزلة إلى اليوم لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي وقد أعجزهم التسليم

---

١. البداية والنهاية:٦/ ٩٦.

٢. فهرست ابن النديم: ٢٧١.

وشلّهم الجبر، وقعد بهم التواكل.[1]

ففي هذا الجو المشحون بالأهواء النفسية والافتخارات الجاهلية والتعصّبات الباطلة، تألّق نجمٌ محدّثٌ شيعيّ واع جمع سنّة النبيّ وحديث عترته الطاهرة بعد أن غادر مسقط رأسه (كلين) متابعاً رحلته في طلب الحديث حتى جاب البلاد واجتازها، فألّف كتابه الكبير الكافي في الأُصول والفروع في عشرين عاماً، يضمّ في طيّاته حوالي ستة عشر ألف حديث من أحاديث النبي وأئمّة أهل البيت الذين هم أدرىٰ بالبيت؛ صانوا بذلك السنّة من عبث الوضّاعين والجعّالين، وإليك لمحة عن سيرته:

سيرة الكليني

هو الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق المكنّى بأبي جعفر، ولد في قرية كُلَين ـ بضمّ الكاف وفتح اللام ـ قرية من قرى الري تقع على بعد ٣٨ كيلومتراً جنوبي غربي بلدة الري الحالية، شرقي مدينة قم بينها وبين الطريق ٥ كيلومترات.

وأمّا كلَين ـ بفتح اللام ـ فهي قرية من قرى «ورامين» وربّما يُنسب شيخنا إليها وهواشتباه واضح.

أمّا أُسرته فوالده عالم من علماء الري انتقل إلى موطنه وبقي فيها إلى أن توفّي، وقبره هناك معروف يزار. هذا من جانب الأب.

وأمّا أُسرته من جانب الأُمّ فأُمّه من بيت عريق في العلم والحديث، ويبدو أنّ الأُمّ كانت عالمة فاضلة، لأنّها تربّت في أحضان هذا البيت الذي أنجب العديد من المحدّثين والعلماء.

فوالدها هو الشيخ محمد بن إبراهيم بن أبان، وصفه الشيخ الطوسي بقوله:

---

١. ضحى الإسلام: ٣/ ٧٠.

محمد بن إبراهيم المعروف بعلان الكليني، خيّر. [١]

وعمّها هو الشيخ أحمد بن إبراهيم بن أبان يعرّفه الطوسي بقوله: أحمد بن إبراهيم المعروف بعلان الكليني ، خيّر، فاضل من أهل الري. [٢]

وأخوها، هو الشيخ علي بن محمد بن إبراهيم بن أبان الرازي الكليني، يعرّفه النجاشي بقوله: علي بن محمد بن إبراهيم بن أبان الرازي الكليني المعروف بعلان، يكنّى أبا الحسن، ثقة، عين، له كتاب أخبار القائم عليه السلام. [٣]

وممّا ذكرنا يظهر أنّ علاّن لقب العائلة، حيث إنّ الجدّ والأب والخال يطلق عليهم علاّن وخاله هذا من مشايخ الكليني.

يقول العلاّمة المامقاني: وهو الذي يروي عنه الكليني بغير واسطة كثيراً، وهو داخل في العدّة التي يروي الكليني بواسطتهم عن سهل بن زياد، وقال غير واحد إنّه أُستاذ الكليني وخاله. [٤]

ويظهر من العلاّمة المامقاني أنّ ابن الخال: محمد بن علي وحفيده القاسم بن محمد من العلماء. [٥]

وفي هذه الأُسرة العريقة بالعلم والأدب نشأ شيخنا الكليني وتألّق نجمه، فصار من أكابر المحدّثين، وأعظم المجتهدين في عصره علىٰ وجه أطلق لسان كلّ موافق ومخالف للثناء عليه و إطرائه، وفاحت بذكره المعطر أقلامهم، فلو نقلنا أقوال الفريقين في حقّه لطال بنا المقام، ولكن نكتفي ببعض الكلمات:

---

١. رجال الطوسي، باب من لم يرو عنهم عليهم السلام: ٤٩٦، باب الميم برقم ٢٩.
٢. رجال الطوسي، باب من لم يرو عنهم عليهم السلام: ٤٣٨، باب الألف برقم ١.
٣. النجاشي: ٢/ ٨٨ برقم ٦٨٠.
٤. تنقيح المقال: ٢/ ٣٠٢ برقم ٨٤٤٦.
٥. المصدر نفسه.

١. يذكره الشيخ المفيد بقوله: وقد ذكر الكليني في كتاب «الكافي» وهو من أجلّ كتب الشيعة وأكثرها فائدة.[١]

٢. يقول النجاشي: محمد بن يعقوب بن إسحاق، أبو جعفر الكليني، شيخ أصحابنا في وقته بالري ووجههم، وكان أوثق الناس في الحديث وأثبتهم، صنّف الكتاب الكبير المعروف بالكليني يسمّى «الكافي» في عشرين سنة.[٢] ثمّ ذكر كتبه.

٣. وقال الشيخ الطوسي: محمد بن يعقوب الكليني يكنّى أبا جعفر، جليل القدر ،عالم بالأخبار، وله مصنّفات يشتمل عليها الكتاب المعروف بالكافي.[٣]

٤. وقال في الفهرست: محمد بن يعقوب الكليني،، يكنّى أبا جعفر، ثقة، عارف بالأخبار، له كتب منها كتاب «الكافي» يشتمل على ثلاثين كتاباً.[٤]

هذا بعض ما قاله علماء الشيعة في حقّه، وإليك بعض النصوص من علماء السنّة، وقد ذكروه بإجلال من دون أيّ غمض فيه.

٥. ذكره مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير (٥٤٤ـ٦٠٦هـ) في جامع الأُصول في تفسير ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إنّ الله يبعث لهذه الأُمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها». وقال: أخرجه أبو داود.[٥]

---

١. المفيد: تصحيح الاعتقاد: ٢٧، طبعة تبريز.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٢٩٠ برقم ١٠٢٧.

٣. رجال الطوسي: ٤٩٦، باب من لم يرو عن الأئمّة، باب الميم برقم ٢٧.

٤. الفهرست: ١٦١ برقم ٦٠٣.

٥. لسان الميزان: ٥/ ٤٣٣.

ثمّ ذكر أنّ العلماء تكلّموا في تأويل هذا الحديث كلّ واحد في زمانه، ثمّ قال: ونحن نذكر الآن المذاهب المشهورة في الإسلام التي عليها مدار المسلمين في أقطار الأرض وهي: مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ومالك، وأحمد، ومذهب الإمامية ومن كان المشار إليه من هؤلاء على رأس كلّ مائة سنة.

ثمّ ذكر أنّ الإمام الباقر هو مجدّد مذهب الإمامية علىٰ رأس المائة الأُولى، والإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام على رأس المائة الثانية.

ثمّ قال: وأمّا من كان على رأس المائة الثالثة... أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي من الإمامية. (١)

٦. وذكره عزّ الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير (٥٥٨ ـ ٦٣٠هـ) في حوادث عام ٣٢٨هـ وقال: وفيها توفّي محمد بن يعقوب، (وقتل محمد بن علي) أبو جعفر الكليني وهو من أئمّة الإمامية وعلمائهم. (٢)

٧. وذكره ابن عساكر محمد بن مكرم (٦٣٠ ـ ٧١١هـ) في تاريخ دمشق وهذا يعرب عن أنّه ممّن دخل دمشق وزارها وقال: محمد بن يعقوب ويقال (محمد ابن علي) أبو جعفر الكليني، من شيوخ الرافضة، حدّث عن علي بن إبراهيم بن هاشم بسنده إلى جعفر بن محمد قال: قال أمير المؤمنين: «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله».

ثمّ قال: الكليني بضمّ الكاف والنون بعد الياء وإمالة اللام، توفّي محمد بن

---

١. أخرجه برقم ٤٢٩١، في الملاحم باب ما يذكر في حول المائة ،لاحظ جامع الأُصول:١/ ٤٢٣.

٢. ابن الأثير: جامع الأُصول: ١١/ ٣٢٣، نشر وتوزيع دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

ما بين القوسين موجود في الطبعتين القديمة والحديثة لاحظ الكامل: ٨/ ٣٦٤ حوادث عام ٣٢٨هـ ولاحظ الطبعة القديمة:٦/ ٢٧٤ .ولعلّ «قتل» مصحف «قيل» كما يظهر من كلام ابن عساكر الآتي.

يعقوب سنة ٣٢٨هـ.[١]

هذا ما وقفنا عليه في مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ثم وقفنا على نفس تاريخ ابن عساكر حيث جاء فيه: أبو جعفر الكليني الرازي من شيوخ الرافضة، قدم دمشق وحدّث ببعلبك عن أبي الحسين محمد بن علي الجعفري السمرقندي، ومحمد بن أحمد الخفّاف النيسابوري، وعلي بن إبراهيم بن هاشم.

روى عنه أبو سعد الكوفي شيخ الشريف المرتضى، وأبو عبد الله أحمد بن إبراهيم، وأبو القاسم علي بن محمد بن عبدوس الكوفي، وعبد الله بن محمد بن ذكوان.

أنبأنا أبو الحسن... بن جعفر قالا: أنا جعفر بن أحمد بن الحسين بن السراج، أنا ابوالقاسم المحسن بن حمزة... الورّاق بتنيس أنا ابو على الحسن بن علي بن جعفر الديبلي بتنيس في المحرم سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، أنا ابو القاسم علي بن محمد بن عبدوس الكوفي، أخبرني محمد بن يعقوب الكليني عن علي بن ابراهيم الى أن انتهى الاسناد الى أمير المؤمنين عليه السلام انّه قال: «إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله».[٢]

٨. وقال صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٦٩٧ـ ٧٦٤هـ): الكليني محمد بن يعقوب أبو جعفر الكليني من أهل الري سكن بغداد إلى حين وفاته، وكان من فقهاء الشيعة والمصنّفين على مذهبهم، حدّث عن أبي الحسين محمد بن علي الجعفري السمرقندي، ومحمد بن أحمد الخفّاف النيسابوري، وعلي بن إبراهيم بن هاشم، توفّي سنة ٣٢٨هـ.[٣]

---

١. مختصر تاريخ دمشق لإبن عساكر:٢٣/ ٣٦٢ برقم ٣٨٦.

٢. تاريخ ابن عساكر: ٥٦/ ٢٩٧.

٣. الوافي بالوفيات:٥/ ٢٢٦ برقم ٢٠٠٣.

٩. وعرّفه ابن حجر (المتوفّى ٨٥٢هـ) بقوله: محمد بن يعقوب بن إسحاق أبو جعفر الكليني الرازي، سكن بغداد وحدّث بها عن محمد بن أحمد بن عبد الجبار، وعلي بن إبراهيم بن هاشم وغيرهما، كان من فقهاء الشيعة والمصنّفين على مذهبهم، توفّي سنة ٣٢٨هـ ببغداد.[١]

ثقافته العلمية

إنّ من أمعن النظر في مشايخ الكليني الذين أكثر عنهم الرواية يقف على أنّه تألّق نجمه في الحديث في بلدة الري وضواحيها، حيث إنّ أكثر من يروي عنهم هم من أهل الري وقم، وهذا يدل على أنّه قد اكتملت شخصيته الحديثية والعلمية قبل رحيله إلى العراق عام ٣٢٧هـ، وإليك نزراً من مشايخه القميين والرازيين الذين تتلمذ عليهم:

١. أبو علي الأشعريّ أحمد بن إدريس (المتوفّى ٣٠٦ هـ)، فقد روى عنه في الكافي ١٠٢٩ حديثاً.

٢. أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عمران الأشعري القمّي المعروف بابن عامر[٢]، تبلغ رواياته عنه ٣٨ حديثاً.

٣. علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي، تبلغ رواياته عنه ٧٠٢٨ حديثاً.

٤. علي بن محمد، وهو مردّد بين علي بن محمد البندار[٣] المعروف بماجيلويه أو علي بن محمد بن إبراهيم علّان الكليني والظاهر هو الثاني، لأنّ الكليني روى في موارد كثيرة عن علي بن محمد عن سهل بن زياد، وقد ذكر المحقّقون أنّ علان

---

١. لسان الميزان: ٥/ ٤٣٣.

٢. لاحظ ترجمته في تنقيح المقال: ١/ ٣٤٢.

٣. إقرأ ترجمته في تنقيح المقال: ٢/ ٣٠٣.

الكليني أحد العدة التي يروي بها عن سهل بن زياد.

٥. محمد بن إسماعيل البندقي النيسابوري، وقد بلغت رواياته عنه ٧٥٨ حديثاً.

٦. محمد بن يحيى العطار القمّي، وقد بلغت رواياته عنه ٥٠٧٣ حديثاً.

هذه أجلّة مشايخ الكليني الذين أكثر عنهم الحديث وكلّهم من محدّثي قم والري.

ويبدو أنّ الشيخ الكليني بعدما أخذ ما أخذ من القمّيين والرازيين والخراسانيين، بدأ رحلته إلى العراق ليجوب البلاد ويلتقي بالمشايخ في أخذ الحديث ويكمِّل به كتابه.

وهذا هو الشيخ الطوسي يذكر في سنده إلىٰ كتاب الكافي أنّه يرويه عن أحمد ابن عبدون المعروف بابن الحاشر، عن أحمد بن أبي رافع وأبي الحسين عبد الكريم ابن عبد الله بن نصر البزاز بتنيس [1] وبغداد، عن أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني جميع مصنفاته وأحاديثه سماعاً وأجازه ببغداد بباب الكوفة بدرب السلسلة سنة ٣٢٧هـ. [2]

وهذا يدلّ على أنّ شيخنا الكليني كان يقطن بغداد في ذلك العام، وأمّا السنة التي غادر موطنه ونزوله بغداد، فغير معلوم ولعلّه كان في تلك السنة أو قبلها بكثير أو قليل.

ذكر الشيخ في الفهرست أنّه يروي كتب الكليني بالطريق المذكور في المشيخة، وقال: أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن عبدون، عن عبد الكريم بن عبد الله

---

١. كذا في المصدر وفي فهرست الشيخ (تفليس) والثاني بعيد جداً والأوّل مبهم.

٢. تهذيب الأحكام: ١٠/ ٢٩ قسم المشيخة.

بن نصر البزاز بتفليس وبغداد، عن الكليني بجميع مصنّفاته ورواياته [١] ولم يذكر سنة إجازة الشيخ الكليني لتلميذه عبد الكريم بن عبد الله.

و قد عرفت عن تاريخ دمشق لابن عساكر أنّ شيخنا الكليني دخل دمشق وحدّث ببعلبك، إلى آخر ما ذكرنا، وهذا يعرب عن أنّه دخل بغداد قبل زمان الإجازة حتى أُتيحت له الفرصة أن يغادر العراق إلىٰ دمشق ومنها إلى بعلبك حتى التقى بالمشايخ فيها وحدّث بها ثمّ رجع إلى العراق وقطن بغداد وحدّث هناك.

وعلى هذا فقد جاب شيخنا الكليني مراكز الحديث واحداً تلو الآخر، فرحل من موطنه كلين إلى الري، ثمّ قم، ثمّ بغداد، ثمّ دمشق، ثمّ بعلبك راجعاً إلى بغداد نزيلاً بها مفيضاً، إلى أن لقي الله تبارك وتعالى عام٣٢٩هـ، كما ذكره النجاشي في فهرسته والشيخ في رجاله.

قال النجاشي: مات ﷺ ، أبو جعفر الكليني ببغداد سنة ٣٢٩هـ سنة تناثر النجوم، وصلّى عليه محمد بن جعفر الحسني أبو قيراط، ودفن بباب الكوفة. [٢]

وقال الشيخ في رجاله :مات سنة٣٢٩ في شعبان في بغداد، ودفن بباب الكوفة. [٣]

ولكن ﷺ أرّخ وفاته في الفهرست عام ٣٢٨هـ وما ذكره النجاشي هو الأقرب إلى الواقع.

وقد ذكر النجاشي في ترجمة والد الصدوق أنّه قدم بغداد سنة ٣٢٨هـ ومات سنة ٣٢٩هـ وهي السنة التي تناثرت بها النجوم.

غير أنّ ابن الأثير أرّخ سنة التناثر بـ٣٢٣هـ حيث قال في حوادث سنة ٣٢٣: وفيها أي في الليلة الثانية عشرة من ذي القعدة وهي التي أوقع القرمطي

---

١. الفهرست: ١٦٢، طبع النجف. ٢. رجال النجاشي:٢/ ٢٩٢.
٣. رجال الطوسي: ٤٩٥.

بالحجاج، انقضت الكواكب من أول الليل إلى آخره انقضاضاً دائماً مسرفاً جدّاً لم يعهد مثله. [١]

وبما أنّ النجاشي أقرب إلى الواقعة وألصق بها فقوله أقرب إلى الحقّ.

نعم ذكر الشيخ في ترجمة والد الصدوق أنّه روى عنه التلعكبري وقال: سمعت منه (والد الصدوق) في السنة التي تهافتت فيها الكواكب دخل بغداد فيها، وذكر أنّ له منه إجازة بجميع ما يرويه. [٢]

ومن الممكن أن يكون عام السماع هو عام وفاة المجيز ولا دلالة له على أنّ وفاته كان في غير ذلك العام لما عرفت من أنّ ليلة التناثر كانت في شهر شعبان، ويمكن أن تتقدّم الإجازة على التناثر بعدة أشهر.

مشايخه

روى الكليني عن العديد من علماء أهل البيت ورجالهم ومحدّثيهم بما يضيق المجال بذكرهم ونقتصر على مشاهيرهم:

١. أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار القمّي، صاحب كتاب: «بصائر الدرجات»(المتوفّى ٢٩٠هـ).

٢. أبو علي أحمد بن إدريس بن أحمد الأشعري القمّي (المتوفّى ٣٠٦هـ).

٣. أبو الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم، صاحب التفسير المعروف(المتوفّى حوالي ٣٠٨هـ).

٤. أبو جعفر محمد بن يحيى العطّار القمّي.

إلى غير ذلك من مشايخ الحديث وفطاحله.

١. الكامل في التاريخ: ٦/٢٤٩، حوادث سنة ٣٢٣.

٢. رجال الطوسي، باب من لم يرو عنهم عليهم السلام مادة علي، برقم ٣٤.

تلاميذه والرواة عنه

و أمّا تلاميذه وا لرواة عنه فحدّث عنهم ولا حرج، فمنهم علىٰ سبيل المثال:

١. أبـو الحسين أحمد بن علي بـن سعيـد الكوفي، المعـروف بــ«ابن عقـدة» (المتوفّى٣٣٣هـ).

٢. أبو غـالب أحمد بن محمد بـن محمد بن سليمان بن الحسن بـن الجهم بن بكير بن أعين بن سنسن الرازي (٢٨٥ـ٣٦٨هـ).

٣. أبو القـاسم جعفر بن محمد بـن جعفر بن موسـى بن قولويـه صاحب «كامل الزيارات» (المتوفّى ٣٦٩هـ).

٤. أبـو عبد الله محمـد بن إبـراهيم بـن جعفر الكـاتب النعماني، المعـروف بـ«ابن زينب» كان خصيصاً به يكتب كتابه الكافي.

إلى غير ذلك ممّـن يـروي عنـه، تجد أسماءهم مبسـوطـة في مقـدمـة كتـاب «الكافي» بقلم الأُستاذ حسين علي محفوظ البغدادي.

آثاره

ترك الشيخ تـراثاً علمياً ضخماً للأُمّـة، ومن أشهر تآليفه كتـاب «الكافي» وهو في ثمانيـة أجزاء، يقول النجـاشي: صنّف الكتاب الكبير المعروف بـالكافي في عشرين سنة، ثمّ شرح كتبه وقال:

١.كتـاب العقل، ٢. كتـاب فضل العلم، ٣. كتـاب التـوحيد، ٤. كتـاب الحجّة، ٥. كتاب الإيمان والكفر، ٦. كتاب الـوضوء والحيض، ٧. كتاب الصلاة، ٨. كتـاب الصيام، ٩. كتـاب الـزكاة والصـدقـة، ١٠. كتـاب النكاح والعقيقـة، ١١. كتـاب الشهـادات، ١٢. كتـاب الحج، ١٣. كتـاب الطـلاق ، ١٤. كتـاب

العتق، ١٥. كتاب الحدود، ١٦. كتاب الديات، ١٧. كتاب الأيمان والنذور والكفارات، ١٨. كتاب المعيشة، ١٩. كتاب الصيد والذبائح، ٢٠. كتاب الجنائز، ٢١. كتاب العشرة، ٢٢. كتاب الدعاء، ٢٣. كتاب الجهاد، ٢٤. كتاب فضل القرآن، ٢٥. كتاب الأطعمة، ٢٦. كتاب الأشربة، ٢٧. كتاب الزي والتجمّل، ٢٨. كتاب الدواجن والرواجن، ٢٩. كتاب الوصايا، ٣٠. كتاب الفرائض، ٣١. كتاب الروضة. [١]

روى فيه ١٥٥٠٨ حديثاً وقد أخذها عن مشايخه سماعاً وقراءة، وهو عمل شاق ضخم لم يسبقه إليه أحد من أئمّة الحديث، فقد قام بتصنيف الكافي واستخدم في تأليفه الأُسلوب الكامل وهو توزيع الأحاديث بعد جمعها على مجموعة من الكتب، والكتب على مجموعة من الأبواب، والأبواب على عدد من الأحاديث شريطة أن تكون تلك الأحاديث مناسبة لأبوابها والأبواب لكتبها، وقد حقّق الكليني هذا المطلب على أحسن ما يرام إذ قسم كتابه الكافي على ثلاثة أقسام رئيسية وهي:

١. أُصول الكافي، ٢. فروع الكافي، ٣. روضة الكافي.

ثمّ قسم أُصول الكافي على ثمانية كتب، اشتمل على ٤٩٩ باباً، وأخرج فيها ٣٨٨١ حديثاً.

وتجد هذا التصنيف نفسه مع فروع الكافي أيضاً، إذ اشتمل على ٢٦ كتاباً، فيها ١٧٤٤ باباً ومجموع أحاديثها ١١٠٢١.

وأمّا قسم الروضة فلم يخضعه إلى هذا المنهج من التصنيف بل ساق أحاديثه تباعاً من غير كتب أو أبواب بل جعله كتاباً واحداً وقد احتوى على ٦٠٦

١. رجال النجاشي: ٢/ ٢٩١ برقم ١٠٢٧، ما ذكره من الترتيب لا يوافق ما هو المطبوع، وذكره الشيخ في الفهرست وهو ينطبق مع ما هو المطبوع، لاحظ الفهرست: ١٦١.

أحاديث.

وذكر النجاشي له كتباً أُخرى، نظير: كتاب «الردّ على القرامطة»، وكتاب «رسائل الأئمّة ﷺ»، وكتاب «تعبير الرؤيا»، وكتاب «الرجال»، وكتاب «ما قيل في الأئمّة من الشعر» .[1]

وله غير ذلك منها: كتاب «خصائص الغدير» ذكره السيد المحقّق عبد العزيز الطباطبائي في كتابه الغدير في التراث الإسلامي.[2]

وممّا يؤسف له حقّاً أنّ هذه الكتب ـ سوى الكافي ـ قد لعب بها الدهر فضاعت ولم نجد لها أثراً.

نماذج من إنشائه

إنّ شيخنا الكليني لم يكن محدّثاً فحسب بل كان كاتباً بارعاً يصبّ المعاني والمفاهيم العالية في قوالب جميلة، وكان نثره نموذجاً رائعاً من النثر الرائج في القرن الرابع، و إليك جملاً من أوّل كتابه، يقول:

الحمد لله المحمود لنعمته، المعبود لقدرته، المطاع في سلطانه، المرهوب لجلاله، المرغوب إليه فيما عنده، النافذ أمره في جميع خلقه، علا فاستعلى، ودنا فتعالى، وارتفع فوق كلّ منظر، الذي لابدء لأوليّته، ولا غاية لأزليته، القائم قبل الأشياء، والدائم الذي به قوامها، والقاهر الذي لا يؤوده حفظها، والقادر الذي بعظمته تفرّد بالملكوت، وبقدرته توحّد بالجبروت، وبحكمته أظهر حججه على خلقه، اخترع الأشياء إنشاءً، وابتدعها ابتداءً بقدرته وحكمته، لا من شيء فيبطل الاختراع، ولا لعلّة فلا يصحّ الابتداع، خلق ما شاء كيف شاء، متوحّداً بذلك

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٢٩١ برقم ١٠٢٧.

٢. الغدير في التراث الإسلامي: ٣٨ ولم يذكر مصدره.

لإظهار حكمته، وحقيقة ربوبيته، لا تضبطه العقول،ولا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأبصار ولا يحيط به مقـدار، عجزت دونه العبارة، وكلّت دونـه الأبصار، وضلّ فيه تصاريف الصفات.

آراؤه الكلامية

لم يقتصر أمر شيخنا الكليني على جمع الحديث دون تحقيقه وتبيينه، و إنّما قام بشرح الحديث في مواضـع تحتاج إلى الشرح، تجلّت فيه أفكـاره الكلامية، فـلاحظ في ذلك الجزء الأوّل باب جوامع التوحيد. [1]

ومن نماذج آرائه هي صياغة قاعدة يتم علىٰ ضوئها تمييز صفات الذات عن صفات الفعل، وحـاصل القاعـدة:« أنّ كلّ وصف غير خاضع للنفـي والإثبات فهو من صفات الذات كالعلم والقدرة، فلا يصحّ أن يقال إنّ الله يعلم ولا يعلم، أو يقدر ولا يقدر، وأمّا ما كان خاضعاً لهما فهو من صفات الفعل فيقال: يريد ولا يريد».

يقول: ألا ترىٰ أنّا لا نجـد في الوجود مالا يُعلم وما لا يقـدر عليه، وكذلك صفـات ذاته الأزليّ لسنـا نصفه بقـدرة وعجز، ويجوز أن يقـال: يحبّ من أطاعـه ويبغض من عصاه، ويوالي من أطاعه ويعادي من عصاه، وإنّه يرضى ويسخط. وفي الـدعاء: «اللّهـمّ ارض عنّي ولا تسخط عليّ وتـولّني ولا تعـادني» إلى آخر مـا أفاده. [2]

---

١. أصول الكافي: ١/ ١٣٤ـ١٤٢.

٢. لاحظ الكافي، كتاب التوحيد: ١/ ١١١، باب جملة القول في صفات الذات و صفات الفعل.

الشروح والتعاليق

ومن حسن الحظّ أنّ كتاب الكافي صار محطّاً للنظر والشرح والتعليق، وقد كُتب عليه تعاليق وشروح نافت على ثلاثين شرحاً وتعليقاً.

وممّن شرحه المولى المحقّق صدر المتألّهين الشيرازي (٩٧٩ـ١٠٥٠هـ) وسيوافيك الكلام عن هذا الشرح بعد بيان لمحة عن سيرته وآثاره.

هذه المامة عابرة عن حياة الشيخ الكليني وسيرته وآثاره.

* * *

صدر المتألّهين سيرته وحياته

لا عتب على اليراع إن وقف عاجزاً عن الإفاضة في تعريف شخصية فذّة وفيلسوف كبير يعدّ من نوابغ الدهر، من الذين يضنُّ بهم الدهر إلاّ في فترات يسيرة، ألا وهو الفيلسوف الإسلامي الكبير محمد بن إبراهيم الشيرازي المشهور بصدر المتألهين، صاحب منهج الحكمة المتعالية في الفلسفة.

نشأ فيلسوفنا الكبير في أجواء مشحونة بالعداء للفكر وأهله، ساد فيها الفكر الاخباري الذي كان يقود المجتمع نحو السذاجة والجمود.وقد كان له ولأُستاذه السيد الداماد سهم عظيم في كسر السدود والقيود التي كانت تكبّل العقول والألباب، ولذلك تعرّض إلى انتقاد مرّ أصبح هدفاً لسهام اللوم والتكفير، فها نحن نسلّط قبساً من النور على سيرته ليكون مناراً يُضيئ الدرب لطلاّب الحقيقة.

هو صدر الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الشيرازي، ولد عام ٩٧٩هـ، [١] وكان والده إبراهيم بن يحيى المعروف بالقوامي أحد وزراء العهد الصفوي، وترعرع في بيت ساده العلم والوعي.

يصفه السيد المدني في سلافته: بأنّه كان عالم أهل زمانه في الحكمة متقناً لجميع الفنون. [٢]

يقول صاحب الروضات: كان فائقاً على من تقدّمه من الحكماء الباذخين، والعلماء الراسخين إلى زمن مولانا نصير الدين الطوسي، منقّحاً أساس الإشراق والمشاء بما لا مزيد عليه. [٣]

هذه الكلمات وما قيل في حقّه كلمات قاصرة عن تبيين مكانته، وألطف كلمة قيلت في حقّه ما نقل عن الحكيم المتألّه الشيخ محمد حسين الاصفهاني (١٢٩٦ـ١٣٦١هـ) أنّه قال: لو أعلم أحداً يفهم أسرار كتاب الأسفار لشددت إليه الرحال للتَّلْمذَة عليه و إن كان في أقصى الديار.

وزاد عليه الشيخ المظفّر في مقدمته على هذه الكلمة: بأنّ أُستاذه يريد أن

---

١. لم يذكر المترجمون تاريخ ولادته لكن استخرجناها ممّا ذكره هو في حاشية المشاعر الطبعة القديمة، ص ٧٧ في مبحث اتحاد العاقل والمعقول عند ما يقول: «كل صورة إدراكية سواء كانت معقولة أو محسوسة فهي متّحدة الوجود مع وجود مدركها ببرهان فائض علينا من عند الله» فكتب في الهامش النص التالي: تاريخ هذه الإفاضة كانت ظهيرة يوم الجمعة سابع جمادى الأُولى لعام ١٠٣٧ من الهجرة النبوية ،و قد مضى من عمر المؤلّف ثمان و خمسون سنة.

فعند طرح ٥٨ سنة من ١٠٣٧ تكون سنة ولادته هو عام ٩٧٩هـ.

وأوّل من اطلعني على ذلك هو زميلنا المرحوم الشيخ محمد فريد النهاوندي ـ رضوان الله عليه ـ حيث كانت تلك التعليقة مكتوبة أيضاً في حاشية أسفاره، فأثبتنا هذه التعليقة في حاشية الأسفار التي كنّا نملكها.

٢. سلافة العصر في أعيان أهل العصر.

٣. روضة الجنات:٤/ ١٢٠ برقم ٣٥٦.

يفتخر أنّـه وحده بلـغ درجة فهم أسراره، أو أنّـه بلغ درجة مـن المعرفـة أدرك فيها عجزه عن اكتناه مقاصده العالية.

وأضـاف: إنّي مـن المؤمنين بأنّ صـدر المتألهين أحـد أقطـاب في الـدورة الإسلامية: هـو والمعلم الثاني أبو نصر الفارابي (المتوفّى ٣٣٩هـ) والشيخ الرئيس ابن سينا (٣٧٣ـ٤٢٧ هـ) والمحقّق نصير الدين الطوسي (٥٩٧ـ٦٧٢ هـ) هؤلاء هم في الرعيل الأوّل وهم الأُصول للفلسفة، وصاحبنا خاتمتهم والشارح لآرائهم وا لمروّج لطريقتهـم والأُستاذ الأكبر لفنّهم. ولـولا خوف المغالاة لقلـت هو الأوّل في الرتبة العلمية، لا سيما في المكاشفة والعرفان. [1]

أقول: هـذه هي الكلمات التي ذكـرهـا الأساطين في تـرجمة صـدر المتألهين، والذي انكشف لي طول ممارستي لدراسة كتبه والإمعـان فيها أنّه كان يتميّز بأُمور، أوضحها:

أوّلاً: إنّه لم يكن فيلسوفـاً ناقلاً للأفكار بل كان محقّقـاً لها، كاشفاً الشبهات عن وجهها، ومؤسساً لأُصول كان لها دور عظيم في تحوّل الفلسفة الإسلامية تحوّلاً جذرياً لها تأثير في المعارف والعقائد كما سيوافيك.

ثانياً: إنّ أفكاره وكتبه صارت محوراً للدراسة والبحث في المعاهد العلمية ما يربو على ثلاثة قرون، وقد عكف على دراستها أساتذة الفلسفة دراسة وتمحيصاً.

ثالثاً: إنّ من أعقبه من فطاحل الحكماء الذين يعدّون في الرعيل الأوّل كلّهم عيال على فلسفته في أفكارهم وتحقيقاتهم، نظراء:

١. المولى المحقّق ملاّ محمد صادق الأردستاني (المتوفّى ١١١٣هـ).

٢. المحقّق ملاّ إسماعيل الخواجوي (المتوفّى ١١٣٧هـ).

٣. السيد محمد البيد آبادي (المتوفّى ١١٤٧هـ).

---

١. الأسفار: ١/ ٣، قسم التقديم.

٤. الشيخ محمد رضا القمشئي (المتوفّى١٢٤١هـ).

٥. الفيلسوف الكبير ملاّ علي النوري (المتوفّى١٢٤٦هـ).

٦. المحقّق ملاّ هادي السبزواري (١٢١٢ـ ١٢٨٩هـ).

٧. المدرس الكبير علي المدرس (١٢٣٤ـ ١٣٠٧هـ).

٨. السيد أبو الحسن جلوة (١٢٣٨ـ ١٣١٤هـ).

إلى غير ذلك من كبار أساتذة الفلسفة الذين تخرّجوا على يد العلمين الأخيرين أخيرهم لا آخرهم أُستاذنا الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي (١٣٢١ـ ١٤٠٢هـ)، الذي تتلمذ على السيد حسين البادكوبي (١٢٩٣ـ ١٣٨٧هـ) وهو من أبرز تلاميذ السيد أبو الحسن جلوة، فهؤلاء هم الذين حملوا أفكار صدر المتألهين وقرّروها بأحسن ما يمكن ولا تجد هذه الميزات الثلاث عند أحد غيره.

رابعاً: إنّه جمع بين ما عليه الاشراقيون من أنّه لا يصل الإنسان إلى الحقائق إلاّ عن طريق الرياضة والتصفية والشهود، وما عليه المشاؤون من أنّ اقتناص الحقائق رهن الدراسة والتحقيق، فصار المؤلف يجمع بين الأُسلوبين ويصرّ على أنّ الأقيسة والمقدّمات المنطقية توصل الإنسان إلى ما يوصله إليه تجريد النفس عن شهواتها ولذّاتها وتخلّصها من أدران الدنيا وأوساخها، فالسبيلان ينتهيان إلى هدف واحد، والفرق بينهما كالفرق بين من يسمع وصف الحلاوة وبين من يذوقها، ويندّد بمن يكرس اهتمامه على أحد دون الآخر، ويقول في هذا الصدد: «ولا تشتغل بترّهات عوام الصوفية من الجهلة، ولا تركن إلى أقاويل المتفلسفة جملة فإنّها فتنة مضلّة، وللاقدام عن جادة الصواب مزلّة وهم الذين إذا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وقانا الله وإياك شرّ هاتين الطائفتين ولا جمع الله بيننا وبينهم طرفة عين أبداً». [1]

---

١. الأسفار، المقدمة: ١/ ١٢.

ولأجل أنّ الميزة الرابعة هي المهمة في الوقوف على ما بذله مؤلفنا في هذا المضمار نتكلّم حولها بإسهاب، فنقول: صاغ صدر المتألهين أسساً جديدة في الفلسفة الإسلامية ووضع حجر الزاوية لها وأسماها بالحكمة المتعالية، وصارت فيما بعد محوراً للدراسات الفلسفية في الجامعات العلمية فعكف عليها روّاد العلم وعشّاق الحقيقة.

صبّ سيّدنا المؤسس اهتمامه بتحليل المباحث الهامة وشرحها وعطف نظره إلى القواعد العامة الجارية في نظام الوجود من غير أن يختصّ بموجود دون آخر، فدقّق النظر فيها في بابها الخاص أعني الفن الأعلىٰ، كما إنّه بحث بحثاً وافياً في الإلهيات وأتقنها أيّ إتقان.

وقد استعان ﷺ فيما أحدث من أُصول جديدة للفلسفة وفيما جاء من المنهج الجديد والتفكير الحديث، بما وصل إليه من الأغارقة الأقدمين لا سيما أفلاطون وأرسطو ونظرائهما، وضمّ إلى تلك الأنظار الجليلة ما استفاده من أساتذة الشرق وفلاسفتهم ممّا جادت بها قرائحهم ونشرتها أقلامهم، إلى منتصف القرن الحادي عشر الهجري.

لا شكّ أنّه لاحظ وتأمّل فيما كتبه فطاحل المشائيين والاشراقيين، وما جاد به ذوق العرفاء الشامخين، فجاء مبدعاً خامره كثير من التجديد والابتكار، وأعانه في ذلك فطنته المتوقّدة وذكاؤه الملتهب.

ومن إبداعاته أنّه جاء بنظام متكامل في المسائل الفلسفية، فقدّم ما حقّه التقديم وأخّر ما حقّه التأخير، فأصبحت المسائل الفلسفية، كالمسائل الرياضية في ترتيبها المنطقي.

نهض بهذا العبء الثقيل ولا نصير له سوى براعته وهمّته القعساء، وعقله الكبير، وقلبه البصير، ولذلك جاء مهبطاً للعلوم والمعارف، وصار بذلك بطلاً

مقداماً في تلك الميادين.

ولقد توفّق ﷺ كلّ التـوفيق في الجمـع بين آراء أفـلاطون (مـؤسّس مـدرسـة الاشراق) وتلميذه أرسطو (مبتكر منهج المشـائين) وكان الأوّل من المعلّمين داعياً إلى تهذيب النفس وتصفيـة الباطن، قائلاً بأنّ الطـريق الوحيد إلى اقتنـاص شوارد الحقائق واكتشـاف دقائق الكون هو هـذا المنهج لا غير، وكان الثاني مخالفـاً له في المنهج، قائلاً بأنّ الـدليل للوصول إلى الحقائق المكنـونة، والدقائق المجهـولة، هو التفكير والاستدلال والبرهنة الصحيحة.

ولم يـزل التشاجـر قـائماً على قدم وسـاق بين العلمين وأتبـاعهما في اليونـان والاسكندرية وأُوربا في القرون الـوسطى، إلى أن سرى هذا الاختلاف إلى الفلاسفة الإسلاميين وهـم بين مشّـائي لا يقيم للإشراق وزناً، وإشراقـي لا يجنح إلى فلسفة المشاء.

وقد قضـى الحكيم الشيرازي على هذا التشاجـر والنقاش الذي شغـل بال العديد من فلاسفة الاغريق والمسلمين طوال هذه القرون فطوى بأفكاره وأُسلوبه، صفحة هـذا الجدل العقيم، ومن كان له إلمام بـأساسه الرصين يعـرف كيف ختم هذا المبتكر الفذ تلك المشاجرات، وكيف ألغى بالأُصول المحرّرة تقابل المسلكين، وتضـاربهما، بحيث لا يكـاد يصـحّ بعـد هذه الأُصـول أن يعـدّ أحـدهما مقـابـلاً للآخر.

وقصارى القول: إنّه قد حاز قصـب السبق في ميدان الابتكار فجاء بأفكار عالية جديدة على عهده لا توجد في زبر الأوّلين ولا في خواطر الآخرين، وضمّ إلى تلك الأنظار نتـائج جهود عظماء الفلسفة وخلاصة دروسهـم العالية ومحاضراتهم القيّمة، ولبـاب مجاهداتهـم طـوال القرون الثمانيـة منذ ظهـور الفلسفة في البيئـات الإسلامية إلى عصر المؤسس.

مراحل أطوار حياته

لقد طوى فيلسوفنا الفذ حياته في مراحل ثلاث: مرحلة تلقّي المعارف الإلهية، ومرحلة تهذيب النفس وتزكيتها، ومرحلة التأليف والتصنيف.

هذه هي المراحل التي اجتازها مترجمنا ويظهر ذلك من الإمعان فيما كتبه في مقدمة الأسفار فإنّه (قدّس الله سرّه) لما كان يعتقد بأنّ تحصيل المعارف ليس رهن مدارستها فحسب بل إنّ تهذيب النفس سبيل آخر لتهيئة الإنسان لإفاضة المعارف الإلهية علىٰ قلبه فلذلك طوى المرحلتين، فلمّا اكتملت لديه أدوات المعرفة انصرف إلى التأليف والتصنيف وما وقف عليه عن طريق المدارسة وما أُفيض عليه من المعارف في قالب التأليف والتصنيف.

ويشير إلى المرحلة الأُولى بقوله:

ثمّ إنّي قد صرفت قوّتي في سالف الزمان منذ أوّل الحداثة والريعان، في الفلسفة الإلهية، بمقدار ما أُوتيت من المقدور، وبلغ إليه قسطي من السعي الموفور، واقتفيت آثار الحكماء السابقين والفضلاء اللاحقين مقتبساً من نتائج خواطرهم وأنظارهم، مستفيداً من أبكار ضمائرهم وأسرارهم، وحصّلت ما وجدته في كتب اليونانيين والرؤساء المعلّمين تحصيلاً يختار اللباب من كل باب، ويجتاز عن التطويل والإطناب، مجتنباً في ذلك طول الأمل مع قصر العمل، معرضاً عن إسهاب الجدل مع اقتراب الساعة والأجل، طلباً للجاه الوهميّ، وتشوّقاً إلى الترأس الخيالي، من غير أن يظفر من الحكمة بطائل أو يرجع البحث إلى حاصل.[1]

ثمّ إنّه وقف في برهة من عمره علىٰ خطئه في هذه المرحلة مع أنّ هذه العلوم من دون أن تتزامن مع تهذيب النفس لا تسمن ولا تغني من جوع.

---

١. الأسفار:١/ ٤.

يقول في حقّ نفسه: و إنّي لأستغفر الله كثيراً ممّـا ضيّعت شطراً من عمري في تتبّع آراء المتفلسفـة والمجادلين مـن أهل الكلام وتـدقيقـاتهم وتعلّم جربـزتهم في القول وتفنّنهم في البحث، حتى تبينّ لي آخر الأمر بنور الإيمان وتأييد الله المنّان أنّ قياسهم عقيم وصراطهم غير مستقيم. (١)

يقول في معرض كلامه عن المرحلة الثانيـة ـ بعد الشكوى من طائفة كانت تضمر له العداء ـ يقول: فألجأني خمود الفطنـة وجمود الطبيعة، لمعاداة الزمان وعدم مسـاعدة الـدوران ، إلى أن انزويـت في بعض نواحـي الديـار واستترت بالخمـول والانكسار منقطع الآمال، متوفّراً على فرضٍ أُؤدّيه، وتفريطٍ في جنب الله أسعىٰ في تـلافيـه، لا على درس أُلقيـه، أو تـأليـف أتصرّف فيـه إذ التصرّف في العلـوم والصناعات و إفـادة المباحث ودفع المعضلات، وتبيين المقاصـد ورفع المشكلات ممّا يحتاج إلى تصفية الفكر، وتهذيب الخيال عمّا يوجب الملال والاختلال، واستقامة الأوضاع والأحوال مع فراغ البال، ومن أين يحصـل للإنسان مع هذه المكاره التي يسمع ويرى من أهل الزمان ويشاهد ممّا يكبّ عليه الناس في هذا الأوان. (٢)

وفي معرض كلامـه عن المرحلة الثالثة يقـول: فلمّا بقيت على هذا الحال من الاستتار والانـزواء والخمول والاعتـزال، زماناً مـديداً وأمداً بعيـداً، اشتعلت نفسي لطول المجـاهدات اشتعالاً نـورياً، والتهب قلبي بكثـرة الرياضـات التهاباً قـوياً ففـاضت عليهـا أنوار الملكـوت، وحلّت بها خبـايـا الجبروت، ولحقتها الأضـواء الأحديـة، وتداركتها الألطـاف الإلهية فاطّلعت على أسرار لم أكـن أطّلع عليها إلى الآن، وانكشفت لي رمـوز لم تكن منكشفـة هـذا الانكشاف مـن البرهان ـــ إلى أن قال:ـ فبلغ الكتاب أجله وأراد الله تقديمه وقـد كان أجّله فأظهره في الوقت الذي

---

١. الأسفار، المقدمة: ١ / ١١.

٢. الأسفار، المقدمة: ١ / ٦.

قدّره وأبرزه على من له يسّره، فرأيت إخراجه من القوة إلى الفعل والتكميل، وإبرازه من الخفاء إلى الوجود والتحصيل، فأعملت فيه فكري، وجمعت على ضمّ شوارده أمري، وسألت الله تعالى أن يشدّ أزري ويحط بكرمه وزري، ويشرح لإتمامه صدري، فنهضتْ عزيمتي بعد ما كانت قاعدة، وهبّت همّتي غبَّ ما كانت راكدة، واهتزّ الخامد من نشاطي، وتموّج الجامد من انبساطي، وقلتُ لنفسي: هذا أوان الاهتمام والشروع وذكر أُصول يستنبط منها الفروع، وتحلية الأسماع بجواهر المعاني الفائقة، وإبراز الحقّ في صورته المعجبة الرائقة، فصنّفت كتاباً إلهياً للسالكين المشتغلين بتحصيل الكمال، وأبرزت حكمة ربّانية للطالبين لأسرار حضرة ذي الجمال والجلال.[1]

تهجّده وعبادته

يرىٰ صدر المتألهين أنّ الإشراق والإلهام يعدّان من أدوات المعرفة وهما رهن تخلية النفس من كدر الذنوب ومساوئ الأعمال والأخلاق، وتحليتها بفضائل الأعمال والرياضات النفسية، فلا تعجب ممّا ذكر أصحاب التراجم أنّه حجّ سبع مرات مشياً على الأقدام.

إخلاصه لأئمّة أهل البيت عليهم السلام

يعدّ الحكيم المؤسّس أحد الموالين المخلصين لأئمّة أهل البيت عليهم السلام، ويظهر إخلاصه في كلماته في كتاب الأسفار وغيرها من كتبه بوضوح، ولنذكر مقاطع من كلامه في المقام:

يقول: إنّي أعلم يقيناً أنّه لا يمكن لأحد أن يعبد الله كما هو أهله ومستحقّه،

١. الأسفار، المقدمة: ١/ ٨ ـ ٩.

إلاّ بتوسّط من له الاسم الأعظم وهو الإنسان الكامل خليفة الله في الخلافة الكبرى.

ويقول في مقدمة الأسفار: فألقينا زمام أمرنا إلى الله وإلى رسوله النذير المنذر، فكلُّ ما بلغنا منه آمنّا به وصدّقناه، اقتدينا بهداه وانتهينا بنهيه، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَمٰا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمٰا نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [1]حتى فتح الله على قلبنا ما فتح، فأفلح ببركة متابعته وأنجح. [2]

ويقول أيضاً: إنّي أستعيذ ربّي الجليل في جميع أقوالي ومعتقداتي ومصنّفاتي، في كلّ ما يقدح في صحّة متابعة الشريعة التي أتانا بها سيّد المرسلين عليه وآله أجزل صلوات المصلّين، أو يشعر بوهن في العزيمة في الدين أو ضعف في التمسّك بحبل المتين. [3]

ومن قرأ شرحه على كتاب الحجّة من أُصول الكافي يجده ﷺ مفعماً بإخلاصه لأئمّة أهل البيت وإيمانه بعصمتهم وطهارتهم وعلومهم ومقاماتهم الرفيعة، وها نحن نذكر لك شيئاً يسيراً ممّا ذكره في مستهلّ كتاب الحجة حيث يقول:

الحمد لله الذي اجتبى من صفوة عباده إصابة أهل الحقّ واليقين، المقتبسين أنوار الحكمة والدين من مشكاة النبوّة والولاية، وخصّهم من بين سائر الفرق بمزايا اللّطف والمنّة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف لهم به حقائق الملّة والشريعة وأسرار الكتاب والسنّة، واتّبعوا به سبيل حجج الله الناطقة، وبراهينه الساطعة من الذوات المقدّسة والنفوس المطهّرة الذين طهّرهم الله به عن نزعات الشياطين تطهيراً، ونوّر بواطنهم بأنوار الولاية والقرب تنويراً لهم باقتفاء هذه

---

١. الحشر: ٧.

٢. الأسفار: ١/ ١٢.

٣. رسالة العرشية: ٦٩، طبعة اصفهان.

الحجج والبراهين وأهل بيت النبوّة التي أتى بها سيّد الأوّلين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين محمّد المصطفى ﷺ اهتدوا إلى أسرار العلم واليقين، وأدركوا ببصائرهم أنوار الكتاب المستبين وأخبار الأولياء المعصومين، وأطلقوا بضمائرهم على طرق التلفيق بين مقتضى الشرائع وموجبات العقول، وتحقّقوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحقّ المعقول.[١]

تمتّع صدر المتألّهين بحرّية التفكير ورفض التقليد في كلّ ما يكتب ويحرّر، فهو مع التزامه بالكتاب والسنّة وأن لا يخرج عنهما قيد شعرة لم يصدّه ذلك عن الحرية في التفكير وكسر قيود الجمود، وهو يصرّح بذلك تارة ويلوّح أُخرى.

يقول: وأنشدك بالله وملكوته وأهل رسالاته أن تترك عادة النفوس السفلية من الإلف بما هو المشهور بين الجمهور، والتوحّش عمّا لم تسمعه من المشايخ والآباء وإن كان مبرهناً عليه بالحجّة البيضاء، فلا تكن ممّن ذمّهم الله على التقليد المحض في مواضع كثيرة من القرآن: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً ولاٰ كِتابٍ مُنِيرٍ﴾**.[٢]

فإيّاك أن تجعل الشريعة الإلهية وحقائق الملّة الحقيقة مقصورة على ما سمعته من معلّميك وأشياخك منذ أوّل إسلامك، فتجمد دائماً علىٰ عتبة بابك ومقامك غير مهاجر إلى ربّك.[٣]

وقال أيضاً في معرض كلامه عن ذمّ التقليد: وليعلم أنّ معرفة الله تعالى وعلم المعاد وعلم طريق الآخرة، ليس المراد بها الاعتقاد الذي تلقّاه العامي أو الفقيه وراثة وتلقّفاً، فإنّ المشعوف بالتقليد والمجمود على الصورة، لم ينفتح له

---

١. شرح أُصول الكافي: ٤٣٨، كتاب الحجّة، الطبعة الحجرية.

٢. الحج:٨.

٣. العرشية: ٢٠٠.

طريق الحقائق كما ينفتح للكرام الإلهيين، ولا يتمثل له ما ينكشف للعارفين المستصغرين لعالم الصورة واللّذات المحسوسة، من معرفة خلاّق الخلائق وحقيقة الحقائق، ولا ما هو طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحسين المرام، كما هو عادة المتكلّم، وليس أيضاً هو مجرّد البحث البحت كما هو دأب أهل النظر، وغاية أصحاب المباحثة والفكر فإنّ جميعها ﴿ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوقَ بَعْضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَـهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [١] بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يُقذف في قلب المؤمن بسبب اتّصاله بعالم القدس والطهارة، وخلوصه بالمجاهدة عن الجهل والأخلاق الذميمة. [٢]

مؤلّفاته

إنّ من سبر كتب صدر المتألهين لا سيما الأسفار الأربعة، يقف على أنّه تمتّع بموهبة كبيرة في مجال البيان وتبيين المعضلات وحلّ المشكلات بنحو لم يسبق إليه أحد من الحكماء، وأنت إذا قارنت كتب صدر المتألهين مع كتب الشيخ الرئيس لوجدت الفرق الواضح بينها في التقرير والعرض، ولا غرو في ذلك فإنّ صدر المتألهين تلميذ السيد الداماد الملقّب بأمير البيان، ولكن التلميذ حسب زعمي بلغ مدارج الرقي والكمال وبرع أكثر من أُستاذه، ولذلك نرى أنّ شيخنا المظفّر يقول في حقّه: بالغ في تصوير آرائه باختلاف العبارات والتكرار، حسبما أوتي من مقدرة بيانية، وحسبما يسعه موضوعه من أدائه بالألفاظ، وهو كاتب موهوب لعلّه لم نعهد له نظيراً في عصره وفي غير عصره، وإذا كان أُستاذه الجليل السيد الداماد أمير البيان، فإنّ تلميذه ناف عليه وكان أكثر منه براعة وتمكّناً من البيان السهل. [٣]

---

١. النور: ٤٠.
٢. الأسفار: المقدمة: ١/ ١١.
٣. الأسفار: قسم التقديم: ١/ ١٦.

وقد تـرك صدر المتـألهين تراثـاً علمياً في حقل الفلسفـة والعرفـان والتفسير وشرح الحديث ما يُنيفُ على ٣٣ كتاباً وقد ذكـر تفاصيلها وخصوصيـاتها سلسلة من الأعلام لا سيما الشيـخ أبو عبد الله الـزنجاني في أُطروحتـه المسمّاة «الفيلسوف الفـارسي الكبير صدر المتـألّهين» والعـلاّمة الشيـخ المظفر (رضـوان الله عليـه) في تقديمـه على الأسفار والعـلاّمة الشيخ عبـد الله نعمة في فـلاسفة الشيعـة، غير أنّا نشير إلىٰ ما هو المهم:

١. الأسفـار الأربعـة، وربما يطلـق عليهـا: الحكمـة المتعـاليـة في الأسفـار العقلية، وهـذا الكتاب هو المرجع لبـاقي مؤلفاتـه لا سيما : كتابيه المبـدأ والمعاد، والمشاعر، وقد طبع في إيران على الحجر في أربعة مجلّدات كبار سنة ١٢٨٢هـ يقع مجمـوعها في ٩٢٦ صفحـة بـالقطع الكبير وعلى الأجزاء الثـلاثـة تعاليـق المحقّق السبزواري، والأسفار جمع سفـر ـ بفتح السين والفاء ـ ويراد منه السيـاحة الفعلية الأربعة التي نوّه إليها في مقدّمة الكتاب وهي:

الأوّل: السفر من الخلق إلى الخلق.

الثانـي: السفر بالحقّ في الحقّ.

الثالث: السفر من الحقّ إلى الخلق بالحقّ.

الرابـع: السفر بالحقّ في الخلق.

وقد أُعيد طبعه بصف جديد في تسعة أجزاء عام ١٣٨٤هـ مزيّناً بتعليقات المحقّق السبـزواري وأُستـاذنـا الكبير السيـد محمد حسين الطبـاطبـائي (١٣٢١ـ ١٤٠٢هـ) وعليها تقديم بقلم الشيخ العلاّمة محمد رضا المظفر.

٢. المبدأ والمعـاد، طبع عام ١٣١٤هـ وهـو في الفنّين: الربوبيـات والمعاد، جمع فيه بين مسلكي أهل البحث والعرفان.

٣. الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، لخّص فيه آراءه في المسائل الحكمية، طبع عام ١٢٨٦هـ.

٤. المشاعر، طبع عام ١٣١٥هـ وفيه حصيلة ما أسّسه من الأُصول في الفلسفة.

٥. الحكمة العرشية على الطريقة العرفانية طبع مع المشاعر.

٦. أسرار الآيات وأنوار البيّنات في معرفة أسرار آيات الله تعالى وصنائعه وحكمه على الطريقة العرفانية مع تطبيق الآيات القرآنية على أكثر بحوثه مرتبة على مقدمة وثلاثة أطراف كلّ طرف ذو مشاهد، الطرف الأوّل في علم الربوبية، والثاني في أفعاله تعالى، والثالث في المعاد، طبعت في إيران مكرراً.

٧. شرح الهداية الأثيرية، نهج فيه منهج أهل الحديث تبعاً للمتن، طبع عام ١٣١٣هـ.

٨. شرح إلهيات الشفاء، نهج فيه منهج المتن، طبع بالقطع الكبير عام ١٣٠٣ هـ مع إلهيات الشفاء في مجلّد واحد.

٩. رسالة الحدوث، رسالة مبسوطة في مسألة حدوث العالم طبع عام ١٣٠٢هـ.

١٠. كتاب مفاتيح الغيب، طبع مع شرح أُصول الكافي.

الأثر الخالد: شرحه على أُصول الكافي

هذه هي الكتب المهمّة في مجال الفلسفة، وله رسائل أُخرى ولكن الذي صار سبباً لتحرير هذا التقديم هو كتابه الذي نلوّح به ألا وهو «شرح أُصول

الكافي» وشرحه هذا طبع مرّتين، مرّة على القطع الرحلي بالطبع الحجري في جزءين يقع الجميع في ٤٩٢ صفحـة، وفرغ المؤلف من الجزء الأوّل عـام ١٠٤٤هـ وانتهى فيه إلى باب الأخذ بالسنّة.

كما أنّه انتهى في الجزء الثاني إلى باب أنّ الأئمّة ولاة أمر الله وخزنة علمه من كتاب الحجة.

وفي الحقيقة لو طابقنا شرحه على الطبعة الحديثة من الكافي ينتهي الشرح إلى صفحة ٢١٠ من طبعة الغفاري (حفظه الله).

وقد طبع مع هذا الشرح كتابه الآخر «مفاتيح الغيب» كما تقدّم.

وأُخرى ما قـامت بطبعه مؤسسـة «مطالعات وتحقيقات إسـلامي» فطبعته طبعة حديثة في أجزاء ونقل في ذيل كـلّ جزء ما علّقه الحكيم النوري على الشرح، وقد حقّقه محمد الخواجوي عام ١٣٧٠هـ ش.

إلمامه بالرجال

إنّ التوغّل في العلوم العقليـة ومدارسة مسائلها طيلة الـزمان يعوق الإنسان عن الإلمام بالعلـوم النقلية إلاّ من وفّقه الله تعالىٰ للجمـع بينهما، فحكيمنا المؤسّس من هـذه النخبة التـي جمعت بين العلـوم النقلية والعقليـة، فهو في الـوقت الـذي يـؤلّف مـوسوعـة كبيرة في الفلسفـة، يقوم بشرح أُصـول الكـافي ولم يكتف بشرح المفاهيم، بـل تعداه إلى دراسة أسـانيد الحديث الرجـالية بالتعـديل والجرح وهذه موهبـة كبيرة تمتّع بها المؤلف وقلّما يتّفق أن يدرس حـديثاً، إلاّ ويدرس عنـه سنده اتقاناً وضعفاً.

مشايخه

إنّ كتب التراجم أهملت الكثير من تفاصيل حياته وسيرته ولم تذكر من أساتذته في مراحل صباه وشبابه إلاّ شيئاً يسيراً، واتّفق الجميع على أنّه تخرج في العلوم النقلية على يد الشيخ بهاء الدين العاملي (٩٥٣ـ١٠٠٣هـ) والعلوم العقلية على السيد المحقّق الداماد (المتوفّى ١٠٤٠هـ).

وقد أجازه شيخنا البهائي كما ذكره صدر المتألهين في شرح أُصول الكافي حيث قال:

حدّثني شيخي وأُستاذي ومن عليه في العلوم النقلية استنادي، عالم عصره وشيخ دهره بهاء الحق والدين محمد العاملي الحارثي الهمداني (نوّر الله قلبه بالأنوار القدسية) عن والده الماجد المكرّم وشيخه الممجّد المعظّم الشيخ الفاضل الكامل حسين بن عبد الصمد(أفاض الله على روحه الرحمة والرضوان وأسكنه دار الجنان) عن شيخه الجليل وأُستاذه النبيل عماد الإسلام وفخر المسلمين الشيخ زين الملّة والدين العاملي (طاب ثراه وجعل الجنّة مثواه) عن الشيخ المعظّم المفخّم والمطاع، المؤيّد المكرّم، عالي النسب سامي اللقب، المجدّد للمذهب علي بن عبد العال الكركي (قدّس الله سرّه) عن الشيخ الورع الجليل علي بن هلال الجزائري، عن الشيخ الفاضل القائد أحمد بن فهد الحلّي، عن الشيخ علي بن الخازن الحائري، عن الشيخ الفاضل والنحرير الكامل السعيد الشهيد محمد بن مكي (أعلى الله رتبته). [1]

كما إنّه يذكر أُستاذه في العلوم العقلية بالنحو التالي ويقول:أخبرني سيدي وسندي وأُستاذي واستنادي في المعالم الدينية، والعلوم الإلهية، والمعارف الحقيقية، والأُصول اليقينية السيّد الأجل الأنور، العالم المقدّس الأطهر، الحكيم الإلهي والفقيه

١. شرح أُصول الكافي، الطبعة الحجرية، ص ١٦.

الـربّاني، سيّـد عصره وصفـوة دهره، الأمير الكبير والبـدر المنير، عـلاّمـة الزمـان، اعجوبـة الدوران المسمّىٰ بمحمد الملقّب ببـاقر الداماد الحسيني قـدّس الله عقله بالنور الـربّاني، عن أُستاذه وخاله المكرّم المعظّـم الشيخ عبد العال ﷺ، عن والده السامـي المطاع، المشهور اسمـه في الآفاق والأصقـاع الشيخ علي بن عبـد العال، مسنداً بالسند المذكـور وغيره إلى الشيخ الشهيد محمد بن مكي ﷺ، عن جماعة من مشايخه منهم الشيخ عميد الديـن عبد المطلب الحسيني، والشيخ الأجل الأفضل فخر المحقّقين أبـو طالب محمد الحلّي، والمولىٰ العـلاّمة قطب الديـن الرازي، عن الشيخ الأجل العـلاّمة آيـة الله في أرضه جمال الملّـة والدين أبي منصـور الحسن بن مطهر الحلّي قدّس الله روحـه، عن شيخه المحقّق رئيس الفقهـاء والأُصوليين نجم الملّـة والديـن أبي القاسـم جعفر بن الحسـن بن سعيـد الحلّي، عن السيـد الجليل النسّابـة فخار بن معد الموسـوي، عن شاذان بن جبرئيل القمّي، عـن أبي القاسم الطبري، عـن الشيخ الفقيـه أبي علي الحسن، عـن والـده الأجـل الأكمل شيـخ الطائفة محمد بن حسن الطوسي نوّر الله مرقده، عن الشيخ الأعظم الأكمل المفيد محمد بـن محمد بن النعمان الحارثي سقى الله ثـراه، عن الشيخ الأجل ثقـة الإسلام وقدوة الأنام محمد بن علي بن بابويه القمي أعلا الله مقامه، عن أبي القاسم جعفر بن قـولويـه، عن الشيخ الجليل ثقـة الإسلام سند المحـدثين أبي جعفر محمـد بن يعقوب الكليني.[1]

ومن أسـاتذتـه الآخرين الحكيم الإلهي السيـد أبو القـاسم المعـروف بالمير فنـدرسكي (٩٧٠ ــ ١٠٥٠) ابـن ميرزا بيك بـن الأمير صـدر الـدين الموسـوي الحسيني المعاصر للعلمين بهاء الدين العاملي، والمحقّق المير داماد.

١. شرح أُصول الكافي، الطبعة الحجرية، ص ١٦.

تلامذته

وقد خرج على يديه نخبة من الأكابر أشهرهم اثنان:

الأوّل: صهره المحقّق الكبير والعالم النحرير محمد بن المرتضى المدعو بالمحسن الفيض الكاشاني (١٠٠٧ـ١٠٩١هـ) له آثار علمية كثيرة أشهرها: ١. الصافي في تفسير القرآن الكريم، ٢. الوافي، جمع فيه أحاديث الكتب الأربعة، ٣. المحجّة البيضاء في احياء الاحياء إلى غير ذلك من الآثار.

الثاني: الحكيم الإلهي الكبير المولىٰ عبد الرزاق اللاهيجي (المتوفّى ١٠٧٠هـ) مؤلّف «الشوارق» ألّفه شرحاً علىٰ تجريد الاعتقاد للمحقّق الطوسي.

وقد ذكر من تلامذته القاضي سعيد القمي صاحب شرح «توحيد الصدوق» الذي هو من أنفس الكتب الحكمية والعرفانية ولكنّه من تلاميذ تلامذته، حيث تتلمذ على الفيض الكاشاني والشيخ المولىٰ عبد الرزاق اللاهيجي، توفّي بقم عام ١١٠٣هـ.[١]

وفاته

والمعروف أنّه توفّي بالبصرة عند سفره إلى الحجّ ولم يعلم أنّه توفّي عند ذهابه أو إيابه.

يقول السيد حسين البروجردي في نخبة المقال:

ثمّ ابن إبراهيم صدرالأجل ... في سفر الحجّ مريضاً ارتحل
قدوة أهل العلم والصفاء ... يروي عن الداماد والبهائي

١. ريحانة الأدب: ٤/ ٤١٣.

فكلمة «مريضاً» علىٰ الحساب الأبجدي ينطبق على عام وفاته الذي هو عبارة عن: ١٠٥٠هـ.

ووفاته في البصرة وإن كانت مشهورة لكن صهره الشيخ عبد الرزاق اللاهيجي مؤلّف الشوارق من أهل بيته وهو أدرىٰ بها في البيت، حيث رثاه في قصيدة فارسية غرّاء ذكر فيها أنّه توفّي في النجف وقال في مطلعها:

زين هفت خوان كه پايهٔ او بر سر فناست
در شش جهت به هر چه نظر مى كنى خطاست
بيچاره آن دلى كه مى كند تكيه بر سپهر
سر گشته آن سرى كه به بالين آسياست

إلى أن يقول:

در راه كعبه مرده وآسوده در نجف
اى من فداى خاك تو اين مرتبت كراست
از راه كعبه ت نجف آورد سوى خويش
اين جذبه كار قوّت بازوى مرتضىٰ است
اين هم اشاره اى است مبرّا ز شك وريب
آن را كه دل به كعبه ـ تحقيق آشناست
يعني ميانهٔ نجف وكعبه فرق نيست
آسوده باش ما ز خدا وخدا ز ماست [1]

١. ديوان الحكيم فياض اللاهيجي، ص ١١٨ ـ ١٢٢ بتحقيق الدكتورة أميرة كريمي.

الخطوط العريضة لفلسفته

إنّ الأُصول التي صاغ عليها فلسفته والتي أوجدت تحوّلاً جذرياً في عالم الفلسفة الإسلامية تمخّضت عنها نتائج باهرة في حقل العقائد هي عبارة عن:

الأصل الأوّل: أصالة الوجود

لقد اختلف المشاء والإشراق فيما هو الأصيل والمجعول، فذهب المشاء إلى أنّ المجعول هو الوجود، وذهب الإشراق إلى أنّ المجعول هو الماهية، وبذلك ظهر هنا مذهبان فيما هو الأصيل في الجعل بعد اتفاقهم على أنّ واجب الوجود وجود بحت لا ماهية له، وكان النزاع علىٰ قدم وساق بين الطائفتين حتى ظهر صدر المتألهين على ساحة الفلسفة فطرح المسألة وأقام عليها براهين دامغة أزاحت الشكوك عن وجهها، فعاد القولان قولاً واحداً.

وممّا يدل علىٰ أنّ المشاء وفي طليعتهم شيخ المشائين أعني ابن سينا كانوا من دعاة القول بأصالة الوجود، ما ذكره الشيخ عند البحث عن نفي الماهية عن الواجب تبارك وتعالى حيث قال:

والذي يجب وجوده لغيره دائماً فهو أيضاً غير بسيط الحقيقة، لأنّ الذي له باعتبار ذاته، غير الذي له من غيره، وهو حاصل الهوية منهما جميعاً في الوجود، فلذلك لا شيء غير واجب الوجود بعريّ عن ملابسته ما بالقوة والإمكان باعتبار نفسه، وهو الفرد، وغيره زوج تركيبي. [1]

وهذه العبارة صريحة في أنّ ما يفاض من الواجب هو الوجود وأنّ ملاك

---

١. الشفاء، بحث نفي الماهية عن الواجب، ص ٣٠٥ والطبعة الجديدة ص ٦٠ تحقيق الأُستاذ «حسن زاده» ولاحظ الأسفار: ١/ ١٤.

المعلومية والحاجة إلى العلّة هو الماهية التي تتساوى إليها نسبة الوجود والعدم.

وليس الشيخ وحيداً في هذه العقيدة بل المحقّق الطوسي أيضاً يدعم تلك النظرية لما قال:

«إذا صدر عن المبدأ الأوّل شيء كان لذلك الشيء هوية مغايرة للأوّل بالضرورة ومفهوم كونه صادراً عن الأوّل غير مفهوم كونه ذا هويةٍ ما، فإذن هاهنا أمران معقولان: أحدهما الأمر الصادر عن الأوّل وهو المسمى بالوجود، الثاني هو الهوية اللازمة لذلك الوجود وهو المسمّىٰ بالماهية. [١]

كما أنّ تلميذ الشيخ أعني بهمنيار في كتابه «التحصيل» حسب ما ينقله صدر المتألهين عنه حيث يقول:

الوجود حقيقته أنّه في الأعيان وكيف لا يكون في الأعيان ما هذه حقيقته. [٢]

ولم نجد حكيماً يذبّ عن أصالة الماهية سوى أُستاذ صدر المتألهين، المحقق الداماد حيث قوّىٰ نظرية شيخ الإشراق في أصالة الماهية.

نعم كان صدر المتألهين متأثّراً بأفكار أُستاذه لكنّه رجع عنه كما قال: «إنّي كنت شديد الذبّ عنهم في اعتبارية الوجود وتأصّل الماهيات، حتى هداني الله وانكشف لي انكشافاً أنّ الأمر على خلاف ذلك، وهو أنّ الوجودات هي الحقائق المتأصّلة الواقعة في العين، وأنّ الماهيات المعبّر عنها في عرف طائفة من أهل الكشف واليقين بالأعيان الثابتة ما شمَّت رائحة الوجود. [٣]

ويترتّب على هذا الأصل أُمور:

---

١. شرح الإشارات: ٣/ ٢٤٥.

٢. الأسفار: ١/ ٣٩.

٣. الأسفار: ١/ ٤٩.

١. توحيد الصفات

اتّفق أهل الحقّ علىٰ أنّ صفات الواجب متباينة مفهوماً، متّحدة حقيقة مع الذات، كما أنّ كلّ واحدة منها متّفقة مع الأُخرى كذلك، وقالوا: القادر والعالم والحيّ والمريد متغايرات مفهوماً متّحدات وجوداً ومصداقاً.

وهذا يترتّب على القول بأصالة الوجود، وذلك لأنّ الوجود مدار الوحدة والماهيات مثار الكثرة، إذ يمتنع أن يكون مفهوم العالم أو القادر عين الذات أو متّحداً مع مفهوم القادر.

٢. توحيد الأفعال

قد أثبت البرهان على أنّه لا يصدر من الواحد إلّا الواحد، فالله سبحانه هو الواحد لا يصدر منه إلّا واحد، هذا من جانب.

ومن جانب آخر أنّ الموجودات الإمكانية متكّثرات ومتخالفات فكيف يمكن صدور المختلف من الواحد من جميع الجهات، ولا تحلّ العقدة إلّا بالقول بأصالة الوجود، فالصادر هو الوجود المنبسط القائم بالذات قيام المعنى الحرفي بالاسمي، وإنّما جاء الاختلاف من جانب القوابل والماهيات.

٣. صحّة الحمل في القضايا

إنّ صحّة المحمول على الموضوع وادّعاء الهوهوية لا يتمّ إلّابأصالة الوجود ويمتنع على القول بالماهية، وقد بيّنه صدر المتألهين في المشاعر وقال: لو كانت موجودية الأشياء بنفس ماهيّاتها لا بأمر آخر، لامتنع حمل بعضها على بعض والحكم بشيء منها علىٰ شيء، كقولنا: زيد حيوان والإنسان ماشٍ، فإنّ الحمل

يقتضي الاتّحاد في الخارج والمغايرة في الذهن. فلو لم يكن الوجود شيئاً غير الماهية، لم تكن جهة الاتّحاد مخالفة لجهة المغايرة. واللازم باطل. [1]

***

الأصل الثاني: اشتراك الوجود

هذا الأصل يبتني على أمرين:

الأوّل: وحدة مفهوم الوجود وأنّه موضوع بالاشتراك المعنوي علىٰ حدّ سواء في الواجب والممكن، وهو صادق عليها بوضع واحد وهذا ما يعبّر عنه بوحدة الوجود مفهوماً وأنّه مشترك معنويّ موضوع لمعنىٰ جامع بين جميع المصاديق، وقد استدلّ عليه صدر المتألهين بقوله: البديهة حاكمة بأنّ المعنى الواحد لا يمكن أن تكون حيثية الاتّصاف ومناط الحكم به ذوات متخالفة من حيث تخالفها من غير جهة جامعة فيها. [2]

الثاني: وحدة الوجود حقيقة، وهو أنّ الوجود في عامة مراتبه حقيقة واحدة تختلف بالشدّة والضعف على وجه تكون الشدة عين الوجود والضعف حدّاً له، وعلى ذلك فحقيقة الوجود عبارة عن طرد العدم وهو متحقّق في عامة المراتب من العلّة والمعلول، والواجب والممكن.

أمّا الأمر الأوّل فالمخالف فيها قليل وإنّما الاختلاف في الأمر الثاني، فالمشاؤون علىٰ أنّ الوجود حقائق متباينة ليس بين المراتب أيّة جهة اشتراك، وأنّ

---

١. المشاعر، ص ١٢.

٢. الأسفار:٦/ ٦٢، ١/ ٦٩ـ ٧٠.

الواجب والممكن والوجـود والعرض كالأجناس العالية حقائق متبـاينة يمتاز كلّ عن الآخـر بتمام الـذات لا بالفصـول. والـذي دعاهـم إلىٰ تلك النظـرية هـو أنّ الواجب علّـة للممكن، والجوهر علّـة للعرض، على وجه لـو كان الوجـود حقيقة واحدة فلا وجه لأن يكون بعض الوجود علّة للبعض الآخر.

وأمّا الإشراقيون فقد ذهبوا إلى أنّ الوجود حقيقة واحدة في عامة المراتب وأنّ كلّ مرتبة تتمايز عن الأُخـرى بالكمال والنقص، وليس الكمال إلاّ نفس الوجود كما أنّ النقص حدّ الوجود، وليس داخلاً فيه وبذلك صحّحوا ملاك العلّية وأنّ القوي علّة للضعيـف، لكن لا بمعنى أنّ الشـدّة مقوّمـة لحقيقة الـوجود حتّى لا يكـون الضعيف لأجل ضعفـه من مصاديـق الوجود، ولا الضعـف مقوّماً لـه حتى يخرج الشديد عن تحت الوجود بل الشدّة مقوّمة للمرتبة لا للحقيقة.

وقد استدلّوا علىٰ وحدة الحقيقـة بما سبق في الأمر الأوّل من هذا الأصل من وحدة مفهوم الوجود واشتراكه المعنوي، إذ لو كـان الوجود حقائق متباينة لا جهة اشتراك بينها لامتنع انتـزاع مفهوم واحد مـن حقائق متباينـة، وإليه يشير الحكيم السبزواري بقوله:

لأنّ معنـى واحـداً لا ينتـزع   ممّـا لها تـوحـد مـا لم يقـع

و هذان الأصـلان لهما الدور الكبير في تحوّل الفلسفـة، ويترتّب على الأصل الثاني الأمر التالي:

توحيد الذات ونفي تعدّد الواجب

إنّ توحيد ذاته سبحانه ونفي تعـدّد الواجب من المسائل المهمّة في الحكمة الإلهية، وقد استدلّوا عليه بقولهم: لو كان الواجب متعدّداً يلزم أن يكون بينهما وجه

اشتراك ووجه امتياز، وعندئذٍ فما به الاشتراك في كلّ واحد غير ما بـه الإمتياز فيلزم التركيب وهـو آية الحاجـة. هذا هـو أساس الاستـدلال وقد اعتمـد عليه الحكماء الإلهيون إلى القرن السابع حتّى ظهرت شبهة ابن كمونة [1] وحاصل شبهته:

لماذا لا يجوز أن تكون هناك هويّتان بسيطتان متباينتا الذات ليس بينهما قدر اشتراك حتى يحتاج إلى ما به الامتياز، ويكون صدق الوجود عليهما عرضياً كصدق العرض على الأجناس التسعة العرضية؟

وحلّ الشبهة واضح على القول بـالوحدة المفهومية والحقيقية للـوجود، وهو أنّه لا شكّ أنّ مفهوماً واحداً باسم الوجود ينتزع من كلا الواجبين من حاق ذاتهما، فافتراض هويَّتين بسيطتين متباينتي الذات ليس بينهما أيّ وجه اشتراك، لا يجتمع مع وحدة المفهوم، لما سبـق من أنّه يمتنع انتزاع مفهوم واحد مـن أمرين متباينين، وإلى الشبهة والدفاع يشير الحكيم السبزواري ويقول:

هـويّتـان بتمام الـذات قـد ... خـالفتـا لابـن الكمـونـة استنـد
و ارفـع بـأن طبيعـة مـا انتـزعـت ... ممّـا تخالفـت بها تخالفـت

الأصل الثالث: اتّحاد جوهر العاقل والمعقول

إنّ اتّحاد العاقل والمعقول من المسائل الغامضة، وقد حقّقها صدر المتألّهين وأقام براهينها، وأوضحها بما يلي:

١. انّ نسبـة الصور المعقـولة بـالذات إلى النفس كنسبـة الصور الجسميـة

---

١. هو سعـد بن منصـور البغدادي الملقّب بعزّ الدولـة المعروف بـابن كمونـة، توفي عـام ٦٨٣ هـ أو ٦٩٠هـ.

بـالنسبة إلى المادة، فكما أنّ الثـانية محصّلـة لها ومخرجة لها مـن النقص إلى الكمال، فهكـذا الصـور المعقـولة محصّلـة للنفس الإنسـانية، فـإنّ العقل الهيـولاني مـادة المعقولات، وهي صـور لها، ويقول في هذا الصدد: وليس وجـود الصور الإدراكية عقلية كانت أو حسية للجوهر المدرك كحصول الدار والأموال والأولاد لصاحب الدار والمال والـولد، فإنّ شيئاً من ذلـك الحصول ليس في الحقيقة حصـولاً لذات الشيء لدى ذات أُخرى بل إنّما ذلك حصول إضافة لها فقط، نعم حصول الصورة الجسمانية الطبيعية للمادة التي يستكمل بها وتصير ذاتاً متحصّلة أُخرىٰ يشبه هذا الحصول الإدراكي، فكما ليست المادة شيئاً من الأشياء المعيّنـة بالفعل إلاّ بالصور، وليس لحوق الصـور بها، لحوقَ مـوجود بمـوجـود بالانتقـال من أحـد الجانبين إلى الآخر بل بأن [1] يتحـوّل المادة من مـرتبـة النقص في نفسهـا إلى مـرتبـة الكمال، فكذلـك حال النفس في صيرورتها عقـلاً بالفعل بعـد كونها عقـلاً بالقـوّة، وليس لحوق الصورة العقلية بها عند ما كانت قوّة خيالية بالفعل عقلاً [و]بالقوة، كلحوق موجود مباين لموجود مباين كوجود الفرس لنا، أو كلحوق عرض لمعروض جوهري مستغنى القوام في وجوده عن ذلك العـرض، إذ ليس الحاصل في تلك الحصولات إلاّ وجـود إضافـات لا يستكمل بها شيء وحصـول الصـورة الإدراكيـة للجوهـر الـدرّاك أقـوىٰ في التحصيل والتكميـل له مـن الصـور الطبيعيـة في تحصيل المادّة وتنويعها. [2]

نعم قد أقام صدر المتـألهين برهاناً آخر يُدعى برهـان «التضايف» قائلاً بأنّ العاقل والمعقول متضايفان والمتضايفان متكافئان قوّة وفعلاً، ولكن البرهان عقيم لأنّ التضايف لا يثبت إلاّ وجودهما في مرتبة واحـدة وأمّا كون أحدهما نفس الآخر

---

١. كذا في المصدر والظاهر زيادة «بان».

٢. الأسفار:٣/ ٣١٩ـ ٣٢١ ولاحظ الأسفار: ٢٧٧، الطبعة الحجرية.

كما هو المطلوب، فلا. [1]

يقول الحكيم السبزواري: وأمّا مسلك التضايف الذي سلكه صدر المتألهين في المشاعر وغيره لإثبات هذا المطلب، فغير تام لما ذكرنا في تعاليق الأسفار.

الأصل الرابع: بسيط الحقيقة كلّ الأشياء

واعلم أنّ كونه سبحانه عالماً بالأشياء بعد الإيجاد، أمر لا سترة فيه فإنّ نفس الأشياء فعلـه وفي الوقـت نفسه علمه، كـالصور الـذهنية للنفس فـإنّها فعلها وفي الوقت نفسه علمها الفعلي.

إنّما الكلام في إثبات علمـه تعالى بالأشياء قبل الإيجاد فـذهب المشاء إلى أنّ علمه سبحـانه بها مـن قبيل الصور المرتسمـة في ذاته الحاكيـة عن الأشيـاء، ومن الواضـح أنّ القول بـالصور المرتسمة ــ مع أنّها لا تخلـو من اشكالات ــ لا تثبت علمه سبحانه بها في مقام الذات، بل أقصاه إثباته دون الذات، ولأجل ذلك حاول حكيمنا المؤسّـس إثبات علمه سبحـانه بها في مقـام الذات بحيث تكـون الذات كاشفة عمّا وراءها من الأشياء، وإثبات مثل هذا العلم مشكل جدّاً ولذلك يصفه بقوله:

واعلم أنّ كون ذاته عقلاً بسيطاً هو كلّ الأشياء، حقّ لطيف غامض، ولكن لغمـوضه لم يتيسّر لأحـد من فـلاسفة الإسـلام وغيرهـم ــ حتى الشيخ الـرئيس ــ تحصيله وإتقانـه على ما هو عليه، إذ تحصيل مثله لا يمكن إلاّ بقـوّة المكاشفة مع قوّة البحث الشـديد، والباحـث إذا لم يكن له ذوق تام وكشـف صحيح، لم يمكنه الوصول إلى ملاحظـة أحوال الحقائق الوجودية، وأكثر هـؤلاء القوم، مدار بحثهم

---

١. لاحظ المشـاعر، المشعر السـابع في أنّه تعـالى يعقل ذاته و يعقـل الأشياء كلّها مـن ذاته، ص ٥٠، ولاحظ شرح المنظومة، قسم الفلسفة، ص٣٣.

وتفتيشهم على أحكام المفهومات الكلية وهي موضوعات علومهم دون الانّيات الوجودية، ولهذا إذا وصلت نوبة بحثهم إلى مثل هذا المقام ظهر منهم القصور والتلجلج والمجمج في الكلام، فيرد عليه الاعتراض فيما ذكروه من أنّه كيف يكون شيء واحد بسيط غاية الوحدة، والبساطة صورة علمية لأشياء مختلفة؟ (١)

ثمّ إنّه أثبت القاعدة المشهورة وهي «أنّ بسيط الحقيقة كل الأشياء وليس بشيء منها» بعد بيان مقدمات وأصل، وإليك بيان لبّها:

إنّ كلّما تحقّق شيء من الكمالات الوجودية في موجود من الموجودات فلابدّ أن يوجد أصل ذلك الكمال في علّته على وجه أعلى وأكمل، وهذا ممّا يفهم من كلام «معلّم المشائين» في كثير من مواضع كتابه في الربوبيات المسمّى «باثولوجيا» ويعضده البرهان ويوافقه الذوق السليم والوجدان، فإنّ الجهات الوجودية للمعلول كلّها مستندة إلىٰ علّته الموجدة، وهكذا إلىٰ علّة العلل ففيه جميع الخيرات كلّها ولكن سلبت عنها القصورات والنقائص والأعدام اللازمة للمعلولية بحسب مراتب نزولها. (٢)

ثمّ قال: فإذا تمهّدت هذه الأُصول فنقول:

الواجب تعالى هو المبدأ الفيّاض لجميع الحقائق والماهيات، فيجب أن يكون ذاته تعالى مع بساطته وأحديته كلّ الأشياء، ونحن قد أقمنا البرهان في مباحث العقل والمعقول علىٰ أنّ البسيط الحقيقي من الوجود يجب أن يكون كلّ الأشياء. وإن أردت الاطّلاع علىٰ ذلك البرهان فارجع إلى هناك . فإذن لمّا كان وجوده تعالى وجودَ كلّ الأشياء فمن عقل ذلك الوجود عقل جميع الأشياء، وذلك

---

١. الأسفار:٦/ ٢٣٩، الفصل التاسع في حلّ مذهب القائلين بأنّ علمه تعالى بما سواه علم واحد إجمالي.

٢. الأسفار: ٦/ ٢٦٩.

الوجود هـو بعينه عقل لذاته وعـاقل، فواجب الوجـود عاقل لذاته بـذاته، فعقله لذاتـه عقل لجميع ما سواه، وعقلـه لذاته مقـدّم على وجود جميع ما سـواه. فعقله لجميع مـا سواه، سابـق علىٰ جميع ما سواه فثبـت: أنّ علمه تعالى بجميـع الأشياء حاصل في مـرتبة ذاته بـذاته قبل وجود مـا عداه سواء كـانت صوراً عقلية قـائمة بذاته، أو خـارجة منفصلة عنها، فهذا هـو العلم الكمالي التفصيلي بوجه والإجمالي بوجه، وذلك لأنّ المعلـومات على كثرتها وتفصيلها بحسب المعنى موجـودة بوجود واحـد بسيط، ففي هـذا المشهد الإلهي والمجلى الأزلي ينكشف وينجلي الكـلّ من حيث لا كثرة فيها، فهو الكلّ في وحدة. [١]

الأصل الخامس: الحركة الجوهرية

اتّفقت كلمـة الفلاسفـة علىٰ وقوع الحركـة في الأعراض الأربعـة (الكيف ـ الكمّ ـ الوضع ـ الأين) واختلفوا في إمكان وقوعها في غيرها من الأعراض.

ولتوضيح الحركة في هذه المقولات الأربع نقول: إنّ حركة الماء من البرودة إلى السخونـة حركة في الكيـف، وحركة الـرحىٰ علىٰ مدارها حـركة في الوضـع، ونمو الشجرة مـن حيث الحجم أي تعـاظمها من حيـث الطول والعـرض حركـة الكم وحركة السيارة من مكان إلىٰ آخر حركة في الأين.

ثـمّ إنهـم لم يجوّزوا الحركـة في الجوهـر كما لم يجوّزوا الحركــة في الأعـراض غير الأربعة. لكـن حكيمنا المؤسّس كشف عن وجـود الحركة في الجوهـر وبيّن تعدّي التغيّر من سطوح الطبيعة إلىٰ أعماقها، ومن ظواهرها إلى بواطنها، وقد احتلّت هذه المسألة مكان الصدارة في الفلسفة الإسلامية، وأقام علىٰ مدعاه براهين دقيقة وأزاح عمّا في طريقها من الإشكالات.

---

١. الأسفار:٦/ ٢٧١.

أمّا الثاني فنحيله إلى محلّه وإنّما المهم بيان براهين الحركة في الجوهر فنقول:

البرهان الأوّل

إنّ وجود الحركة في العرض لا ينفكّ عن الحركة في الجوهر، أي أنّ حركة الجسم وتكامله التدريجي في الأوصاف، خير دليل علىٰ حركته وتكامله وتدرّجه من حيث الذات والجوهر.

وبعبارة أُخرى: إنّ الشيء الذي يتحرّك في ناحية الكيف أو الكم، تلازمه حركة أعمق ممّا نشاهده في سطوح الجسم وظواهره، وهي الحركة في الذات والجوهر.[١]

البرهان الثاني

إنّ البرهان الثاني يهدف إلىٰ أنّ الزمان داخل في جوهر الأشياء ومنتزع من حاقّها وما هذا حاله لا يمكن أن يكون جامداً في طبيعته، بل سيّالاً في ذاته. وبما أنّ لهذا البرهان قيمة علمية كبيرة حيث كشف حكيمنا المؤسّس دخول الزمان في جوهر الأشياء وأنّه البعد الرابع للطبيعة، كان من الأفضل أن نشرحه فنقول:

لا شكّ في أنّ البعد الزماني من الأُمور الواقعية التي يلمسها كلّ إنسان، فلا يمكن مثلاً إنكار البعد الزماني بين السيّد المسيح ﷺ ونبيّنا ﷺ وتقدّم الأوّل وتأخّر الثاني.

والبعد الزماني لا ينكره إلّا من أنكر العالم من الأساس ونحن في فسحة عن مناقشته وجداله.

١. لاحظ تفصيل البرهان في كتاب «الله خالق الكون»: ٥٣٠ـ٥٣٦.

غير أنّ كلّ من اعترف بأنّ للزمان واقعية وجـد نفسه أمام السؤال التالي: ما هو حقيقة الزمان وأين مبدؤه ومنشؤه؟

هل يكفي أن يقال: إنّ وصف الأشيـاء والظواهر بالتقدّم والتـأخّر، إنّما هو لانطباق أحـدها مـع طلوع الشمس والآخـر مع غروبها، أو بـوقوع أحـدها في أوّل الشهر، والآخر في نهايته؟

إنّ هذه الإجابة ـ رغم صحّتها في نفسهـا ـ و إن كانت تُقنع العامي، ولكنّها لا تقنع الفيلسـوف المتحـرّي للحقيقة، لأنّـه سيسأل أيضـاً: ويقـول بماذا نَصِفُ طلوع الشمس بالتقدّم وغروبها بالتأخّر، وما هو الملاك لهذا الوصف؟

ولو أُجيب بأنّ هناك مـلاكاً آخر لوصف طلوع الشمس بـالتقدّم، والغروب بالتأخّر لنُقل السؤال إلىٰ ذلك الملاك أيضاً، وهكذا.

ولهذا لجأت الفلاسفة ـ لحلّ هذا الإشكال ـ إلى القول بأنّ ثمّة بعداً مستقلاً مستمرّاً وسيـالاً جارياً تـوصف أجزاؤه بـالتقدّم والتأخّـر اتّصافاً ذاتيـاً، أي ليس التقدّم والتأخّر صفة عارضة له بل هويّته هويّة مستقلّة وعين التقدّم والتأخّر وهو لا يرتبـط بالكائنـات والظواهـر المادّية، إلاّ من حيث كـونها وعاءً لهذه الكـائنات والظواهر المادّية، وليس هذا البعد إلاّ الزمان.

نعم إذا قيست الكائنـات والظواهر المادّية إلىٰ هذا البعـد والوجود المستقلّ وصفت تلك الأشياء بالتقدّم والتأخّر.

وعلى ذلك فليس في ذات الكـائنات المادّيـة أيّ تقدّم أو تأخـر، أي ليست الكائنـات المادية متقـدّمة أو متـأخّرة بـالذات، بل قـد استعارت وصـف التقدّم والتأخّر من الزمان، لأجل وقوعها في هذا الظرف أو ذاك، بحيث لو حذفنا الزمان من صفحة الوجود لما وصفت تلك الكائنات المادية بالتقدّم والتأخّر.

وهذا القول (أي وجود بعد مستقلّ، هـويته نفس السيلان والجريان، وذاته عين التقدّم والتأخّر وهو في حدّ نفسه وعاء للكـائنات المادّية فهي واقعة فيه وقوع المظروف في الظـرف) وإن أجاب عن السـؤال المطروح حول مـلاك وصف بعض الكائنات بالتقـدّم، والبعض الآخر بالتأخّر، إلاّ أنّه ليـس بمرضيّ عند الفيلسوف الإسلامي الكبير «صدر الدين الشيرازي» الذي تعرّض له بالنقد بالبيان التالي:

إنّ محصّل هـذا القـول هو: أنّ الـزمـان شيء والكائنـات شيء آخـر، وليس الزمان داخـلاً في جوهر الموجودات المادّية، واقعاً في حقيقتهـا، وإنّما هو وعاء يقع العالم فيه، فبما أنّ لأجزاء ذلك البعد تقدّماً وتأخّراً بالذّات وصفت الكائنات التي تقع في ذلك الظرف بذلك الوصف استعارة ومجازاً، وعندئذٍ يُطرح السؤال التالي:

لو كانـت طبيعة الكائنات المادّيـة منزّهة بالـذات عن الزمان، وعاريـة عنه بحسب ذاتها، استحـال وصفها بـالتقدّم والتأخّـر علىٰ وجه الحقيقـة، إذ علىٰ هذا يكون ذلك البعد السيّـال المتقدّم بعضه والمتأخّر بعضه الآخر، خارجـاً عن جوهر الكائنات وذات هذا الكـون، ويكون أمراً عرضياً لا يتجاوز عن كونـه وعاءً وظرفاً للكون والكائنات، وعند ذلك فكيف يصحّ وصف تلك الكائنات بأنّها متقدّمة أو متأخّرة حقيقة، والحال أنّ المتقدّم والمتأخّر ـ في الحقيقـة ـ هو وعاء هذه الكائنات وظرف هذا الكون؟

أو ليست نسبـة هذا الأمر واسنـاده إلى الظواهر الماديـة ـ على هـذا القول ـ نسبة خـاطئة واسنـاداً مجازياً غير حقيقي، مع أنّ مـا نجده هـو خلاف هذا فـإنّنا عندمـا نصف كائنـاً بالتقدّم وآخـر بالتأخّـر ونسند إليهما هذين الـوصفين، نفعل ذلك علىٰ وجه الحقيقة لا المجاز، أي أنّنا نعتبر التقدّم والتأخّر صفة لنفس الظاهرة حقيقة.

إنّ قولهم بأنّ التقدّم والتأخّر خارجـان عن حقيقة الكائنات المادّية غير أنّها

يسند إليهـا التقدّم والتأخّر بـا لمجاز والعنايـة، يشبه وصف الجسم الـذي لا يقبل الحرارة بأنّه حارّ حقيقة، أو الذي لا يقبل الاحتراق بأنّه محترق بالحقيقة.

فلو كانت الكـائنات المادّية قارّة في حقيقة ذاتها، ثـابتة في صميم طبيعتها، استحال أن توصف بالـلاّ قرار واللاّ ثبات، والتقدّم والتأخّر إلاّ بـا لمجاز والعناية، ويكون وصفها من قبيل الوصف بحال المتعلّق. [١]

ولكن اتّصافها بالتقـدّم والتأخّر، والتصرّم والانقضاء، والمضيّ والاستقبال، على الحقيقـة، خير دليـل على أنّ لهذا الـوصـف منشـأ في ذات الجسـم وطبيعتـه، وحقيقة جوهره.

ولأجل ذلك نرى أنّ الموجـودات الخارجة عن أُفق الزمـان (كالمجرّدات) لا تقع في نطاق الـزمان ولا توصف بـه ولا توصف بالتقـدّم والتأخّر[٢] أي لا تكـون ضمن الـزمان ولا معه بل هـي خارجة عنـه غير موصوفـة به، ونسبتها إلى الـزمان المتقدّم والمتأخر سواء.

وهـذا بخلاف الكـائنات المادّيـة فإنّ نسبتهـا إلى الزمـان ليست على نحـو واحد، ففيها المتقدّمات وفيها المتأخّرات على وجه الحقيقة لا المجاز.

ولأجل ذلك يجب أن نقول: إنّ مـلاك الوصف بالتقدّم والتأخّـر، موجود في نفس هويّات الكائنات وطبائعها، وأنّ لها هوية سيالة متقدّمة ومتأخّرة.

وبعبارة أُخرى: إنّ مثل الكائنات الماديـة ونسبتها إلى الزمان مثل نسبتها إلى المكان، فكما أنّ البعد المكـاني داخل في هوية الكائنـات المادّية، بمعنى أنّ الجسم

١. مثل قولنا: زيد طويل ثوبه

٢. ويشبه ذلك القوانين الرياضية مثل ٢+٢=٤ فإنّ هذا الأمر نزيه عن الزمان و إن كان كلّ واحد من مصاديق هذه الأرقام أُموراً زمانية، ولكن تلك القـاعدة الكلّية منزّهة عن الزمان مبرّأة من السيلان و هو أشبه شيء بالمجرّدات في عالم الأعيان غير المادية.

يمتدّ بذاته طولاً وعرضاً وعمقاً، فكذلك يوصف الجسم بالسيلان والجريان(و إن شئت قلت: بالزمان) بالذات.

فكما أنّ الشيء إذا لم يكن بذاته قابلاً للتحيّز استحال استعارة المكان له من الخارج، كذلك إذا لم يكن قابلاً للزمان بذاته، استحال أن نستعير له الزمان من الخارج أيضاً.

فهذا الوصف أدلّ دليل على أنّ العامل لهذا هو نفس طبيعة الجسم غير القارة، وأنّ سيلان الجسم وتدرّجه لاقراره، هو منبع تولّد الزمان وصفه به.

وبعبارة أوضح: إنّ وصف الجسم با لمكان كما أنّه دليل على كونه ذا أبعاد ثلاثة(الطول والعرض والعمق) بالذات، كذلك وصفه بالزمان علامة على أنّ للأجسام والكائنات المادية هذه بعداً رابعاً هو «الزمان».

فلو أنّ الفلاسفة أدخلوا الأبعاد الثلاثة في حقيقة الجسم معرّفين له بأنّه ما يكون له أبعاد ثلاثة، فإنّ نظرية الفيلسوف «الشيرازي» في الحركة الجوهرية تضيف إلى الجسم بعداً آخر هو البعد الزماني، فلابدّ من تعريفه بأنّ الجسم ما يكون ذا أبعاد أربعة: الطول والعرض والعمق والزمان بمعنى السيلان والجريان الذي هو عين التقدّم والتأخّر.

وبما أنّ حقيقة الجسم ذات تصرّم وسيلان، انتزع منه الزمان، ووصف بالتقدّم والتأخّر، وكان الزمان على هذا عجيناً بالجسم وجزءاً من جوهره وبعداً رابعاً له إلى جانب الأبعاد الثلاثة الأُخرى.

فعلى هذا يجب أن يكون وجود الطبائع والكائنات كوجود نفس الزمان في السيلان والجريان، ولا يكون لوجودها قرار وثبات، بل يكون قرارها وثباتها موتها وفناءها، كما أنّ قرار الزمان وثباته عين فنائه وموته.

وإليك نصّ عبارة هذا الفيلسوف القدير في هذا الصدد: «لا شبهة في أنّ

كون الشيء واقعاً في الزمان وفي مقولة «متى» ـ سواء كان بالذات أو بالعرض ـ هو نحو وجوده، كما أنّ كون الشيء واقعاً في المكان وفي مقولة «أين» ـ سواء كان ذلك الوقوع بالذات أو بالعرض ـ هو نحو وجوده.

فإنّ العقل المستقيم يحكم بأنّ شيئاً من الأشياء الزمانية أو المكانية يمتنع بحسب وجوده العيني وهويته الشخصية أن ينسلخ عن الاقتران بهما ويصير ثابت الوجود، بحيث لا يختلف عليه الأوقات، ولا يتفاوت بالنسبة إليه الأمكنة ومن جوّز ذلك فقد كابر مقتضى عقله، وعاند ظاهرُه باطنَه ولسانُه ضميرَه.

فإذن كون الجسم بحيث يتغيّر وتتبدّل عليه الأوقات ويتجدّد له المضي والحال والاستقبال ممّا يجب أن يكون لأمر صوري داخل في قوام وجوده في ذاته، حتى يكون في مرتبة قابليته لهذه التجدّدات، غير متحصّلة الوجود في نفس الأمر إلاّ بصورة التغيّر والتجدّد». [١]

ويقول أيضاً:

«إنّ الزمان عند القوم ذا هوية متفاوتة في التقدّم والتأخّر، والسبق واللحوق والمضي والاستقبال، ولكن الطبيعة عندنا كالزمان عندهم من غير تفاوت إلاّ أنّ هذه هويّة جوهرية والزمان عرض.

والحقّ أنّ الهوية الجوهرية الصورية هي المنعوتة بما ذكرناه بالذات، لا الزمان، لأنّ الزمان عرض عندهم، ووجوده تابع لوجود ما يتقدّر به، [لكنّ] الزمان عبارة عن مقدار الطبيعة المتجدّدة بذاتها من جهة تقدّمها وتأخّرها الذاتيّين كما أنّ الجسم التعليمي مقدار الطبيعة من جهة قبولها للأبعاد الثلاثة، فللطبيعة امتدادان ولها مقداران أحدهما: تدريجيّ زمانيّ يقبل الانقسام الوهمي إلى متقدّم ومتأخر

---

١. الأسفار: ٧/ ٢٩٠ـ ٢٩١.

زمانيّين، والآخر: دفعيّ مكانيّ يقبل الانقسام إلى متقدّم ومتأخّر مكانيّين». (١)

انظر أيها القارئ الكريم إلى هذه النظريّة التي وصل إليها الحكيم والفيلسوف الكبير الشيرازي قبل أربعة قرون حيث صرّح بأنّ الأجسام (أو ما سماها بالطبائع الجرمية) ذات أربعة أبعاد: الطول والعرض والعمق والزمان، قبل أن يقف عليه أقطاب علماء الطبيعة في هذا العصر.

وعلى ذلك تصير النتيجة ـ بناءً على هذا البرهان ـ أنّ وجود الأجسام كالزمان الذي له وجود سيّال، غير قار الذات حتى لحظة واحدة، بل ويكون قراره : فناءَه، وسكونه: انعدامه، وعلى هذا تكون الكائنات المادّية سيّالة غير قارة يجري وجودها، ويتدرّج ــ على غرار جريان الزمان وسيلانه ــ و ما ذلك إلاّ لأجل كون الطبيعة عجينة بالزمان، ولكون الزمان داخلاً في هويّتها، فلا يمكن أن يختلفا في الحكم.

ثمّ إنّ حكيمنا المؤسّس خرج عن البحث بنتائج باهرة:

الأُولى:الزمان وليد حركة المادّة وسيلانها.

الثانية: الزمان مقدار حركة المادة.

الثالثة: حدوث العالم المادّي.

الرابعة: الحركة بحاجة إلى محرّك.

الخامسة:الحركة تلازم الغاية.

وقد استوفينا البحث في هذه الغايات في بعض محاضراتنا. (٢)

***

١. الأسفار:٣/ ١٣٩ـ١٤٠.

٢. انظر«الله خالق الكون» : ٥٤٣ـ٥٥٥.

الأصل السادس: فعلية كلّ مركّب بصورته لا بمادته

قد ذكر ﷺ في إثبات المعاد الجسماني وأنّ المعاد في الآخرة والبدن الدنيوي، أُصولاً عشرة نشير إلىٰ أصلين مهمّين هما دعامتان لما يرتئيه من إثبات المعاد الجسماني فقال، حول الأصل الأوّل:

إنّ كلّ مركب بصورته هوهو، لا بمادته فالسرير سرير بصورته لا بمادته، والسيف سيف بحدّته لا بحديده، والحيوان حيوان بنفسه لا بجسده، وإنّما المادة حاملة قوّة الشيء وإمكانه، وموضوعه انفعالاته وحركاته حتى لو فرضت صورة المركب قائمة بلا مادة لكان الشيء بتمام حقيقته موجودة.

وبالجملة نسبة المادة إلى الصورة نسبة النقص إلى التمام، فالنقص يحتاج إلى التمام والتمام لا يحتاج إلى النقص وكذلك الفصل الأخير في الماهيات المركّبة من الأجناس والفصول كالناطق للإنسان، هو أصل الماهية النوعية، وسائر الفصول والأجناس من اللوازم غير المجعولة لهذا الأصل فقد يقع في تعريفه الحدّي وإنّما دخولها في الحدّ بما هو محدود.[١]

وقال في بيان الأصل الثاني: إنّ هوية البدن وتشخّصه إنّما يكونان بنفسه لا بجرمه، فزيد مثلاً زيد بنفسه لا بجسده، ولأجل ذلك يستمرّ وجوده وتشخّصه مادامت النفس باقية فيه وإن تبدّلت أجزاؤه وتحوّلت لوازمه من أينه وكمّه وكيفه ووضعه ومنتهاه كما في طول عمره، وكذا القياس لو تبدّلت صورته الطبيعة بصورة مثالية كما في المنام وفي عالم القبر والبرزخ إلى يوم البعث، أو بصورة أُخروية كما في الآخرة، فإنّ الهوية الإنسانية في جميع هذه التحوّلات والتقلّبات واحدة هي هي بعينها، لأنّها واقعة علىٰ سبيل الاتّصال الوحداني التدريجي، ولا عبرة بخصوصيات

---

١. الأسفار:٩/ ١٨٧.

جوهرية وحدود وجودية واقعة في طريق هذه الحركة الجوهرية، وإنّما العبرة بما يستمرّ ويبقىٰ وهي النفس لأنّها الصورة التمامية في الإنسان التي هي أصل هوّيته وذاته، ومجمع ماهيته وحقيقته، ومنبع قواه وآلاته، ومبدأ أبعاضه وأعضائه وحافظها مادام الكون الطبيعي، ثمّ مبدّلها على التدريج بأعضاء روحانية، وهكذا إلىٰ أن تصير بسيطة عقلية إذا بلغت إلىٰ كمالها العقلي بتقدير ربّاني وجذبة إلهية.... [١]

ثمّ إنّه استنتج من هذين الأصلين بضميمة الأُصول الثمانية أنّ المعاد في الآخرة، هو البدن الدنيوي ويقول: إنّ المُعاد في المَعاد مجموع النفس والبدن بعينها وشخصها و إنّ المبعوث في القيامة هذا البدن بعينه لا بدن آخر مباين له عنصرياً كان كما ذهب إليه جمع من الإسلاميين، ومثالياً كما ذهب إليه الإشراقيون. [٢]

وعلىٰ هذين الأصلين تتعلّق النفس بالبدن المثالي أو الأُخروي ويصدق عليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [٣].

لأنّ واقعية الإنسان بصورته لا بمادّته، بنفسه لا بمتعلّقه، فالنفس تحتاج إلى الجرم بغية اكتساب الكمالات.

أقول: إنّ الحكيم المؤسّس إنّما اختار ما اختار من تعلّق النفس بالبدن المثالي أو البدن الأُخروي الّذي هو أكمل من المثالي ولكنّهما غير البدن العنصريّ الذي شهد الكتاب العزيز بعوده وبعثه، لأجل شبهتين طرأتا:

---

١. الأسفار: ٩/ ١٩٠.

٢. المصدر نفسه: ٩/ ١٩٧.

٣. يس: ٧٩.

الشبهة الأُولىٰ: رجوع ما بالفعل إلى ما بالقوّة

إنّ تعلّق النفس بالبدن العنصري يستلزم رجوعها عن الفعل إلى القوّة، فكما أنّ النفس بعد الانتقال عن المرتبة المعدنية إلى النباتية أو الحيوانية لا ترجع وراءها وإنّما تأخذ بالتكامل من الحيوانية إلى الإنسانية، فإنّ النفس بالموت تنتقل من عالم المادّة إلى عالم التجرّد، ومن عالم العنصر إلى عالم القدس، فرجوعها إلى عالم المادة وتعلّقها بالبدن العنصري يستلزم رجوع ما بالفعل إلى ما بالقوّة.

وبعبارة أُخرى: تعلّقه بالبدن العنصري نحو انحطاط لها وتنزّل من درجة عالية إلى درجة دانية.

هذا وإنّ الشبهة مردودة بوجهين:

الأوّل: فلأنّ صدر المتألّهين قد صوّب ذلك في شرحه على الهداية الأثيرية قال: ثمّ اعلم، أنّ إعادة النفس إلىٰ بدن مثل بدنها الذي كان لها في الدنيا، مخلوق من سنخ هذا البدن بعد مفارقتها عنه في القيامة كما نطقت به الشريعة من نصوص التنزيل وروايات كثيرة متضافرة لأصحاب العصمة والهداية غير قابلة للتأويل، كقوله تعالى:﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[١].

﴿فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾[٢].

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ*بَلىٰ قادِرِينَ عَلىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ﴾[٣] أمر ممكن غير مستحيل فوجب التصديق بها لكونها من ضروريات

١. يس: ٧٨ـ٧٩
٢. يس: ٥١.
٣. القيامة: ٣ـ٤.

الدين وإنكاره كفر مبين.[١]

والثاني: إنّ خروج النفس من البدن بـالموت لا يعني صيرورتها أمراً بالفعل ومجرّداً تامّاً غير قابل لتعلّقها بـالمادة، وذلك لأنّ النفس وإن كانت في وحدتها كلّ القوىٰ ولكنّها في عـالم العقل عقل، وفي عالم النفس نفس، وفي عـالم المثال خيال، وفي عالم الحسّ حسّ، وعلى ذلك فهو لا ينقلب عمّا هـو عليه ولا يخرج عمّا كان له من القوّة، فعلىٰ ذلك فالنفس تتعلّق بالبدن العنصري بما فيه من القوّة الموجودة في مرتبة الحسّ وتكون مدبّرة للبدن بما لها هذه الحقيقة.

هذا كما أنّ العقـل الفعّال يدبّـر ما دونه مـن العوالم المثاليـة والعنصرية ولا يستلزم تدبيرهما رجوع ما بالفعل إلى ما بالقوّة حيث إنّ له تعلّقاً بهما تعلّقاً تدبيريّاً، كذلك النفس تدبّر البدن العنصري من دون أن تتنزل عن مقامها الشامخ.

الشبهة الثانية: شبهة التناسخ

وحاصل هـذه الشبهة أنّ عود الروح إلى البدن العنصري نـوع من التناسخ، والتناسخ باطل لوجوه، منها: لزوم تعلّق نفسين ببدن واحد كما في المقام فإنّ البدن المعاد مستحقّ لتعلّق النفس بـه من عالم الغيب وواهب الصور ومـوجد النفوس، فالقابل كامـل في القابلية كما أنّ الواهب كذلك في الإفاضـة فتتعلّق به النفس بلا تريّث، هذا من جانب.

ومن جانب آخر، تعود النفس المفارقة وتتعلّق بذلك البدن كما هو المفروض فيلزم تعلّق نفسين ببدن واحد.

يلاحظ عليه: بأنّ التناسخ باطل وله أقسـام قرّر في محلّه، ولكن تعلّق النفس المفارقـة بنفس البدن الـدنيوي ليس من أقسـام التناسخ ولا يستلـزم تعلّق نفسين

---

١. شرح الهداية الأثيرية: ٣٨١، ط ١٣١٣هـ.ق.

ببدن واحد، وذلك أنّ إفاضة النفس من الواهب ليس علىٰ نحو الجبر وإنّما هو باختيار منه، فعدم إفاضة النفس على ذلك البدن لا ينافي كونه جواداً مطلقاً وإنّما ينافي إذا لم تتعلّق به النفس أبداً، ويكفي في ذلك تعلّق النفس المفارقة بالبدن حتّى يتهيّأ للمثوبات الأُخروية أو العقوبات كذلك، والمادة الخارجية وإن كانت تنتهي إلى التجرد قهراً ـ إذا وقعت في صراط الحركة الجوهرية ـ فيلزم محذور تعلّق النفسين بالبدن الواحد، لكنّه فيما إذا كان البدن حصل الحركة ومخلوقاً بالتدريج لا ما إذا خلق دفعة واحدة كما هو الحال في يوم البعث. قال سبحانه: ﴿**حَتّىٰ إِذا جاءَتْهُمُ السّاعَةُ بَغْتَةً**﴾.[1]

وبذلك وقفت على أنّ الشبهتين ليستا علىٰ نحو يجرّ الحكيم إلى التصرّف في الآيات الصريحة والروايات القطعية وإجماع المسلمين على المعاد العنصري، ولكن بما أنّ البدن الأُخروي والحياة الأُخروية حياة لطيفة فلا يلزم من القول بالمعاد العنصري رجوع الإنسان إلى الدنيا بعد مفارقتها، وذلك لأنّ الحياة الأُخروية وإن كانت عنصرية لكنّها حياة رفيعة لا تنافي حكمته سبحانه.

هذه هي الأُصول المهمّة التي أسسها صدر المتألهين وهناك أُصول أُخرى نشير إلى عناوينها:

الأصل السابع: النفس جسمانية الحدوث روحانية البقاء

الأصل الثامن: اتّحاد العلّة مع المعلول حسب الحقيقة والرقيقة.

الأصل التاسع: النفس في وحدتها كلّ القوىٰ.

الأصل العاشر: إنّ العلم ليس من قبيل الجوهر والعرض وإنّما هو نحو من الوجود.

---

١. الأنعام: ٣١.

هذه هـي الأُصول العشرة في كلام حكيمنـا المؤسس وله آراء وأفكـار أُخرى يقف عليها من آنس بكتبه وعاش مع أفكاره.

كانـت هذه إلمامة عـابرة لسيرة صدر المتـألهّين وكتبه وآثاره والأُصـول التي أسّسها.

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيّاً

١٤

السيد عبد الفتاح بن علي الحسيني المراغي

(المتوفّى عام ١٢٤٦ هـ)

دور الفقهاء في الحفاظ على الدين وصيانته من الضياع

«ألا إنّ الفقيه من أفاض على الناس خيره، وأنقذهم من أعدائهم، ووفر عليهم نعم جنان الله، وحصل لهم رضوان الله تعالى».[1]

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

نفتتح هذا التقديم بهذا الحديث القيم المروي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام الذي قام بالحفاظ على الدين وصيانته من الضياع والاندثار، في عصر تراكمت فيه على الإسلام شبهات الأعداء من كلّ جانب، وراجت فيه الأفكار الشاذة المستوردة على أيدي الأحبار والرهبان الذين سربوا خرافاتهم وأباطيلهم إلى مختلف مجالات الثقافة الإسلامية، وعرضوا بذلك أفكار المسلمين لمخاطر عقائدية وأخلاقية رهيبة، إلى درجة انّه تأثرت بها طوائف من المسلمين خاصة في مجال أسماء الله وصفاته، وأحوال الأنبياء وموقف البشر من أفعاله وأعماله.

---

١. الاحتجاج للطبرسي، كما في البحار: ٢/ ٥.

فكـان ذلك الإمـام الطـاهـر يبـدد ـ بما أُوتي من علـم جم، ومـدد إلهي ـ شبهاتهم ويبطل أقاويلهم ببيـاناته الشافية، وكلماته الرائعـة التي سجلها التاريخ وحفظها في ثناياه، ونقلها رواة الأخبار، وحفاظ الآثار.

على أنّ هذا الـدور لم يكن مختصـاً بالإمـام الرضـا عليه السلام فحسب بـل شمل الأئمّة الهداة في عهودهم، كل حسب الإمكانيات المتاحة، والظروف المهيّأة له.

وقد اقتدى بهم بعد عصر الغيبة علماء الإسلام وفي طليعتهم علماء الشيعة، إذ قامـوا بصيانـة الديـن من أخطار الشبهـات المقيتة وحفظـه من كيـد التيارات المنحرفة، فكانوا بحقّ حفظة لدين الله ورعاة لكتابه ومصاديق بارزة لقوله صلى الله عليه وآله:

«في كلّ خلوف من أُمّتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين». [1]

ولم يكن جهد هؤلاء العلماء الأفذاذ ليقتصر على علم دون علم، ومجال دون مجال، بل سلكوا سبل البرهنة والاستدلال للحفاظ على أُصول الاعتقاد، والمعارف الإسلامية، كما بذلوا جهـوداً جبّارة في حفظ آثار النبي صلى الله عليه وآله وأحاديثه، وعلىٰ صعيد آخر عملوا علىٰ إقامة صرح التشريـع الإسلامي في كلّ عصر ومصر، باذلين جهوداً كبرى في سبيل تنميته، وتعميقه، بغية تلبية كافة الاحتياجات المستجدة.

فكانوا بحق حصوناً للدين، وأُمناء على الشريعة، يخدمون الإسلام، ويربون الجهـابـذة مـن العلماء، ويحذرون قـومهم بعـد أن تفقهـوا في الـديـن ويبصرونهم بالشريعة بعد أن استوعبوها جيداً.

فإذا كان الـدين الإسلامي عقيـدة وشريعة، والشريعة هي الثمـرة العملية

---

١. دعائم الإسـلام: ١ / ٨١ كما في مستدرك الوسـائل: ١٧ / ٣١٢؛ وذخائر العقبى ١٧؛ و الصـواعق ١٤١ مع اختلافات يسيرة.

للعقيدة، بل تجسيد حيّ وصادق لها في واقع الحياة، و إبقاء عليها في أعماق الفكر والضمير، إذ العقيدة بلا تطبيق للشريعة تتعرض للزوال شيئاً فشيئاً إلى أن لا يبقى أثر لها ولا خبر، كانت العقيدة هي الأُخرى ذات تأثير علىٰ سلوك الإنسان ونمط حياته.

وصفوة القول أنّ العقيدة والشريعة يشكلان معاً حقيقة الدين الإسلامي، وكما انّ للعقيدة أثراً فاعلاً في سلوك الإنسان، كذلك التعبد العملي بالشريعة والقيام بالواجبات والفرائض الدينية يوجب ترسيخ العقيدة، وتجذيرها في العقول والنفوس.

الاجتهاد سر خلود الدين: عقيدة وشريعة

إنّ ممّا لا يقبل الانكار أنّ بقاء الدين في كلا حقليه العقائدي والتشريعي ، إنّما هو نتيجة الجهود المبذولة في سبيل صقل العقيدة، وتنمية الشريعة، فلو كان المسلمون يقتصرون على أخذ ما وصل إليهم عن طريق الوحي من دون تكرير وتقرير، ومن دون تدبر و إمعان، وبحث ونقاش لزال الدين واندرس ولم يبق منه خبر ولا أثر.

ولقد كان سيدنا الأُستاذ الإمام الخميني ﵀ يقول في خلال أبحاثه ودروسه: لقد كانت البحوث والمناقشات العلمية الدائرة بين العلماء هي أحد العوامل التي ساعدت على بقاء الشريعة، ورسوخ العقيدة.

و كان يضيف قائلاً: ولو أنّ أحد الأئمّة قدم الواجبات والمحرمات مدونة في كتاب إلى الأُمّة، وحذّر الناس من البحث والمناقشة، والتدبّر والتأمّل في ذلك المكتوب، لمات الدين واندثرت الشريعة.

وقال المحقّق الكبير شيخ الشريعة الإصفهاني: إنّ عدم محاباة العلماء بعضهم لبعض من أعظم المزايا التي أعظم الله بها النعمة عليهم، حيث حفظهم

عن وصمة محاباة أهل الكتابين المؤدية إلى تحريف ما فيها، واندراس تينك الملتين، فلم يتركوا لقائل قولاً فيه أدنى دخل إلاّ بينوه، ولفاعل فيه تحريف إلاّ قوّموه، حيث اتضحت الآراء، وانعدمت الأهواء، ودامت الشريعة البيضاء على ملء الآفاق بأضوائها، وشفاء القلوب بها من أدوائها، مأمونة عن التحريف، مصونة عن التصحيف. [1]

الثروة الفقهية عند الشيعة

تعد الثروة الفقهية الهائلة عند الشيعة من أعظم الثروات العلمية الإسلامية التي أنتجتها جهود كبار الفقهاء من عصر الأئمّة إلى يومنا هذا، تلك الجهود التي بذلوها ليل نهار في سبيل تنمية الشريعة، وإغناء الأُمّة عن كلّ ما سوى الكتاب والسنّة، فازدهر على أثر ذلك فقه الشيعة في مختلف المجالات والمستويات والفروع التي تطورت عبر الزمن تطوراً عظيماً، مع الأخذ بنظر الاعتبار عنصري الزمان والمكان.

إنّ مدخلية عنصري الزمان والمكان في استنباط الأحكام الشرعية من الأُمور الواضحة التي لا يمكن لفقيه واع تجاهله وإنكاره.

فحرمة بيع الدم ـ مثلاً ـ كانت أمراً مسلماً بين الفقهاء سابقاً، لأنّ الغاية من ورائه هو الأكل والشرب كما هو المتبادر من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾. [2]

ولكن لما أثبتت الحضارة الحديثة للدم فوائد أُخرى حيوية غير الأكل والشرب وتغير الموضوع، تغير بتبعه الحكم، وقس عليه غير الدم ممّا قلبته الحضارة

---

١. شيخ الشريعة الإصفهاني : ابانة المختار: ٥.

٢. البقرة: ١٧٣.

الصناعيــة من فقــدان المنفعة المحلّلة إلى وجــدانها، وهذا هــو المراد من مــدخلية العنصرين: الـزمـان والمكـان في تغير الحكم وتبـدل الحكم لأجل تبـدل مصــداق الموضوع، وكـم له من نظير في الفقـه الإسلامي، إذا نظـرنا إليـه بدقـة وإمعان، فما أكثر القيميات صارت مثليات كالأواني.

ومن أراد أن يلمس مدخليـة عنصري الزمان والمكان بالمعنى الـذي ذكرناه، فعليه أن يقـارن بين ما كتبـه والد الصـدوق (المتوفّىٰ ٣٢٩هــ) في كتاب الشرائع، والصدوق (٣٠٦ـ٣٨١)هـ في المقنع والهداية، والشيخ الطوسي (٣٨٥ـ٤٦٠هـ) في أوائل نشـاطه الفقهـي الاجتهادي في كتـاب «النهـاية»و بين مـا كتبـه المحقّق صاحب الشرائع (المتـوفّىٰ ٦٧٦هـ) والعلاّمـة الحلي (٦٤٨ـ ٧٢٦هـ) ومـا أنتجه يراعه كالتحرير، والتذكرة، وممن جاء بعدهما كالشهيدين والمحقّق الثاني، فانّه يرى بونـاً شاسعاً وفـرقاً كبيراً. وما هــذا إلاّ لمدخلية الـزمان والمكان في العمليــة الفقهية والحركة الاستنباطية.

ولهذا نرى الفقــه الشيعي المعــاصر كالجواهــر للشيخ محمد حســن النجفي (١٢٠٠ــ ١٢٦٦ هـ)، والمتـاجـر للشيخ الأنصـاري (١٢١٢ــ ١٢٨١هـ) ومـا صنف بعدهما في القرن الرابع عشر علىٰ أيدي جهـابذة الفقه، يتمتع بآفاق أوسع، وأبعاد أعمق.

القواعد الفقهية في فقه الشيعة

ولقد أثر عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّهم كانوا يلقـون على أصحابهم أُصولاً وقواعد ويأمرونهم بالتفريع على ضوئها، فها هو الإمام الصادق عليه السلام ، يقول: «إنّما علينا إلقاء الأُصول وعليكم التفريع». [١]

١. الحرّ العاملي: وسائل الشيعة: ج١٨، الباب ٦ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٥١ .

ويقول الإمام الرضا عليه السلام: «علينا إلقاء الأُصول وعليكم التفريع». [١]

وقد كانت هذه الأُصول تسمى بالأُصول المتلقاة عن الأئمّة عليهم السلام. [٢]

ولقد ظهر علىٰ ضوء هـذه الأُصول لون جديد من الفقـه عند الشيعة سمّي فيما بعد بالقواعد الفقهية حيث أُلّفت حولها كتب ومصنفات كثيرة.

وممن عرف بـاهتمامه بهذا النمط من الفقـه: الشهيد السعيد محمـد بن مكي المعروف بالشهيد الأوّل (٧٣٤ـ٧٨٧ هـ)، حيث ألّف كتاب «القواعد».

ثمّ جـاء بعده تلميـذه الفـاضل المقداد (المتوفّـى ٨٠٨ هــ) فرتب هـذه القواعد في كتاب أسماه «نضد القواعد الفقهيّة» وكان بحق ترتيباً باهراً.

وتـوالت حركـة التأليف على هـذا المنـوال فيما بعد علىٰ يـد العالم الفـاضل الشيخ محمد باقـر اليزدي الحائري الذي توفي في مطلع القـرن الرابع عشر، ومنهم السيد الأجل السيد مهدي القزويني المتوفّى سنة ١٣٠٠ هـ.

إلى غير ذلك ممن ألّفوا في هذا المضمار.

وممّن خطا علىٰ هذا النهج: الفقيه الكبير والمحقّق البارع السيد عبد الفتاح المراغي (قدّس الله سرّه).

فقد قـام المحقّق المذكور بتأليف كتـاب في هذا المجال، وقال في مقـدمته: وهذه عنـاوين الأُصول المتلقـاة التي أمرنا أن نفـرع عليها، وقوانين الفصـول التي ينبغي أن يستنـد إليها، امتثـالاً لأمر الملـك المنّان، وقضـاءً لحقّ الإخوان مـن أهل الإيمان، مراعياً في ذلك كلمة الأصحاب، والذيـن هم أهل الديار المتّصلون بأهل

---

١. الحرّ العاملي: وسائل الشيعة: ج١٨، الباب ٦ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٥٢.

٢. وكـان السيد الأُستـاذ، السيـد حسين البروجـردي (١٢٩٢ـ ١٣٨٠ هـ) يقسم الفقـه الموروث إلى الأُصـول المتلقاة و المسـائل التفـريعية، وكـان هـذا التقسيم كثير التـداول على لسـانه وفي درسـه الشريف، وكان يرى لهذا القسم مكانة خاصة لا يحظىٰ بها القسم الثاني.

بيت الحكمة والأسرار، راجياً من الله أن يجعلها كلمة باقية، وتعيها أُذن واعية. [١]

ترجمة المؤلّف

إنّ خير ما يعرّف شخصية المترجم له، ما تركه من آثار علمية وخلفه من تلامذة جهابذة.

فالجهود التي بذلها المترجم له في هذين الحقلين، دليل واضح وقاطع على انّه كان رجل علم وتحقيق، وهمة وبراعة، ولذلك ترك في مجال العلم والفقه آثاراً وقدم للأُمّة الإسلامية فطاحلاً.

ويكفي للوقوف على هذه الحقائق أن نلقي نظرة عابرة على كتاب «العناوين» وهو نموذج واحد ممّا انتجه فكر هذا المحقّق البارع ودبجه يراعه الشريف، إذ انّنا نرى في هذا المؤلف أفكاراً جديدة وآراء سديدة وبراعة مشهودة في التفريع على الأُصول المتلقاة، قلما نجد نظيرها في ما سواه من المؤلفات المشابهة.

ويكفيك أنّ هذا الكتاب هو أحد المصادر التي استند إليها الشيخ الأنصاري في أبحاثه حول أحكام البيع والخيارات واحتج بآرائه، كما اهتم بآرائه، معاصروه نظير الشيخ أحمد النراقي مؤلف «العوائد»، وكأنّ العلمين كانا كوكبين زاهرين في مجال هذا النوع من التأليف.

على أنّ كتاب «العناوين» جاء على غرار كتاب «العوائد» تأليفاً وتنسيقاً، وإن كان الفضل لصاحب العوائد لسبقه في هذا الميدان، وقد نقل عنه مؤلفنا في موارد عديدة.

---

١. مقدمة كتاب «العناوين» للسيد عبد الفتاح المراغي.

كلمات الأعلام في حقّ المؤلّف

يقول المحقّق الطهراني في موسوعته حول طبقات الشيعة:

هو السيد عبد الفتاح بن علي الحسيني المراغي المتوفّى عام ١٢٤٦هـ ويصفه بقوله: فقيه كبير وعالم جليل، كان من الأجلاّء الأعلام والحجج العظام.[١]

ويصفه سيد أعيان الشيعة في موسوعته بقوله: «الفقيه النجفي، ثمّ يذكر مشايخه وآثاره العلمية».[٢]

ويعرفه شيخنا المدرس في كتابه ويصفه بقوله: المتبحّر في الفقه والحديث.[٣]

وقد أطراه الباحث العلاّمة جعفر الشيخ باقر آل محبوبه ويصف أثره المعروف، بقوله: إنّ كتابه هذا مشحون بالتدقيق والتحقيق.[٤]

نظير سائر ما يذكره المترجمون في حقّه وشأنه ﷺ.

أساتذته

لقد تخرج المترجم له على يد لفيف من علماء النجف الأشرف، منهم:

١.الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء (المتوفّى ١٢٤١هـ) الذي تخرّج عليه كثير من العلماء المشاهير، الذين حازوا الرئاسة الدينية والزعامة العلمية، نظير: الشيخ محمد شريف العلماء (المتوفّى ١٢٤٦هـ)و السيد إبراهيم

---

١. الطهراني: الكرام البررة: ٢/ ٧٥٥ رقم الترجمة ١٣٩٤.

٢. السيد الأمين: أعيان الشيعة: ٨/ ٣١.

٣. المدرس التبريزي: ريحانة الأدب:٣/ ٣٧٩.

٤. جعفر الشيخ باقر آل محبوبه: ماضي النجف و حاضرها:٣/ ١٦٩.

صاحب الضوابط (١٢١٤ـ ١٢٦٢هـ).

٢. الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء (المتوفّىٰ ١٢٥١ هـ) الذي كان يحضر مجلس درسه ما يزيد على الألف من فضلاء العرب والعجم.[1]

إلى غير ذلك من كبار العلماء من مشايخه العظام.

آثاره العلمية

ترك المترجم له مؤلفات قيمة هي كالتالي:

١. العناوين، وقد عرفت مكانته. والحقّ أنّه كتاب مشحون بالتدقيق والتحقيق، اللّذين يعرفهما كل من سبر غوره. وقد فرغ منه سنة ١٢٤٦هـ كما جاء في آخر الكتاب، إذ يقول:

وقع الفراغ من تصنيف هذه النسخة بيد مؤلفها المفتقر إلى رحمة الله، المتحسر على ما فرط في جنب مولاه: عبد الفتاح بن علي المراغي الحسيني في عصر اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان المبارك من سنة ست وأربعين بعد ألف ومائتين من الهجرة النبوية على مهاجرها السلام والتحية، في أرض الغري مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام لا فرّق الله بيني وبينه في الدارين.

والكتاب مرتب على أربعة و تسعين عنواناً، ابتدأ العنوان الأوّل بالكلام في أدلّة اشتراك التكليف مورداً ودليلاً وبين المراد بقضايا الأحوال، وختم الكتاب بالعنوان الرابع والتسعين طرح فيه، الأصل المحكم في فعل المسلم ــ أعني: الصحّة ـ وذكر أدلّتها وعقبها بحل الشبه، وجعل للكتاب خاتمة بحث فيها عن القاعدة المعروفة في الرضاع من أنّه كالنسب.

---

١. ماضي النجف و حاضرها: ٣/ ١٦٩.

وفي العنوان الـرابع والسبعين بحث قيـم عن ولاية الفقيـه وضبط مـواردها والإشارة إلى ثمراتها.

وأنت ترى في غضون الكتاب، عناوين لعـدة من القواعد الفقهية التي هي بحاجة إلىٰ بحث ضاف، وكلام حاسم.

فالكتاب مصباح الفقيه، وحجّة المجتهد، ووسيلة المستنبط.

إنّ شيخنا المجيز، المحقّق الطهراني يذكر انّ الكتاب تقرير لبحث أُستاذيه العلمين الجليلين المذكـورين، وقـد تبعـه في ذلـك مـؤلّـف «مـاضي النجـف وحاضرها» ولكننا لم نجد في نفس الكتاب ما يشير إلى ذلك حسب.

وقد طبـع هذا الكتاب بـالطبعة الحجريـة مرّة في تبريز عـام ١٢٧٤هـ. ق، وأُخرى عام ١٢٩٧هـ.

٢. مباحث الألفاظ في فن الأُصول في مجلد واحد.

٣. الخيارات.

٤. الإجارة.

٥. الغصب.

٦. تعليقات على الشرائع.

٧. تعليقة على اللمعة الدمشقية.

٨. رسـالـة في الموثقين، ذكـر فيهـا مـا يقـرب عن خمسين رجـلاً ممـن قطع بوثاقتهم باجتهاده.

٩. رسالة في عمل الدائرة الهندية. [١]

---

١. لاحظ الذريعة في مختلف مواضعها، والكرام البررة: ٢/ ٧٥٥، ومصفى المقال: ٢٣٢.

ويذكـر شيخنا المجيز الطهراني أنّ هـذه الكتب والمؤلفات توجـد في مكتبة الشيخ هادي كاشف الغطاء في النجف الأشرف، ويظهر من مجموعها أنّ مؤلفها كان من حججِ العلم الاثبات.[١]

عصره

لقد تميّز عصر المترجـم بانكماش الاتجاه الأخباري، بعد ازدهـاره، أثر جهود العالم الكبير المجتهد البهبهاني (١١١٨ـ ١٢٠٨هـ) الذي واجه ذلك الاتجاه بحزم وقوّة، وقـام بجهد كبير في تـوعيه الأُمّـة، وتحذيرهـا من مغبـة الوقـوع في شراك هذا الاتجاه.

ترك المسلك الأخبـاري، مضاعفات خطيرة على الفقـه أسفرت عن عـرقلة نشاطه الاستنبـاطي فقامت سلسلة من المحاولات داخـل الكيان الفقهي الشيعي للحد من نشاطه.

ولهذا كان تأليف المترجم للكتاب الحاضر ونظـائره خطوة مباركة وجبارة في سبيل تصعيد نشـاط العملية الاستنباطية والحركـة الاجتهادية، ودعمهـا بالأُسس الرصينة والقواعد المتينة.

---

١. الكرام البررة: ٢/ ٧٥٥.



مرتضى بن محمد أمين التستري

الشيخ الأنصاري (١٢١٤ ـ ١٢٨١ هـ)

الشيخ الأنصاري رائد النهضة العلمية الحديثة

ارتحل النبيّ ﷺ وقد خلّف في أُمّته الثقلين والوديعتين العظيمتين، وهما الكتاب والعترة، وأمر بالتمسّك بهما إلىٰ يوم القيامة، وقال: «**إنّي تارِكٌ فِيكُمُ الثقْلَين: كِتاب الله وعِترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً**».

ولقد بلغ إيصاء الرسول ﷺ بالكتاب وأهل بيته ﷺ من الاستفاضة بل التواتر بين الأُمّة مبلغاً لا ينكره إلّا مكابرٌ للحقيقة، ومعاندٌ للحقّ، والحديث يعرب عن حقيقةٍ ناصعة، وهي أنّ الملجأ للأُمّة الإسلاميّة في حلّ المشاكل والمعضلات، بعد النبيّ ﷺ هو الكتاب والعترة.

وقد قامت العترة الطاهرة في الظروف التي أُتيح لها الإجهار بالحقيقة، بتفسير الكتاب الكريم، وبيان فرائضه ومندوباته، وتبيين متشابهه ومعضلاته، كما قامت بنشر سنّة النبيّ ﷺ كلُّ ذلك عند سنوح الفرص.

لقد تعلّقت مشيئة الله النافذة بانبثاق أنوار الهداية من هذه

البيوت الرفيعة[١] في هذه الظروف القاسية، حتّى تخرج من جامعتهم العديد من المحدّثين والفقهاء ممّن بلغوا الذروة والقمّة في علم الشريعة وفهم الكتاب، وقد سُجِّلت أسماؤهم وحياتهم في معاجم الرجال وكتب التاريخ، كيف وقد أدرك الحسن بن عليّ بن زياد الوشّاء الكوفي من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام في عصرٍ واحد (٩٠٠) رجل في مسجد الكوفة كلّهم يقولون: حدّثني جعفر بن محمّد وقد أحصى الشيخ أبو العبّاس بن عقدة (المتوفّى ٣٣٣هـ) الثقات من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام فبلغوا أربعة آلاف.[٢]

وقد قامت الشيعة الإماميّة في تلك العصور بتدوين كلّ ما أُثِر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق الصحابة العدول والتابعين الثقات في كتب الحديث، كما قاموا بتسجيل أحاديث العترة في مجالي العقيدة والعمل وبذلك قدّموا إلى الأُمّة الإسلاميّة خدمةً جليلةً، مشكورة، كيف لا، وقد قاموا بذلك في عصر عدت فيه كتابة الحديث عملاً إجرامياً يُعاقَب عليه فاعله، وكانت كتب الحديث تُحرق على رؤوس الأشهاد.[٣] ولقد اهتمّوا بتسجيل أحاديث العترة بإيصاءٍ من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولكون أقوالهم وأفعالهم برمّتها حاكيةً عن قول الرسول وفعله، فهم لا يقولون إلاّ بما قاله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا يصدرون إلاّ عمّا صدر عنه.

وقد روى سماعة عن الإمام الطاهر موسى الكاظم عليه السلام قال: قلت له: أكلُّ

---

١. اقرأ تفسير قوله سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ...﴾ (النور:٣٦)، في «الدرّ المنثور» للحافظ جلال الدين السيوطي.

٢. رجال النجاشي «ترجمة الحسن الوشّاء» رقم: ٨٠، وقد لقي الرضا عليه السلام في خراسان، فيكون وفاته بعد المائتين من الهجرة.

٣. تقييد العلم، للخطيب البغدادي: ٥٢.

شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه أو تقـولون فيه؟ [١]، قال: «بل كـلّ شيء في كتاب الله وسنّة نبيّه». [٢]

فجامعـة العترة الطاهرة هي جـامعة الكتاب العـزيز والسنّة النبـويّة، فهم ورّاث الكتـاب [٣] فـلا يحتـجّ بـه في مجال الفقـه والأحكـام إلاّ بعـد الـرجـوع إلى أحاديثهم، إذ عنـدهم مخصِّصُ الكتاب ومقيّـده، كما هم ترجمان السنّة وخـزنتها، ولأجل ذلك جعلهم الـرسول قرنـاء الكتاب وأعداله، وأسبـاباً للهداية،والصيـانة عن الضلالة والغواية.

ولم يكـن عمل الشيعـة في مجال ضبـط الحديث وتقييـد العلـم، إلاّ إقتـداءً بإمامهم أمير المؤمنين عليه السلام حيث إنّـه صلوات الله عليه قـام بضبط مـا أملىٰ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأحكام الكثيرة وتبعه في ذلك أصحابـه وتلاميذه وشيعته، وهذا «أبو رافع» خازن الأمير عليه السلام صنّف كتاب السنن والأحكام، والقضايا، وهذا عليّ ابن أبي رافع كاتب الإمام عليّ عليه السلام صنّف كتباً في فنون من الفقه. [٤]

ولقد استمـرّ تقييد العلم وضبط الحديث بين الشيعـة من حياة الـرسول إلىٰ غيبة الإمام الثاني عشر فألّفوا في الحديث، جـوامع كبرىٰ معروفة عندهم بالجوامع الأوّليّة، ثمّ تلتهـم طائفة أُخرى بعد الغيبة فألّفوا الجوامع الثانويّة المعروفة بالكتب الأربعـة، وبـذلك حـازت الشيعـة قصـب السبق في مضمار تـدوين الحديـث الشريف، ـ كما ـ وقدّموا بذلك إلى الأجيال المتـلاحقة خدمةً جليلة، وحفظوا سنّة

١. أي تقولون فيه بقولكم.

٢. الكافي:١/ ٦٢، الحديث١ .

٣. لاحظ تفسير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَورَثْنَا الكِتاب الَّذِينَ ٱصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ (فاطر:٣٢).

٤. رجال النجاشي، برقم ١ و ٢.

الرسول من الانـدراس والزوال، وامتثلوا قول صادقهـم: «احتفظوا بكتبكم فإنّكم سوف تحتاجون إليها». [١]

الاجتهاد في عصر الباقرين عليهما السلام

لم يكـن الهدف من تخريـج الأحـاديـث وضبطهـا وتسجيلهـا في الجوامـع، هـو نقلها بحـرفيّتهـا فقط، من دون إمعـانٍ ودقّـة في الأُصول الكلّيّـة المتلقّـاة من الأئمّة، بل كان الرواة بين راوٍ حافظٍ لمتن الحديث وسنده، وراوٍ واعٍ يردُّ الفروع إلى الأُصـول المرويّـة ويُفتي النـاس بما فهـم من كـلامهـم وأحـاديثهم عليهم السلام امتثـالاً لقول الإمـام الصادق عليه السلام : «إنّما علينـا أن نُلقـي إليكم الأُصـول وعليكـم أن تُفرّعوا». [٢]

وقال الإمام الرضا عليه السلام :« علينا إلقاء الأُصول وعليكم التفريع». [٣]

وليس التفريع إلاّ استخـراج الفروع من الأُصول الكلّيّـة وتطبيق الكُبريات على الصغريات، ولا يعنى من الاجتهاد إلاّ هذا.

وهـذه الروايـات وأضرابها ـ التي لـو أراد الباحـث أن يجمعها لكلّفـه ذلك تأليف رسالةٍ مفردةٍ في ذلك المجال ـ تعرب عن وجود عملية الاجتهاد والإفتاء في عصر الباقرين وبعده لـو لم نقل بوجودها قبله. كيف لا وقد قال أبـو جعفر الباقر عليه السلام مخاطباً أبان بن تغلب: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فإنّي أُحبّ أن

---

١. الكافي: ١/ ٥٢، الحديث ١٠ .وبهذا المضمون أحاديث أُخَر، فراجع.
٢. وسائل الشيعة ١٨ : ٤٠، الحديث ٥١ من الباب السادس من أبواب صفات القاضي.
٣. وسائل الشيعة ١٨ : ٤٠، الحديث ٥٢ من الباب السادس من أبواب صفات القاضي.

يُرى في شيعتي مثلك».وقد توفي «أبان»[1] في سنة ١٤١هـ قبل وفاة الإمام الصادق عليه السلام بسبع سنين.

كان الأئمّة عليهم السلام يقومون بدور تعليم كيفيّة التفريع على الأُصول واستخراج الأحكام من الكتاب والسنّة لأصحابهم، فهذا هو الإمام الباقر عليه السلام يُجيب «زرارة» بعدما سأله بقوله: «من أين علمت أنّ المسح ببعض الرأس؟»، بقوله ـ بعد كلام طويل ـ :«لمكان الباء في قوله سبحانه: ﴿وَٱمْسَحُوا بِرءُوسِكُمْ﴾ ».[2]

و هذا هو عبد الأعلى مولىٰ آل سام سأل الإمام الصادق عليه السلام وقال: عثرت فانقطع ظفري وجعلت علىٰ إصبعي مرارة فكيف أصنع بالوضوء، قال: يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عزّ وجلّ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3]، امسح عليها.[4]

إلى غير ذلك من الأحاديث العديدة التي قام الأئمّة عليهم السلام فيها بتعليم خريجي مدرستهم طريقة الاجتهاد، وكيفيّة الاستدلال واستنباط الأُصول من الفروع، ولم يكن موقفهم في هذا المقام إلاّ موقِفَ المعلِّم المرشِد الذي يقوم بوظيفة إرشاد المتعلّم إلى دلائل المطلب وبراهينه وقد جمعنا قسماً من هذه الأحاديث في موسوعتنا القرآنيّة عند البحث عن الخاتميّة.[5]

وعلىٰ ضوء هذا، فالاجتهاد بمعناه الوسيع هو: إعمال الدقّة والنظر في

١. رجال النجاشي برقم ٧.

٢. وسائل الشيعة ١: ٢٩٠، الباب ٢٣ من أبواب الوضوء، الحديث ١. والآية ٦ من سورة المائدة.

٣. الحجّ: ٧٨.

٤. وسائل الشيعة: ١/ ٣٢٧، الباب ٣٩ من أبواب الوضوء، الحديث ٥.

٥. مفاهيم القرآن: ٣/ ٣٠٦ـ ٣١٠.

الروايـات، وترجيح بعضها علىٰ بعض، كـان موجوداً ومعمولاً بـه في عصر الأئمّة عليهم السلام بعد وفـاة النبيّ صلى الله عليه وآله. نعم كلّما بَعُـدَ العهد عن زمن الـرسالـة وتكثّرت الآراء والأحاديث والروايات، ودخل فيها الدسُّ والوضع، وتوفّرت دواعي الكذب فيها، أخـذ الاجتهـاد ومعرفـة الحكـم الشرعي يصعب ويحتـاج إلى مـزيـدٍ من المؤونـة، واستفـراغ الوسع، ولأجـل ذلك تـرى بونـاً شاسعـاً بين الاجتهاد الـرائج في عصر الأئمّة من بعد الغيبة بقرنٍ أو قـرنين، والاجتهاد الرائج في هذه الأعصار، والجيلان يشتركـان في بذل الجهـد في استنباط الأحكـام عن أدلّتهـا الشرعيّة، ويفترقـان في أنّ الاجتهاد بعد عصر الـرسالة إلىٰ قرون، كـان خفيف المؤونة لقرب العهـد وتوفّر القرائن، والاستغناء عنه في كثير من الموارد، لإمكان السؤال المفيد للعلم، بخلافه في العصور المتأخّرة حيث اتّخذ الاجتهاد ـ لأجل بُعـد العهد ـ لنفسه صفة فنّيّة فلا يمكن أن يقـوم به إلّا الأمثل فـالأمثل من الواعين المتـدبّرين في الكتـاب والسنّة، حتّى لا يعمل بالعامّ في مكان الخاصّ. ولا بالمطلق عند وجود المقيّد، ولا بالأصل العملي عند وجود الدليل الاجتهادي، ولا بالدليل المرجوح عند وجود الراجح، إلى غير ذلك من الخصوصيّات التي فرضها بُعدنا عن عهد المعصومين.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يـدلّ على أنّ الاجتهاد ليس من البدع المحـدثة، فقد كان بابه مفتوحاً على مصراعيه في وجه العلماء منذ زمن قديم.

الاجتهاد رمز خلود الدين

إنّ التشريع الإسلامي تشريع خالد، وقـد أغنى البشر عن كافة التشريعات غير الإلهيّة، هـذا من جـانب، ومن جانـبٍ آخر كلّما تكـاملت نواحـي الحضارة،

وتشابكت وتعدّدت ألـوانها، وواجه المجتمع أوضاعاً جديدة وقضـايا مستحدثة، وطرحت عليه مشاكل طارئة لا عهد للأزمنة السابقة بها؛ ازدادت حاجة المجتمع إلى قـوانين وتشريعات جـديدة ولم تـزل تتزايـد هـذه الحاجة يـوماً بعـد يوم تبعـاً لذلك.

فما هـوالعلاج؟ وكيـف يجمع بين هذيـن الأمريـن الثابتين؟ أيصـحّ لمسلم الخضوع لتشريعات بشريّة لا تمتّ إلى تشريع السماء بصلة؟ أو أنّه لا مناص له من بذل الجهود في الكتـاب والسنّة حتّى يقف على حكم هذه القضايـا المستجدة من هـذين المصـدرين الإسلاميّين المهمّين، كيـف لا، وقد أخبر سبحـانـه عن اكتمال الـديـن عنـدمـا قـرب عهـد لحوق النبـيّ ﷺ بـالـرفيق الأعلى، قـال سبحـانـه: ﴿ اليَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُمْ دِينكُـمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُـمْ نِعْمَتِـي وَرَضِيتُ لَكُـمُ الإِسْـلامَ دِيناً﴾ .[1]

إنّ خلود التشريع وبقاءه في جميع الأجيال، واستغناءه عن كلّ تشريع سواه، يتوقّف علىٰ أن يكون التشريع ذا مادّة حيويّة خلاّقة للتفاصيل، بحيث يقدر معها علماء الأُمّة علىٰ مواكبة الزمن باستنباط كلّ حكم يحتاج إليه المجتمع الإسلامي في جميع الأعصار. ولأجل ذلك يجب أن يكون باب الاجتهاد مفتوحاً ليتسنّىٰ للحاكم الإسلامي الوقـوف على حكم الموضوعات الحديثية بذلك فيحفظ للـدين طراوته، ويصونه عن الاندراس، وبالتـالي يُغني المسلمين عن التطفل علىٰ موائد الأجانب بإعطاء كلّ موضوعٍ ما يقتضيه من حكم، ولا أظنّ أنّ أحداً يشكّ في لزوم الاجتهاد في أصـل المذهب وانفتـاحـه في جميـع الأعصـار إذا مـا فتح عينيـه علىٰ كثيرٍ مـن الموضوعـات التي طُـرحت ـ اليـوم ـ علىٰ صعيـد التشريع ولم تزل تطـرح وليس في

١. المائدة: ٣.

النصوص ما يدلّ علىٰ حكمها بالخصوص.

ومن المؤسف جدّاً أنّه استحوذ الشكّ في لزوم دوام انفتاحه علىٰ عقول كثير من فقهاء السنّة، فأقفلوا هذا الباب بكلا مصراعيه في أواسط القرن السابع [١]، ثمّ واجهوا مشاكل في جميع الأعصار لا سيّما العصر الحديث.

وأمّا نحن معاشر الشيعة فنعتزّ علىٰ دوام انفتاحه، استلهاماً من قول الإمام الصادق عليه السلام لتلميذه حمّاد: «ما من شيءٍ إلاّ وفيه كتاب أو سنّة». [٢]

ومن الواضح أنّ استخراج حكم كلّ شيءٍ من ذينك المصدرين يحتاج إلىٰ بذل جهدٍ وسعي حثيث في التفريع والتطبيق على ما هو دأب المجتهد.

المراحل التي مرّ بها الفقه الشيعي

ولقد مرّ الفقه الشيعي بمراحل عديدة تعدّ كلّ مرحلةٍ تطوّراً لما قبلها.

١. الإفتاء بنقل الروايات مع أسنادها

كان الرائج في عصر الأئمة نقل الروايات بأسنادها في كتبهم والإفتاء بها، فكانوا يدوّنون الأحاديث في أبواب خاصّة كالطهارة والصلاة والزكاة والحجّ إلى آخر أبواب الفقه، ولم يكن المقصود من نقلها بأسنادها هو تسجيل الروايات فقط، بل كان المؤلّفون بين راوٍ لها وجامعٍ للأحاديث، وواعٍ لها مراعٍ لضوابط الفتيا، فالفقهاء من خريجي جامعة الإمام الباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام كانوا يسجّلون الأحاديث على النمط الثاني بينما كانت الطبقة الوسطىٰ أو الأدنىٰ منهم

١. الخطط المقريزية: ٢/ ٣٣٣و٣٣٤و٣٤٤.

٢. الكافي: ١/ ٥٩.

يدوّنونها علىٰ حسب الرواية.

٢. تجريد المتون عن الأسانيد

وفي أوائل القرن الرابع ظهر لونٌ جديدٌ في الفُتيا وهو تجريد الروايات عن أسانيدها، وكتابة الفقه بنفس النصوص الواردة فيها، ولعلّ أوّل من بادر إلىٰ ذلك هو والد الصدوق عليّ بن بابويه (المتوفّى ٣٢٩هـ)، فألّف كتاب الشرائع علىٰ هذا النمط، كما كتب ولده الصدوق (المتوفّى ٣٨١هـ) «المقنع والهداية» علىٰ غرار كتاب الشرائع للوالد. ثمّ استمرّ التأليف علىٰ هذا النحو إلىٰ أواسط القرن الخامس فألّف الشيخ المفيد (المتوفّى ٤١٣هـ) «المقنعة»، وتلميذه شيخ الطائفة الطوسي (المتوفّى ٤٦٠هـ) «النهاية» علىٰ غرار ما كتب الصدوق، وكان سيّدنا الأُستاذ آية الله البروجردي (المتوفّى ١٣٨٠هـ) يطلق على: هذا النوع من الكتب بـ«المسائل المتلقّاة من الأئمّة»، وإن شئت فسمّه بالفقه المنصوص.

ولمّا لم يكن هذا النوع من الكتابة رافعاً للحاجة وسادّاً للفراغ لطروء مسائل مستحدثة وموضوعات جديدة لم ترد فيها سنّة استدعى الحال إلىٰ ظهور نمط آخر يختلف عن سابقيه.

٣. مرحلة التفريع واستخراج الفروع من الأُصول

وقد قام في أوائل القرن الرابع لفيف من فقهاء الشيعة بإبداع منهج ثالث وهو الخروج عن حدود النصوص، وعرض المسائل على القواعد الكلّيّة الواردة في الكتاب والسنّة. وأوّل من فتح هذا الباب في وجه الشيعة هو «الحسن بن علي بن أبي عقيل» المعاصر للكليني (المتوفّى٣٢٩هـ) ويظهر من النجاشي في ترجمته أنّ كتابه «المتمسّك بحبل آل الرسول» كان مرجعاً فقهيّاً للشيعة يعمل به الناس

كعملهم بالرسائل العمليّة في يومنا الحاضر. يقول النجاشي في حقّ هذا الكتاب: «ما ورد الحاجّ من خراسان إلاّ طلب واشترىٰ منه نسخاً».[١]

ثمّ اقتدىٰ به: محمّد بن أحمد بن جنيد (المتوفّى ٣٨١ هـ) فألّف كتابين في هذا المضمار «تهذيب الشيعة لأحكام الشريعة» وكتاب «الأحمدي للفقه المحمّدي»[٢]. وقد اتُّهم ابن جنيد باستعمال القياس غفلة عن حقيقة الحال، فإنّه لم يستعمل القياس إلاّ علىٰ وجه المحاجّة على الخصم ولم يكن ذلك اعتقاده ومنهجه.[٣]

غير أنّ عمل الفقيهين الجليلين، و إن كان مشكوراً وجديراً بالاهتمام في تلك الظروف، ولكن لرسوخ التعبّد بالنصوص في أذهان كثيرٍ من الأصحاب، لم يؤثّر تأثيراً كبيراً في العمليّة الفقهيّة إلى أن قام شيخ الطائفة بتأليف كتاب «المبسوط»؛ فأزاح العراقيل الماثلة أمام هذا النوع من التأليف إلى درجة أنّه نسخ به النمط الآخر، وأقبل الفقهاء على كتابة الفقه علىٰ نحو تفريع الفروع واستنباط أحكامها من الأُصول من دون الالتزام بنفس النصوص، ويظهر ممّا ذكره الشيخ في المقدّمة، أنّه ردّ بذلك علىٰ تعبير قومٍ من المخالفين علىٰ فقه الشيعة بأنّه غير كافٍ لرفع الحاجة في مختلف المجالات لإعراضهم عن القواعد الرائجة عندهم، كالقياس والاستحسان وسدّ الذرائع إلىٰ غير ذلك من الأُصول التي رفضتها الشيعة، فأثبت الشيخ بمشروعه الكبير هذا، أنّ الأُصول والقواعد الفقهيّة الموروثة عن أئمّة أهل البيت كافية للإجابة عن كافة التساؤلات، يقول:

«فإنّي لا أزال أسمع معاشر مخالفينا من المتفقّهة والمنتسبين إلىٰ علم الفروع،

---

١. رجال النجاشي، رقم ١٠٠.

٢. رجال النجاشي، رقم ١٠٤٧.

٣. عدّة الأُصول: ١/ ٣٣٩.ولاحظ ما حقّقه السيّد بحر العلوم في فوائده ٣:٢١٣ـ٢١٥.

يستحقرون فقه أصحابنا الإماميّة وينسبونهم إلىٰ قلّة الفروع، وقلّة المسائل، ويقولون: إنّ من ينفي القياس والاجتهاد لا طريق له إلىٰ كثرة المسائل ولا التفريع على الأُصول، وهذا جهلٌ منهم بمذاهبنا، وقلّة تأمّل لأُصولنا، ولو نظروا في أخبارنا وفقهنا، لعلموا أنّ جلّ ما ذكروه من المسائل موجودٌ في أخبارنا ومنصوص عليه تلويحاً عن أئمّتنا، إمّا خصوصاً أو عموماً أو تصريحاً أو تلويحاً. ثمّ قال: وكنت علىٰ قديم الوقت وحديثه متشوّق النفس إلىٰ عمل كتاب يشتمل على ذلك، تتوق نفسي إليه فيقطعني عن ذلك، القواطع، وتشغلني الشواغل، وتضعف نيّتي أيضاً فيه قلّة رغبة هذه الطائفة فيه، وترك عنايتهم به، لأنّهم أَلِفوا الأخبار وما رووها من صريح الألفاظ حتّى أنّ مسألة لو غُيّر لفظها وعبر عن معناها بغير اللفظ المعتاد لهم، لَعجبوا منها، وقَصُرَ فهمهم عنها، وكنت عملت علىٰ قديم الوقت كتاب «النهاية» وذكرت جميع ما رواه أصحابنا في مصنّفاتهم بأُصولها من المسائل وفرقوها في كتبهم ورتّبته ترتيب الفقه، وجمعت من النظائر، ورتّبت فيه الكتب على ما رتّبت للعلّة التي بيّنتها هناك، ولم أتعرّض للتفريع على المسائل ولا لتعقيد الأبواب وترتيب المسائل وتعليقها والجمع بين نظائرها، بل أوردت جميع ذلك أو أكثره بالألفاظ المنقولة حتّى لا يستوحشوا من ذلك». [1]

وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في أوساط العلماء، وهو أحد الكتب النفيسة للشيعة الإماميّة في الفقه، وطبع في ثمانية أجزاء وصار عمله هذا بداية خير للفقهاء العظام بعده، فقد ألّف زميله عبد العزيز بن البراج (المتوفّى ٤٨١هـ) «المهذّب» على غراره، ثمّ تتابع التأليف بعدهما إلىٰ عصرنا هذا.

ومن ألمّ بتاريخ الفقه الشيعي من عصر الأئمّة إلى القرن العاشر يجد أنّ علماء الشيعة كانوا ميّالين إلىٰ أحد المنهجين التاليَين:

---

١. المبسوط: ١/ ١ـ٢.

«منهج جمع الحديث الفقهي وضبطه ونقله ونشره، ومنهج تفريع الفروع واستنباط الأحكام عن أدلّتها الشرعيّة ولكلٍّ عمله وجزيل أجره، فشكر الله مساعي الجميع».

وهذا واضح لمن سبر تاريخ فقه الشيعة، ودرس طبقات فقهائهم ومحدّثيهم، ولم يكن للمحدّثين مذهب فقهي خاص بهم، وللفقهاء والمجتهدين مذهبٌ آخر يضادّ المنهج الأوّل، بل كان لكلّ مسؤوليّة معيّنة، ووظيفة خاصّة تجاه الدين.

الأخباريّة منهج مبتدع

قد تعرّفت علىٰ أنّه لم يكن بين علماء الشيعة منهجان متقابلان متضادّان في مجال الفروع، حتّى يكون لكلّ منهج مبادئ مستقلّة، ويناقض أحدهما الآخر، بل كان الجميع على خطّ واحد، وكان الاختلاف في لون الخدمة وكيفيّة أداء الوظيفة إلىٰ أن ظهر في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الشيخ محمّد أمين ابن محمّد شريف الاسترآبادي الذي جاور المدينة المنوّرة ومكّة المشرّفة، وتتلمذ فيها على الشيخ محمّد بن علي الاستر آبادي صاحب كتاب :«منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال» عشر سنين [1]، وتوفّي (عام ١٠٣٣هـ) [2] فابتدع مسلكاً خاصّاً أسماه بالأخباريّة. وقد هاجم في تأليفاته المجتهدين العظام أمثال ابن أبي عقيل وابن الجنيد والشيخ الطوسي ومن اقتفىٰ آثارهم، حتّى زعم أنّ مسلك «الأخباريّة» الذي ابتدعه كان موجوداً في القرون السابقة غير أنّه كانت تمرّ عليها مراحل من نشاطٍ وفتور، وانتعاشٍ وخمول.

---

١. الفوائد المدنيّة لمحمّد أمين الاستر آبادي: ١٨، وتوفّي أُستاذه عام ١٠٢٨هـ.

٢. لؤلؤة البحرين للشيخ يوسف البحراني: ١١٩.

والعجب أنّه استدلّ على انقسام علماء الإماميّة إلى الأخباريّين والأُصوليّين بأمرين:

١. ما ذكره شارح المواقف حيث قال: كانت الإماميّة أوّلاً علىٰ مذهب أئمّتهم حتّىٰ تمادىٰ بهم الزمان فاختلفوا وتشعّب متأخّروهم إلى المعتزلة و إلى الأخباريّين، وما ذكره الشهرستاني في أوّل كتاب الملل والنحل من أنّ الإماميّة كانوا في الأوّل علىٰ مذهب أئمّتهم في الأُصول ثمّ اختلفوا في الروايات عن أئمّتهم، حتّى تمادىٰ بهم الزمان فاختارت كلّ فرقةٍ طريقةً، فصارت الإماميّة إلىٰ معتزلة (إمّا وعيديّة) أو تفضيليّة، و إلىٰ أخباريّةامّا (مشبّهة) أو سلفيّة. [١]

٢. ما ذكره العلاّمة في نهايته عند البحث عن جواز العمل بخبر الواحد، فقال: أمّا الإماميّة فالأخباريّون منهم لم يعوّلوا في أُصول الدين وفروعه إلاّ على أخبار الآحاد، والأُصوليّون منهم كأبي جعفر الطوسي وغيره وافقوا علىٰ خبر الواحد ولم ينكره سوى المرتضىٰ وأتباعه. [٢]

يلاحظ عليه: أنّ كلا الشاهدين أجنبيّان عمّا يرومه الأمين.

أمّا الشاهد الأوّل: فهو نقله بالمعنىٰ، ولو نقل النصّ بلفظه لظهر للقارئ الكريم ما رامه شارح المواقف، وإليك نصّه: ...وتشعّب متأخروهم إلىٰ «المعتزلة» إمّا وعيديّة أو تفضيليّة (ظ. تفضلية) وإلى «أخباريّة» يعتقدون ظاهر ما ورد به الأخبار المتشابهة، وهؤلاء ينقسمون إلىٰ «مشبّهة» يجرون المتشابهات علىٰ أنّ المراد بها ظواهرها، و«سلفيّة» يعتقدون أنّ ما أراد الله بها حقّ بلا تشبيه كما عليه السلف وإلىٰ ملتحقة بالفرقة الضالّة. [٣]

---

١. لاحظ شرح المواقف٨: ٣٩٢. ولم نجد النصّ في الملل و النحل. والفوائد المدنيّة:٤٣و٤٤.

٢. الفوائد المدنيّة: ٤٣و٤٤.

٣. المواقف ٨: ٣٩٢. يريد من الفرقة الضالّة، فرقة المعتزلة،وهذا التعبير الجارح بعيدعن أدب شارح المواقف السيّد شريف الجرجاني.

يلاحظ عليه أوّلاً : أنّ مسلك الأخباريّة الذي ابتدعه الشيخ الأمين ليس إلاّ مسلكاً فقهيّاً يشكل سُداه ولحمته عدم حجّيّة ظواهر الكتاب أوّلاً ولزوم العمل بالأخبار قاطبة من دون إمعان النظر في الأسناد وعلاج التعارض بالحمل على التقيّة وغيرها ثانياً، وعدم حجّيّة العقل في استنباط الأحكام ثالثاً.

وما ذكره شارح «المواقف» فهو راجع إلى المسائل العقائديّة دون الفرعيّة ومن بين هذه المسائل يخصّ الصفات الخبريّة بالبحث كاليد والإستواء والوجه وغير ذلك ممّا ورد في الأخبار بل الآيات واتّهم الإماميّة بأنّهم يعتقدون بظواهر الأخبار المتشابهة وينقسمون في التعبّد بها إلىٰ طوائف ثلاث: مشبّهة، وسلفيّة، وملتحقة بالفرق الضالّة.

والحكم بأنّ ما ذكره شارح المواقف راجع إلى المسلك الذي ابتدعه الاسترآبادي عجيب جدّاً مع اختلافهما في موضوع البحث وابتناء المسلك الأخباري علىٰ أُسس وقوائم لم تكن معروفة بها عند الطائفة الأُولى.

وأمّا ما ذكره العلاّمة فهو أيضاً لا يمتّ إلىٰ مسلك الأخباريّة المبتدع بصلة، بل هو راجع إلىٰ مسألة خلافيّة بين علماء الإماميّة من زمن قديم، وهو هل الخبر الواحد حجّة في الأُصول كما هو حجّة في الفروع أو لا ؟ فالمحدّثون والممارسون للأخبار والذين ليس لهم شأن إلاّ الغور في الأخبار ذهبوا إلى القول الأوّل، والممارسون لعلم الأُصول الذين يحكّمون العقل في مجال العقائد يقولون بالثاني.

فتفسير الأخباري في كلام العلاّمة الذي لا يقصد إلاّ من يمارس الأخبار ويدوّنها وينقلها كما يفعله كلّ المحدّثين، بمسلك الأخباري الذي هو مسلك فكري اجتماعي عجيب جدّاً.

ولسنا متفرّدين بتوصيف مسلكه بالإبتداع ـ لو لم نقل أنّه كان حركة رجعيّة

عرقلت خطى الأُمّة عن التقدّم والتطوّر وأقفلت باب البحث في الأسانيد والمتون كما سدّت البحث حول كثير من المسائل الأُصوليّة ـ حتّى أنّ المحدّث البحراني ـ الذي كان أخبارياً معتدلاً جدّاً ويعدّ كتابه الحدائق من أنفس الكتب الفقهيّة لا سيما في جمع الأخبار وتفسيرها ـ يعترف بذلك ويقول في ترجمة الأمين الاسترآبادي: «وكان فاضلاً محقّقاً مدقّقاً ماهراً في الأُصولَيْن والحديث، أخبارياً صلباً، وهو أوّل من فتح باب الطعن على المجتهدين، وتقسيم الفرقة الناجية إلىٰ أخباريّ ومجتهد، وأكثر في كتابه الفوائد المدنيّة من التشنيع على المجتهدين، بل ربّما نسبهم إلىٰ تخريب الدين، وما أحسن وما أجاد، ولا وافق الصواب والسداد، لما قد ترتّب علىٰ ذلك، من عظيم الفساد، وقد أوضحنا ذلك بما لا مزيد عليه في كتابنا «الدرر النجفيّة» وفي كتابنا «الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة» إلاّ أنّ الأوّل منهما استوفى البحث في ذلك بما لم يشتمل عليه الثاني». [١]

وقد ترجمه صاحب «الروضات» ترجمةً مفصّلة وذكر الموارد التي طعن فيها على المجتهدين وذكر ردود المجتهدين عليه بما لا مزيد عليه. [٢]

وممّا يدعو إلى العجب أنّ الأمين: ينهي مسلكه إلى أُستاذه محمّد بن إبراهيم مؤلّف كتاب «منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال» مع أنّ العناية بعلم الرجال والدقّة في الأسانيد التي كرّس الأُستاذ عمره فيها لا يجتمع مع مسلك الأخباريّة القائل بقطعيّة الأخبار، التي تُغني عن الرجوع إلى علم الرجال.

---

١. لؤلؤة البحرين: ١١٨ـ١١٧، تحقيق السيّد محمّد صادق بحر العلوم.

٢. روضات الجنّات: ١/ ١٢٠ـ ١٣٩. وذكر أنّ الفوارق بين المنهجين ترتقي إلىٰ ثلاثين أصلاً، ثمّ ذكر رؤوسها. فلاحظ الصفحات ١٢٧ـ١٣٠، الطبعة الحديثة، وبسط الكلام في ترجمته في مادّة «أمين» قائلاً: بأنّ تصديره بـ«محمّد» للتبرّك وليس جزءاً من الاسم، وعلىٰ تلك الضابطة مشىٰ في جميع الكتاب، وتبعه غيره في بعض تآليفه.

حَنَّ قِدْحٌ ليس منها

هذا ولقد قام في هذه الآونة الأخيرة «علي حسين الجابري» من طلاّب كليّة الآداب في جامعة بغداد بتأليف رسالةٍ أسماها بـ«الفكر السلفي عند الشيعة الاثنا عشريّة»، حاول فيه أن يثبت أنّ الفكرالسلفي هو الفكر الإمامي الاثنا عشري الأصيل قبل أن تتداخل فيه الأهواء، وتتجاذبه الرياح العواصف، وقد طبع الكتاب ببيروت عام ١٩٧٧م، ونال بهذا المؤلّف درجة الماجستير من نفس الكليّة، وقد أطراه أُستاذه المشرف علىٰ تلك الرسالة «كامل مصطفى الشيبي» بقوله: لقد خاض الجابري في بحر مائج، وجهد كثيراً حتّى أخرج منه صيداً شهيّاً يتمثّل في هذا الكتاب الذي يغبطه كلّ باحث.

ونحن نقدّر جهد المؤلّف حيث إنّه أعدّ العدّة اللازمة لكتابة هذه المواضيع من تاريخ فقهنا المشرق، ولكن نؤاخذ عليه أُموراً:

١. إنّ السلفيّة لم تكن مذهباً خاصّاً ولا منهجاً معيّناً دارجاً بين المسلمين من غير فرق بين السنّة والشيعة، وإنّما هو من مبدعات ابن تيمية(المتوفّى ٧٢٨هـ) ومَن تبعه في القرن الثاني عشر كمحمّد بن عبد الوهاب (المتوفّى١٢٠٦هـ) وكانت الغاية من اختراع هذه الكلمة هو تبرير عقائدهما، فالتشبيه والتجسيم والجمود علىٰ حرفيّة الصفات الخبريّة كاليد والوجه لله سبحانه تعدّ جميعها أساساً لمذهب الأوّل، والمنع عن السفر إلىٰ زيارة النبي ﷺ وطلب الشفاعة منه يُعدّ أساساً آخر لمذهب الثاني، فأبدعا ذلك المصطلح في كتبهم أو نسبا ما ابتدعاه إلى السلف، ولمّا أخذت الدعوة الوهابيّة تنتشر في الأراضي المقدّسة تحت وطأة الترهيب والترغيب راج تداول لفظ السلفيّة بين أصحاب القلم ووسائل الإعلام.

وفي هذا الصدد يقول بعض المفكّرين من أهل السنّة: إنّ اختراع هذا

المصطلح بمضامينه الجديدة التي أشرنا إليها بدعة طارئة في الدين، لم يعرفها السلف الصالح لهذه الأُمّة، ولا الخلف الملتزم بنهجه. (١)

٢. إنّ الكاتب حاول أن يثبت أنّ مسلك الأخباريّة الذي ابتدعه محمّد أمين الاستر آبادي في أوائل القرن الحادي عشر كان استمراراً للسلفيّة التي كانت تغلب على الشيعة في عصر الأئمّة وحتّى بعد الغيبة إلىٰ أن انتهت إلى عصر أمين الأخباري، ثمّ إنّه لدعم ذلك أثبت لمعلّم الأُمّة «الشيخ المفيد» جانباً سلفيّاً وجانباً عقليّاً، وزعم أنّ تلميذه المرتضىٰ طوّر جانبه العقلي إلىٰ أن وصل إلىٰ ذروته، كما أثبت نظير ذلك لتلميذه الشيخ الطوسي، ولم يكتفِ بذلك حتّى قال في حقّ المحقّق: إنّه بغضّ النظر عن كلّ ما قيل عن دور المحقّق في ميدان التشريع الأُصولي والعقلي، تبقىٰ مسألة المحافظة السلفيّة عنده على الأحاديث واضحة، ربّما بتأثير بعض شيوخه، وقد حلّ كتابه «شرائع الإسلام» في حلقات الدرس الأُصولي ـ الاثنىٰ عشرية ـ بدلاً من كتاب «النهاية» للطوسي، وهذا يعني الكثير بالنسبة للفكر السلفي. (٢)

وما ذكره لا يبتني علىٰ أساس رصين، إذ كيف يتّهم الشيخ المفيد بجانب سلفي مع أنّه المتكلّم الذي يعتمد في إثبات الأُصول والعقائد على «العقل» و«البرهان»و يقضي في الأحاديث بالضوابط التي يقدّرها الأُصوليّون في أبحاثهم، وليس كتابه «المقنعة» دليلاً علىٰ كونه سلفيّاً. وقدعرفت أنّ مشاهير الفقهاء كانت لهم ألوانٌ مختلفةٌ من الكتابة، فللشيخ الطوسي كتاب «النهاية»، وفي الوقت نفسه كتاب «الخلاف» و«المبسوط»، كما إنّ تأليف «شرائع الإسلام» للمحقّق لا يمتّ إلىٰ كونه سلفيّاً بصلة، بشهادة أنّه كتب «المعتبر» أيضاً فالأوّل من المتون الفقهيّة

---

١. السلفيّة مرحلة زمنيّة: ١٣. و لاحظ: بحوث في الملل والنحل: ١/ ٣١٨ـ ٣٢٩.

٢. لاحظ: الفكر السلفي: ٢١٢و٢١٣و٢٣٧.

الخالية عن الاستدلال إلاّ قليلاً والثاني كتاب استدلالي مبني على الضوابط المقرّرة.

والعجب أنّ الكاتب يصرّ علىٰ أنّ الفكرة السلفيّة الرائجة بين أصحاب الأئمّة في القرون الثلاثة، والتي روّجها الأمين، لم تزل رائجة بين علماء الشيعة عبر القرون من عصر الكليني إلىٰ زمان الأمين، مع أنّه يصرّح بانقطاع الفكرة بعد رحيل الكليني إلى زمانه، وأنّه هو الذي أعاد الفكرة على الساحة بفضل إرشاد أُستاذه الشيخ محمّد الاستر آبادي مؤلّف الرجال الكبير والمتوسّط والصغير و إليك نصّ عبارته:

وأوّل من عقل عن طريقة أصحاب الأئمّة عليهم السلام و اعتمد علىٰ فن الكلام وعلىٰ أُصول الفقه المبنيَّين على الأفكار العقليّة المتداولة بين العامّة ــ فيما أعلم ــ محمّد بن أحمد بن الجنيد (المتوفّى ٣٨٥هـ) العامل بالقياس وحسن بن علي ابن أبي عقيل العماني المتكلّم، ولمّا أظهر الشيخ المفيد حسن الظنّ بتصانيفهما بين يدي أصحابه ـ ومنهم السيّد الأجلّ المرتضىٰ وشيخ الطائفة ـ شاعت طريقتهما بين متأخّري أصحابنا ـ قرناً فقرناً ــ حتّى وصلت النوبة إلى العلاّمة الحلّي فالتزم في تصانيفه أكثر القواعد الأُصوليّة للعامّة ثمّ تبعه الشهيدان والفاضل الشيخ علي (يريد المحقّق الكركي) (المتوفّى ٩٤٠هـ) رحمهم الله.[١]

ولو لاحظ الإنسان ذلك الكتاب «الفكر السلفي» لرأى أنّ المؤلّف أتى بمصادر جمّة في الهوامش، وربّما يتخيّل للقارئ معها أنّ الكاتب برهن علىٰ ما كتبه وسطّره بالمصادر والمآخذ، غير أنّه لا يجد في جميع ما كتبه حول القرون العشرة إلىٰ زمان الشيخ محمّد أمين الاستر آبادي دليلاً واضحاً علىٰ أنّ المسلك الأخباري بالمعنى الذي تبنّاه الاستر آبادي كان امتداداً لما كان عليه السلف في العصور السابقة، بل إنّ كلّ ما قاله الكاتب ليس سوى استنتاجات ونظريّات شخصيّة

١ . الفوائد المدنيّة: ٣٠، ط دار النشر لأهل البيت عليهم السلام .

تقصُر عن إثباتها، المصادر والمآخذ، ولأجل ذلك لا مناص للقارئ الكريم من أن يتّهم الاستر آبادي باختراع هذا المسلك، لأنّه لا يرىٰ له جذوراً بصورة منهج فقهي رسمي بين الأصحاب المتقدّمين على الاسترآبادي، كما على القارئ أن يتّهم الكاتب بأنّه يحاول إقصاء الشيعة عن مجال العقل والتعقّل، والفكر والتفكير، عبرَ رميهم بالسلفيّة واتّباع الظواهر من دون دراستها وتقييمها في عقليّة استنباطيّة اجتهاديّة، وبخاصّة أنّ الكتاب طبع في عهد النظام البعثي الذي يتبنّىٰ محاربة هذه الطائفة وتوجيه الضربات إليها، وهو يهيمن علىٰ مراكز الثقافة والفكر كالمعاهد والجامعات.

كيف لا وقد عرفت ـ في ما أسلفنا ـ علىٰ أنّ انقسام العلماء إلى أهل الحديث وأصحاب الاجتهاد لا يدلّ علىٰ كون الأوّل مسلكاً فقهيّاً أو عقائديّاً تبنّاه فحول الشيعة وأكابرهم، وإنّما كان ذلك تقسيماً للمسؤوليّات الدينيّة، وكلّ يختار ما يميل إليه ذوقه وتدعوه إليه فطرته.

بقي هنا شيء وهو تبيين المسلك الذي تبنّاه الأمين الاستر آبادي، وأوجد ضجّة كبرىٰ في العواصم الشيعيّة حتّى يكون القارئ علىٰ بصيرة من وهن هذا المسلك فنقول: إنّ مسلك الأمين الاستر آبادي يتكوّن من الأُمور التالية: [1]

١. عدم حجّيّة ظواهر الكتاب والسنّة

إنّ الأصل الأوّل من أُصول هذا المسلك هو عدم حجّيّة الكتاب الذي يعرفه سبحانه بأنّه: ﴿تِبيان كلّ شيء﴾ [2]، يقول الأمين الاستر آبادي: إنّ القرآن في الأكثر ورد علىٰ وجه التعمية بالنسبة إلىٰ أذهان الرعيّة، وكذلك كثير من السنن

---

١. ما جاء في المتن هو أُمّهات الفروق وأُصولها، وإلاّ فقد عرفت أنّ الفوارق تنتهي إلىٰ ثلاثين أصلاً.

٢. النحل: ٨٩.

النبويّة، وأنّه لا سبيل لنا في ما لا نعلمه من الأحكام النظريّة الشرعيّة أصليّة كانت أو فرعيّة إلاّ السماع من الصادقين عليهم السلام، وأنّه لا يجوز استنباط الأحكام النظريّة من ظواهـر كتاب الله ولا من ظواهـر السنّة النبويّـة ما لم يعلم أحوالهما مـن جهة أهل الذكر عليهم السلام بل يجب التوقّف والاحتياط فيهما.[١]

وقال في مـوضعٍ آخر: فإن قـال قائل: كيف عملكم معـاشر الأخباريّين في الظـواهـر القـرآنيّـة مثل قـولـه تعـالى: ﴿أَوفُوا بـالعُقود﴾[٢]، وقـولـه تعـالىٰ: ﴿أَو لامَسْتُمُ النِّساء﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿إِذٰا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[٤]. وفي ظواهر السنّة النبويّة مثل قوله صلى الله عليه وآله: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

قلنا: بأنّا نوجب الفحص في أحوالها بالرجوع إلىٰ كلام العترة الطاهرة عليهم السلام فإذا ظفـرنـا بـالمقصـود وعلمنـا حقيقـة الحال عملنـا بها، وإلاّ أوجبنـا التـوقّف والتثبيت.[٥]

يلاحظ عليه بأنّـه إذا دار الأمر بين الأخـذ بقـول الاستر آبادي في تـوصيف القرآن بـأنّه ورد في الأكثر علىٰ وجـه التعمية بالنسبـة إلى أذهان الرعيّـة، وبين قول الرسول وعترته. فنحن نأخذ بالثاني.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وإنّ علىٰ كلّ حقّ حقيقةً، وعلىٰ كلّ صوابٍ نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه».[٦]

وقال صلى الله عليه وآله: « أيّها الناس ما جاءكم عني يوافق كتابَ الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله».[٧]

---

١. الفوائد المدنيّة: ٤٧.

٢ و ٣ و ٤. المائدة: ١، ٦.

٥. الفوائد المدنيّة: ١٦٤.

٦. الكافي: ١/ ٥٥.

٧. الكافي: ١ / ٥٦.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كلّ شيء مردود إلى الكتاب والسنّة، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف». [١]

وإذا لم يكن الكتاب حجّة في مجال الإفتاء، فلماذا أرجع الأئمّة عليهم السلام الرواة، في تمييز الشروط الصحيحة عن غيرها، إلىٰ موافقة الكتاب ومخالفته، وقد تضافر عنهم قولهم: «المسلمون عند شروطهم»، إلاّ كلّ شرط خالف كتاب الله عزّوجل فلا يجوز. [٢]

إنّ توصيف الكتاب بعدم الحجّيّة في مجال العمل والعقيدة، إهانة كبيرة لحجّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزته الكبرىٰ، وقد وصفه سبحانه بأنّ فيه هدىً وبياناً وموعظة للمتقّين، قال سبحانه: ﴿هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوعِظَةٌ لِلْمُتَّقين﴾. [٣]

فلو لم يكن الكتاب مقياساً لتمييز الحقّ عن الباطل، ومرجعاً لاستنباط الأحكام، فلماذا قام الإمام الرضا عليه السلام بإفحام أبو قرّة المحدّث العامي حيث قال: رُوِينا أنّ الله قسّم الرؤية والكلام، فلموسى عليه السلام الكلام، ولمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية. فقال أبو الحسن عليه السلام: «فَمنِ المبلّغ عن الله إلى الثقلين من الجنّ والإنس (قوله تعالى) ﴿لا تُدرِكُه الأبصار﴾ [٤]، ﴿ولايُحِيطُونَ بِه عِلْماً﴾ [٥] و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾ [٦]، أليس محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال أبو قرّة: بلىٰ. فقال الإمام عليه السلام: «كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله، وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول:

---

١. الكافي: ١/ ٥٥.

٢. وسائل الشيعة ١٢: ٣٢٣، كتاب التجارة، الباب السادس من أبواب الخيار، الحديث ٢، وفي الباب أحاديث كثيرة في هذا المجال، فلاحظ.

٣. آل عمران: ١٣٨.

٤. الأنعام: ١٠٣.

٥. طه: ١١٠.

٦. الشورىٰ: ١١.

﴿لا تدركه الأبصار﴾، ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ و ﴿ليس كمثله شيء﴾، ثمّ يقول: «أنا رأيته بعيني، وأحطت به علماً، وهو علىٰ صورة البشر». [١]

وهذا هو حسن الصيقل يقول: قلت لأبي عبد الله: رجل طلّق امرأته طلاقاً لا تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره، فتزوّجها رجل متعة أتحلّ للأوّل؟ قال عليه السلام : لا، لأنّ الله يقول: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ [٢]، والمتعة ليس فيها طلاق [٣]، هذا ومن تتبّع أحاديث العترة الطاهرة، يجدها تسير جنباً إلىٰ جنب مع القرآن، تتمسّك بإشاراته فضلاً عن تصريحاته وظواهره،ولأجل ذلك كان أبو حنيفة يقول عن الإمام الصادق عليه السلام : «لقد كان كلامه انتزاعات من القرآن».

ولتعلم أنّ التمسّك بالظواهر لا يمتّ إلىٰ تفسير القرآن بالرأي بصلة.

٢. ادّعاء قطعيّة أحاديث الكتب الأربعة:

هذا هو الأصل الثاني الذي ذهب إليه الأخباريّون حيث جعلوا البحث عن حال الراوي من حيث الوثاقة وعدمها، أمراً لا طائل تحته، كما يكون تقسيم الأخبار من جانب الأُصوليّين إلى الأقسام الأربعة المعروفة، علىٰ طرف النقيض من هذا الأصل.

يلاحظ عليه: أنّ دعوى القطعيّة دعوىٰ بلا دليل، كيف لا؟ ومؤلّفو الكتب الأربعة لم يدّعوا ذلك، وأقصىٰ ما يمكن أن ينسب إليهم أنّهم ادّعوا صحّة الأخبار المودعة فيها، وهي غير كونها متواترة أو محفوفة بالقرائن، والمراد من الصحّة في

---

١. الكافي: ١/ ٧٤.

٢. البقرة: ٢٣٠.

٣. وسائل الشيعة١٥ :٣٦٩، كتاب الطلاق، الباب التاسع من أبواب أقسام الطلاق، الحديث ٤.

مصطلحهم اقترانها بقرائن تفيد الاطمئنان بصدورها عن الأئمّة، ولكن هل هذه الشهادة من المشايخ الثلاثة علىٰ صحّة روايات كتبهم حجّة لنا أو لا؟ التحقيق لا، لأنّ خبر العدل وشهادته إنّما يكون حجّة إذا أخبر عن الشيء عن حسٍّ لا عن حدس، والإخبار عن الشيء بالحدس لا يكون حجّة إلّا علىٰ نفس المخبِر، ولا يعدُو غيره إلّا في موارد خاصّة. ولأجل هذه النكتة نرىٰ أنّ المشايخ نقلوا الروايات بأسنادها حتّى يتدبّر الآخرون فيما ينقلونه ممّا صحّ لديهم، ولو كانت شهادتهم على الصحّة حجّة على الكلّ لما كان وجه لتحمّل هذا العبء الثقيل، أعني نقل الروايات بأسنادها.

٣. إنكار حجّيّة العقل في مجال الاستنباط

هذا هو الأصل الركين عند الأخباريّين وقد طعنوا به الأُصوليّين الذين ذهبوا إلى حجّيّة العقل في مجال الاستنباط، وسمّاه محمّد أمين الاستر آبادي «الاعتماد على الدليل الظنّي في أحكامه تعالى» وقد استنبط ذلك من مقدّمة وصفها بأنّها دقيقة وشريفة وقال: العلوم النظريّة قسمان، قسم ينتهي إلىٰ مادّة هي قريبة من الإحساس، ومن هذا القسم علم الهندسة والحساب، وأكثر أبواب المنطق، وهذا القسم لا يقع فيه الاختلاف، وقسم ينتهي إلىٰ مادّة بعيدة عن الإحساس ومن هذا القسم الحكمة الإلهيّة والطبيعيّة وعلم الكلام، وعلم أُصول الفقه، والمسائل النظريّة الفقهيّة، وبعض القواعد المذكورة في علم المنطق، ومن ثمّ وقع الاختلاف بين الفلاسفة ، في الحكمة الإلهيّة والطبيعيّة، وبين علماء الإسلام في أُصول الفقه والمسائل النظريّة الفقهيّة، وبعض القواعد المذكورة في علم المنطق، والسبب في ذلك هو أنّ القواعد المنطقيّة إنّما هي عاصمة عن الخطأ من جهة الصورة لا من جهة المادّة، وليس في المنطق قاعدة بها نعلم أنّ كلّ مادّة

مخصوصة داخلة في أيّ قسم من أقسام مواد الأقيسة، بل من المعلوم عند أُولي الألباب امتناع وضع قاعدة تتكفّل بذلك. [١]

يلاحظ عليه أوّلاً: بأنّ الأُصوليّين لا يعتمدون على الدليل العقلي الظنّي، بل يعتمدون على الأحكام العقليّة القاطعة التي اتّفقت عليها عقول الناس وفِطَرُهُمْ السليمة، ولا يخالف فيه أحد، إلاّ إذا كان متأثّراً بفكرةٍ مسبقة، وهي عبارة عن الأحكام القطعيّة التي يستقلّ العقل بها كما يستقلّ بوجود الصانع وصفاته، أو قبح إعطاء المعجزة للمتنبئ الكاذب، أو لزوم عصمة النبيّ ﷺ.

والاستلزامات العقليّة في أُصول الفقه لها دور خاصّ في استنباط الأحكام الكلّيّة، والكلّ ينبع من مسألة واحدة، وهي إدراك العقل للحسن والقبح العقليّين، وليس هذا شيئاً مبتدعاً، بل هو أمر يعتمد الكتاب والسنّة عليه في احتجاجاتها ومناظراتها، ويتّخذانها أصلاً مسلّماً.

أمّا الكتاب فالله سبحانه يقول: **﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾** [٢]، ويقول: **﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾** [٣]، ويقول: **﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاّ الإِحْسَانُ﴾** [٤]، ويقول: **﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾** . [٥]

---

١. الفوائد المدنيّة: ١٢٩و ١٣٠، ولكلامه بقيّة مَن أرادها فليرجع إليه، وكلامه يُعرب عن أنّه كان يعتمد على الحسّ وما هو قريب منه لا على العقل البَحت وما هو بعيد عن الحسّ، والعَجَب أنّ تلك الفكرة نفسها كانت تنمو في المغرب آنذاك، من دون أن تكون بين المفكّرين صلة ـ حسب الظاهر ـ كما سيوافيك فيما بعد.

٢. سورة ص :٢٨.

٣. القلم: ٣٥.

٤. الرحمن: ٦٠.

٥. الأعراف: ٢٨.

وهذه الآيات تستنطق فطرة كلّ إنسان وتنبّهها علىٰ أنّ هناك أُصولاً مسلّمة عند جميع أصحاب الفطرة و العقول، وهي حسنُ بعضِ الأشياء وقُبح البعض الآخر، وإنّ القرآن يعتمد في محاوراته عليها.

وأمّا السنّة: فيكفي في ذلك قول الإمام الطاهر موسى بن جعفر عليهما السلام لتلميذه هشام بن الحكم في حديث مفصّل: يا هشام، إنّ لله على الناس حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة فالعقول». [1]

وهذا الحديث وغيره يعرب عن موقف الإسلام السامي من الأحكام التي يستقلّ بها العقل شريطة أن يتجرّد عن الأفكار المسبقة، ويحكم حكماً باتّاً عقلانياً محضاً غير منبعث عن هذا الجانب، ويحترز عن بعض الأساليب التي منع الشارع من إعمالها عند استنباط الحكم الشرعي كالأقيسة والاستحسانات وغير ذلك من الظنون المحظورة الممنوعة، وعند ذلك يتلخّص دور العقل في مجال الاستنباط في الموارد التالية:

١. قبح العقاب بلا بيان، فتكون النتيجة الشرعيّة عدم لزوم الاحتياط.

٢. الاشتغال اليقيني يستلزم البراءة اليقينيّة، فتكون الوظيفة في مجال العلم الإجمالي هو الاحتياط.

٣. الملازمات التي يدركها العقل في عدّة موارد لو قلنا بها، كالملازمة بين وجوب الشيء ووجوب مقدّمته أو حرمة ضدّه إلىٰ غير ذلك ممّا للعقل إليه سبيل.

وثانياً: إنّ ما ذهب إليه الاسترآبادي من إفاضة الحجّيّة على الحسّ، وإقصاء العقل عن مجال النظر هو نفس ما ذهب إليه الحسّيّون من الأوربيّين،

---

١. الكافي:١/ ١٣ـ١٦، والحديث مفصّل مسهب، فراجعه.

وممّا يثير العجب أنّ هذه النظريّة اختارها الاستر آبادي في حين كانت النظريّة الحسّيّة رائجة في أوربا، وقد توفّي الاستر آبادي عام (١٠٣٣هـ)، (١٦٢٣م)، وقد توفّي ديكارت عام (١٦٥٠م). وقد كان هذا العصر عصر النهضة العلميّة المبنيّة على الحسّ والتجربة، والفيلسوف الفرنسي «ديكارت» وإن لم يعتمد على الحسّ من باب أنّه من أدوات المعرفة، غير أنّ النهضة العلميّة التي أيّدها «ديكارت»، وبعده «جان لوك» (١٧٠٤م)، كان عصر النهضة العلميّة الحسّيّة المبنيّة على الإيمان بالمحسوسات، ورفض المغيّبات والعقليّات، ولا أدّعي أنّ الشيخ الاسترآبادي تأثّر بتلك الموجة وإنّما هو من باب تداعي الخواطر.

هذه هي الأُصول المهمّة التي اعتمد عليها الأخباريّون وفي طليعتهم الأمين الاستر آبادي في مسلكه المبتدع الذي لا يمتّ إلىٰ مذهب السلف الصالح من علماء الإماميّة بصلة.

إزدهار المسلك الأخبارى بعد الأمين

ولقد أخذ المسلك الذي ابتدعه الشيخ الأخباري في الانتشار والذيوع، واشتهر خلال قرنين في المحافل العلميّة، حتّى تأثّر به عددٌ كبيرٌ من علماء الشيعة إلى عصر الأُستاذ الأكبر المحقّق البهبهاني (١١١٨ـ ١٢٠٦هـ)، وكانت الظروف آنذاك مناسبة لتنامي هذا المنهج لعللٍ لا يسع المجال لذكرها.

غير أنّ الأُستاذ الأكبر البهبهاني قد قضىٰ على تلك الفكرة، بفكره الناضج، وحججه الباهرة القاهرة، وجهاده المتواصل إلى أن رجع كثير من المتأثّرين بالمسلك إلى الطريقة الحقّة والمنهج الصحيح، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت من المسلك المذكور مخلّفات وآثار غير محمودة عند المتأخّرين من العلماء، فقام الشيخ مرتضى الأنصاري ﷺ بإزالة ما بقي من تلك الرواسب في الأذهان بكتبه القيّمة،

وأفكاره الناضجة، وبحوثه الرائعة التي ألقاها في النجف الأشرف، فاستتبّ الأمر للأُصوليّين، ولم يبق من أتباع المذهب المبتدع إلاّ صبابة كصبابة الإناء، تظهر بين آونةٍ وأُخرى.

ونحن علىٰ يقينٍ بأنّ إعادة هذه الفكرة إلىٰ حيز الوجود في الحوزات العلمية ما هي إلاّ مؤامرة حيكت لإفراغ التشيّع عن طابعه العلمي، الذي كان سلاحه في مواجهة أعداء الدين عبر القرون، ومن الواضح بمكان أنّ أيّ أُمّة إن لم تعر أهمية للعقل والبرهان لأضحت فريسة سائغة للاستعمار، فتذهب ثقافتها وثرواتها أدراج الرياح، وتصبح أُمّة مضطهدة مستعمرة لا تملك حولاً ولا قوة ولا، ولا.

حياة الشيخ الأنصاري وشخصيّته

قد صبَّ الشيخ الأعظم الأنصاري جهوده العلميّة لإرساء قواعد الفقه والأُصول في ضوء الكتاب والسنّة والعقل، واجتثاث أُصول المسلك الأخباري من خلال بحوثه وكتبه، فأداء لبعض حقّه، نقوم بترجمة موجزة لحياته وشخصيّته.

ولد ﷺ غدير عام (١٢١٤هـ) ينتهي نسبه إلىٰ جابر بن عبد الله الأنصاري، وقد سرد بعض شخصيّات أُسرته هكذا:

الشيخ مرتضىٰ بن الشيخ محمّد أمين بن الشيخ مرتضىٰ بن الشيخ شمس الدين بن الشيخ محمّد شريف بن الشيخ أحمد بن الشيخ جمال الدين بن الشيخ حسن بن الشيخ يوسف بن الشيخ عبيد الله بن الشيخ قطب الدين محمّد ابن زيد بن أبي طالب بن عبد الرزّاق بن جميل بن جليل بن نذير بن جابر ابن عبد الله الأنصاري.

وكأنّه يرومه الشاعر المفلِق ويقول:

شرفٌ تتابع كابر عن كابر   كالرمح انبوب علىٰ انبوب

فهو وليد الطاهر، ذو المجد الأصيل، يشهد نسبه علىٰ شرف أرومتـه. فنذير ابن جابر انتقل إلىٰ مدينة «تُستر» أبّان افتتاحها علىٰ يد عساكر الإسلام فألقىٰ رحل إقامتـه هناك وأسّس هـذه الأُسرة العلميّة التي لم تـزل تتلألأ في كلّ قـرن بمحدّث بارع، أو فقيه متضلّع، أو خطيب مِصْقَع رضوان الله عليهم أجمعين.

وأمّـا الشيـخ الأعلم فهـو النجم الـلامع بـل الشمس البـازغـة في سماء هذه الأُسرة الجليلة وهو من الفطاحل العظام الذين يضنّ بهم الدهر إلاّ في فترات متقطّعة متباعدة، قد قرأ الآليات [1] والسطوح العالية في مـوطنه «دزفول» وتخرج على يد عمّـه الشيخ حسين الأنصاري مـن أفاضل الأُسرة، ولكن لم تقنـع نفسه بما أخذ وتعلّم فيـه فأعدّ العدّة مع والده لـزيارة العتبات المقدّسـة عام (١٢٣٢) وله من العمر (١٨) سنة فورد كربلاء المقدّسة يوم كانت تزدحم حوزتها بفضلاء كبار، وعلماء فطاحل،وعلىٰ رأسه العلمان الجليلان:

١. السيّد محمّـد بن السيّد علي المعـروف بالسيّد المجـاهد مؤلّف «المنـاهل في الفقه» كما أنّ والده هو مؤلّـف «الرياض»، واشتهـر بالمجاهد لأنّه أفتىٰ بالجهاد ضدّ الاحتلال الروسي لبعض مدن إيران الشماليّة وتوفّي عام (١٢٤٣هـ).

٢. الشيخ محمّـد شريـف الآملي المازندراني المعروف بشريـف العلماء المتوفّىٰ عام (١٢٤٥هـ).وقد زار الشيخ بعـدما وصل كربلاء مع والده، السيّـد المجاهد، بإيصاء من عمّه وأُستاذه، لما كان بينهما من صلة وثيقة أيّام دراسته في العراق، فلمّا تعرّف السيّـد المجاهـد على الوالـد والولـد رحّب بهما، ثمّ انتهى الكـلام بينهم إلى مسألـة فقهيّة تكلّـم فيها الشيخ بـإذن والده، فظهـر نبوغـه وتوقُّـد فطنته للسيّـد المجاهد، وعند ذلـك طلب من والده أن يتركه في كربلاء المقدّسـة للدراسة وعليه

---

١. المراد من العلـوم الآلية ما يستخـدم آلة لفهم الكتـاب والسنّة أو إقامـة البرهنة كـالنحو و الصرف والبلاغة والمنطق.

رعـايته، فقبـل الـوالد، فـأقام الشيـخ أربع سنين فيهـا تـردّد خلالها إلىٰ حلقـات دروس العلمين الجليلين، إلىٰ أن احتلّ والي بغداد مـدينة كربلاء المقدّسـة بأمر من الخليفة العثماني، فغادر الشيخ مهجره ونزل الكاظميّة، فوجد هناك بعض مواطنيه فرجع معهـم إلى موطنه دزفـول فأقام هناك حـوالي سنة، ولكن كيف تستقـرّ نفس الشيخ في موطنه وقد ذاقت حلاوة العلم، وتعرّف علىٰ آفاقه المشرقة، فغادر الموطن لمواصلة الـدراسة في كـربلاء، فـأقام بها سنـة هاجـر بعدهـا إلى النجف الأشرف، فحضر هناك دروس المحقّق الشيخ موسى كاشـف الغطاء قرابة سنتين، ثمّ أحسّ في قرار ضميره أنّـه أخذ مـا يجب أخذه من أسـاتذة العـراق ولابدّ مـن التجوّل في المدن الأُخرى لعلّه يجد فيها بغيته، فرجع إلى إيران قاصداً موطنه «دزفول» وحدّث أهله بما يـرومه ويقصده، فواجـه المنع من جانب والدتـه، إلىٰ أن استقرّ رأيهما على الاستخـارة، ولمّا فتح الشيـخ المصحف الشريـف بطلب الهدايـة والخيرة وافـاه في صدر الصفحة قوله سبحانه:

﴿لا تَخافِي وَلا تَحْزَني إنّا رادّوهُ إلَيكِ وجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلين﴾ .[١]

فعند ذلـك لم تجد الأُمّ الحَنون بُـدّاً من التسليم والنزول عنـد رغبته فـودّعت ولدها داعيـة له بالسلامة والتـوفيق، وقد شدّت عضده بأخيـه الشيخ منصور وقد مثّلت بعملها هذا قوله سبحـانه: ﴿سَنَشُدُّ عَضدكَ بِأَخيكَ...﴾ .[٢] وكان ذلك في عام(١٢٤٠هـ).

رحلته العلميّة وتجوّله في البلدان

بـدأ الشيـخ بـرحلتـه العلميّـة حتّـى نـزل بلـــدة «بـروجـرد» يـوم كـانـت الرئاسـة العلميّة فيها للشيخ أسد الله البروجـردي مؤلّف «فوائد الأحكـام» المتوفّىٰ

١. القصص:٧.
٢. القصص:٣٥.

عام (١٢٧٠ هـ). فأقام هناك شهراً تـامّاً لم يجد فيها بُغْيَتَه فغادرها ونزل مدينة إصفهان يوم كانت الزعامة العلميّة لعالمها الوحيد السيّد محمّد باقر الشفتي ـ المعروف بحجّة الإسلام ـ وهو الرجل الورع الذي لم يكن تأخذه في الله لومة لائم، وقد لبّىٰ دعوة ربّه عام (١٢٦٠هـ). وقد جرت بينه وبين الشيخ مباحثات ومناظرات طلب منه على أثرها الإقامة والاشتغال بالتدريس هناك، ولكنّ الشيخ اختار المغادرة ومواصلة رحلته العلميّة حتّى هبط بلدة «كاشان» فنزل في بعض مدارسها وكان الزعيم العلمي فيها يومذاك، الشيخ أحمد النراقي مؤلّف «مستند الشيعة في أحكام الشريعة» الذي يعدّ خيرَ دليلٍ علىٰ براعته العلميّة ونبوغه في التفريع والبرهنة على الفروع وقد توفّي عام (١٢٤٥هـ) فوجد الشيخ أُمنيته هناك فأقام فيها أربع سنين حضر خلالها دروسه ونبغ في الفقه والأُصول علىٰ يديه كما اشتغل بالتأليف والتصنيف مضافاً إلى التدريس.

ولمّا عزم الشيخ علىٰ أن يغادر كاشان عام (١٢٤٤هـ) نال من أُستاذه الرؤوف إجازة مفصّلة أدّىٰ فيها حقّ الشيخ حيث وصفه بألقاب بديعة تُعرب عن إعجابه الشديد بتلميذه، وسيوافيك نزرٌ منها، ثمّ إنّ الشيخ ودّع أُستاذه وترك المدينة إلىٰ أن نزل مشهد الرضا عليه السلام فأقام هناك أشهراً قلائل ثمّ رجع إلىٰ طهران ومنها إلىٰ دزفول وقد استغرقت رحلته العلميّة ستّ سنوات، ثمّ وجد في نفسه شوقاً مؤكّداً للرحيل إلى العراق مرّة ثالثة، بعدما واجه بعض الأحداث المريرة في بلده، فهاجر إلى النجف عام (١٢٤٦هـ) وكانت يومذاك، المدرسة الكبرى للشيعة والتي تزدحم بآلاف الطلّاب والفضلاء الأساتذة وكانت الرئاسة العلميّة علىٰ عاتق العلمين الكبيرين:

١. الشيخ عليّ بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتوفّىٰ عام (١٢٥٤هـ).

٢. الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر المتوفّى عام (١٢٦٦هـ).

فقد تتلمذ الشيخ في رحلته هذه علىٰ يد كاشف الغطاء، إلىٰ أن استقلّ بالتدريس وطار صيته في أوساط النجف وأقبل علىٰ بحوثه العلميّة لفيف من العلماء والفضلاء، واشتهر بالنبوغ والتفوّق العقليّ إلىٰ حدّ عرفه الصغير والكبير بالعلم والفضل والتعمّق والدقّة.

صاحب الجواهر يختار الشيخ للزعامة

كان الشيخ محمّد حسن مؤلّف «الجواهر» الذي يعد أكبر موسوعة فقهيّة في فقه الإماميّة كتبت لحدّ الآن زعيماً علميّاً لا ينازعه أحد، وكان قد طعن في السنّ فلمّا أحسّ باقتراب أجله وأنّه يوشك أن يُلَبّي دعوة ربّه، أحضر ــ انطلاقاً من المسؤوليّة الكبرى التي كان يتحمّلها طوال سنين ـ أكابر الحوزة وعلماءها في بيته حتّى يتّخذوا قراراً بشأن زعامة الحوزة،والمرجعيّة الكبرىٰ للشيعة من بعده، فلمّا حضر العلماء تصفّح وجوههم فلم يرَ بينهم الشيخ الأنصاري، فأمر بإحضار الشيخ، فلمّا دخل مجلسه أخذ بيده وأحلّه إلىٰ جنبه ووضع يده علىٰ قلبه وقال: الآن طاب لي الموت، ثمّ أقبل على الحاضرين وقال: هذا مرجعكم بعدي. ثمّ خاطب الشيخ وقال: قلّل من احتياطاتك فإنّ الشريعة سمحة سهلة. وبذلك انتخب الشيخ بإيصاءٍ من مرجع رسميّ خضعت له القلوب والأفكار، للزعامة العلميّة والمرجعيّة، ثمّ بعد إنفضاض المجلس، قام الشيخ إلىٰ حرم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مبتهلاً عنده إلى الله سبحانه أن يعينه في هذه المسؤوليّة الخطيرة ويصونه من الزلل.

ولمّا لبّىٰ صاحب الجواهر دعوة ربّه، انتقلت إليه الزعامة بلا منازع، وقام بأعبائها بقلب سليم، واستمرّ في تسيير أُمور الجماعة، بحزم وحكمة وبإرادة صلبة لا تعرف الضعف والكلل، ولم يكن رائده إلاّ رضاه سبحانه وتعالى إلىٰ أن لَقِيَ ربّه

في ليلة السبت المصادفة ليلة الثامنة عشرة من شهر جمادى الأُخرىٰ من شهور عام (١٢٨١هـ)، وشيّع جثمانه الطاهر جميع العلماء، وفي طليعتهم تلاميذه الأكابر، ودفن في حجرة من حجرات الصحن الحيدري الشريف، وتقع مقبرته علىٰ يسار الخارج من الباب الجنوبي للحضرة العلويّة المقدّسة.

هذه هي إلمامة عابرة وعرض خاطف عن حياة الشيخ الأنصاري الذي كرّس حياته في التدريس والتأليف وإعداد الفضلاء وتربية المجتهدين، وإرساء دعائم النهضة العلميّة الدينيّة الحديثة التي تُعدّ بحقٍّ ثورة علميّة كبرى قلّما اتّفق نظيرها في العصور السابقة.

ولكي يقف القارئ على عظمة الشيخ في مجال العلم والفضل، وعلوّ كعبه في صعيد الزهد والتُّقىٰ، نأتي ببعض الكلمات الصادرة من أساتذته وتلامذته حتّىٰ يكون كالمستشف للحقيقة عن كثب.

كلمات الإطراء وجُمَل الثّناء في حقّه

كتب الشيخ النراقي إجازة مفصّلة له، وصفه فيها بقوله: «وممّن جدّ في الطلب وبذل الجهد في هذا المطلب، وفاز بالحظّ الأوفر الأسنىٰ،وحظا بالنصيب المتكاثر الأهنىٰ، مع ذهن ثاقب، وفهم صائب، وتدقيق وتحقيق، ودرك غائر رشيق، والورع والتقوىٰ والتمسّك بتلك العروة الوثقىٰ، العالم النبيل والمهذّب الأصيل، الفاضل الكامل والعالم العامل، حاوي المكارم والمناقب،والغائر بأسنى المواهب، الألمعيّ المؤيّد، والسالك طرق الكمال للأبد، ذو الفضل والنُّهىٰ والعلم، الشيخ مرتضى بن الشيخ محمد أمين الأنصاري التستري أيّده الله بتأييده،وجعله من كُمّلِ عبيده، وزاد الله في علمه وتقاه وحيّاه بما يرضاه، وقد استجاز بعدما تردّد إليَّ وقرأ عليَّ وتبيّنت فضيلته لديَّ، ولمّا كان أيّده الله سبحانه

لذلك أهلاً، و إنجاح مسؤوله فرضاً لا نفلاً ، فأجزت له أسعد الله جدّه وضاعف كدّه وجدّه أن يروي عنّي كتاب نهج البلاغة». [١]

وقال عنه المحدّث النوري (المتوفّى ١٣٢٠هـ)، بعدما ذكر أنّ نسبه ينتهي إلى جابر بن عبد الله الأنصاري: ومن آثار إخلاص إيمان «جابر» وعلائم صدق ولائه أن تفضّل الله تعالى عليه وأخرج من صلبه مَنْ نَصرً الملّة والدين بالعلم والتحقيق والدقّة، والزهد والورع والعبادة والكياسة، بما لم يبلغه من تقدّم عليه ولا يحوم حوله من تأخّر عنه. وقد عكف علىٰ كتبه ومؤلّفاته وتحقيقاته، كلّ من نشأ بعده من العلماء الأعلام والفقهاء الكرام، وصرفوا هممهم، وبذلوا مجهودهم، وحبسوا أفكارهم وأنظارهم فيها وعليها، وبعد ذلك معترفون بالعجز عن بلوغ مرامه فضلاً عن الوصول إلى مقامه جزاه الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير جزاء المحسنين. [٢]

ووصفه سيّدنا العلاّمة السيّد محسن الأمين (المتوفّى ١٣٧٣هـ) في أعيان الشيعة بقوله: الأُستاذ الإمام المؤسس، شيخ مشايخ الإماميّة، وقد انتهت إليه رئاستهم العامّة في شرق الأرض، وغربها، وصار علىٰ كتبه ودراسته، معوّل أهل العلم، لم يبق أحد لم يستفد منها، و إليها يعود الفضل في تكوين النهضة العلميّة الأخيرة في النجف الأشرف، وكان يملي دروسه في الفقه والأُصول، صباح كلّ يوم وأصيله في الجامع الهندي، حيث يغصّ فضاؤه بما ينيف على الأربعمائة من العلماء. [٣]

---

١. الإجازة مذكورة برمّتها في كتاب شخصيّة الشيخ الأنصاري: ١٢٠ـ١٣٠ .والمؤلّف من أحفاد أخي الشيخ الأنصاري المعروف بالشيخ منصور الذي شدّت أُمّ الشيخ عضده به.

٢. مستدرك الوسائل ٣: ٣٨٣و٣٨٤.

٣. أعيان الشيعة ١٠ :١١٨.

ولـو أردنـا سرد كلمات الإطراء في حقّـه لطـال بنـا الموقف هنـا مع القـارئ الكـريم مـع أنّ المقـام لا يسع، ولأجل ذلـك نكتفي بكلمات درّيّـة وجمل مضيئـة نختارها من الشخصيّات الكبيرة من أعلام الشيعة والسنّة.

١ . قال عنه الشيـخ علي كاشف الغطاء (المتوفّى ١٢٥١هـ) أُستاذ الشيخ: كلّ شيء سماعه أعظم من عيانه إلاّ الشيخ مرتضى فإنّ عيانه أعظم من سماعه.

٢ . وقال عنه السيّد حسين البروجـردي(المتوفّى ١٢٦٧هـ) المعاصر للشيخ في أُرجوزته المعروفة بـ «نخبة المقال في علم الرجال»:

و ابـن أمين مـرتضـى الأنصـاري   شمـس الشمـوس قـدوة الأخيـار

٣. وقـال أُستـاذي الكبير السيّـد محمّـد الحجّـة الكـوه كمـري(١٣٠١ـ ١٣٧٢هـ) في درسه الشريف ما ترجمته:

قـد أشعل الشيخ مشعـلاً منيراً في طريق العلـم، وهو أعـزّ ما تـركه بعـده، والكلّ من بعده، على ضوء ذلك المشعل المنير، يسيرون، وبضوئه يستنيرون.

٤ . ونقل عن الـدكتور عبد الـرزّاق السنهوري، مؤلّف «الـوسيط» في عشرة أجـزاء، الذي شرح فيـه القـانون المدني لمصر، وبـدأ بتأليفـه عام (١٩٣٦م) وقـد تجاوب هذا الكتاب مع حـاجات العصر ونال شهرة كبيرة في البلاد العـربيّة حتّى صـار يضرب به المثل في الـدقّة والعمـق، أنّه قـال: كما حدّثنـي الثقات نقـلاً عن بعض أساتذه كليّة الحقوق ببغداد: «لو كنت اطّلعت علىٰ كتاب المكاسب للشيخ الأنصـاري قبل تـأليف «الـوسيـط» لغيرّت الكثير من آرائي في مـا كتبتـه حـول المعاملات».

إلى غير ذلك من جمل الإطراء، وكلم الثناء التي لا تستطيع تحديد شخصيّة عظيمة مثل الشيخ الأعظـم وكأنّي بأبي الفتح البستي الشاعر المفلق يـريد الشيخ

الأعظم بقوله:

لا يُدرك الواصف المُطْري خصائصَه — وإن يكن سابقاً في كلّ ما وصفا

نعم هو الجوهر الفرد الذي لا ينتج له الزمان مثيلاً إلاّ في البرهة بعد البرهة، أو في القرن بعد القرن وكان ﷺ مركز الدائرة للفضائل، فخطوط المكارم المنتهية إليه سواء لا توصف بالطول ولا بالقصر كيف وهو حسب قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قد أحيىٰ عقله، وأمات نفسه حتّى دقّ جليله ولطُف غليظه.[1]

تآليفه وتصانيفه

قد ترك الشيخ آثاراً جليلة لم يزل بعضها مدار الدراسة والبحث في جامعات الشيعة، وهو يعطي لكلّ موضوع في كلّ تأليف صبغته الجديدة وقد طبع أكثرها، ونحن نشير إلى أسمائها على وجه الإجمال:

١. رسالة في الإرث، ٢. رسالة في التقيّة، ٣. رسالة في التيمّم، ٤. رسالة في الخمس، ٥. رسالة في قاعدة الضرر والضرار، ٦. رسالة في القضاء عن الميّت، ٧. رسالة في المواسعة والمضايقة، ٨. رسالة في التسامح في أدلّة السنن(طبعت أيضاً في ضمن حاشية الأوثق على الرسائل، ٩. رسالة في قاعدة من ملك شيئاً ملك الإقرار به[2]، ١٠. رسالة في مناسك الحجّ، ١١. تعليقة علىٰ استصحاب القوانين، ١٢. تعليقة على نجاة العباد، ١٣. تعليقة على بغية الطالب، ١٤. رسالة في علم الرجال، وهي تقرب في الحجم من خلاصة العلاّمة في ذلك العلم وتوجد نسخة منها في مكتبة الإمام الرضا عليه السلام وقد فرغ منها الكاتب عام وفاة الشيخ

---

١. نهج البلاغة، شرح محمّد عبده، الخطبة ٢١٥.

٢. هذه الرسائل طبعت إمّا في آخر المكاسب بعنوان الملحقات أو مع «مطارح الأنظار» لتلميذه المعروف بالكلانتري.

(١٢٨١هـ)، ١٥. رسالة في الردّ على القائلين بقطعيّة الأخبار، وقد أشار إليه الشيخ في رسالة الظنّ من فرائده، ١٦. رسالة في القرعة، ١٧. تعليقات على «عوائد» أُستاذه النراقي، ١٨. كتاب الطهارة، وهو كتاب إستدلالي مبسوط مطبوع منتشر وقد علّق عليها تعليقات منها تعليقات شيخنا الوالد الشيخ محمّد حسين السبحاني المتوفّىٰ عام (١٣٩٢هـ) وفي هذه الرسائل شواهد جليّة على نضوج رأيه، وصفاء ذهنه. وعلى أنّه كان لا يترك في كلّ مسألة فقهيّة أو رجاليّة سؤالاً لسائل، ولا مجالاً لقائل، وتغلبُ على جميعها روح التحقيق والإمعان و إقناع القارئ فيما يرومه ويهدف إليه. وقد أفرغها الشيخ في قالب التأليف بقلم سيّال من غير إيجاز مخلّ ولا إطناب مملّ. ولكن السبب الذي جعل الشيخ في زمرة القلائل من العلماء هو ما نذكره من آثاره الجليلة.

١٩. **الفرائد:** المشهور بالرسائل، هذا الكتاب مؤلّف من رسائل مختلفة، طبعت في مجلّد واحد تبحث عن أحكام القطع والظنّ، وتحدِّد مجرى أصل البراءة والاشتغال، وتبحث عن الاستصحاب وعن أحكام التعادل والتراجيح، وقد صار هذا الكتاب منذ اشتهاره في الحوزات العلميّة، مداراً للدراسة وقد أكبّ علىٰ تدريسها وتحشيتها كثير من تلامذة الشيخ وتلامذة تلامذته وربّما يربو عدد التعاليق علىٰ (٦٥) تعليقة. [١]

والحقّ أنّ الشيخ خدم العلم وأهله بهذا الكتاب القيّم خدمة عظيمة، وذلك لأنّه قام:

أوّلاً: بتحرير أحكام القطع والظنّ، وقد قسّم الظنّ إلى ظنّ خاصّ وظنّ

---

١. الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة: ٦/ ١٥٢، فما بعد مادّة «الحاشية» وقد سقط من قلمه الشريف بعض التعاليق الموجودة في خزائن الكتب كما أنّه لم تسجل فيها التعاليق التي أُلّفت في الأعصار المتأخّرة وممّا سقط من قلمه الشريف حاشية «إرشاد الأفاضل» للوالد ﷺ.

مطلق وأعطى الكلّ حكمه.

وثانياً: قام في رسالة البراءة والاشتغال بتبيين مجاريها وقد كانت غير منقَّحة في كلمات السابقين فربّما كانوا يتمسّكون بالبراءة في موضع الاشتغال، كما يتمسّكون به في موضع البراءة أضف إلى ذلك أنّه قرّر موقف الدليل الاجتهادي من الأصل العملي فاستنتج أنّه لا يمكن أن يحتجّ بهما معاً لحكومة الدليل الاجتهادي على الأصل العملي.

وثالثاً: قام في رسالة الاستصحاب بعقد تنبيهات بعد الفراغ من إثبات حجّيته بالأخبار. أودع الشيخ فيها أفكاره الناضجة وآراءه البديعة ،فمن راجعها رأىٰ أنّه المؤسّس للكثير من القواعد الواردة فيها وإن كان لبعضها جذور في كلمات من تقدّم عليه فلاحظ ما دبّجه بقلمه الشريف حول الاستصحاب الكلّي بأقسامه، والاستصحاب التعليقي وعدم حجّيّة الأصل المثبت [1] والاستصحاب السببي والمسبّبي على وجه تجدها برّمتها أفكاراً لم تقرط بها أذن الدهر قبل ذلك قطّ.

٢٠. المتاجر المعروفة بالمكاسب: هو الكتاب الثاني الذي عليه مدار الدراسة والبحث في الحوزات العلميّة، وهو كتاب عظيم جليل لم يسمح الدهر بمثله ،يبحث عن أحكام المكاسب المحرّمة أوّلاً ، ثمّ عن أحكام البيع ثانياً ، ثمّ عن أحكام الخيارات والشروط ثالثاً ، ثمّ عن أحكام القبض والنقد والنسيئة رابعاً ، وهناك بحوث طرحها الشيخ خلال الكتاب لمناسبات اقتضاها المقام، ففيها دقائق علميّة تعرب عن كون الكتاب وليد فكر خارق للعادة، والمؤلّف لا يغوص

---

١. ربّما يشير صاحب الجواهر إلىٰ عدم حجّيّة الأصل المثبت، لاحظ ٣١: ١٣٤ و٣٦٤ من كتاب «جواهر الكلام»، ولهذه المسائل جلّها أو كلّها جذور في كلمات الأصحاب، إلاّ أنّه حقّقها وحرّرها بنحو بديع وبمثال غير سابق.

في بحار الفقه إلّا ويخرج بالدرر والدراري والجواهر الثمينة وقد تعرّفت علىٰ كلام الدكتور عبد الرزاق السنهوري مؤلّف : الوسيط: في حقّ الكتاب ولأجل ذلك يعدّه المحقّق المامقاني من أحسن كتب الشيخ وأثمنها. [١]

وللكتاب تعاليق قيّمة ذكرها الشيخ الطهراني في ذريعته [٢]، وربّما تربو علىٰ ٣٠ تعليقة، وأحسن التعاليق تعليقة السيّد الطباطبائي ﷺ.

٢١. **رسالة في الاجتهاد والتقليد**، طبعت في مجموعة رسائل فقهيّة وأُصوليّة عام ١٤٠٤هـ. ق. ومن الطريف أنّ الشيخ الأعظم مع أنّه كان ضعيف البصر وربّما كانت المطالعة في الليالي أمراً صعباً عليه، قد كتب مصحفاً كاملاً بخطّه الشريف وهو موجود بين أحفاده، حشره الله مع القرآن والعترة.

تلامذته

قد تعرّفت من كلام سيّد الأعيان علىٰ أنّ الشيخ كان يلقي دروسه في الجامع الهندي في النجف الأشرف ويغصّ فضاؤه بما ينيف على الأربعمائة من العلماء والطلّاب، فقد تخرّج عليه كثير من الفقهاء والمجتهدين الذين تسنّموا منصة الزعامة العلميّة والرئاسة الدينيّة بعد رحلة الشيخ نظراء: الميرزا الشيرازي (المتوفّى ١٣١٢هـ)، والسيّد حسين الكوهكمري(المتوفّى ١٢٩٩هـ)، والشيخ موسى التبريزي مؤلّف «أوثق الوسائل» (المتوفّى ١٣٠٧هـ)، والحاج ميرزا حبيب الله الرشتي (المتوفّى ١٣١٢هـ)، والشيخ حسن المامقاني(المتوفّى ١٣٢٣هـ)، والشيخ محمّد الشربياني (المتوفّى ١٣٢٢هـ)، والشيخ علي النهاوندي (المتوفّى ١٣١٧هـ)، والشيخ علي العلياري(المتوفّى ١٣٢٧هـ)، والشيخ محمّد كاظم الخراساني (المتوفّى

---

١. غاية الآمال، للشيخ حسن المامقاني المتوفّىٰ ١٣٢٣.

٢. الذريعة٣: ٢١٦ـ ٢٢١.

١٣٢٩هـ)، إلى غير ذلك من علماء أجلاّء ﷺ.

وقد أتىٰ صديقنا الحجّة الشيخ مرتضى الأنصاري (دام مجده) في كتابه بأسماء كثير من تلامذة الشيخ مع تراجمهم فبلغ (٣١٥) تلميذاً بارعاً[1]. وقد أغنانا كتابه عن الإيعاز إلى أسمائهم فضلاً عن الإشارة بفضائلهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

١. لاحظ شخصيّة الشيخ الأنصاري: ١٦٨ ـ ٣١٥.

١٦

زين العابدين الگلپايگاني

المعروف بـ «حجة الإسلام» (١٢١٨ ـ ١٢٨٩ هـ)

العلم شمس طالعة، تبدد الظلم الحالكـة، وتمزق أستار الغياهب المدلهمّة، والعلماء حملة مشـاعل النور بين الأُمّة، يضيئون العقـول بأنوارا لمعرفـة ، ويكشفون عن الطرق المثلى لبناء حياة سعيدة رغيدة تُحيىٰ فيها الفضائل وتموت الرذائل.

إنّ بين العلماء نوابغ قلائل يضنُّ بهم الدهر إلاّ في فترات متقطّعة ومتباعدة وهؤلاء يُعدّون من حملة مشاعل النور ونبارسه ومصابيحه.

ومن تلـك الزمـرة والنمـوذج الأمثل لهؤلاء شيخنا العـلاّمـة الحجّة آيـة الله العظمى الآخوند مـلاّ زين العابدين الكلبايكاني المعـروف بـ«حجّة الإسلام» فقد كان من نوابغ عصره وفطاحل زمانه، وقد حقّت له العبقريّة والنبوغ.

ولد ﷫ في موطنه كلبايكان عام ١٢١٨ هـ. ق وأخذ هناك الأوّليات وتعلّم السطوح العـالية ثمّ انتقل لتكميل دروسه إلى مـدينة إصفهان فتلقّى فيهـا دروساً على يد المحقّق الشيخ محمّد تقي صاحب الحاشية (المتوفّـى ١٢٤٨هـ) ولم تقنع نفسه الكريمـة بما اكتسبه من العلوم فغادر إصفهـان إلى المدرسة الكبرى للشيعة: النجف الأشرف وأخـذ هناك عن أعـلام عصره مثل الشيخ علي كاشـف الغطاء ـ نجل الشيـخ جعفر الكبير ـ والشيخ محمّـد حسـن صاحـب الجواهر (المتوفّـى

١٢٦٦هـ) وغيرهما من أساتذة الوقت وأعاظم العصر إلى أن استقلّ بالتدريس وتخرّج على يديه لفيف من المحقّقين الكبار، نظراء: السيّد حسين الكوهكمري (المتوفّى ١٢٩٩هـ) والسيّد ميرزا حسن الشيرازي (المتوفّى١٣١٢هـ) إلى غيرهما من الأكابر الأعلام، ثمّ انتقل إلى موطنه قائماً بالوظائف الدينيّة ومكبّاً على الدراسة والكتابة حتّى انتقل إلى جوار ربّه عام ١٢٨٩ [١] وترك ثروة علميّة كبيرة مازالت مخطوطة كالكنوز الثمينة تحت أطباق الثرى.

ما قيل في حقه:

١. مجتهد فحل ومرجع لجميع أهل الفضل، وكان جميع أفاضل عصره ومجتهدي زمانه يعدّون أنفسهم دونه في الفقاهة والاجتهاد، كان ﷺ على ما حكي متخصّصاً في اثني عشر فنّاً، كما كان البعض يعتقد بأنّه كان صاحب الكرامات والمكاشفات، غير أنّ نطاق التحرير في هذه الرسالة لأضيق من أن يحيط بترجمة هذا الفقيه الأعظم، وأقصر من أن يقوم بالواجب نحوه، فليس عندنا عبارة تفي بحقّ أمثال هؤلاء من الرجال مع رعاية الاختصار.

توفّي ـ قدّس الله روحه ـ عام ألف ومائتين وتسعة وثمانين. [٢]

٢. النحرير الصمداني ملاّ زين العابدين الجرفادقاني [٣] كان في العلوم بحراً خِضَمّاً، وبين العلماء فقيهاً معظّماً، أعلم الفقهاء على اليقين، رئيس الملّة

---

١. حكى العلامة الحجّة السيد أحمد الحسيني الأشكوري في حاشية النسخة المطبوعة من «الكرام البررة» للمحقّق آغا بزرگ الطهراني عن الورقة الأُولى من كتاب شرح الشرائع للمولى علي بن عبد الغفار الموجودة في مكتبة المرعشي: انّ الشيخ زين العابدين الگلپايگاني توفي بعد مضي ساعتين من يوم الثلاثاء ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٨٩.

٢. المآثر والآثار: الباب العاشر، ص ١٤٦ باللغة الفارسية، وقمنا بترجمته حرفياً.

٣. معرب گلپايگان.

والـدين وأورع المتورعين، وأزهـد الزاهـدين عقمت الأرحـام عن مثلـه، ولم يسمع الـدهر بنظيره، وقـد تشرفت في سـالف السنـوات ـ بعـد أن رجعت من العتبـات العاليات ـ بخدمته، وساعدني التوفيق على إدراك فيض حضرته، وقد كتبت إليه ـ بعد وفاة الشيخ مرتضى الأنصاري ـ جماعـة من أكابر تلامذته، منهم الحاج ميرزا حسن الشيرازي والحاج السيّدحسين الترك يلتمسون منه الهجرة من جرفادقان إلى النجف الأشرف، ليستفيدوا من علـومه وأفكاره، فلم يجب سؤلهم معتذراً بـأنّه قد طعن في السن، ولا تساعده الحال على البحث والتدريس.

وقد كـان زاهداً بعيداً عن زخارف الـدنيا، مجتنباً عن معـاشرة أرباب القيل والقـال، وقد أوصـاني ﷺ بإقـلال المعارف، وتـرك التصدي للمـرافعة والقضـاء والابتلاء بمخالطـة أبناء الزمان، ولا سيّما الحكّام والأُمـراء، وله مصنّفات كثيرة في الفقه والأُصول والمعارف والمنقول من جملتها كتـاب «الأنوار القدسيّة» وقد تلقّاها الفحول بالقبول. [١]

٣. العلاّمة المشهور في گلپايگان، هاجر إلى إصبهـان، وأخذ عن الشيخ محمد تقي صاحب حاشية المعالم، ثمّ ارتحل إلى كربلاء وتتلمذ على شريف العلماء وصاحب الفصـول، ثمّ هاجر إلى النجف وأخذ الفقـه عن الشيخ علي بن الشيخ جعفر، ثمّ عن صاحب الجواهر، ثمّ عاد إلى بلده، وتصدر التدريس.

له من المؤلّفات: ١. شرح الدرة النجفيّة لبحر العلوم، ٢. صلاة المسافر، ٣. صـلاة الجماعـة، ولم تكـن الـدرة مشتملـة عليهما. ٤. شرح أسماء الله الحسنـى، ٥. روح البيان، باللغـة الفارسيّة، ٦. كتاب النكـاح والمتاجر، ٧. الأنوار القـدسيّة في الفضـائل الأحمديّـة، ٨. تفسير قولـه سبحـانـه: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَـلائِكَتَـهُ يُصَلُّـونَ عَلَى النَّبيّ﴾.

---

١. لب الألقاب في ألقاب الأطياب للشيخ العارف حبيب الله الشريف الكاشاني: ١٠٦.

يروي عن صاحب الجواهر، ويروي عنه جماعة منهم المجدد الميرزا الشيرازي.[1]

٤. عالم وفقيه جليل، كان من أعاظم رجال الدين وأكابر فقهاء الطائفة، ولد في سنة ١٢١٨، واشتغل في إصفهان على الشيخ محمّد تقي صاحب «حاشية المعالم» وبعد وفاته تشرف إلى العتبات المقدسة في العراق فحضر في النجف الأشرف على الشيخ علي كاشف الغطاء صاحب «الخيارات» والشيخ محمّد حسين الإصفهاني صاحب «الفصول» والشيخ محمّد حسن صاحب «الجواهر» حتّى بلغ في الفقه وأُصوله مكانة سامية وأصبح على جانب عظيم من التحقّق والتبحّر.

عاد إلى گلپايگان فرأس وأصبح من مراجع الدين وأعلام المسلمين، واشتغل بالتدريس والتأليف وترويج الدين ونشر لواء المذهب إلى أن انتقل إلى رحمة الله في الحادي عشر من ربيع الأوّل سنة ١٢٨٩.

له آثار جليلة منها: «شرح الدرة» للسيّد مهدي بحر العلوم وهو مبسوط، وقد ضمّ إليه بابي صلاة المسافر وصلاة الجماعة غير الموجودين في الدرة، وقد تمّا في قرب مائة ألف بيت، وله «كتاب النكاح» و«كتاب المتاجر» و«روح الإيمان» فارسي و«الأنوار القدسيّة» ومجموعة على نهج الكشكول ذات فوائد كثيرة و«الوارد» في الغيبة، إلى غيرها، والجميع عند ولده العالم الجليل الميرزا محمّد مهدي المدعو بـ «آقا زاده» ويروي عن مشايخه المذكورين ويروي عنه شيخنا العلاّمة الميرزا حسين الخليلي بالإجازة منه، فقد أدركه في سفره إلى إيران في گلپايگان كما حكاه عنه السيّد حسن الصدر في إجازته لي.[2]

هذا بعض ما قيل في حقّه، غير أنّه ـ كما اعترف به معاصره صاحب المآثر

١. أعيان الشيعة: ٧/ ١٦٤.

٢. الكرام البررة للمحقّق الشيخ آغا بزرگ الطهراني: ٢/ ٥٨٧.

والآثار ــ فوق هذه الأوصاف والتحديدات، كيف لا وآثاره الباقية الخالدة على جبين الدهر تدلّ على أنّ شيخنا المترجم له كان أوحديّ عصره وإن عاقد سمطها هو الّذي استحلب صفو درتها، واستخرج إليهم من درتها.

تجاوز حدّ المدح حتّى كأنّه ... بأحسن ما يثنىٰ عليه يعاب

ولأجل ذلك نطوي الكلام والايعاز إلى سماته ونكتفي بنقل هذه الحكاية: حدّثنا شيخنا آية الله الصافي عن الآية العظمى الحاج السيّد أحمد الخونساري (المتوفّى ١٤٠٥هـ) عن العلاّمة الحجّة الحاج روح الله كمالوند الخرّم آبادي (المتوفّى١٣٩٧هـ) عن فقيه الطائفة وفقيد الإسلام آية الله العظمى السيّد حسين البروجردي (المتوفّى ١٣٨٠هـ) هذه الحكاية البديعة:

في إحدى الحروب الداخليّة الّتي وقعت في عهد الملك الإيراني «ناصر الدين شاه» كانت قواته تواجه الفشل والاخفاق، ورغم سعي جيوشه للظفر على أعدائه كانت الخيبة حليفة لهم فطلبت القيادة العسكريّة الامداد من الملك، فسأل الملك عن سبب إخفاق قواته وفشلها، فوافاه الجواب بأنّ جنوده الّذين يقاتلون في هذه المعركة من مقلّدي حجّة الإسلام الشيخ زين العابدين الگلپايگاني وهو يحرم هذا القتال. فاستدعاه الشاه إلى طهران حتّى يعاتبه على هذا التحريم، فلمّا قدمها نزل على العالم الكبير الطائر الصيت الحاج ملاّ علي الكني (المتوفّى ١٣٠٦هـ) وكان آنذاك كبير علماء طهران، ولقي عنده حفاوة بالغة، ثمّ تقرر أن يتمّ لقاء بين الشيخ زين العابدين والشاه، وقدكان من نيّة الشاه أن يعترض عليه بشدّة وعنف، ولمّا رأى رجال البلاط أنّ «الكني» رافقه عند مجيئه إلى الشاه قام الملك بترحيب حارّ به. فلمّا انتهى المجلس وخرج الضيوف من البلاط سأل بعض المقربين من الشاه عن سرّ عدوله عمّا نواه أوّلاً، فأجاب الملك بأنّي رأيت عند دخوله إلى قصري كأنّ رجلاً قد شهر سيفه يمشي

إلى جانبه، فقلت في نفسي سيأخذه شرطة القصر مهما كان، ويقبضون عليه، إلاّ أنّني لم أر أحداً يتعرض له قط، فقد كان يمرّعلى الحرس من دون أن يقابله أحد، حتّى دخل عليّ بهذه الهيئة، ثمّ قال ـ أي ذلك الرجل الحامل للسيف ـ لي: إيّاك أن تسيء إلى هذا الشيخ، أو قال: إن تعرضت إليه بإساءة قتلتك بسيفي هذا أو قطعت عنقك، ولهذا لم أجرأ على المساس بالشيخ، أو الازدراء به، وقمت له بالاحترام اللازم وعاملته بأحسن ما يليق به من الأدب.

و من أشهر تصانيفه كتاب «أنوار الولاية» الذي يشتمل على ثمان رسائل:

الرسالة الأُولى: في شرح حديث ما روى عن رسول الله ﷺ: «لو اجتمع الناس على حبّ عليّ عليه السلام ما خلق الله النار» وقد ألّفها في الحائر الشريف الحسيني ثمّ أكملها بعد أعوام.

الرسالة الثانية: في تحقيق الصراط.

الرسالة الثالثة: في شرح حديث الضبّ، وفيها الحثّ على التشبّه بأولياء الله المعصومين.

الرسالة الرابعة: في علم المعصومين عليهم السلام وسعة علومهم.

الرسالة الخامسة: في شرح حديث المعرفة.

الرسالة السادسة: في بيان معنى الحبّ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام.

الرسالة السابعة: في تحقيق القول في علم المعصومين عليهم السلام.

الرسالة الثامنة: في شرح الخطبة النبويّة في فضيلة شهر رمضان.

وقد طبع الكتاب عام ١٤٠٩هـ نشرته مؤسسة دار النشر الإسلامي وأرجو من الله سبحانه أن يوفق الدار لنشر سائرمؤلفاته فشكراً للدار، ولآية الله الصافي ـ دام ظله ـ على بذل جهوده المشكورة في التفحص عن آثار فقيدنا الراحل وتشجيع الدار على نشرها.

١٧

الشيخ عبد الصمد بن محمد باقر الخامنئي

(١٢٢٠ ـ ١٣١١ هـ)

رسالة الشعر والشعراء

لا يخفى على أحد ما للشعر من تأثير خاص في نفسيّة كل إنسان، يلمسه عند قراءته واستماعه له بحيث يتفاعل معه وينقاد لما يريده، ولهذا نرى بوضوح كيف إنّ السلطات الظالمة كانت تجعل منه أداة طيّعة لخدمة أغراضها وتوجّهاتها، فقد كانوا يستخدمون الشعراء لغايات ماديّة وأغراضٍ سياسيّة، فيرسلون قصائدهم لكل صقع وناحية في سبيل جلب الناس إليهم، فكان الشعر إلى جنب الخطابة وسيلتين اعلاميتين في تلك العصور.

إلّا أنّ استخدام الشعر والشعراء لم يكن مختصّاً بأهل الهوى في أهدافهم فحسب، بل كان رجال الوحي والدين يستخدمون ذلك السلاح في تحقيق أهدافهم الإصلاحيّة. حيث يحدثنا التاريخ أنّ النبي ﷺ كان يأمر شعراء عصر الرسالة كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة وغيرهم بالرد على الشعراء الذين كانوا يهاجمون الإسلام وأهله بقصائدهم، كما حصل حينما قال ابن الزبعرى في غزوة أُحد قصيدته التي مطلعها:

يا غراب البين أسمعتَ فقل   إنّما تنطُق شيئاً قد فعل

أجابه حسّان بن ثابت بقصيدة بمثل تلك القافية ومستهلّها:

ذهبت بابن الزبعرى وقعة كان   منّا الفضلُ فيها لو عدل

إلى غير ذلك من الشعراء المواكبين لهذا الخط في عصر الرسالة، الملتفّين حول الرسول ﷺ يعينونه في مجال الجهاد بالسيف والرمح، وفي مجال الكلام بالشعر والأدب، يبطلون بذلك حبائل شعراء المشركين وكذبهم، ويأخذون بمجامع قلوب المسلمين. فكان الأدب في اسلاك القريض، يدبُّ مع السيف والرمح جنباً إلى جنب.

لقد كان رسول الله ﷺ يرى أنّ تقدير الشعراء الصالحين، أحد الوسائل لنصرة الإسلام، حيث كانوا ينضحون الكفّار بنبل أكثر تأثيراً من نبلهم، وقد أصدر النبي ﷺ كلمته المعروفة في حقّ هؤلاء وقال:

«اهجوا بالشعر: إنّ المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمد بيده كأنّما تنضحونهم بالنبل ــ وفي لفظ آخر ــ والذي نفس محمد بيده فكأنّما تنضحونهم بالنبل فيما تقولون لهم من الشعر» [1].

وقد اقتدت بالنبي ﷺ عترته الطاهرة، فكانوا يقدّرون شعر الشعراء إذا كان فيه إجهار بالولاء وإصحار بالحقيقة، ويكسونهم، ويهبون لهم الصلات، فعندما أنشأ الفرزدق (٢٠ـ ١١٤هـ) ميميّته المعروفة في عصر تسرّبت فيه الروح الأموية إلى المجتمع، وكانت على الألسن سدود، اهتزَّ لها عرش الدولة الأموية لما كان في شعره من بلاغة كاملة، ونكات بديعة ترشد الأُمّة إلى مراكز المثل والفضيلة ومنابع الحق ومصادره، وقد أحسَّ بذلك هشام بن عبد الملك الوالي على الحجِّ أيّام خلافة

١. مسند أحمد: ٣/ ٤٦٠، ٤٥٦، وج٢/ ٣٨٧.

أخيه الوليد، فحبس الفرزدق [١] وشدّد عليه الأمر، ولما بلغ الأمر إلى الإمام زين العابدين عليه السلام قدّره وأرسل إليه أموالاً كثيرة.

هذا هو الرجالي المعروف في القرن الرابع «الكشي» يحكي لنا تقدير الإمام الباقر لقصيدة الكميت حيث دخل على أبي جعفر وقرأ قصيدته المعروفة التي مطلعها:

مَـنْ لقلـبٍ متيّـمٍ مستهـام غير مـا صبـوةٍ ولا أحـلام

فلما فرغ منها قال للكميت: لا تزال مؤيّداً بروح القدس ما دمت تقول فينا [٢].

إلى غير ذلك ممّا نرى في حياة الإمام الصادق والإمام علي بن موسى الرضا عليهما السلام من استماعهما إلى شعر الشعراء المجاهرين بالولاء، والمخلصين في طريق الحق، المستعدِّين للبلاء، وقد احتفل بهم التاريخ وبكلماتهم، فمن أراد فليرجع إلى حياة السيد الحميري، ودعبل الخزاعي، وبذلك تعرف قيمة ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إنّ من الشعر لحكمة» «وانّ من البيان لسحرا» [٣].

نعم الشعر الذي لا يهدف إلاّ إلى التحليق في عالم الخيال، ولا يقصد به إلاّ المجون، ولا يقال إلاّ لأن يُغنّى به في أندية الفجور والفسوق، أو يُعظَّم به الطواغيت، هو ذلك الشعر الذي ذمّه الله تعالى في كتابه الكريم حيث

١. عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي: ١/ ٦٦٢.
٢. رجال الكشي: ١٣٦، رواه عن زرارة.
٣. صحيح البخاري: كتاب الطب باب من البيان سحراً وغيرها. لاحظ مسند أحمد ١/ ٢٦٩، ٢٧٣؛ سنن الدارمي ٢/٢٩٦.

قال:

﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ *أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ * وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ .

كما أنّ الاستثناء الوارد بعد هذه الآية ينظر إلى الطائفة الأُولى من المصلحين، ويقول: ﴿إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كثيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا﴾ [1].

الأدب الشيعي والولاء للعترة:

إنّ الشعر قريحة إنسانية أو موهبة إلٰهية خصّ بها سبحانه لفيفاً من عباده، فهي أشبه بنفائس مكنوزة تحت الأرض، أو معادن مستورة بركام من التراب، حيث تخرجها من الخفاء إلى الظهور الحوادث التي تواجه الشاعر في حياته. وتؤثّر في روحه وعقله، فعند ذلك تتوقّد القريحة وتتوجّه إلى صوب خاص. فالذي يوجّه الشاعر إلى صوب أو ناحية صالحة أو فاسدة هي الروحية الخاصة التي يحملها الشاعر وراثة أو يكتسبها في حياته، فإن كان يحمل روحاً دينية أو عاطفة إنسانية تصبو نفسه إلى تلك الجهة، ويكون شعره هادفاً إلى ذلك المرمى، فتجد في شعره المعارف العليا من الكتاب والسنّة، أو الدروس العالية من الفلسفة والأخلاق والعبر، أو عواطف ثائرة في فقدان الأحبّة ونزول الكوارث والحوادث المؤلمة، إلى غير ذلك من الحوافز والعوامل التي تعد زنداً لتأجيج تلك القوّة أو اشعال ذلك المصباح.

---

١. الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

وإن كانت الروحية التي يحملها الشاعر روحية ساقطة تحِنُّ إلى المجون والدعارة أو جلب الأموال والثروات أو الارتقاء إلى مناصب مادية أو كسب الشهرة فترى شعره على أعتاب المغنّيات والجواري والملوك والطواغيت، ومدح أصحاب الثروة والقوّة.

ولمّا كان الشاعر الشيعي يحمل بين جنبيه ولاء للعترة، وحناناً وعطفاً لآل الرسول ﷺ فقد كان لتلك الروحية أثر بارز لظهور شعر تلك الطائفة على ذلك الصعيد، فقلَّما نرى شيعياً رُزِقَ موهبة الشعر إلاّ وله قصيدة أو قصائد في مدائح العترة أو ذكر مصائبها.

ولقد كان لحديث الطف أثر خاصّ لهداية قرائحهم إلى إنشاء قصائد في مصائب آل البيت عليهم السلام، وبالأخص فيما جرى عليهم في أرض كربلاء، ولأجل ذلك ترى في الأدب الشيعي وبالأخص في شعرهم، عاطفة ثائرة بالنسبة إلى صاحب الثورة الإمام الطاهر: حسين العظمة وأولاده وأصحابه ـ سلام الله عليهم ـ.

يقول الدكتور عمر فرّوخ تحت عنوان: «**التشيّع وأثره في الأدب**»: إنّ الاضطهاد الذي تحمّله آل البيت، وتحمّله معهم أنصارهم وأتباعهم الشيعة، زاد في العنصر الوجداني في ذلك الأدب. أضف إلى هذا كلّه أنّ أدب الشيعة اكتسب مع الأيام نفحة دينية لما اعتقد الشيعة أنّ منصب الخلافة ليس أمراً دنيوياً ولكنّه جزء لا ينفصل من العقيدة الدينية نفسها. ومنذ العصر الأموي تبلور عدد من أوجه العقيدة الشيعية في السياسة كالقول بالحق الشرعي في الخلافة في مقابل الانتخاب والشورى في اختيار الخليفة ـ إلى أن يقول ـ: فمن الدلالة السياسية في شعر الشيعة في العصر الأموي قول كثير عزة، يخاطب عمر بن عبد العزيز، وقد كان عمر بن عبد العزيز قد أبطل لعن علي بن أبي طالب على المنابر في صلاة الجمعة.

ولّيت فلم تشتم عليّاً و لم تُخِفْ ... بريّاً و لم تقبل اشارة مجرم
و صدّقت بالفعل المقال مع الّذي ... أتيت فأضحى راضياً كلّ مسلم [١]

عناية المسلمين بالأدب العربي:

إنّ القرآن الكريم نزل بلغة الضاد، فصار ذلك سبباً لعناية المسلمين بالأدب العربي ليتيسّر لهم فهم الكتاب العزيز، ولأجل ذلك نرى أنّ غير العرب من المسلمين قاموا بإحياء اللغة العربية وتدوين قواعدها، وتبيين أسرارها في مجالات مختلفة جنباً إلى جنب مع العرب. فتجد فيهم أدباء شامخين، وشعراء مجيدين ومحقّقين في اللغة، وعارفين بأسرارها كأنّهم أبناء تلك اللغة. يقف على ذلك من سبر تاريخ العلوم الإسلامية، مثلاً ففي حقل الشعر هذا بشّار بن بُرد، ومهيار الديلمي تلميذ السيد الرضي، والوزير الصاحب بن عبّاد، إلى غير ذلك

١. الدكتور عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي:١/ ٣٧٣. ويطيب لي في المقام أن أنقل كلمة منه حول الشيعة فقد أعجبني خضوعه للحقيقة واجهاره بها وابتعاده عن التعصّب يقول: الشيعة اسم جامع للذين اتّبعوا علي بن أبي طالب، وفرّعوا الآراء السياسية والدينية حسب ذلك. غير أنّ الآراء المتطرّفة جاءت من فرق من غلاة الشيعة كالكيسانية مثلاً ممّن لا وجود لهم اليوم. أمّا الجماعة المعروفة عندنا اليوم باسم «الشيعة» فهم الشيعة الإمامية أو الاثنا عشرية أو الجعفرية، وهم أهل مذهب إسلامي كالمذهب الشافعي والمذهب الحنفي من مذاهب أهل السنّة. وليس بين المذهب الجعفري وبين المذهب الحنفي من الخلاف في الفقه، أكثر ممّا بين المذهب الشافعي والمذهب الحنفي. على أنّ الفارق النظري الباقي إلى اليوم بين السنّة والشيعة هو اعتقاد الشيعة أنّ الإمام عليّاً كان أحقّ من جميع الذين تقدّموه في الخلافة وأنّه كان يجب أن يتولّى الخلافة قبلهم، ثمّ إنّ الاعتقاد بذلك جزء لا ينفصل من المذهب.

و أين هذا ممّا تنشره الأقلام المستأجرة اليوم في نجد وتهامة حول الشيعة من تكفيرهم وسبّهم بحجّة أنّهم لا يقولون بعدالة كل من صحب النبي أو رآه ، أو غير ذلك من الفروع التي شهّروا بها الشيعة من دون أن ينظروا إلى المعارف العليا التي تركها الشيعة؟! و إلى الله المشتكى.

من عباقرة الشعراء فكلّهم كانوا في مصاف الشعراء الكبار.

ولا غرو أن يقـوم هؤلاء بما يقوم به أهل اللســان، إن عاشوا زمناً طـويلاً بين أهل تلك اللغـة، سواء في العراق أو الشام، إنّما العجـب من أُناس كانـوا بعيدين عن مراكز الأدب العربي، ولم يقيموا في تلك البلاد إلاّ أيّاماً قلائل ومع ذلك نبغوا في الشعر العـربي نبوغاً يُغبطون عليـه، ونظّموا أسلاكـاً بغير لغتهم الأُمّ حتى كأنّ العـربية هي لغتهـم الأُمّ التي درجوا عليهـا منـذ نعومـة أظفارهم إلى أن اشتـدت قواهم.

ونذكر هنا شاعرنا المجيد الذي اقتطفنا من ديوانه القسم الأكبر في المدائح والمراثي ألا وهو العلاّمة الحجّة الشيخ عبد الصمد الخامنئي المتوفّى عام ١٣١١ في مسقط رأسه.

إنّ منطقة آذربيجـان منطقة خصبة حافلـة بكل ما ينمي القدرات الـذاتية للأفـراد المتميّزين، وتربتها صـالحة لتربية واعداد الكثير من الكفـاءات والعقول الكبيرة، في مجالات مختلفـة، ومن قرأ تـاريخهـا وتاريـخ علمائها ورجـالها يقف على صدق ما أقول.

ومع أنّ اللغة السائدة في تلك المنطقة هي اللغـة التركية الآذرية إلاّ أنّه نبغ فيهم أُدبـاء وكتّاب كبار في الأدبين: الفـارسي والعربي. وكاتـب هذه المقدمـة، قد عـاش في تلك المنطقـة فترة من عمـره فشاهـد في عصره أُدبـاء بارعين في اللغـة، ومحقّقين في الاشتقـاق، وعارفين بقـواعـد الصرف والنحو عـرفانـاً دقيقـاً، فكانـوا يدرّسون اللغـة كما يدرِّسها الأزهريّـون ممّن ارتضع هذه اللغة منـذ الولادة. وبحقٍ كـانـوا يتقنون اللغـة العـربيـة قراءة وكتـابـة نظماً ونثـراً، ويجيدون إنشـاء الشعـر وإنشاده، فتركـوا ثروة كبيرة من الأدب العربي في تلك النـاحية يعلو عليهـا تراب النسيان.

فلأجل الإشادة بفضلهم قمنا بطبع ديوان العلاّمة الأديب الشيخ عبد الصمد الخامنئي، مع نماذج رائعة ممّا جادت به قرائح شعراء تلك المنطقة في القرن الرابع عشر في مراثي أهل البيت ومدائحهم، ونذكر لكل شاعرا نموذجاً من شعره، منهم:

١. العلاّمة الأديب الكبير الشيخ محمد تقي المعروف بحجة الإسلام التبريزي المامقاني (١٢٤٧ ـ ١٣١٢ هـ).

٢. العلاّمة الحجّة نابغة عصره الشيخ مصطفى التبريزي (١٢٩٧ ـ ١٣٣٧هـ).

٣. المرجع الديني الكبير آية الله ميرزا صادق التبريزي (١٢٧٤ ـ ١٣٥١هـ).

٤. العلاّمة الحجة ميرزا يوسف بن الفقيه ميرزا علي بن العلاّمة محمد علي القرجه داغي (١٢٧٩ ـ ١٣٢٧هـ) مؤلف لسان الحق أو مظالم المسيحيين.

إلى غير ذلك من أجلّة الشخصيات الذين جاءوا إلى الدنيا وأدّوا رسالتهم الدينية وسجّل لهم التاريخ بعض مواقفهم ولكنّهم فوق ما سُجِّل.

ولا تفوتني الاشارة إلى ذكر علمين كبيرين في الأدب واللغة إشادة بمنزلتهما السامية، وأداء لبعض حقوقهما.

أحدهما: الأديب الأريب الشيخ علي أكبر الأهري (١٢٩٦ ـ ١٣٨٣هـ) من تلاميذ المرجع الديني السيد أبو الحسن الانكجي (١٢٨٢ـ ١٣٥٧هـ) ـ قدّس سرّه ـ كان آية في الأدب، وبصيراً في اللغة، وحافظاً للقواعد، قرأ كل ما وصل إليه من الأدب والدواوين، وكان يقرأ القاموس بسهولة، ويدرِّسه بحذاقة. وقد درسنا

عليه كتاب المغني وكان يُدرّسه مع التعليق، نقداً وتصحيحاً وتحقيقاً.

ثانيهما: العلاّمة الحجة المتتبع الخبير البصير الميرزا عبد الله المجتهدي (١٣٢٠ ـ ١٣٩٦هـ) ابن العلاّمة الميرزا مصطفى التبريزي أحد النوابغ القلائل، والذي نورد له قصيدة رائعة في هذا الكتاب.

كان ـ رحمه الله ـ من نوابغ عصره، ونوادر دهره، وكل من شاهده وجلس معه وحضر ناديه، تعجّب من إحاطته باللغة والتاريخ والأدب، كان يتقِن اللغة العربية إتقاناً كاملاً، ضمن إتقانه للغات كثيرة كالتركية الآذرية، والاناضولية، والفرنسية، والانكليزية، والروسية، وكان أديباً في اللغة الفرنسية.

زار الشيخ محمد جواد مغنية (١٣٢١ ـ ١٤٠٠هـ) مدينة تبريز ونزل في بيته ضيفاً، وقضى معه قرابة شهر، وكان من كلامه في حق المضيِّف: «والله إنّ ميرزا عبد الله المجتهدي اسطورة التاريخ، يحكي لنا حوادث من لبنان، يعرف شخصيات أنا أجهلها شخصياً مع أنّي وليد لبنان ومن مواطنيه».

ولا أنسى أن أُسجّل هنا جانباً من الحوار الذي دار بين هذين العلمين البارزين، ومن ذلك أنّ الحديث كان يدور حول ظلم الكثير من الحكومات لمواطنيها وما يترتب على ذلك من ضرر مباشر عليهم، وأنّهم ـ أي تلك الحكومات ـ أضر من الذئب على الغنم، فعندها انبرى الشيخ مغنية ـ رحمه الله ـ منشداً هذه الأبيات:

قولوا عن الذئب ما شئتم فسامعكم ... بمثل شرِّ ذئاب الناس ما سمعا
الذئبُ يتركُ شيئاً من فريسته ... للجائعين من الذئبان إن شبعا
والمرء وهو يداوي المرء من بشم[1] ... يسعى ليسلب طاوي[2] البطن ما جمعا

١. بشم من الطعام: أُتخِم.
٢. الطاوي: الجائع.

هذه الآبيات يبدو أنّها لأحد الشعراء الجدد.

فإذا بالعلاّمة المجتهدي يقول: إنّ هذا المضمون جاء في شعر الشنفري الأزدي ـ أحد الشعراء الجاهليين ـ في لاميته المعروفة بلامية العرب وأنشد منها الأبيات التالية: [1]

أقيموا بني أُمّي صدور مطيكم فاني إلى قومٍ سواكم لأميل
ولي دونكم أهلون سيّد عملّس و ارقطُ زهلول و عرفاء جيأل [2]
هم الأهل لا مستودع السر ذائع لديهم و لا الجاني بما جرّ يخذل [3]

زار القصاص العراقي «**خضر عباس الصالحي**» العلاّمة المجتهدي في داره بتبريز فكنت معهما فدار الكلام عن مهيار الديلمي وأدبه وشعره، فإذا رأيت العلاّمة المجتهدي قرأ فصولاً من ديوانه واستشهد على مقاصده ثم انتهى الكلام إلى شخصيات أدبية في الإسلام، فما زال الزائر العراقي يتعجّب من تبحّره فيما يرجع إلى الأدب والتاريخ، وانّه كيف أنجبت هذه البلاد شخصيات لامعة في الأدب العربي، مع البعد بين البلدين، ولمّا غادر تبريز إلى طهران كتب مقالاً نشره في مجلة الأخاء يوم ذاك تحت عنوان «الشيخ عبد الله مجتهدي الذي رأيته»، فأعرب عن إعجابه بإحاطته بأسرار اللغة، ودواوين الشعر، وقال: إنّه من الشخصيات التي قلّما يسمح بمثلهم الدهر إلاّ في فترات خاصة.

---

١. الدكتور عمر فرّوخ: تاريخ الأدبي العربي: ١/ ١٠٣.
٢. «سيد»: الذئب. «عملس»: القوي على السير. «أرقط»: من كان في جلده قطع ملوّنة متجاورة والمقصود: النمر. «الزهلول»: الأملس. «عرفاء»: وحش ضار له شبه العرف. «جيأل» : الضبع التي تجمع صوفها.
٣. الجاني: المعتدي. «جر»: اعتدى.

هذا ما يرجع إلى حديث الأمس و أما حـديث اليوم؟ فقد خلت الديار من أمثال هؤلاء الأُدباء ولم يبق منهم إلاّ ظل، ومن تلك المصابيح إلاّ ضوء، وأصبحت المنطقة كما قال الشاعر الذبياني:

أمست خـلاء، وأمسى أهلهـا احتملـوا ... أخنى عليهـا الـذي أخنى على لبـد[1]

عبد الصمد الخامنئي:

الحق ـ كما قيل ـ إنّ شخصية المرء بآرائه وأفكـاره أوّلاً، وبآثاره التـي خلّفها ثانيـاً، وهي أحسن دليل على وجـود تلك الصدور المائجـة بأشكال متعـددة من علم مكنون، وأدب مفطـور، وقريحة وقادة ومثل عليـا، وفضائل رابية، بـل أثر كل انسان عمر ثان له، و«جميل صنع المرء عمر ثان».

إنّ المؤرّخين ومؤلّفي كتب التراجم للعلماء والأُدباء وإن لم يسجّلوا عن حياة شيخنا المترجم وأساتذته، وتلاميذه وسائر آثاره العلمية وتاريخ ولادته شيئاً يذكر ـ تقصيراً أو قصوراً لكـن ديوانه الماثـل بين يدي القـرّاء الكرام لخير مترجم لقـريحته الوقّادة، وتوغّله في الأدب العربي: الجاهلي والإسلامي، ومقدرته على إبداع المعاني، وأنّه كان يداني أُدباء وشعراء القرون الإسلامية.

وفي الوقت نفســه ربّما يجري مجرى الشاعر الجاهلي في غـزله ومراثيـه، فتجد شعره يحكـي عن حياتـه الساذجة وكـأنّه انسان عـاش في الباديـة ، ولم ير الحضر، فكان شعـره بعيداً عن التكلّف والتعقيـد، ينطق بوجـدانه، ويعلو شعـره الصدق والبساطة، ويتبع خيـاله اتساع أُفق الصحراء، وبـذلك جمع بين خصائص الشعر

---

١. ديوان النابغة الذبياني: المكتبة الثقافيـة/ ٣٠. أخنى عليها: غيّـرها وأفسدها. «لبد»: زعموا أنّه نسر كان للقمان بن عاد عمّر طويلاً.

الجاهلي ومزايا الشعر الإسلامي.

ومع هذا فقد ترجمه لفيف من الأعلام نذكرهم ونذكر نصوصهم حول حياته:

١. يقول المؤرّخ الشهير: محمد حسن اعتماد السلطنة: «ميرزا عبد الصمد الخامنئي: أُستاذ الأدب، وحجّة لغة العرب، وهو ينظم الشعر بطبع مستقيم، قريحة صافية، وهو نزيل «خامنه» في هذه الأيّام» (١).

٢. ويعرّفه شيخنا المجيز الطهراني بقوله: «عالم كبير، وفقيه بارع، كان من الأجلاّء في تبريز، وهو خامنئي الأصل، له في العلوم الشرعية قدم راسخة، وفي الشعر والأدب العربي واللغة يد طولى، وبراعة فائقة، وتبحّر غريب» (٢).

٣. ويذكره السيد حسن الصدر في تكملته لأمل الآمل ويعرفه بقوله: «أُستاذ عصره في علوم الأدب، والحجة في لغة العرب» (٣).

٤. يقول الواعظ الخياباني: الشيخ عبد الصمد إمام الجمعة في «خامنه» (والد الشيخ علي إمام الجمعة الذي هو من معاصرينا)، يعد من العلماء والفضلاء ومن أُدباء آذربيجان المعروف بـ «البنود الاثنا عشر» جرى فيها على طريقة بنود العلاّمة بحر العلوم المعروف باثني عشر، سوى انّ كل بند من بنوده في موضوع واحد بخلاف البنود المعروفة لبحر العلوم.

وأضاف انّه ذكر قسماً من أشعاره في أجزاء كتابه المعروف بوقائع الأيام ثم ذكر قصيدته اللامية في مدح النبي ﷺ وقصيدته النونية في مدح الإمام الرضا عليه السلام.

---

١. المآثر والآثار: الطبع الحجرى ١٢٠ و ١/ ٢٩٧، الطبع الحديث والكتاب أُلّف حوالي عام ١٣٠٥هـ.

٢. الطهراني: نقباء البشر: ٣/ ١١٣١.

٣. المصدر نفسه.

وقال: وقد ناولني هذه القصائد سنة ١٣٠٨ وانتقل إلى رحمة الله عام ١٣١١ [١].

٥. وقد ذكر ديوانه شيخنا الطهراني في ذريعته وقال: ديوان الشيخ عبد الصمد أو شعره وهو الخامنئي مولداً، التبريزي منشأ، النجفي مقطناً، الأديب الماهر، والفقيه الشاعر، له تقريظ كتاب «فرهنگ خدا پرستى» لمحرم المطبوع ١٢٨١ بقصيدة هائية في عشرين بيتاً في غاية الفصاحة [٢].

وكلامه هذا يعرب عن أنّه كان قاطناً في النجف، ولعلّه يشير إلى الظروف التي حلّ بها، وألقى رحله فيها للدراسة وكسب المعالي، وإلّا فهو كان نزيل مسقط رأسه ومولده إلى أن لبّى دعوة ربّه، وكفى في هذا شاهداً ما ذكره صاحب الآثار والمآثر وقد ألّفه حوالي ١٣٠٥، وتوفي المترجم عام ١٣١١. فهو في تلك الفترة كان نزيل موطنه، وقد وقفت على ما ذكره «الواعظ الخياباني» من أنّه رآه في تبريز أيّام كهولته.

نعم كان لإقامته في النجف تأثير خاص لتوقّد ذكائه، وتأجيج قريحته، فأخذ بانشاء الشعر في نواحي مختلفة، ثم رجع إلى مسقط رأسه قائماً بوظائفه الرسالية، ومقيماً لصلاة الجمعة، وإماماً للجماعة، ومرجعاً للمسائل الفقهية في تلك الناحية.

وهو بعدما غادر النجف، وأقفل عائداً إلى «خامنه» يتشوّق لصاحب

---

١. نقلاً عن كتاب «علماى معاصر» للميرزا علي الخياباني (١٢٨١ ـ ١٣٦٧ هـ). وكان المؤلف من خطباء تبريز ومن أبرز المؤلفين فيها له كتاب «وقائع الأيام» في أربعة أجزاء، وقد أُعيد طبع الجزء الأوّل مع تقديم منّا.

٢. الطهراني: الذريعة ج ٩: القسم الثالث/ ٦٨٩ برقم ٤٧٩٤.

النجف صاحب الولاية الكبري ويقول:

يـا سَيّـداً فـاقَ أربـابَ النُّهى شَـرفاً وسـادَ أهلَ المعـالي الغُرِّ والشُّـرَفا

لم أنسَ عَهـدَك بالـوادي المقدَّسِ يـا لَهفي على العَهـدِ والـوادي وما سَلفـا

قَدْ فـاضَ جَفناي حتـى جفَّ دمعُها بعدَ النـوى عن صُحَيبٍ أُسكنـوا النَّجفا

يـا راكبـيْ نـاقـةٍ وجنـاءَ نـاشطـة [1] عُوجا [2] بـأرضٍ غـريٍّ سـاعـة وقِفـا

عليكَ منّـي سـلامي مـا حييتُ فهـا وادي السـلام يبـاهـي مـروةً وصفـا

وهو يعرّف شعره وأدبه بقوله:

هـذا ودونـك شعـر صيغ مـن كلـم كـأنّـه لـؤلـؤ قـد راق منضـود

للخود[3] إن أنشـد الـراوي قـوافيـه تكـاد تـرقـص مـن إنشـاده الخود

ويقول في مخمسته الغرّاء التي نظمها أصلاً وتخميساً في مدح علي عليه السلام:

من مـرتقى الشعر أرقى اليـوم أصعبه لكـن أرى مشرب الأخـلاق أعـذبـه

أخذت من بعض من عاشرت مذهبه لـو أن وعـاه ابـن عبـاد لأطـربـه

وطـار منـه الحجى من خفّـة الطـرب

ويقول أيضاً مفتخراً:

وانّنـي رجـل لا الفقـه ينكـرني ولا القصـائد تشـطيراً وتضمينـاً

---

١. ناشطة: وصف للناقة: وهي الشديدة في سيرها.

٢. عوجا: قفا، عوج: وقف.

٣. الخود على وزن «الحوت»: النساء الشابات.

إلماع إلى وطن الشاعر:

«خامنه» : ناحية في آذربيجان الشرقية، بينها وبين تبريز ٧٢ كيلو متراً.

وهي من توابع مدينة «شبستر» تبعد عنها ثمانية كيلومترات، وتقع في الشمال الشرقي من بحيرة أرومية تتبعها قرى وأرياف، وهي منطقة كثيرة الأشجار والمياه، وفيها أنواع الفواكه وتربتها تربة طيّبة خصبة. يتمتّع أهلها بالذكاء والثقافة ولهم أعرافهم وتقاليدهم الخاصة.

كانت «خامنه» في العصور السابقة مركزاً للتجارة وحلقة وصل تجاري بين روسيا وتركيا وايران وسوقها الموجودة فيها حالياً، يكشف عن النشاط التجاري فيها سابقاً.

نبغ منها تجّار خبراء، ورجال مثقّفون ، وعلماء كبار، ترى ذكرهم في كتب التاريخ والسير، ولا يسمح المقام هنا بذكرهم، ولكن نشير إلى بعض شخصياتها وراء الشيخ عبد الصمد شاعرنا المجيد وولده البار:

١ . الشيخ نجم الدين العارف الطائر الصيت. وهو أُستاذ الشاه إسماعيل الصفوي في الطريقة، توفيّ فيها عام ٩١٥هـ ، وله مقبرة معروفة.

٢ . الميرزا جعفر الخامنئي بن الحاج الشيخ علي أكبر، كان شاعراً ، وهو أوّل من فتح باب الشعر الحرّ في الأدب الفارسي وهو متقدم على الشاعر المعاصر المعروف بـ «نيما» ولد عام ١٣٠٤هـ ، ولم نقف على تاريخ وفاته، ذكر ترجمته غير واحد من المؤرخين المعاصرين.

٣ـ الشيخ محمد بن الحاج عبد الحميد الخياباني (١٢٩٧ ـ ١٣٣٩هـ) ذلك الخطيب الماهر المناضل الشهير الذي كان لمواقفه البطولية، دور هام في إيقاظ الجماهير المسلمة الإيرانية في كفاحها ضدّ الاستعمار، وقد كان الشيخ الخياباني

زميلاً لوالدي في الدراسة [١] و أُستاذاً ماهراً في الرياضيات والهيئة ، وخطيباً بارعاً، والجمل والكلمات بيده في منصّة الخطابة كأنّها شمعة يتصرّف فيها كيفما يشاء. وممّا تجدر الإشارة إليه أنّــه تزوّج كريمة العلاّمة السيــد حسين الخامنئي عام ١٣٢٥هـ الآتي ذكره، وكان ينوب عنه في الإمامة أثناء غيابه.

٤. العــلاّمة الحجــة السيد حسين الخامنئي ــ قدّس سرّه ـ وهــو جد قــائد الثورة الإسلامية في إيران سماحة آية الله السيد علي الخامنئي ـ دام ظلّه ـ.

كان المترجم أكبر شخصية نبـغ من تلك الناحية، وكان رجلاً فقيهــاً مطاعاً في تبريز، يقيم الجماعة في جامعه، وكانــت الألوف المحتشدة من الناس يقتدون به كما كان الوالد يحكي لنا ذلك .

قال شيخنا المجيز الطهراني في ترجمته: عالم كبير وجامع بارع.

كــان اشتغالــه في النجف الأشرف، قــرأ فيها الفقــه والأُصول على مشــاهير علماء ذلك العصر ومدرّسيــه، وألّف في الفقه والأُصول وله فيهما تقــريرات كثيرة، وأخذ المعقول عن الفيلسوف الميرزا باقــر الشكي الذي ذكرناه في القسم الأوّل من «الكرام البررة» ص ١٦٣ وقــد ذكر اسمه السيــد الصدر في عداد تــلاميذ الشكي عند ذكــره في «التكملة»؛ عــاد إلى «خامنه» فقــام فيها بالــوظائف الشرعيــة وسائر الأُمور، وكان مقــدراً، مرعى الجانب، معظماً عند سائر الطبقات لصــلاحه وتقواه ونزاهتــه وانزوائه، وكــان متفنناً له يــد طولى في المعقــول والمنقول، ومهــارة في علوم الدين، قام بأعباء الهداية والإرشاد ولم يفتر عن التأليف إلى أن توفي في «١٣٢٥هـ» كما ذكره لنا ولده العالم السيد محمد المعروف بـ «پيغمبر» المتوفى في النجف والموقوفة كتبه لـ «مكتبة حسينية التسترية» في النجف.

وقد حدثنا العلاّمة الحجة السيد موسى الزنجاني: أنّه هاجر إلى النجف عام

---

١. و هو الفقيه العلاّمة الحاج الشيخ محمد حسين الخياباني التبريزي ﴿ (١٢٩٩ ـ ١٣٩١هـ).

١٣٠٩هـ وغادرها عائداً إلى تبريز عام ١٣١٤ هـ [١].

٥. آية الله السيد جواد الخامنئي (١٣١٣ــ١٤٠٦هـ) ابن السيد حسين الخامنئي ـ قدّس سرّهما ـ. وقد انتقل من تبريز إلى المشهد الرضوي واستوطن فيها إماماً ومدرّساً [٢]. وكان بينه وبين الوالد توادد وتراحم.

٦. وزاد هذا البيت فخراً أنّ قائد الثورة الإسلامية من هذه الأُسرة الكريمة، ولايسع المقام للإشادة ببعض ما لهذا البيت الرفيع، من الفضل والفخر وكفانا في ذلك ما انتشر في هذه الأيام عنهم في الكتب والجرائد.

وفي الختام نلفت نظر القارئ الكريم إلى أمر هام وهو: أنّه قد جاء القسم الأكبر من قصائد العلاّمة الشيخ عبد الصمد الخامنئي في هذا الجزء، وأمّا غيره فقد اقتطفنا من ديوان كل شاعر قصيدة أو قصيدتين، ولعل أهل الخير من عشاق الأدب يقومون بطبع دواوينهم كاملة.

وهناك أُدباء في منطقة آذربيجان نظموا القريض بلغة الضاد، ولهم قصائد ومدائح وتغزّلات نذكر منهم ما يلي:

١. العلاّمة الحاج ميرزا علي التبريزي ابن المولى بن عبد العظيم وله تخميس قصيدة علي بن أبي عبد الله الخوافي المعروف، مستهلّها:

يا زائراً لرسول الله بضعتهُ   وقاصداً لغريب الطوس تربته
إن جئته قل إذا شاهدت قبّته   يا قبر طوس سقاك الله رحمته
ماذا ضمنت من الخيرات يا طوس

١. نقباء البشر: ٢/ ٦٤٠ ـ ٦٤١ برقم ١٠٧٣.

٢. اقرأ ترجمته الضافية في «كنجينه دانشوران» للعلاّمة الرازي.

توفي ـ رحمه الله ـ في المشهد الرضوي عام ١٣٤٠ هـ.

٢. العلاّمة المتبحّر الشيخ علي الخوئي، صاحب المؤلفات الكثيرة، له ديوان وله تخميس قصيدة أبي الفتح البُستي. مستهلّها:

لأول القـــول بـــاســـم الله بنيـــان محامـــد العبـــد للـــرحمن شكـــران

تجاهـلُ الشخـــص للنعماء كفـــران زيـــادة المرء في دنيـــاه نقصـــان

و ربحـــــه غير محض الخير خسران

توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٣٥٠ هـ.

٣. العلاّمة القدير، والشاعر المفلق السيد هادي، المعروف بـ (سينا). أُستاذ في جـامعة طهـران، وهو أحـد الشعراء البـارزين، والأُدباء المعـروفين، وله ديـوان كبير.

ولأخيه العلاّمة الحجّة السيد إبراهيم ـ قدّس سرّه ـ قصيـدة في التوسّل ببقية الله الحجّة بن الحسن العسكري، يقول:

يـا حجّـة الـرحمن يـا ابن العسكـري يـا مَـن بيُمـن وجـوده رُزق الـورى

مَـن للشريعـــة والهدى ومـن الـــذي نشكـوا إليـه ســـواك يـا خير الـورى

إلى غير ذلك من شعراء مخلصين، ومجاهرين بـالولاء، والذين يضيق المجال بذكـر أسمائهم، ونماذج من قصائدهم. عسى أن يقـوم أحد أبناء الـوطن الغيارى بتأليـف جزء ثـان لهذا المشروع، يستـدرك به مـا فـاتنـا ذكره، أو لم نـذكـره لضيق المجال.

كما يتحتّم علي أن أذكر مـا بذل من الجهـود صديقنا الشيخ الجليـل والعالم

الكبير الشيخ سلمان الخاقاني ـ قدّس سرّه الشريف ـ [1] في استنساخ ديوان الشيخ من قصاصــات متفرقة، وقدم لــه مقدمة مفصّله ذكر فيهــا ما كان النجف ــ يوم ذاك ـ يتمتّع به من نــوادي الأدب، وأندية الشعر، وجهــابذة القريض، ولعل الله تبــارك وتعالى يوفقنا لنشر تقديمه في آونة أُخرى إنّه على كل شيء قدير.

كما أتقدم بالشكر إلى الصديق الوفي العلاّمة السيد محمود البغدادي ـ دام علاه ـ فقد قرأ الديوان وأبدى ملاحظاته القيمة فجزاه الله خير الجزاء.

١ . كان الشيخ من أســاتذة الفقه والأُصول وفي الوقت نفسه مــن أساطين الأدب في مجالي النثر والنظم وكان يتمتع بحسن الخلق ودماثة الطبع وكان يجسد سلوكه، سلوك رجال أهل البيت، وخلقُه خلقَ رسول الله ﷺ وله آثــار علمية، كلامية وأدبية منشــورة وغير منشورة و آخر أثره مناظـرته مع كتّاب ثلاثة من الذين بخسوا حق الشيعة بأقلام مسمومة. رحمه الله تعالى برحمته الواسعة.



الشيخ فضل الله النوري ﵀

رجل العلم والجهاد (١٢٥٤ ـ ١٣٢٧ هـ)

علم الشهادة والكرامة والعلى وحليف علم الدين والآثار

الحمد لله الذي خصّ أصحاب الشهادة بالسعادة، واصطفاهم لدار العزّ والكرامة، ثم الصلاة والسلام على نبيّه وآله الطيبين الطاهرين، وعلى عباد الله الصالحين، لاسيّما الشهداء والصدّيقين.

أمّا بعد: فإنّ العالم العامل، يضيئ الطريق للسائر، والشهيد يكتسح العقبات والعراقيل للسالك، فالعالم بمداده وحبره ينير العقول، ويزيل الظلمات والأوهام عن البصائر والأفكار ، والشهيد بتضحيته يزيل الموانع، ويقطع أيدي المتطاولين على شرف الأُمة ودينها، وثروتها، فالشهيد والعالم يسيران معاً على طريق واحد، يهدفان إلى هدف فارد، بجهادهما وجهودهما أُنيط بقاء الإسلام لئلا يتهافت الكفر والإلحاد.

هذا إذا جرّدت الشهادة، عن العلم، فما ظنّك بمن كرّس حياته بالعلم والدراسة وكلّلها بالشهادة في سبيل الله فقد حاز حينئذ فضيلة الميزتين، وفاز بالقدحِ المعلّىٰ.

إنّ الإنسان يتصوّر في بادئ الأمر: أنّ الشهداء هم وحدهم رواد في ميدان الدفاع والجهاد، دون حملة الفكر والقلم، وقادة البيان والخطابة، الذين يخوضون الوعظ والإرشاد ولايقتحمون لجج المعارك الدامية، ولاتعرفهم ساحات الوغىٰ.

هذا هو الذي يتصوّره البعض من مفهومي العالم والشهيد، ولكن عند ما يسبر الإنسان تاريخ العلم والشهادة ويقرأه بإمعان ، ينتبه إلى عدم صواب الفكرة، لأنّه يجد في ثنايا التاريخ طائفة كبيرة من العلماء والمفكّرين بين متضرّج بدمائه في ساحات القتال وبين مصلوب على المشانق والأعواد، وبين مكبّل في قعر السجون إلى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة في ظلماتها، وبين مسموم تقطعت أحشاؤه وأمعاؤه إلى غير ذلك من ألوان التعذيب.

وكأنَّ شاعرنا المبجّل المفلق الفقيه السيّد محمود البغدادي يشير بقوله إلى هذا المعنى وفي حقٍّ هذا النمط من العلماء الشهداء في قصيدة مطلعها:

رجلان في دنيا الثبات و هبا الحياةَ إلى الحياة
رجل الصراع المرَّ يعـ ـصف باللئام و بالطغاة
والعالم الوثّاب أُمنـ ـية الشعوب الناهضات
عاشا بلا ذات و ما كـ ـالعزَّ في سحق الذوات

فكانوا يمثّلون قول الإمام الوصي أمير المؤمنين ـ عليه أفضل صلوات المصلّين ـ : «**رهبان بالليل وأُسد بالنهار**»[1] فلم يحجبهم الخوض في المفاهيم السامية والمعاني الدقيقة أو عكوفهم على استنباط الأحكام من الكتاب والسنّة، عن خوض عباب الحروب وتحمّل قتام الغزوات، ومجابهة الأعداء، وفي الحقيقة هؤلاء هم الأُمة المثالية

---

١. بحار الأنوار: ٨٣/ ٢٠٧ من كلام الإمام عليه السلام لنوف البكالي.

والطبقة الوسطى في المجتمع أثنى عليهم الذكر الحكيم[١]، وبجّلتهم السنّة الكريمة، وأكبرتهم الشعوب الإسلامية في كل عصر.

وها نحن نوقفك على حياة عالم كبير، ومصلح عظيم من هذا النمط... عالم كرّس حياته في مدارسة العلم، وإصلاح المجتمع، وختمها بالشهادة، وكان أكبر قائدٍ روحيّ في حاضرة ايران ـ طهران ـ كافح الضلال والإلحاد، وجابه ضوضاء الباطل بلسانه وقلمه. **ألا وهو الشيخ العلاّمة آية الله العظمى الشيخ فضل الله النوري** ﷺ: شهيد الصمود في طريق الحق والفضيلة، ودفع التطاول على المقدّسات الإسلامية، بأيدي رجال متغرّبين، أرادوا القضاءَ على الإسلام وأهله، تحت غطاء الثورة على الرجعية والتخلّف، وواجهة انشاء نظام ديمقراطي برلماني، فكان شعارهم هذا، كلمة حق يراد بها باطل، فقد حاولوا إبعاد الإسلام عن الساحة، وإحلال الكفر والإلحاد مكانه، تحت شعارات خدّاعة، وعناوين رنّانة، فكانوا يديفون السمّ بالعسل.

لقد ظهرت ـ في العقد الثالث من القرن الرابع عشر في المنطقة ـ فكرة الحرية والتخلص من السلطة الاستبدادية والقضاء على حكومة الفرد على الشعب، بإحلال الحكومة البرلمانية مكان الملكية، وقد ظهرت هذه الفكرة في المجتمع الإيراني بعدما كانت السلطة عبر القرون والأجيال هي السلطة الفردية المتمثلة في النظام الملكي، ولمّا برزت فكرة التحرّر بثوبها الرائع، وجمالها الخدّاع، انجذبت إليها القلوب، وتعلّقت بها النفوس، فصارت فاكهة المجالس وزينة العرائس، يتحدث عنها الناس في كل مناسبة، وكل مكان، حتى استهوت لفيفاً من العلماء والآيات والمراجع في العراق، مثل الشيخ محمد كاظم الخراساني، والشيخ حسين الطهراني والشيخ عبد الله المازندراني ـ قدس الله أسرارهم ـ فصوّتوا

١. حيث طبّقوا العلم على العمل،دعوا للجهاد والقتال،فقدموا النفس والنفيس في ذلك المضمار.

مع الأُمة، وأفتوا بلزوم تطبيقها على صعيد الحكومة والواقع.

وكان شيخنا المترجم له في حاضرة إيران، ممّن يدعم هذه الفكرة ويؤيدها، فترة قليلة من الزمن، ولمّا أشرفت النظرية على مرحلة النضوج، وقف على أنّ الفكرة سراب لا ماء، وانّ الهدف من التظاهر بالحرية، هو الانحلال والتجرّد عن الضوابط الشرعية، والقوانين الإلهية، وبالتالي إقصاء الإسلام عن جميع المجالات: القضائية، الثقافية، والاجتماعية، والأخذ بالأنظمة الإلحادية، وحصر الإسلام في المنازل والبيوت، وقصرها على الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث.

فلما وقف شيخنا المترجم المغفور له على خطورة الموقف، ثارت ثائرته وأحسَّ أنّ هذا هو الوقت الذي عناه نبي العظمة ﷺ إذ قال: «إذا ظهرت البدع في أُمّتي فليظهر العالم علمه، وإلاّ فعليه لعنة الله» [1] فشرع في إيقاظ الناس من الغفلة، وتنبيههم على المؤامرات التي تحاك ضدهم، واستمرت مواجهته للفكرة سنوات عديدة، فلقي في ذلك ما يلاقي فيه كل مصلح غيور على أُمته ودينه.

لقد كان لخطابات شيخنا وكتاباته إلى الزعماء والرؤساء، تأثير بالغ في منع الأُمّة من التسرّع إلى التصويت مع أصحاب تلك الفكرة إلى أن بلغ السيلُ الزبى، ولم تجد الطُّغمة المعتدية على شرف الشعب ودينه، مناصاً من المؤامرة على الشيخ وقتله بصورة بشعة تكون عبرة لغيره، فاختطفوه من داره بعد هجوم عنيف عليها في الثالث عشر من شهر رجب من شهور سنة ١٣٢٧ هـ فساقوه وحيداً إلى المديرية العامة للشرطة وحاكموه محاكمة صوريّة، وأصدر القاضي حكماً بإعدامه شنقاً، وقد كان الحكم هذا مهيّئاً قبل المحاكمة، ثم أخرجوه من المديرية بعد المحاكمة ولم تمض بضع دقائق حتى رؤي جثمانه الطاهر مشنوقاً وأعداؤه حوله يصفّقون ويظهرون المسرّة والابتهاج، فلقى ربَّه بحياة مشرقة وجهاد متواصل، ومضى شهيداً

١. الكافي: ١/ ٥٤، باب البدع و الرأي.

بيد الظلم والعدوان في سبيل الحمية والديانة، وقد رثاه غير واحد من العلماء والشعراء، نكتفي بأبيات من قصيدة للأديب الأريب والحكيم البارع السيد أحمد الرضوي البيشاوري نزيل طهران (المتوفّى ١٣٤٩هـ) بقول:

لازال من فضل الإله وجوده ... جود يفيض على ثراك همولا [1]
روّىٰ عظامَك وابل من سيبه ... يعتاد لحدك بكرة وأصيلا
تلكم عظام كدن أن يأخذن من ... جوّ إلى عرش الإله سبيلا
همّت عظامك أن تشايع روحها ... يوم الزماع [2] إلى الجنان رحيلا
فتصعدت معه قليلاً ثم ما ... وجدت لسنّة ربها تبديلا
فالروح ترقىٰ و العظام تنزلت ... كالآية اليوحى بها تنزيلا
آمنتَ إذ حادوا بربّ محمد ... وصبرت في ذاتِ الإله جميلا
خنقوك لا حنقاً عليك وإنّما ... خنقوك كي ما يخنقوا التهليلا [3]

ولعمر الحق أنّ القصيدة هي القصيدة الفريدة في باب الرثاء في علوّ المضمون، وبداعة المعاني، ورصانة الأسلوب، ولو افتخر أبو الحسن التهامي عند رثاء ولده بقصيدته المعروفة التي تنوف على سبعين بيتاً وكلها حكم وأمثال، فليفتخر شاعرنا المبجّل الأديب البيشاوري بهذه القصيدة الزاهرة.

---

١. هملت السماء: دام مطرها.

٢. يوم الخوف والذعر.

٣. وكأنّه اقتفى «الشاعر المعروف بـ« ديك الجن» حيث يرثي الحسين سيد الشهداء بقوله:

ويكبّرون بأن قتلت وإنّما ... قتلوا بك التكبير والتهليلا

تكملة أمل الآمل للسيد حسن الصدر: ٢٦٠.

لقد استقبلت قصيدة التهامي استقبالاً رائعاً وحلّت في القلوب حيث يقول:

حكم المنية في البرية جار ... ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يرى الإنسان فيها مخبراً ... حتى يرىٰ خبراً من الأخبار

و ما أحسن قوله في تلك القصيدة:

جاورتُ أعدائي و جاور ربَّه ... شتّان بين جواره و جواري [1]

وما ألطف وأرق قول شاعرنا المفلق:

همّت عظامك أن تشايع روحها ... يوم الزماع إلى الجنان رحيلاً

ويجدر بي أن أقول في حقها كلمة أُخرى وهي:إنّ هذه القصيدة التي نقلنا منها عدة أبيات أشبه بقصيدة أبي الحسن الأنباري في رثاء أبي طاهر بن بقية الذي صلبه عضد الدولة بقوله:

علو في الحياة و في المهات ... ثم لحقّ أنت إحدى المعجزات

يصف المشنوق وصفاً عجيباً و يقول:

ولم أر قبل جذعك قط جذعاً ... تمكن من عناق المكرماتِ
ومالك تربة فأقول تسقى ... لأنك نصب هطل الهاطلاتِ
ركبت مطية من قبل زيد ... علاها في السنين الماضياتِ
وتلك قضية فيها تأس ... تباعد عنك تعيير العداة [2]

---

١. القصيده برمتها موجودة في جواهر الأدب:٦١٦.

٢. القصيدة موجودة في جواهر الأدب: ٦٢٤، توفّي أبو الحسن الأنباري عام ٣٢٨ هـ.

هكـذا كان ختـام حيـاة شيخنا المعظـم وإليك لمحـةً عن أوّليـات حياتـه وأواسطها إلى أوان شهادته، وهي تسلط الضوء على مكارمه وفضائله.

ولـد شيخنا في قـرية «لاشـك» من توابـع كجور مـن مدن مـازندران عـام ١٢٥٩ هــ.ق، وتلقّى الأوّليـات في منطقـة نـور، ثم غـادر إلى طهـران، وجـدّ في دراسته، إلى أن نـال بعض مـا كان يتمنّـاه ولم يكتف بما أخذه في البلـدين، فأعـدّ العدّة للسفـر إلى النجف الأشرف ـ عاصمة العلـم للشيعة ـ وهو بعـدُ في عنفوان الشبـاب وفي أوائل العقـد الثالـث من عمـره، فنـزل مـدينـة النجف فحضر على أساطين العلم، وفي القمة منهم:

١. الفقيـه الجليل الشيخ راضي من آل خضر النجفـي علم الفقه الخفّـاق، والزعيم الكبير في النجف الأشرف (المتوفّى ١٢٩٠هـ).

٢. علم الفقـه والتحقيق الشيخ حبيب الله الـرشتي (١٢٣٤ــ ١٣١٢هـ)، وكان من كبار الفقهاء والمدرسين في عصره، حضر أبحاثه سنين متمادية وكتب من أبحاثه الشيء الكثير، منها هـذه الرسالة التي يزفّها الطبع للقرّاء، وقـد عرضها بعد التأليف على أُستاذه فكتب عليها كلمة قيمة نأتي برمتها عن قريب.

٣. القـائد المنـاضل الكبير والمرجع الأعلى للشيعـة في عصره السيـد محمـد حسن الشيرازي (١٢٣٠ـ١٣١٢هـ) حضر أبحاثه في النجف الأشرف، ولمّا غادر الإمام الشيرازي ذلك البلد، وألقى رحله في سـامراء سنة ١٢٩١هـ ارتحل شيخنا مصطحباً خاله العلاّمـة المحدّث الكبير الشيخ حسين النوري(المتوفّى ١٣٢٠هـ) مؤلف مستدرك الوسائل في السنـة التاليـة (١٢٩٢هـ)، وبقي بها إلى أوائل القرن الرابع عشر حتى غـادرها سنة ١٣٠٣هـ إلى عاصمة إيـران طهران، كقائد روحي وأُستاذ كبير، ومرجع علمي، فقام بواجبه في مجالات العلم وخدمة المجتمع وإحياء القيم الإسلامية إلى أن لقي ربه شهيداً.

كلمات الثناء في حق المترجم

١. يقول المحدّث الكبير خاله الشيخ حسين النوري في حقّه: عالم فاضل، ومجمع المحاسن والفواضل، مالك أزمّة الفروع والأُصول، والآخذ بنواصي المعقول والمنقول، علم الأعلام، والحبر القمقام، ابن اختنا المفخم الشيخ فضل الله النوري.... [١]

٢. ويقول المجتهد الكبير أُستاذه الرشتي في تقريظه لرسالة المترجم له ماهذا نصه:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أيّها الواقف على هذه الأوراق، لو خضت زواجر البحار، وضربت آباط الإبل في مهامةالقفار، لما وجدت أحسن ممّا فيها تحقيقاً، وأزيد منه تدقيقاً، فمن الواجب أن ينادىٰ بفضل صاحبها في كل نادٍ، ويحث إليها الركاب في كل بلاد، فقد سرّحت فيها لحظي فرأيتها ملحظاً وجيهاً، وأمعنت فيها نظري فوجدتها منظراً صبيحاً، فكم أودع فيها من الدّرر الفاخرة، واللآلي الباكرة، فيليق أن يكتب بالتبر على الأحداق، لا بالحبر على الأوراق، فللّه درّ مؤلّفها **وهو العالم الأوّاه قرّة عيني، الشيخ فضل الله** ـ له فضله وعلاه ـ فقد أتعب نفسه، وعرّق جبينه، في تحصيل القواعد العلمية، والأُصول الاجتهادية، التي يدور عليها مدار الاجتهاد وبها يصح أعمال العباد.

وحضرلديّ ولدى الأساتيذ العظام، والأساطين الكرام، شطراً وافياً

١. مقدّمة «شجرة طوبى» للمحدّث النوري.

من الزمان، ودهراً طويلاً كافياً من الأوان، فبلغ بحمد الله مناه، وصار عالماً ربّانياً، وعلماً حقّانياً، مجتهداً ماهراً، متبحّراً كاملاً، جامعاً للمعقول والمنقول، فحقيق أن يرجع إليه عباد الله المؤمنون في أُمور دينهم، وينقادون إليه فيما يتعلّق بآخرتهم ودنياهم، وفي حقه وأمثاله ورد في الأثر من سيّد البشر: الرّاد عليه راد علينا، وهو في حد الشرك، معاذ الله منه ومن شرّ الشيطان، وسيئات الأعمال، ورجائي منه هو سلوك طريق الاحتياط في الأحكام والموضوعات، وأن لاينساني عن الدعوات عند قاضي الحاجات، إنّه وليّ التوفيق.

حبيب الله الغروى الجيلاني

٣. قال العلاّمة الأميني عند سرد حياته: قفل شيخنا المترجم له إلى طهران، ولم يبرح بها إماماً، وقائداً روحياً، وزعيماً دينياً، يعظّم شعائر الله، وينشر مآثر دينه، ويرفع أعلام الحق، ويبرز كلمة الحقيقة حتى حكمت بواعث العيث والفساد، بعدما جابه الإلحاد والمنكر، زمناً طويلاً، فمضى شهيداً بيد الظلم والعدوان، ضحية الدعوة إلى الله، ضحية الدين، ضحية النهي عن المنكر، ضحية الحمية والديانة، ودفن في دار المؤمنين بلدة قم.[١]

وقد أثنى الموافق والمخالف على الشيخ وكثر عليه الثناء من مختلف الطبقات ، حتى لم يجد المعاند منتدحاً من الاعتراف بدينه وصلابته في طريق عقيدته، ومسؤوليته أمام شعبه ودينه، وانّه هو الذي اختار الشهادة والقتل في سبيل الله، على التعاون مع رجال العيث والفساد.

وأنا أستميح الشيخ الشهيد عذراً حيث أعيى البيان وضاق المجال عن

---

١. شهداء الفضيلة: ٣٥٧. وله في بلدة قم مقبرة عامرة، حيث دفن في إحدى حجرات الصحن الشريف حيث تزور تربته عامة الطبقات.

ترجمته بجميع نواحيه العلمية والسياسية وخدماته الاجتماعية وزمالته لزعماء الدين، وأخص بالذكر السيد الكبير الشيرازي في مسألة تحريم التدخين الصادر عام ١٣٠٨ هـ فقد ذكر غير واحد من المؤرّخين مواقفه المشكورة في ذلك المجال، ولنكتف ببيان آثاره العلمية الواصلة إلينا.

آثاره العلمية

خلّف الشيخ آثاراً واشتغل بالتأليف من أيام شبابه إلى شيخوخته غير أنّ مؤلفاته لم تزل مخطوطة لم تر النور إلاّ القليل النادر منها.

وإليك بعض ما وقفنا على أسمائه وخصوصياته.

١. دررالتنظيم

منظومة حول القواعد الفقهية وقد طرح فيها خمساً وعشرين قاعدة فقهية مع الإشارة إلى مبانيها، صاغها في بوتقة النظم، وهو في أواخر العقد الثاني من عمره أي شرع فيها عام ١٢٧٩ هـ يقول فيها:

قد انقضى من سنّي العشرونا ... في سنة التاسعة و السبعونا
من بعد ألف و كذا المائتين ... من هجرة النبي دون المين [١]

وقد ختمه بقوله:

قد وقع الفراغ من تصنيف هذه النسخة بيد مؤلفه الفقير فضل الله ابن

---

١. المين: الكذب.

عباس النوري يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٨٠هـ في دار الخلافة طهران ،ويبلغ عدد الأبيات خمسمائة بيت، و إليك القواعد التي طرحها الشيخ في تلك المنظومة:

١. الأسباب الشرعية معرفات لاعلل حقيقية.

٢. الأصل عدم تداخل الأسباب.

٣. في قاعدة لاضرر ولاضرار.

٤. في قاعدة العقد ينحل إلى العقود.

٥. القاعدة العقلية لا تخصص.

٦. دلالة الألفاظ وضعية لا ذاتية.

٧. الأصل عدم جواز التوكيل إلاّ ما خرج.

٨. أصالة الطهارة في الشبهة الحدثية والخبثية.

٩. الأصل في الدماء، النجاسة.

١٠. قاعدة الإمكان في الحيض وبيان حدودها.

١١. من جملة أسباب الضمان، اليد.

١٢. من جملة ما جعل الشرع سبباً للضمان، الإتلاف.

١٣. من جملة أسباب الضمان، الأخذ بالعقد الفاسد.

١٤. من جملة ما جعله في الشرع سبباً للضمان، الغرور.

١٥. من جملة ما جعله في الشرع سبباً للضمان، التعدّي والتفريط.

في مسقطات الضمان:

١٦. من جملة المسقطات في الشرع، الإحسان.

١٧. من جملة المسقطات في الشرع، الإقدام.

١٨. من جملة المسقطات في الشرع، الاستيمان.

١٩. من جملة المسقطات في الشرع، الإذن من ذي السلطان .

٢٠. قاعدة القرعة وتشخيص مواردها.

٢١. في أن الأصل، وجوب القضاء، في ما وجب فيه الإعادة.

٢٢. في قاعدة من ملك شيئاً ملك الإقرار به.

٢٣. في بيان حرمة الإسراف ومدركها.

٢٤. عدم حجية عدم القول بالفصل «إذا كان البعض مثبتاً بالأصل».

٢٥. في شأن اشتراط العربية في العقود.

والمنظومة بعيدة عن التكلّف والتعسّف يقرأها الإنسان بسهولة، وإليك نماذج منها وهو طرح دلالة الألفاظ على المعاني وأنّها وضعية أو ذاتية:

وعن سليمان بن عباد حكي ... دلالة اللفظ لذاته فاترك
حجته لزوم ترجيح بلا ... مرجح، كذاك منه نقلا
لكنه مخالف المشهور ... مخالف لمذهب الجمهور
لأنها وضعية تدور ... مدار وضع وهو المنصور
لو لم تكن، لم يكن المنقول ... لأنّ ما بالذات لا يزول

وقد أشار في البيت الأخير إلى أنّ دلالتها وضعية لا ذاتية وإلاّ لامتنع نقل لفظ من معنى إلى معنى، والسير في المنظومة يعرب عن أنّه قرأ «القواعد والفوائد»

للشهيد الأوّل (٧٣٤ ــ ٧٨٦هـ) و «العوائد» للشيخ أحمد النراقي (المتوفّى ١٢٤٨هـ)، و «العناوين» للعلاّمة السيد فتاح المراغي الذي فرغ منه عام ١٢٤٥هـ وتوفي عام ١٢٥٠هـ. فربما يردّ عليهم أو يقبل قول بعضهم وهو في أوائل العقد الثالث من عمره. [١]

٢. رسالة المشتق

هذه الرسالة تقرير لآراء أُستاذه الكبير السيد المجدّد الشيرازي طبعت عام ١٣٠٥ هـ ضمن رسائل للشيخ الأنصاري وتلميذه الجليل الشيخ أبي القاسم الطهراني المعروف بـ: كلانتر (المتوفّى١٣١٣هـ) مؤلف مطارح الأنظار الذي هو تقرير لدرس أُستاذه الأنصاري.

٣. حرمة الاستطراق إلى مكة عن طريق جبل

هذه الرسالة ألّفها الشيخ بعد ما زار بيت الله الحرام من هذا الطريق ورأى فيها المخاوف التي تحدق بالزائر ذهاباً وإياباً ووجد فيه عدم الأمن وعدم تخلية السرب، وقد أفتى بالحرمة غير واحد من مراجع ذلك العصر، وطبعت الرسالة عام ١٣٢٠ هـ.

٤. الصحيفة المهدوية أو القائمية

جمع فيها أدعية الإمام المنتظر وهي بعد غير مطبوعة ألّفها في أُخريات أيام إقامته في سامراء بالعراق عام ١٣٠٢هـ.

وقد كتب عليها خاله العلاّمة المحدث النوري تقريظاً، وأطرى فيها على

١. توجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة المركزية لجامعة طهران.

المؤلف ابن أُخته وأجازه في الرواية.

٥. تذكرة الغافل وإرشاد الجاهل

كانت هذه الرسالة قارعة على رؤوس المخالفين الذين كانوا يؤيدون الحركة الدستورية غير الشرعية وقد طبعت عام ١٣٢٦هـ. وقد فضح فيها أهداف أصحاب تلك الحركة المشبوهة، وأيقظ الناس على ما يبيِّتُ لهم في تلك المؤامرة الخطيرة.

ثم إنّ للشيخ خطباً ومكاتيب، وبيانات بليغة مدوّية، لو جمعت في موضع واحد لتكوّن منها سفر قيّم، وكتاب ثمين، تتجلّى فيه بلاغة الشيخ الشهيد، وقوة بيانه، وعمق تفكيره، وشجاعة جنانه، وبُعد نظره، وأصالة رأيه.

٦. رسالة قاعدة ضمان اليد

هذه الرسالة هي التي يزفّها الطبع الآن إلى القرّاء وهي تعرب عن تضلّعه في الفقه، وإحاطته بالفروع، وهذه الرسالة موجودة بخطه الشريف في مكتبة المشهد الرضوي برقم ٩٦٣٢.

وبما أنّه غادر النجف الأشرف عام ١٢٩٢هـ يرجع تاريخ تأليفها إلى قبيل عام المغادرة، بشهادة أنّ المحقق الرشتي قرّظها وهو في النجف الأشرف وكان يحضر أندية دروس الأكابر.

ولأجل إحياء مآثر شهيدنا المبجّل ونظراً لما في تلك الرسالة من بدائع الأفكار، قام **الشيخ الفاضل العلاّمة الشيخ قاسم شيرزاده** بتحقيقها وتصحيحها والتعليق عليها حسبَ الحاجة، وقامت مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام بنشرها، فشكر الله مساعي المؤلِّف والمعلِّق وشكر جهدَ الناشرين لأفكار علمائنا الأبرار، وآثارهم.

مصادر المقدمة

لقد كثر التأليف والتحقيق حول شخصيّة وحياة شيخنا الشهيد النوري من الموافق والمخالف، ربما تربو على العشرين كتاباً بين مختص به أو مشير إليه ضمن دراسات أُخرى.

وها نحن نشير إلى بعض تلكم المصادر:

* . المصادر باللغة العربية

١ . أعيان الشيعة ، للسيد محسن الأمين العاملي (المتوفّ ١٣٧١ هـ) ج ٢٤، طبعة بيروت.

٢ . شهداء الفضيلة، للشيخ عبد الحسين الأميني (١٣٢٠ـ١٣٩٠هـ) ص ٣٥٦ ـ ٣٥٨.

٣ . معارف الرجال في تراجم العلماء والأُدباء، للشيخ محمد حسين حرز الدين ج ٢ ص ١٥٨ .

٤ . أحسن الوديعة في تراجم مشاهير مجتهدي الشيعة، للسيد محمد مهدي الموسوي ج ٢ ص٩١.

٥ . نقباء البشر في علماء القرن الرابع عشر، للشيخ آغا بزرگ الطهراني (١٢٩٣ـ١٣٨٩هـ) مطبوع.

* . المصادر باللغة الفارسية (فهي كثيرة جداً نشير إلى بعضها)

١ . المآثر والآثار، تأليف اعتماد السلطنة، طبع في طهران ١٣٠٦هـ .

٢ . مقال «عقائد وآراء شيخ فضل الله نورى» تأليف فريدون آدميت، نشره

ضمن مجلة «جمعه».

٣. «پايدارى تا پاى دار»، تأليف المحقق البارع الشيخ علي أبـو الحسني، طبع عام ١٣٦٨هـ. ش،وهذا الكتاب أوسع ما أُلّف حول حياة الشيخ وأهدافه.

٤. «شيخ فضـل الله نورى ومشروطيـت؛ رويا رويى دو انـديشه» ، تـأليف المحقق الشيخ مهدي الأنصاري طبع عام ١٤١١هـ.

٥. «ريحانـة الأدب»،لأُستاذنـا الجليل الشيـخ محمد علي المدرس التبريـزي (١٢٩٦ـ١٣٧٣هـ).

٦. «مكتوبات، اعلاميه ها... پيرامون نقش شيخ شهيد فضل الله نورى» ، بقلم محمد تركمان.

ومن أراد التوسع في معرفة المصادر فليرجع إلى ما أُلّف حوله ﵀.

١٩

آية الله الشيخ غلام رضا بن الحاج رجب علي القمي (١٢٥٥ ـ ١٣٣٢ هـ)

الفرائد وقلائدها

إنّ كتاب قلائد الفرائد، تعليقة قيّمة على كتاب الفرائد في علم الأُصول الذي هو محور الدراسة في الجامعات العلمية.

وقد أمرني من لا تسعني مخالفته [1] أن أُترجم حياة المعلِّق فامتثلت أمره أداءً لبعض حقوقه على العلم وأهله، وقد ارتويت في سالف الزمان أي أيّام شبابي وزمان دراستي لكتاب الفرائد من هذه التعليقة التي هي رشحة من نمير علمه ـ قدّس الله سرّه ـ.

أمّا الفرائد فهو للشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري (١٢١٤ـ ١٢٨١هـ) النجم اللامع، بل الشمس البازغة في سماء العلم والتحقيق في القرن الثالث عشر، وهو من الذين يضنُّ بهم الدهر إلاّ في فترات متقطعة متباعدة، وله جهوده العلمية في إرساء قواعد الفقه والأُصول في ضوء الكتاب والسنّة والعقل.

---

١. العلاّمة الحجّة آية الله: الشيخ لطف الله الصافي ما زالت مدارس العلم ومعالم الفضل عامرة بوجوده الشريف.

وقد ترك ثـروة علمية كبيرة ومازالت كتبه في الفقه والأُصـول محور الدراسة. وهذا كتـابه الفرائد في المبـاحث العقلية مـن الأُصول، لم يزل مُشِعّـاً في الجامعات العلمية الشيعية. والتعليقات والحواشي عليها تربو على خمس وستين [١]، وهذا أدلّ دليل على أنّ الكتاب وقع موقع القبول.

الشيخ الأعظم في غنىً عن الترجمة، وكفى ما كتبه أُستاذه المولى أحمد النراقي (المتـوفّى ١٢٤٥هــ) في حقّه قـال: «وممن جـدّ في الطلـب وبذل الجُهـد في هـذا المطلب، وفاز بـالحظ الأوفر الأسنى، وحظي بـالنصيب المتكاثر، مع ذهـنٍ ثاقب، وفهم صـائب، وتدقيق وتحقيق، ودرك غـائر رشيق، والورع والتقـوى، والتمسّك بتلك العـروة الوثقى، العـالم النبيل، والمهذّب الأصيل، الفـاضل الكامـل، والعالم العـامل، حـاوي المكـارم والمنـاقب، والفـائز بـأسنى المواهـب، الألمعي المؤيّـد، والسـالك طـرق الكمال الأسد، ذو الفضـل والنهى والعلم، الشيـخ مرتضـى بن الشيخ محمـد أمين الأنصاري التستري أيّده الله بتـأييده، وزاد الله في علمـه وتقاه، وحبـاه بما يرضـاه وقد استجـاز بعـدما تـردّد إليّ وقرأ عليّ وتبيّنـت فضيلته لـدي، ولمّا كـان أيّـده الله سبحـانـه لـذلك أهـلاً، وإنجـاح مسؤولـه فـرضـاً لا نفـلاً، فأجـزتُ لـه أسعـد الله جده وضـاعـف كدَّه وجـدَّه، أن يـروي عنّي كتـاب نهج البلاغة و...». [٢]

والحقّ أنّ الشيخ أرفع شأناً من أن تحوم فكرتي حول شخصيته وفقاهته، فلا محيص عن إيقاف القلم، وعطف عنانه إلى ترجمة شيخنا المحشي ﷺ.

***

١. الطهراني، الذريعة: ج٦، مـادة الحاشية وقد سقط من قلمه الشريف بعض التعليقـات مضافاً إلى أنّه لم يذكر فيها بعض ما أُلّف بعد رحيله.

٢. الإجازة مذكورة برمّتها في كتاب شخصية الشيخ الأنصاري: ١٢٠ـ١٣٠.

لقد تعرّفت على مكانة كتاب الفرائد ووقوعه محور الدراسة منذ زمن تأليفه إلى يومنا هذا، وقد علّقت على هذا الكتاب ثلة جليلة من تلاميذ الشيخ الأعظم وتلاميذ تلاميذه فأوضحوا مقاصده، وذلّلوا معضلاته إلى أن وصلت النوبة إلى شيخنا المترجم، فألّف كتابه المعروف بـ«قلائد الفرائد» أو «قلائد العقيان على نحور الخُرَّد [١] الحسان» [٢] وقد فرغ منه المؤلّف عام ١٣١٢ وطبع عام ١٣١٤.

وهذا الكتاب من أشهر تآليفه، وله تآليف أُخرى سنذكرها فيما بعد.

وأمّا حياته فقد ترجمها شيخنا المجيز الطهراني في نقباء البشر فقال:

هو الشيخ غلام رضا بن الحاج رجب علي القمّي المعروف بالحاج آقا اخوند، عالم محقّق، وفقيه متبحّر من الأعاظم، كان اشتغاله في النجف الأشرف، حضر على الشيخ المرتضى الأنصاري سنتين، وبعده على السيد محمد حسن المجدّد الشيرازي قليلاً، والميرزا حبيب الله الرشتي، وذهب إلى سامراء فبقى سنتين ورجع إلى قم. وكان فيها أوان تشرّف أُستاذه الرشتي في طريق زيارته للمشهد الرضوي فجدّد به عهداً هناك، ثمّ صار مرجعاً للأُمور مقيماً للجماعة والوعظ، قائماً بالإرشاد والتدريس إلى أن توفّي في ١٦ ذي الحجّة سنة ١٣٣٢هـ. [٣]

وفي «هدية الرازي إلى المجدد الشيرازي» ما هذا نصه: من أكابر علماء قم، ومن تلاميذ الشيخ الأنصاري والميرزا الشيرازي في النجف الأشرف، ثمّ غادر إلى قم رئيساً ومدرِّساً، وقد كتب حاشية على رسائل العلاّمة الأنصاري. [٤]

---

١. جمع الخريدة: البكر لم تمس قط.

٢. والاسم الواقعي هو قلائد الفرائد وأمّا الثاني فهو مقتبس من قول بحر العلوم في منظومته:

تزهو على قلائد العقيان   على نحور الخُرّد الحسان

٣. نقباء البشر: ٤/ ١٦٥٧ برقم ٢٢٢١.

٤. هدية الرازي: ١٧٨ بتعريب منّا.

كما يذكره ناصر الشريعة في «تاريخ قم» فيقول: الحاج ملاّ غلام رضا بن رجب علي المعروف بـ (حاج آخوند) المتوفّى عام ١٣٣٢هـ. كان في الرعيل الأوّل من علماء قم وأكابرها، ضمّ إلى علمه الجم قدسية نفسية، فصار مناراً للعلم ومثالاً للتقوى.

غادر بلدته (قم) عام ١٢٧٩هـ مع زميله العلاّمة السيد صادق الروحاني ـ قدّس الله سرّهما ـ إلى النجف الأشرف فحضر درس الشيخ الأنصاري قرابة سنتين، ثمّ اختص بالعلمين الكبيرين: الميرزا الشيرازي والميرزا الرشتي ـ طيّب الله ثراهما ـ فلما بلغ المرتبة العالية من الاجتهاد، ونال الشهادة الكبرى من أُستاذه قفل عائداً إلى قم عام ١٢٩٨، مشتغلاً بالتدريس إلى أن لبّى دعوة ربّه عام ١٣٣٢هـ ودفن في الصحن الشريف: الإيوان الزجاجية للحضرة الفاطمية. [١]

ولم نقف على تاريخ ولادته غير أنّه يبدو ولد حوالي عام ١٢٥٥ وذلك لأنّه كان قريناً وزميلاً وصديقاً من أوان عمره للعلاّمة السيد صادق الروحاني طول حياته، وقد ولد السيد الروحاني في ذلك العام.

آثاره العلمية

وقد ترك شيخنا المؤلّف ثروة علمية لا يستهان بها، غير أنّها لم تر النور إلاّ هذا الأثر.

---

١. ناصر الشريعة: تاريخ قم: ٢٧٨. تجد نظير هذه الكلمات في كتاب «مؤلّفين كتب چاپى» لخان بابا مشار: ٤/ ٢٩٥، ورجال قم: للسيد محمد مقدسي زاده، فلا حاجة لنقل كلماتها لتشابهها مع ما ذكر لفظاً ومعنى.

و إليك فهرس ما ألّف:

١. **قلائد الفرائد:** أو قلائد العقيان، وقد أُعيد طبعـه بالأُوفست وقرّظه يوم طبع، العلاّمة السيد مهدي القمّي بأبيات:

كـــم ركبـــوا سفينـــة البراءة ورامـــوا الاستصحـــاب بـــالقـــراءة
تحيّروا في لجج القـــواعـــد مـــا وصلـــوا حقيقـــة المقـــاصـــد
عليـــك في بلـــوغـــك الفـــوائد بهذه القـــلادة للفـــرائد
قـــد نـــزلـــت في كتـــب الأُصـــول منـــزلـــة الـــربيع في الفصـــول
شـــاملـــة دقـــائق القـــوانين كـــاشفـــة الغطـــاء مـــن العنـــاويـــن
تملأ مـــن بـــدائع الـــدقيقـــة تميـــز المجـــاز عـــن حقيقـــة
قـــال لنـــا الســـادة ورّخـــوهـــا اجبتهـــم «بـــديهة خـــذوهـــا»

٢. كتاب القضاء.

٣. كتاب الصلاة.

٤. صلاة المسافر.[1]

٥. قـواعد الأُصـول، تشتمل على مسـألتي اجتماع الأمـر والنهي، ومسألـة الضد.[2]

٦. كنوز الجواهر.[3]

---

١. الطهراني: نقباء البشر: ٤/ ١٦٥٧ .

٢. الذريعة: ١٧/ ١٧٨، ونقباء البشر: ٤/ ١٦٥٧.

٣. الذريعة: ١٨/ ١٧١.

تلاميذه

كان شيخنا المترجم مشتغلاً بالتدريس والزعامة الدينية، ربّى لفيفاً من ذوي الفضل منهم العلاّمة الحجّة الشيخ محمد علي الارجستاني الكجوئي مؤلّف «أنوار المشعشعين في شرافة قم والقمّيين»[1]، وكان ﷺ ساعياً في رفع حوائج الناس برحابة صدر إلى أن لبّى دعوة ربّه كما عرفت في ١٦ ذي الحجة عام ١٣٣٢هـ فسلام الله عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيّاً.

أولاده

خلّف أولاداً صالحين وعلماء كباراً قد عاصرنا بعضهم، نذكر منهم ما يلي:

١. آية الله الحاج الشيخ محمد جواد القمّي (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ) ولد في النجف الأشرف وصحب أباه عند مغادرته النجف الأشرف إلى قم، درس الآليات والمقدّمات فيها، ولما تمّ العقد الثاني من عمره هاجر إلى طهران بإيصاء من والده فحضر بحوث الأمجاد الكبار: الشيخ محمد حسن الاشتياني، والشيخ علي النوري، والميرزا محمود الحكمي، والشيخ عبد الكريم السبزواري، ولما ارتوى من نمير علمهم في المعقول والمنقول رجع إلى قم فأقام بها ثلاث سنوات إلى أن هاجر إلى النجف الأشرف عام ١٣١٩هـ فحضر أبحاث العلمين الجليلين: السيد محمد كاظم اليزدي، والمحقّق الخراساني. فلمّا توفّي والده رجع إلى قم في سنة ١٣٣٣هـ. مشتغلاً بالتدريس والزعامة والتأليف والتصنيف، ومن آثاره العلمية:

١. الصراط المستقيم.

٢. سعادت بشرى.

---

١. كتابشناسى آثار مربوط بـ قم: ١٣٢.

٣. آينه حق نما.

٤. توحيد قمي.

٥. الكيمياء في المعاد.[1]

وغير ذلك من الآثار الكلامية والأخلاقية التي تتجاوز العشرة وكان يقيم الجماعة في مسجد والده، إلى أن توفّي عام ١٣٧٣هـ وقد أوصى بكتبه وكتب والده إلى المرجع الديني الأعلى آية الله العظمى البروجردي (١٢٩٢ـ ١٣٨٠هـ) وهو ـ قدّس الله سرّه ـ أمر بإيداعها في مكتبة مدرسة الفيضية.

٢. العلاّمة الشيخ عبد الهادي القمّي: تتلمذ على الفقيه الكبير الشيخ أبي القاسم القمّي، وآية اللّه الحائري، وآية الله العظمى البروجردي، وكانت حياته حياة طيّبة يعلو عليها الزهد والتجافي عن الدنيا، انتقل إلى رحمة ربّه عام ١٣٨٤هـ.

٣. الشيخ محمد القمّي: تتلمذ على يد مؤسّس الحوزة آية الله الحائري، والسيد الحجّة الكوه كمري، والسيد الزعيم البروجردي، ومن خصائصه الممتازة صدق اللهجة والصراحة في الكلام مضافاً إلى التجافي عن زخارف الدنيا إلى أن وافاه الأجل عام ١٣٧٨هـ.

٤. العلاّمة الحجّة الشيخ حسين القمّي من خريجي مدرسة آية الله الحائري، والحجّة الكوه كمري، والسيد محمد تقي الخوانساري، والزعيم البروجردي، وكان يعيش كسائر إخوانه في غاية البساطة إلى أن وافاه الأجل عام ١٣٧٩هـ.

هؤلاء ممّن يعبأ بهم من أولاده الفضلاء رحم الله الوالد وأولاده، وحفظ الله أحفاده وأسباطه، ولم يزل البيت زاهراً بالتقوى والزهد ونور الولاية.

---

١. طبع عام ١٣٦٤هـ كما في نقباء البشر: ٤/ ١٦٥٧.

وفي الختام أتقدّم بالشكر الجزيل إلى الشيخ ناصر الدين الأنصاري وإلى حفيدي المترجم، الحاج علي الفقيهي الرضائي، والحاج محسن الرضائي ــ أبناء الشيخ عبد الهادي ــ حيث قدّموا المعلومات الكافية عن حياة المترجم له وبيته الرفيع، وقاما بطبع كتاب «القلائد» وبذلا نفقة الطبع ليكون لهما ذخراً في الآخرة.

٢٠

محمد بن حسين بن محمد

الطباطبائي (١٣٢١ ـ ١٤٠٢ هـ)

من ملامح الشخصيات الكبيرة انّ كلَّ واحد منهم أُمّة، لما يقومون به من انجازات كبيرة ويخلفون من الآثار التي من شأنها أن تُنجزها أُمّة، ولأجل ذلك نرى انّه سبحانه يصف إبراهيم عليه السلام بانّه أُمّة، ويقول: ﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً للهِ حَنيفاً ولَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكينَ﴾.[1]

وما هذا إلاّ لأنّ رائد التوحيد ـ منذ ريعان شبابه إلى أن لقى ربّه ـ أوجد ثورة عارمة ضد الشرك، وقاد نهضة توحيديّة كبيرة، وترك آثاراً ومنجزات عظيمة في المجتمع الإنساني، فعمله في الظاهر عملَ فردي ولكنّه ـ في الواقع ـ عمل أمّة كبيرة وهذه من سمات الشخصيات الكبيرة.

هكذا كان العلاّمة الطباطبائي، فهو ـ بحقّ ـ أُمّة، لما أنجزه من الآثار العلمية والخدمات الجليلة التي تركت بصمات واضحة على التراث الشيعي.

فيوم نُعِيَ لموته، كأنّه نُعي لموت أُمّة كبيرة، والذكر الحكيم يعبِّر عن موت العالم وفقدانه بنقصان الأرض و يقول: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوا أَنّا نَأْتِي الأَرض نَنْقُصها مِنْ أَطرافِها وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَريعُ الحِساب﴾.[2]

---

١. النمل: ١٢٠.

٢. الرعد: ٤١.

وقد فسَّرت الآيـة بموت العالم ، روى أمين الإسلام الطبرسي، عـن عدّة من المفسرين أنّ المراد مـن الإنقـاص، نقصهـا بـذهـاب علمائها وفقهـائها وخيـار أهلها.(١)

وثمّة نكتـة جديرة بـالذكر، وهي انّ النبـوغ تارة يتجلىٰ في فن واحد كنـابغة النحو سيبويه (المتوفى حوالي عام١٩٠) مؤلف «الكتاب» الذي لم يكتب نظيره في النحو، و أُخرى يتجلى في أكثر من فن واحد فتكون شخصية ذات أبعاد مختلفة.

وهذا هو الشيخ الرئيس ابن سينا (٣٨٤ـ ٤٢٧ هـ) الذي ضرب في كلّ فن بسهم و تجلّى فيـه نبـوغه، ففـي مضمار الفلسفـة فيلسوف مبـدع بلغت الفلسفـة المشـائية علىٰ يـده القمَّـة، و في مضمار الطب طبيب مـاهر وحـاذق ألّف كتـاب «القـانون» الـذي لم يزل يُـدرَّس في الجامعـات العلمية عبرْ قـرون، كما انّه أُستـاذ الرياضيات والهيئة في عصره ولم يكن الشيخ الرئيس نسيج وحده في ذلك المجال بـل لاحـت أسماء شخصيـات أُخـرى في سماء العلـم والنبـوغ لا يسـع المقـال لذكرها.

وقد كـان العلاّمة الطباطبـائي من تلك الثُلة الـذين تمتعوا بذهنيـة وقادة، ومنفتحة علىٰ أكثـر العلوم، وارتشف من معينها ونبغ فيهـا، فهو في مجال التفسير مفسّر بارع يفسّر القرآن بـالقرآن والآية بالآية، وفي مجال الفلسفـة، مفكر إسلامي كبير مؤسس لأُصول فلسفية، وفي العرفـان وتهذيب النفس والتخلق بالمُثل العليا، عارف شامخ وأخلاقي مهذّب، ضمَّ العرفان النظري إلى العملي وبلغ شأواً عظيماً فخرق الحُجُب المادية بعيـون برزخية، كما انّه في العلوم النقلية بلغ مـرتبة الاجتهاد وكانت له أنظار في الفقه والأُصـول إلى غير ذلك من الفضائل والمآثر التي يضرب بها المثل، **﴿ذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾**.

١. مجمع البيان:٣/ ٣٠.

لمحة من حياة السيد الطباطبائي

ولد ﷺ في مدينة «تبريز» في التاسع و العشرين من شهر ذي الحجة الحرام من شهور عام ١٣٢١، و عاش ثمانين سنة وثمانية عشر يوماً، وخلّف تراثاً علمياً ضخماً، وربّىٰ جيلاً كبيراً من المفكرين أوجد من خلالها تحولات عظيمة في العلوم الإسلامية، ولقىٰ ربّه بنفس مطمئنة يوم الأحد الثامن عشر من محرم الحرام من شهور عام ١٤٠٢هـ، ووُرِيَ جثمانه الطاهر في حرم السيدة فاطمة بنت الإمام الكاظم عليهما السلام تجد صخرة قبره إلى جنب قبر السيد النقي الورع السيد أحمد الخونساري ـ قدّس الله سرّهما ـ فاقترن الكوكبان في مضجعهما كما كان بينهما أُلفة في حال حياتهما.

نشأ الأُستاذ وترعرع في أُسرة عريقة بالعلم والثقافة ولها تاريخ وضّاح، يتصل نسبه إلى السيد الجليل مير عبد الوهاب الذي تقلّد منصب «شيخ الإسلام» في أذربيجان قبل ظهور السلسلة الصفوية، ولما اشتعل فتيل الحرب بين الدولتين: الصفوية والعثمانية، قام السيد بمساعي جميلة بغية اطفاء نيران الحرب و استتباب الأمن والاستقرار بين البلدين الشقيقين، فغادر إيران عام ٩٢٠ هـ لهذا الغرض وهبط آستانة حاضرة الدولة العثمانية إلاّ أنّ محاولته باءت بالفشل فزُجَّ به في السجن وبقي فيه، إلى أن مضى السلطان سليم و قام مقامه ابنه السلطان سليمان، فأطلق سراحه وعامله بتكريم وتبجيل إلى أن وافته المنية عام ٩٢٧هـ ودفن في جوار الصحابي الكبير «أبي أيّوب الأنصاري» في آستانة، فالمترجم له وليد ذلك البيت العريق وثمرة تلك الشجرة الطيّبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فكم أنجبت علماءً كباراً احتفل التاريخ بأسمائهم عبر قرون خمسة، ولا مجال لذكر أسمائهم فضلاً عن حياتهم، وكفانا عن اطناب الكلام في ذلك ما ألّفه نفس الأُستاذ في أنساب آل عبد الوهّاب والرسالة بعدُ مخطوطة

لم تر النور.

نشأ السيد الطباطبائي في حضن أبويه حتى وافتهما المنيّةُ ولم يتجاوز عمر السيد ـ آنذاك ـ تسع سنين، وبعث إلى المدرسة وتعلم فيها القرآن والأدب الفارسي والرياضيات فتهيأ إلىٰ دخول الجامعة الإسلامية في مدينة تبريز، وقرأ فيها الصرف والنحو والمعاني والبيان والفقه و الأُصول والكلام ولم يترك شيئاً من العلوم الرائجة يومذاك إلّاوقد انتهل منها حتى درس الخط واستغرق جميع ما درسه من الآداب والسطوح العالية تسع سنين ونال منها حظاً عظيماً.

وثمّة نكتة جديرة بالذكر، وهي انّ الأُستاذ كتب رسالة موجزة في حياته نقتبس منها فيما يرجع إلىٰ تلك الحقبة من حياته.

يقول: كنت في بداية دراستي غير راغب في الاستمرار فيها، وكنت على هذا الحال سنين أربع إلى أن شملتني العناية الإلهيّة وأوجدت تحولاً جذرياً في نفسي، وأحسست بشوق منقطع النظير إلى الاستمرار فيها وعوّلت على استسهال الصعب، فاكببت على الدرس بعزم راسخ ونسيت كلّ شيء سواه، واقتصرت من الدنيا باليسير، وسهرت الليالي منكبّاً على المطالعة والدراسة، وكنت أُحضِّر المادة الدراسية قبل حضوري مجلس الدرس وأستوعبُ أكثر ما يلقيه الأُستاذ فيه، وكان جلّ سعي هو فهم المطالب وحل المشاكل العلمية التي أواجهها بالامعان والمطالعة دون أن استفسر عنها.[1]

وقد مشى الأُستاذ على هذا المنوال إلى أن غادر مسقط رأسه إلى النجف الأشرف عام ١٣٤٤ هـ بغية إكمال دراساته العليا، فأخذ يختلف أندية الدروس العالية لأساتذة الوقت في الفقه والأُصول أعني السيد أبو الحسن الاصفهاني (١٢٨٤ـ ١٣٦٥هـ) والشيخ محمد حسين النائيني (١٢٧٤ـ ١٣٥٥هـ) والشيخ

١. حياة الأُستاذ بقلم نفسه.

محمد حسين الاصفهاني (١٢٩٦ـ ١٣٦١هـ) الـذي نالت دروسه درجة كبيرة من الأهمية عند السيـد الطباطبائي، فكان يُثني عليـه كثيراً ويسير علىٰ نهجه في أُصول الفقه.

وأمّا أساتـذته في العلوم العقلية، فقد حضر درس العرفـان عند السيد علي القـاضي، كما حضر دروس الفيلسوف الكبير السيـد حسين البادكـوبي (١٢٩٣ـ ١٣٥٨هـ) الذي هـو من تلاميذ السيد أبو الحســن المعروف بـ«جلوة» (١٢٣٨ـ ١٣١٤هـ) وكان المترجم له يُثني كثيراً علىٰ أُستاذه البـادكوبي ويذكره في المجالس والمحـافل العلمية ويقـول في رسالتـه: وقـد حضرت دروس الحكيم البارع السيـد حسين البـادكـوبي ســت سنـوات وقـرأت عليـه شرح «المنظـومـة» للسبـزواري، و«الأسفار» لصدر المتألهين الشيرازي و«المشاعر» لـه أيضاً، وكتاب «الشفاء» لابن سينـا، وكتاب «اثـولوجيـا» لأرسطو، و «تمهيـد القواعـد» لابن تـركة، و «طهـارة الاعراق» لابن مسكويه.

وأضاف المترجم لـه في رسالته: أنّ السيد البادكـوبي كانت له عنايـة خاصة بتعليمي وتربيتي و كان يصرَّ على تعلم الريـاضيات العالية حتى أقف علىٰ كيفية إقامة البرهان على المسائل الفلسفيـة ولأجل ذلك حضرت دروس الرياضي الكبير السيـد أبو القـاسم الخونساري فقـرأت عليه دورة كـاملة في الحسـاب والهندسـة المسطحة والفضائية والجبر الاستدلالي.

وعلى الرغم من انّ السيـد الطباطبائي كان مكبّـاً على العلم والتعلم لكنّه لم ينس أبداً تهذيـب النفس وتحليتها بالفضـائل وتخليتها عن الرذائل وقـد اقتدى في ذلك بـأُستـاذه العظيم السيـد علي القـاضي (١٢٨٥ـ ١٣٦٥هــ) الـذي بلغ في تهذيب النفس مقاماً شامخاً حتى صار صاحب كرامات.

نقل العلاّمة الطباطبائي عنه هذه الحكاية الطريفة :

حلّ السيّد القاضي ضيفاً عليّ و كانت بيننا وبينه صلة رحم وقرابة ، و التفت إلى عقيلتي التي لم ترزق طفلاً إلّا و قد مات، مخاطباً إياها قائلاً: يا ابنة العم: هذا الذي يحتضنه رحمك يبقى وهو ذكر سمِّه «عبدَ الباقي»،قال ذلك و لم أكن أنا يومذاك مطلعاً على حملها. ثمّ إنّه سبحانه تبارك و تعالى رزقنا ذكراً اسميناه عبد الباقي وهو الآن حيٌّ يرزق.

إنّ العلاّمة الطباطبائي ضمّ إلى العرفان النظري، العرفانَ العملي ومن له أدنى المام بالعرفان النظري يقف على انّه بمجرده لا ينوّر الضمير مالم ينضم إليه العرفان العملي،فللعارف جناحان أحدهما علمه والآخر عمله بهما يُحلِّق في سماء الكمال.

ومن آثاره العلمية في ذلك الباب كتابه «المحاكمات» فقد حاكم فيها نظريتين إحداهما للعارف الطائر الصيت السيد أحمد الحائري (المتوفىٰ عام ١٣٣٢هـ)والآخر لشيخه محمد حسين الإصفهاني، فقد اختلفا في تفسير بيتين منسوبين إلى العارف الكبير «العطار النيشابوري» أعني قوله:

دايماً او پادشاه مطلق است   در كمال عزّ خود مستغرق است

او به سر نآيد ز خود آنجا كه اوست   كى رسد عقل وجود آنجا كه اوست

فقد دارت بين العارفين، مراجعات في تفسير البيتين إلى ان صار كتاباً باسم «المكاتبات» ثمّ إنّ السيد الطباطبائي كتب رسالة حاكم فيها النظريتين وحقق ما هو اللائق بمقام العارف في تفسيرهما.

مغادرة الأُستاذ النجف الأشرف

ظلّ الأُستاذ في جامعة النجف الأشرف أحد عشر عاماً غير انّ تدهور الأوضاع الاقتصادية ألجأته إلىٰ مغادرة النجف وأقفل عائداً إلىٰ تبريز مسقط رأسه، وكان المترقب أن يشتغل بنشر المعارف و تعليم جيله لكن الأوضاع السياسية السائدة آنذاك عاقته عن نيل تلك الامنية، فألقى الرحل في قرية من قرىٰ تبريز تُعرف بقرية «شادباد»و اشتغل فيها بالفلاحة لسدّ حاجته المادية ودام هذا الوضع عشر سنين، ويصف فيها تلك الفترة عن مضض ويقول:

إنّ تلك الفترة من عمري كانت خسارة جسيمة لي، فقد اضطررت إلى الاشتغال بالفلاحة لسدّ عيلتي، وكانت تأخذ مني قسطاً وافراً من الوقت.

ومهما يكن من أمر فقد ألف في تلك الفترة رسائل عرفانية وفلسفية، منها: «الإنسان قبل الدنيا» و «الإنسان في الدنيا» و «الإنسان بعد الدنيا» و الرسائل الأربع، و غيرها من الرسائل، وطالع عامة أجزاء بحار الأنوار، إلاّ الأجزاء الستة التي ترجع إلى الفقه و لم يغفل عن تهذيب النفس وسلوك مدارج الكمال لاسيما انّه كان منقطعاً عن معاشرة الناس شاغلاً بنفسه عن غيره.

كانت حياته تسير على ذلك المنوال إلى أن فُوجئ باضطراب الأوضاع السياسية في أذربيجان عقب استيلاء جيوش الحلفاء على إيران وجيوش الروس على أذربيجان، فلم ير بُدّاً من ترك مسقط رأسه متوجهاً إلى قم المقدسة وذلك عام ١٣٦٤، وقد استخار الله تبارك و تعالى في هذه الهجرة وفتح القرآن فإذا بهذه الآية ﴿هنالِكَ الْوَلايَةُ للهِ الْحَقّ هُوَ خَيْر ثَواباً وَخَيْر عُقُباً﴾ .[١]

وظل يعيش تحت ولايته سبحانه في مهبط العلم ما يقرب عن ٣٥ سنة،

---

١. الكهف: ٤٤.

وتخرج علىٰ يده جيل كبير من أكابر الحوزة وعلمائها وهم بين مفسّر لكتاب الله العزيز، وحكيم يشقّق القواعد الفلسفية بحذاقته، وأخلاقي يعد أُسوة في المجتمع، و أُصولي له باع طويل إلى غير ذلك من البركات التي عمّت الحوزة عقب مجيئه.

هذه لمحة خاطفة عن حياته، و إليك نزراً من أبعاد شخصيته العلمية في مجالات مختلفة:

١. العلاّمة الطباطبائي والتفسير

نزل القرآن الكريم للتدبر والتفكر، قال سبحانه: **﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾** [١] غير انّ طائفة كبيرةمن المسلمين اكتفوا من القرآن بالقراءة والتجويد غافلين انّ كلّ ذلك مقدمة لفهم القرآن وتطبيق مفاهيمه على الحياة الاجتماعية.

فالقرآن يصف نفسه، بقوله: **﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾** [٢] وإذا كان القرآن تبياناً لكلّ شيء فحاشا أن لا يكون تبياناً لنفسه، فعلى المفسّر أن يستنطق القرآن و يرفع إجماله ببيّناته، ويفسّر متشابهه بمحكماته. وإلى ذلك يشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : «**كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتسمعون به و ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه علىٰ بعض**». [٣]

وعلى ضوء ذلك كان أئمّة أهل البيت عليهم السلام يفسرون القرآن بعضه ببعض، و لنأت بمثال:

إنّ قوله سبحانه في صلاة المسافر: **﴿وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ**

---

١. محمد: ٢٤.

٢. النحل: ٨٩.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

جُناحٌ أَنْ تَقْصِروا فِي الصَّلاة... ﴾ [١] ظاهر في جواز القصر لا وجوبه مع انّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام أفتوا بوجوب القصر على المسافر، وقد سأل زرارة و محمد بن مسلم أبا جعفر عليه السلام عن وجه الوجوب للمسافر مع انّ الآية ظاهرة في الجواز، فأجاب بقوله عليه السلام: «أو ليس قد قال الله عزّوجلّ في الصفا والمروة ﴿فَمَن حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اْعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَوَّفَ بِهِما﴾ ألا ترون انّ الطواف بهما واجب مفروض، لأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابه وصنعه نبيه، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكره الله في كتابه. [٢]

وأمّا التعبير عن الوجوب بهذا اللفظ فله نكتة خاصّة بينت في موضعها.

تجد انّ الإمام رفع إجمال إحدى الآيتين بالآية الأُخرىٰ وهذا النمط من التفسير شائع في أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام وقد اقتفى العلّامة الطباطبائي بهم، فوضع تفسير الميزان على أساس تفسير القرآن بالقرآن والآية بالآية وهو تفسير بديع ليس له مثيل.

نعم كان بعض المفسرين ربما يفسّرون الآية بالآية على نطاق ضيّق ولكن الأُستاذ ألّف كتاباً كبيراً في عشرين جزءاً جعل أساس تفسيره رفع ابهام القرآن بالقرآن.

ثمّ إنّ الأُستاذ في كتابه «الميزان» بعد ما ينتهي من تفسير الآيات يستعقبها ببحوث فلسفية واجتماعية وأخلاقية وتاريخية على وجه لا يخلطها بما سبق من تفسير الآيات حذراً من مغبّة التفسير بالرأي.

إنّ تفسير «الميزان» خدم الحديث على وجه الإطلاق، فعرض قسماً من الأحاديث الواردة حول الآيات على القرآن الكريم، وفَصَلَ الموافق عن المخالف،

---

١. النساء:١٠١.

٢. الوسائل: ٥/ ٥٣٨، الباب ٢٢ من أبواب صلاة المسافر، الحديث ٢.

وهذا النوع من البحث جدير بالعناية لمن أعقبه من المفسرين.

وقد كان لتفسيره يوم انتشر بعض أجزائه صدىً واسع في المحافل العلمية، وهذه هي مجلة «رسالة الإسلام» الصادرة عن دار التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة تصف الكتاب، وتقول: «الميزان في تفسير القرآن» تفسير جديد للقرآن الكريم لسماحة العلاّمة السيد محمد حسين الطباطبائي من علماء الإمامية الأجلاء صدر منه جزءان يقع كلّ منهما في قرابة ٥٠٠ من الصفحات الكبيرة، وقد طبع في طهران على ورق جيّد وحروف طباعية حديثة.

قرأنا مقدمة هذا التفسير وبعض موضوعاته ونحن على نية أن نستوعب الجزءين قراءة وتدبراً إن شاء الله تعالى، وقد وجدنا فيما قرأناه قوة علمية متعمقة في البحث من السهولة واليسر والبعد عن التشدد، والتخفف من المذهبية الخاصة إلىٰ حدّ بعيد والرجوع إلى القرآن نفسه بتفسير بعضه ببعض والنأي به عن الأقوال التي لا تصح من الروايات الكثيرة المختلفة، وعن الآراء التي ترجع إلى تأويل آياته حتى توافق نظراً علمياً أو تقليداً مذهبياً أو أصلاً كلامياً أو فلسفة خاصة أو تجديداً حديثاً إلى غير ذلك ممّا نلمحه في بعض التفاسير.

ثمّ يقول: من أبرز مزايا هذا التفسير انّه ـ يعني بعد شرح الآيات و بيان معناها ـ يبحث في الموضوعات الهامة والقضايا التي كثيراً ما شغلت الأذهان في القديم والحديث بحثاً مستمداً من آيات القرآن نفسها، وقد قرأنا من هذا ما كتبه عند تفسيره لقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزَّلْنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ... ﴾[1]، إذ بحث بحثاً جديداً في اعجاز القرآن من جهاته المختلفة في بلاغته وقوة أُسلوبه وتحديه بالعلم وبالاخبار عن الغيب وبمن أنزل عليه القرآن وبعدم الاختلاف فيه،ثمّ تحدث عمّا يثبته القرآن من قوانين وسنن كونية كتصديقه لقانون

---

١. البقرة: ٢٣.

العلية العامة واثباته ما يخرق العادة ومن كون المؤثر الحقيقي في الأشياء بتمام معنى الكلمة ليس إلاّ الله عزّ سلطانه، إلى أن قال: وانّا لنحيّي المؤلف وندعو له بدوام التوفيق.[١]

وقد نال التفسير اعجابَ السيد الراحل المحقق البروجردي (١٢٩٢ ـ ١٣٨٠هـ) وقد حضرت شخصياً مجلس السيد وحوله علماء كبار وهو يتحدث عن تفسير السيد الطباطبائي ويذكره باعجاب ويصف المؤلف بانّه أحد علماء الإسلام، وسيوافيك تفصيله.

٢. العلاّمة الطباطبائي و الفلسفة

إذا كان المراد من الفلسفة هو التفكير في صحيفة الكون والوقوف على القوانين السائدة عليها فقد وقع هذا محط اهتمام القرآن الكريم وأحاديث العترة الطاهرة.

فإذا كانت الفلسفة تعني ذلك المعنىٰ فيستحيل أن يشجبه القرآن، كيف و هو يدعو إلى التفكير والتعقل والتدبر والنظر في ملكوت السماوات والأرض، يقول سبحانه: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمىٰ وَالْبَصير أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ**﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿**يَتَفَكَّرُونَ في خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْض**﴾[٣] وقوله سبحانه: ﴿**قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّماواتِ وَالأَرْض**﴾.[٤]

هذه الآيات ونظائرها وما ورد في أحاديث العترة الطاهرة تحث الإنسان على التفكر في الكون ونبذ التقليد.

---

١. مجلة رسالة الإسلام، السنة الثانية، العدد الثاني، ص ٢١٧ـ ٢١٩.
٢. الأنعام: ٥٠.
٣. آل عمران: ١٩١.
٤. يونس: ١٠١.

نعم لا يصحّ لمسلم أن يقلِّد منهجاً فلسفياً لإنسان غير معصوم ويعتنق كلّ ما يقول دون فرق بين سقراطه وأرسطاطاليسه أو فارابيّه وسينائه، والإنسان الواعي يأخذ من كلّ منهج ما وافق البرهان وأورث اليقين، فله أن يرتشف من كلّ معين.

كان العلاّمة الطباطبائي من تلك الثلة الأخيرة، فكان ميّالاً بفطرته إلى التفكير في المسائل الكلية العائدة إلى الكون وقوانينه، ولأجل هذا الميل الفطري طاف على المناهج الفلسفية المختلفة المشائية والإشراقية، ولم يقتصر على ذلك بل قرأ شيئاً كثيراً ممّا يرجع إلى الفلسفة الموروثة من حكماء اليونان و إيران والهند فخرج بحصيلة علمية ضخمة.

ولأجل إحاطته بتلك المناهج الفكرية كان يقول شيئاً لا يصحّ أن يتفوه به غيره إلاّ لمن له اطلاع واسع با لمناهج الفلسفية كان يقول:

لا يوجد في المناهج الفلسفية الغابرة والحاضرة من يقول بالشرك في الذات، ولوكان هناك شرك فإنّما هو في المراتب الدانية.

انّه ﷺ كان متضلعاً في الفلسفة الإسلامية قلما يتّفق نظيره، وهو يصف تكامل الفلسفة علىٰ يد المسلمين و يقول:

لم تكن المسائل الفلسفية الموروثة عن حكماء اليونان تتجاوز يوم ترجمت عن مائتي مسألة، ولكنّها تكاملت على يد الفلاسفة المسلمين وبلغت أوجها حتى بلغت سبعمائة مسألة.

هذا نصّ ما قاله الأُستاذ في مقالة كتبها في الذكرى المئوية الرابعة لميلاد صدر المتألهين الشيرازي ويا ليت الأُستاذ يشير في رسالته إلى ذينك الأمرين:

الأوّل: تمييز المسائل الفلسفية الموروثة عن اليونان عن المسائل الفلسفية

التي أسسَّها فلاسفة الإسلام.

الثاني: الإشارة إجمالاً إلى عناوين المسائل التي أسّسها حكماء الإسلام ليقف عليها القارئ عن كثب.

وكانت من أُمنيّاته ترتيب المسائل الفلسفية ترتيباً منطقياً بنحو تكون المسألة الأُولىٰ أساساً للمسألة الثانية وتستنبط الثانية من المتقدمة، كما هو الحال في المسائل الرياضية والهندسية.

وقد نجح إلى حدّ كبير في تحقيق أُمنيّته تلك، عبْر كتابيه «بداية الحكمة» و «نهاية الحكمة» و بذلك مهّد السبيل للمبتدي في الكتاب الأوّل، والمنتهي في الكتاب الثاني.

مؤسس نظريات فلسفية

إنّ شأن أكثر المتضلعين في فن هو الإحاطة بمسائله ودقائقه دون أن يتعدّىٰ جهودهم عن ذلك الشأن بيد انّ ثمة نوابغ قلائل يتجاوزون عن هذا الحدّ ويبلغ بهم نبوغهم بمكان إلى تأسيس نظريات وقواعد وأُصول في ذلك الفنّ لم تكن تعرف من ذي قبل، وهذه الثلة لا يتجاوز عددها عدد الأصابع وسيدنا الأُستاذ من تلك الثلة فهو وراء احاطته بالمسائل الفلسفية المتداولة، قد طرح و كشف نظريات وقواعد فلسفية لم تكن تعرف قبله و إليك الإشارة إلىٰ بعض هذه الأُصول:

أ. تفكيك الحقائق عن الاعتباريات

الحقائق عبارة عمّا له عين في الخارج وواقعية، كما انّ الاعتباريّات عبارة عن الأُمور الوضعية القائمة بذهن المعتبر من دون أن تكون لها أية واقعية في الخارج،

وهذا يتجلىٰ في قولنا زيد زوج لهند فكلّ من زيد و هند من الأُمور الحقيقية ويشار إلىٰ كلّ واحد بالعين والبنان ولكن الزوجيّـة التي تربطُهما ليست أمراً حقيقياً واقعياً بل أمراً اعتباريـاً اعتبره المقنن لآثار اجتماعية وأخلاقيـة وغيرهما،ولذلك ربما يُلغىٰ اعتبار الزوجية باعتبار آخر وهو طلاق الزوج زوجته.

وأمّا ما هو منشأ الاعتبار ومن أين ينتقـل الإنسان إلى الأُمور الاعتبارية فهو ذو شجون لا يسع المقام لبيانه.

و من خصائص العلـوم الحقيقية صحّة اقامة البرهـان علىٰ مسائلها و إنهاء الـدليل إلى أُمّ القضايـا كـامتناع اجتماع النقيضين وارتفـاعهما، بخلاف المسـائل الاعتبارية فانّها تأبىٰ عن اقامة البرهان عليها، بل الملاك في صحّة الأُمور الاعتبارية اجتماع أمرين:

أ. وجود الأثر للاعتبار فلو لم يكن له أثر اجتماعي يكون أمراً لغواً.

ب. أن لا يكـون المعتبر مناقضـاً في اعتبـاره، لانّ التناقـض يوجـب سلب الاعتماد على الاعتبـار، هـذا هوواقـع الأمـر، غير انّا نـرى انّ أكثـر المتخصصين في العلوم الاعتبارية كالآداب والفقه والأُصول يعتمدون ـ إلى حدّ بعيد ـ على البرهان الفلسفي فكـم نرى بين الاستـدلالات علىٰ مسألـة صرفيـة أو نحـوية أو فقهيـة، الاستدلال بالدور والتسلسل وغير ذلك ممّا يختص بالأُمور الكونية.

وقد نجح سيـدنا الأُستاذ نجاحـاً باهراً في فصل الاعتباريـات عن الحقائق فألف رسالة «الحقائق والاعتباريات» وبحث في واقع الاعتبار ومنشئه بحثاً عميقاً وبكراً ، ثمّ نقلها إلى اللغة الفارسية وطبعت مع كتابه «أُصول الفلسفة». ولم يقتصر على ذلك فقد طرح المسائل الاعتبارية في الفصل العاشر من المرحلة الحادية عشرة في كتاب «نهاية الحكمة».

ونحن نوافق الأُستاذ في كلّ ماأفاده في تفكيك الحقائق عن الاعتباريات إلاّ

في مسألة التحسين والتقبيح العقليين فانّهما عندنا ليسا من الأُمور الوضعية بل لحكم العقل هناك منشأ تكويني أوضحنا حاله في محاضراتنا «التحسين والتقبيح العقليين».

استنتاج خمس وسبعين مسألة فلسفية

ألّف الأُستاذ رسالة في القوة والفعل، وكشف النقاب عن خمس وسبعين مسألة فلسفية لها صلة وثيقة بالقوة والفعل، ومن مزايا تلك الرسالة تبيين الحركة الجوهرية التي أسّسها صدر المتألهين ببيان رائع لم يسبق إليه أحد، و كشف في ثنايا بحثه عن كون الزمان بعداً رابعاً للجواهر، و هذه المسألة وإن سبقه صدر المتألهين في باب الحركة الجوهرية غير انّ الأُستاذ وصل إليها ببيان فلسفي دقيق يتضمن تبيين سيلان العالم وعدم ثباته وأثبت انّ القرار والثبات من خطأ الحس وليس للعالم واقعية سوى الحركة والسيلان والانصرام و انّ العالم بجواهره وأعراضه يسيران معاً إلى الغاية المنشودة من ايجاده، وهذا أمر لا مجال للخوض فيه في هذا المقال.

ج. تقرير برهان الصديقين بوجه رائع

إنّ برهان الصديقين من أشرف البراهين الفلسفية التي اعتمد عليه أعاظم الحكماء نظراء ابن سينا والمحقّق الطوسي وصدر المتألهين.ولخصه المحقّق الطوسي بقوله: الموجود إن كان واجباً و إلاّ استلزمه لاستحالة الدور والتسلسل. [١]

ترى انّ العلمين الأوّلين اعتمدا في بيان البرهان على إثبات الصانع على استحالة الدور والتسلسل، وجاء بعدهما صدر المتألهين فنقدهما بأنّ هذا البيان

١. انظر شرح الاشارات للمحقّق الطوسي: ٣/ ١٨ وكشف المراد: المقصد الثالث في إثبات الصانع.

غير برهـان الصديقين، فانّ بـرهانهم لا يعتمد في إثبـات الواجب علىٰ شيء وراء الـوجود فـادخال الـدور والتسلسل في بيـان البرهان يضـادّ ذلك البرهـان ثمّ بيّن طريقته في إثبات الله سبحانه من دون أن يعتمد في إثباته على وسائط.

وقـد شحذ ذلك البيـان عقول الحكماء فصـاروا إلى بيان بـرهان الصـديقين ببيان لائق لمقـامهم، وهـو الاستغناء في إثباتـه سبحانـه عن الاعتماد علىٰ غيره، أو شيء من خلقه وفعله، فبيّنه الحكيم السبزواري ببيان أفضل ممّا بيّنه صدر المتألهين كما انّ سيدنا الأُستاذ استدرك على الجميع فبيّنه في تعليقته على الجزء السادس من الأسفار ببيان رائع يقف على عظم بيانه ودقة تقريره كلّ من له المام.

د. حقائق لا تدخل تحت مقولة خاصة

إنّ الكـلام الموروث عن أرسطـو هـو انّ الجواهـر والأعـراض يقعـان تحت مقولات عشر فالجوهر مقولة واحـدة والعرض مقولات تسع وهي الكم ، الكيف، الـوضع ، الأين ،متىٰ ، الجدة ، الفعل، الانفعـال ، الاضـافة، وكـلّ ما في الكـون داخل تحت واحدة من هذه المقولات.

ثمّ إنّهم جـوّزوا الحركة في الأقسام الأربعـة الأُولىٰ من العرض دون البـاقي، وجوّز صـدر المتألهين الحركة في الجوهر أيضـاً، ثمّ إنّهم اختلفوا في حقيقـة الحركة وانّها داخلة تحت أيّ مقولـة من المقولات، فواصلـوا البحث إلى أنّ الحركة في كلّ مقولة نفس تلك المقـولة، فالحركة في الكم من مقولـة الكم والحركة في الكيف من مقولته و هكذا.

إلاّ أنّ سيّدنا الأُستاذ استنتج من هذه البحوث قاعدة فلسفية، وهي انّ كلّ ما يتحقّق في أكثـر من مقولة فهـو لا يدخل تحت مقـولة خاصة، فـالحركة بما انّها

تتحقق في أزيد من مقولة واحدة لا يمكن تحديدها بمقولة من المقولات ،ثمّ إنّه عطف على ذلك « العلم » و«الوحدة». فالعلم كما يتعلّق بالكيف يتعلق بالكم كما يتعلّق بالجوهر فمثل ذلك لا يمكن تحديده بحدّ خاص وجعله تحت مقولة خاصة، وهكذا الحال في حقيقة «الوحدة» في الواجب والممكن ، فهذه القاعدة وإن أشار إليها الحكيم السبزواري في مبحث الوجود الذهني ولكنّه لم يطرحها كقاعدة فلسفية شاملة .

هـ . التقريب بين الفلسفتين: الإسلامية والغربية

إنّ المسائل الفلسفية التي أقام دعائمها ديكارت ، كانت ، هيجل و غيرهم من عباقرة الغرب عبارة عن مسائل عامة لا تختص بعلم دون علم بل تَعُدّ نتائج كلية لجميع العلوم.

وأمّا الفلسفة الإسلامية فهي تعتمد على البراهين العقلية المستمدة من الأُمور البديهية ولا تعتمد في إثبات قواعدها على نتائج العلوم أبداً، ولذلك تراءت الفلسفتان كأنّهما فلسفتان متباينتان ليس بينهما صلة، ولكن الأُستاذ نجح في تقريب الفلسفتين في المسائل والغايات علىٰ وجه حصل التقارب بين الفلسفتين، ويظهر ذلك من خلال قراءة كتابه «أُصول الفلسفة الإسلامية».

وليس هذا أمراً غريباً فقد قام قبله صدر المتألهين بمحاولات للتقريب بين الفلسفة المشائية والإشراقية والتي تعتمد الأُولىٰ على البرهان واليقين، والثانية على الكشف والشهود من خلال تهذيب النفس، فقد جمع صدر المتألهين بين الفلسفتين كما انّه نجح في الجمع بينهما و بين ما جاء في الكتاب والسنّة.

٣. العلاّمة الطباطبائي والأخلاق والعرفان

كان السيد الطباطبائي مفكّـراً كبيراً وكان لتفكيره أبعاد مختلفة، وقد وقفت على بُعْده في التفسير والفلسفة فهلمّ معي نتناول البعد الثالث من أبعاد شخصيته الذي هو البعد العرفاني والأخلاقي.

فقد درس العرفـان النظري من خلال كتـاب «تمهيد القواعد» لابن تـركة، و«الفتوحات» لمحيي الدين ابن عربي، و «شرح الفصوص» للقيصري إلى أن بلغ القمة في العرفان النظري ولكنّه ضم إليه العرفان العملي بتهذيب النفس والتقوىٰ، وهو يروي كيفية صلته بأُستاذه في ذلك الفن.

يقول: هبطت النجـف الأشرف ولم أكن اشارك بعدُ في درس مـن الدروس، طرق ذات يوم البابَ طارق و إذا بالعارف الكبير السيد علي القاضي الطباطبائي، فدخل البيت وجلس في زاوية من الغرفة، ثمّ قـال: انّ من يهبط النجف الأشرف لطلب العلـم يجب أن يتزامـن سعيه مـع تهذيب النفس وتكميلهـا، قـال: تلك الجملة وتـرك البيت، وقد أوجـد كلامـه هذا شـوقاً كبيراً في قلبي ورغبـة ملحّة إلى متابعة إرشاداته ونصائحه.

وبلغ في تهذيب النفس على يد ذلك العارف مقـاماً شامخاً تمكن من خلالها رؤية الحقائق الغائبة عن الحس.

فنقل يـوماً انّه كـان جالساً بعـد إقامة صـلاة الصبح فإذا تمثّل امامـه النبي إدريس عليه السلام ورأيت انّـه كان يتكلّم مـع أخي الحكيم السيـد حسن الإلهي وكنت أفهم ما يلقيه النبي إدريس عن طريق أجوبة أخي.

وقد كـان له من أمثال هـذه المشاهدات أُمـور يبخل بذكرهـا إلاّ لمن وجده أهلاً لها.

٤ . العلاّمة الطباطبائي والفقه والأُصول

إنّ السيد الطباطبائي خاض في العلوم النقلية كما خاض في العلوم العقلية، وقد طوى من عمره الشريف مدّة مديدة في دراسة الفقه والأُصول لدى عباقرة الفقه وأساتذته كالميرزا النائيني والشيخ محمد حسين الإصفهاني والسيد أبو الحسن الإصفهاني، وترك أثراً في الأُصول وهو «التعليقة على الكفاية» ألَّفها عام ١٣٦٨ عند دراسة الأُصول علىٰ يد لفيف من الفضلاء، وكان يُدرِّس كتاب الصوم بصورة استدلالية في الحوزة العلمية، ومع ذلك ترك دراسة ذينك العلمين واشتغل بما هو الواجب من دراسة التفسير والفلسفة وذلك لوجود مدرسين كبار في الفقه والأُصول.

٥ . العلاّمة الطباطبائي والرياضيات والهيئة

قد سبق منّا القول بأنّ السيّد الأُستاذ قد درس الرياضيات والهندسة المسطَّحة والفضائيّة والجبر الاستدلالي في النجف الأشرف على يد السيد أبي القاسم الخونساري بايصاء من قبل أُستاذه في الحكمة والفلسفة السيد حسين البادكوبي، وأكّد على أنّ تعلم تلك العلوم يهب الذهن استعداداً خاصاً في إقامة البرهان كما انّه جمع بين الهيئتين القديمة والحديثة وقد قرأ شرح الچغميني وتشريح الأفلاك في الهيئة القديمة كما قرأ هيئة «فانديك» في الهيئة الجديدة، ومع ذلك لم تكن صلته منقطعة بالهيئة الجديدة حسب تطورها.

٦ . العلاّمة الطباطبائي والأدب العربي

قد أتقن السيد الطباطبائي القواعد الأدبية اتقاناً رصيناً تعرب عنه كتاباته باللغة العربية وما أكثرها، فانّ قلم الأُستاذ وإن كان غير خال عن نوع من التعقيد

شأن نوابغ العالم كالشيخ الرئيس وغيره إلاّ أنّه كان يستخدم القواعد العربية في انشائه ويأخذ بناصية اللغة، فيستعملها في مقالاته.

ومن عجيب الشيء أنّ له منظومات متنوعة في الصرف و النحو والمعاني والبيان والبديع غير انّ الزمان عبث بها ولم يبق إلاّ الأخير، وكانت له يد طولىٰ في الأدب الفارسي وتدلك على براعته قصائدُه وغزلياته المعروفة والمنتشرة وليس المقام مناسباً لنقلها.

العلاّمة الطباطبائي و الحكومة الإسلامية

إنّ العلاّمة الطباطبائي هو تلميذ الميرزا النائيني الذي ألَّف كتاب «تنبيه الأُمّة» وهو أوّل كتاب نشر في القرن الرابع عشر في الأوساط الشيعيّة حول لزوم تطبيق الشريعة الإسلامية على الصعيد العملي من خلال تأسيس دولة إسلامية تأخذ على عاتقها القيام بتلك المسؤولية، ولذلك نرى انّ التلميذ تبع الأُستاذ فبحث بحثاً مسهباً في الحكومة الإسلامة عند تفسير قوله سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .[1]

وهذا البحث مشحون بالبحوث التالية:

١. الإنسان والمجتمع.

٢. الإنسان ونموّه الاجتماعي.

٣. الإسلام والعناية بالمجتمع.

٤. الإسلام وتنظيم علاقة الإنسان بالمجتمع.

٥. الإسلام وسننه الخالدة.

---

١. آل عمران: ٢٠٠.

٦. مقومات المجتمع الإسلامي.

٧. منطق التعقل ومنطق الاحساس.

٨. الأجر الأُخروي لا يهدف إلى الأعراض عن الدنيا.

٩. الإسلام والحرية الاجتماعية.

١٠. سُبل تكامل المجتمع الإسلامي.

١١. الإسلام وسعادة المجتمع.

١٢. خصوصيات الحاكم الإسلامي.

١٣. الحدود العقائدية للدولة الإسلامية.

١٤. الإسلام مذهب اجتماعي.

١٥. الدين الحقّ هو الغالب.[١]

وقد طرح الأُستاذ في هذه البحوث الأُسُس الواقعية للحكومة الإسلامية، ولم يقتصر علىٰ ما ذكره في كتاب الميزان بل ألّف رسالة باللغة الفارسية في ذلك المضمار وطبعت تحت عنوان «مرجعيت و روحانيت».

ملامح شخصيته

كان السيد الأُستاذ يتمتع بخصوصيات روحية ومعنوية عالية نشير إلى بعضها:

١. كان السيد حريصاً على حفظ المفاهيم الإسلامية وصيانتها عن التصرّف فيها لغاية تطبيقها على مناهج فلسفية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو أخلاقية،

١. الميزان: ٤/ ٩٢ـ ١٣٢.

كما هو الرائج عند الجُدَد من الكُتّاب ونلمس تلك الخصوصية بوضوح في كتابه الميزان في عامة أجزائه، ولذلك يناقش نظريات المفسر المصريّ «عبده» في تأويله لآيات الذكر الحكيم فيما يرجع إلىٰ عالم الغيب حيث يحاول تطبيقها على المحسوسات من القوى الطبيعية. [١]

كما حاور الأُستاذ مفكراً هندياً حاول أن يثبت انّ النبوة من شؤون النبوغ، وانّ الأنبياء هم النوابغ القلائل غير انّهم نسبوا رسالاتهم إلى السماء بغية الحصول علىٰ تأييد المجتمعات ودعمها، ونال ذلك الحوار يومذاك صدىً واسعاً أعقبه تأليف الأُستاذ رسالة طبعت تحت عنوان «وحي يا شعور مرموز».

و تصدى السيد إلى نقد المحاولات المبذولة من قبل المتأثرين بالمناهج الغربية في محاولة التصرف في الأُصول الإسلامية بنحو تنطبق على المناهج الغربية الإلحادية لا سيما في مجال الاقتصاد والعقائد، وكلّ ذلك يشكل خطراً على الإسلام والمسلمين.

٢. ولاؤه لأهل البيت عليهم السلام كيف و هو وليد ذلك البيت، ويظهر ولاؤه بوضوح من خلال تفسيره الميزان حينما يصل إلى تفسير الآيات النازلة في أئمّة أهل البيت عليهم السلام فيشرحها بوضوح ويدعمها بأحاديث مروية في الصحاح والمسانيد، كما انّه يحاول ـ فيما ورد عنهم من الروايات في تفسير الآيات ـ أن يرشد القارئ إلى ما يدل على مضمون الحديث في الآية.

وكان يشارك في مجالس العزاء لأئمّة أهل البيت ودموعه تذرف على وجناته، وله قصائد رائعة باللغة الفارسية في مدحهم ومراثيهم.

---

١. لاحظ الميزان، ج١، الآيات ٣٠ ـ ٣٨من سورة البقرة.

منزلته عند المرجع الأعلىٰ السيد البروجردي

حظا السيّد الطباطبائي بمنزلة رفيعة عند كثير من علماء عصره ومراجع وقته، لا سيما السيد البروجردي مرجع الطائفة آنذاك، حيث كان ينظر إليه بعين ملؤها الاحترام والتكريم، ويشيد بتفسير «الميزان»وكان حريصاً علىٰ قراءة أجزائه التي تطبع تباعاً، و أودّ أن أنقل حادثة تاريخية شاهدتها بأُم عيني و هي:

حضر عام ١٣٧٩هـ الأمين العام لمؤتمر مكافحة المواد الكحولية التابعة لمنظمة الأُمم المتحدة مجلس السيد البروجردي ، وكان المجلس غاصّاً بالعديد من علماء الحوزة العلمية ومن بينهم السيد الطباطبائي، فخاطب الأمين العام السيد البروجردي، قائلاً: سيُعقد مؤتمر دولي لمكافحة الكحول في «انقرة» بعد بضعة أشهر و يشارك فيها العديد من الخبراء من كافة بلدان العالم، وممّا لا شكّ فيه انّ الإسلام حرّم الخمر والكحول وحرم تعاطيها، ونريد أن نقف علىٰ الدواعي التي أدت إلى التحريم، ولو تفضل سماحتكم علىٰ بيانها لكنّا شاكرين.

فأجاب السيد بجواب موجز وقال: الإنسان يتميز عن سائر الحيوانات بالعقل، والمسكر يزيل العقل ويضاده.

وهذا الجواب على الرغم من ايجازه أثارت دهشة الأمين العالم واعجابه ثمّ طرح سؤالاً آخر.

وقال: ماتفضلتم به يرجع إذا تناول الكثير دون القليل مع أنّ الإسلام حرّم كثيره وقليله؟

فأجاب سماحة السيد، وقال: الإنسان طموح لا يقتنع بالقليل، فإذا أُجيز له القليل فسوف يبتغي الكثير و يؤول إلى الادمان على الشرب.

وهذه الأجوبة المقنعة الموجزة نالت اعجاب الأمين العام ومرافقيه مما حدا به

إلى طرح موضوع آخر وقال:

لو تفضلتم بكتابة رسالة تُبيّن فيها تلك الدواعي ونحن على استعداد لقراءتها في المؤتمر.

فعنذئذ نظر السيد البروجردي إلىٰ من حوله فوقع نظره على السيد الطباطبائي، وقال: إنّ السيد الطباطبائي من علماء الإسلام مؤلف تفسير القرآن الكريم هو جدير بكتابة رسالة في ذلك المضمار.

هكذا كان السيد البروجردي يولي اهتماماً كبيراً بالسيد الطباطبائي، ومن حسن الحظ انّه ألّف رسالة في ذلك الموضوع وبعثها إلى المؤتمر.

البصمات التي تركها على الفكر الشيعي

تتجلى شخصية الإنسان بأعماله وآثاره التي يتركها في جيله، وقد ترك السيّد الطباطبائي بصمات واضحة على الفكر الشيعي وأوجد تحولاً جذرياً في الجامعة الإسلامية ونحن نشير إلى أهمّها:

١. وضع أسُساً بديعة لتفسير القرآن الكريم حتى صار أُسوة للآخرين.

٢. إشاعة التفكير الفلسفي في الأوساط العلمية.

٣. السعي في تبيين المسائل الفلسفية بصورة واضحة وملموسة.

٤. السعي في نشر آثار أئمّة أهل البيت عليهم السلام والحث على مطالعتها بدقة وامعان كما شارك في تحشية «بحار الأنوار» في طبعتها الجديدة إلى الجزء الخامس إلىٰ أن عاقته العوائق عن الاكمال.و «ايمن الله» لو تمّ المشروع لكان كنزاً ثميناً للشيعة الإمامية.

٥. الجمع بين الحقائق القرآنية و ما أُثر عن أئمّة أهل البيت في تفسير

الآيات، فقد قام باستخراج ما جاء في الروايات حول تفسير الآيات ـ بعد الامعان فيها عن نفسها.

٦. إشاعة الفكر الشيعي في العالم، من خلال اللقاءات التي كان يجريها مع الشخصيات العالمية ومراسلتهم.

٧. صبُّ الاهتمام لحلّ مشكلات الآثار.

٨. الحثُّ على تهذيب النفس وتربية جيل مؤهّل إلى كسب الفضائل الأخلاقية.

٩. تربية شخصيات علمية وفكرية عديدة بين مدرس و مفكر فهم عطائهم العلمي.

١٠. الآثار العلمية والتآليف القيمة وهي بين مطبوع وغير مطبوع، وإليك سرداً لأسماء الآثار العلمية التي خلفها والتي أصبحت مثار اهتمام العلماء والمفكرين.

أ. **الميزان في تفسير القرآن**: في عشرين جزءاً وقد ترجم إلى اللغة الفارسية في ٤٠ جزءاً كما ترجم إلى لغات أُخرى.

ب. **أُصول الفلسفة**: دراسة المسائل الفلسفية مقارنة مع الفلسفة الغربية في خمسة أجزاء، وعلّق عليها الشهيد السعيد العلاّمة المطهّري ونال الكتاب اهتماماً واسع النطاق وقد قمتُ بترجمة الجزء الأوّل منه إلى اللغة العربية وأرجو من الله سبحانه أن يوفقني إلىٰ ترجمة الأجزاء الباقية.

ج. **تعاليق الأسفار**: و قد طبعت معها طرح فيها أفكاراً ابكاراً.

د. **بداية الحكمة** :واسمه يحكي عن مسمّاه، ألّفه للمبتدئين في دراسة الفلسفة.

هـ. **نهاية الحكمة**: كتاب دراسي جامع للمسائل الفلسفية بأحدث أُسلوب.

و. **تعليقة على الكفاية**: تعليقة موجزة على الجزءين منها، فرغ عنها عام ١٣٦٨ وهي مطبوعة.

ز. **الرسائل التوحيدية**: وهي رسائل أربع بالنحو التالي: رسالة التوحيد، رسالة الأسماء، رسالة الأفعال، رسالة الوسائط كتبها في قرية شادباد من أعمال تبريز. و قد طبعت عام ١٤١٥هـ في مؤسسة النشر الإسلامي.

ح. **الرسائل السبع**: مجموعة تحتوى على رسائل فلسفية:

١. البرهان، ٢. المغالطة، ٣. التركيب، ٤. التحليل، ٥. الاعتباريات، ٦. المنامات و النبوات، ٧. القوة والعقل، والرسالة الأخيرة تشتمل على عشرة فصول، تتضمن نحواً من خمس وسبعين مسألة.

فرغ من تأليفها في جمادى الآخر من شهور عام ١٣٧٣ وطبعت عام ١٤٠٤هـ.

تلاميذه وخريجو منهجه

لقد مارس الأُستاذ الدراسة و التدريس طيلة عمره وأكبّ عليها خصوصاً عندما نزل قم وظل فيها حوالي ٣٥ سنة فتلمذ عليه لفيف من العلماء الكبار نشير إلى اسماء بعضهم:

١. الشيخ مرتضى المطهّري، ٢. الشيخ حسين علي المنتظري، ٣. السيد محمّد البهشتي، ٤. السيد موسى الصدر، ٥. الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ٦. السيد جلال الدين الآشتياني، ٧. السيد محمد حسين الطهراني، ٨. السيد عزّ الدين الزنجاني، ٩. السيدمحمد باقر الأبطحي، ١٠. السيد محمد

علي الأبطحي ، ١١ . الشيخ حسين النوري، ١٢ . السيد مهدى الروحاني، ١٣ . الشيخ حسن زاده الآملي، ١٤ . الشيخ عبد الله جوادي الآملي، ١٥ . الشيخ أبو طالب تجليل التبريزي، ١٦ . الشيخ عبد الحميد الشربياني، ١٧ . الشيخ إبراهيم الأميني، ١٨ . الشيخ يحيى الأنصاري، ١٩ . السيد عبد الكريم الأردبيلي، ٢٠ . الشيخ عباس اليزدي الاصفهاني، ٢١ . الشيخ محمد المفتح، ٢٢ . الشيخ علي الميانجي، ٢٣ . الشيخ محمد تقي المصباح، ٢٤ . وأقلّهم جعفر السبحاني.

إلى غير ذلك من شخصيات كبار حضروا درسه و انتهلوا من معين علمه رحم الله الماضين منهم و حفظ الله الباقين.

هذه لمحة خاطفة عن حياة وسيرة أُستاذنا الراحل إمام المفسّرين وأُستاذ المفكّرين.

فسلام عليه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيّاً

حرّر في الخامس عشر من شهر رمضان المبارك

يوم ميلاد الإمام الطاهر الحسن المجتبىٰ عليه السلام

من شهور عام ١٤١٩هـ.

والحمد لله رب العالمين

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
٦	
أبو الحسن علي بن الحسن الحلبي	
(من أعيان القرن السادس)	

الموضوع	الصفحة
١٣	
صدر المتألهين الشيرازي	
(٩٧٩ـ١٠٥٠)	

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
١٤	
عبد الفتاح المراغي	
(المتوفى عام ١٢٤٦هـ)	

الموضوع	الصفحة
١٦	
زين العابدين الكلبايكاني	
(١٢١٨-١٢٨٩)	
كلمات الاطراء في حقّه	٣٨٣
تصانيفه و آثاره	٣٨٧
١٧	
الشيخ عبد الصمد الخامنئي	
(١٢٣٠ ـ ١٣١١)	
رسالة الشعر والشعراء	٣٨٨
الأدب الشيعي والولاء للعترة	٣٩١
عناية المسلمين بالأدب العربي	٣٩٣
شخصيات أدبية من آذربيجان	٣٩٤
عبد الصمد الخامنئي وسيرته	٣٩٨
مقتطفات من شعره	٤٠١
الماع إلى وطن الشاعر و الشخصيات التي أنجب	٤٠٢
الماع إلى أُدباء آذربيجان في القرن الرابع عشر	٤٠٥

الموضوع	الصفحة
١٨	
الشيخ فضل الله النوري	
(١٢٥٤ـ١٣٢٧)	
الشيخ النوري رجل العلم و الجهاد	٤٠٧
السلطة الاستبدادية والقضاء على حكومة الفرد على الشعب	٤٠٩
استشهاده ورثاء الأديب النيشابوري	٤١١
الماع إلى قصيدة أبي الحسن الأنباري في رثاء أبي طاهر	٤١٢
مشايخ المترجم له	٤١٣
كلمات الثناء في حقّ المترجم	٤١٤
آثاره العلمية	٤١٦
١٩	
غلام رضا القمي	
(١٢٥٥ ـ ١٣٣٢)	
الفرائد وقلائدها	٤٢٣
الماع إلى حياة الشيخ الأنصاري	٤٢٤
حياة مؤلف القلائد	٤٢٥